قلائد الزبرجد

على حكم مولانا الغوث الشريف الرفاعي أحمد

تأليف

العلامة الكبير والشيخ الشهير

السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي الحسيني رضي الله عنه

توفي سنة ١٣٢٧ هـ

بتوجيهات وإرشاد

فضيلة الشيخ الأزهري المربي بديع الشبلي

تحقيق

أحمد رمزه بن حمود جحا

أبي الهدى

دار البيروتي

قلائدُ الزَّبَرْجَدِ

علىٰ حِكَمِ مولانا الغوثِ الشَّريفِ الرِّفاعيِّ أحمد

تأليف

العلامة الكبير والشيخ الشهير

السيد محمد أبي الهدىٰ الصيادي الرفاعي الحسيني رضي الله عنه

تـ (١٣٢٧) هـ

بتوجيهات وإرشاد

فضيلة الشيخ الأزهري المربي بديع الشبلي

تحقيق

أحمد رمزه بن حمود جحا

أبي الهدىٰ



مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، الذي مَنَّ علينا باتِّباع خاتم الأنبياء، وإمام الأصفياء ﷺ، من آتاه جوامع الكلم، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبي بعده سيِّدنا محمَّد الصَّادق الوعد المبين وعلى آله وأصحابه والتَّابعين ومن تمسَّك بهديهم ونهج نهجهم إلى يوم الدِّين.

وبعد:

إنَّ طريقة الإمام الرِّفاعيِّ رضي الله عنه، طريقة العلماء والحكماء والأولياء والعرفاء والزهاد، طريقة بنيت على قواعد الشَّرع المتين، فلم تحد عن كتاب الله العظيم ولا سنة الرَّسول الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصَّلوات والتَّسليم في كلِّ لمحةٍ ونفسٍ وحينٍ؛ لأنَّ صاحب الطَّريق المبارك الإمام أحمد الرِّفاعيّ الكبير كان شديدَ الاتِّباع لجدِّه ﷺ مع وقوفه التَّام على حدِّ العبودية الخلصاء لله سبحانه وتعالى، وذلِّه وانكساره بين يدي خالقه، وتواضعه وأدبه البالغ والكبير مع الصغير والكبير بل مع كلِّ خلق الله تعالى العلي القدير جل جلاله، فكان العالم الرَّبانيَّ والعارف الصَّمدانيَّ؛ فأفاض الله عليه وفجر ينابيع الحكمة من قلبه وأجراها على فيه، فكان كلامه كله حكماً، يتكلم على النَّاس كلاماً يُذهل العقول، ويُدهش الألباب، ويخطف القلوب، وكان منها هذه الحكم المباركة الَّتي قام بشرحها وكشف خوافيها وأظهر دراريها حفيد الإمام الرِّفاعي قُدِّسَ سِرُّهُ السَّيِّد الهمام والعلامة الإمام محمَّد أبو الهدى الصَّيَّاديّ رضي الله عنه وعن أسلافه ونفعنا به وبهم، فكانت بحقٍّ كما سماها: «قلائد الزَّبَرجَد» ينتفع بها كلُّ عبدٍ يبتغي رضى مولاه عز وجل.

ولـمَّا قرأت هذا الكتاب المبارك وترنمت بمعاني عبارته، وانتشقت من عبير

نسماته، وانتقلت إلى رياض جناته أحببت أن يكون بين يدي كلِّ الأحباب، نعم هو موجود عند البعض ولكن بطبعته القديمة الَّتي طُبعت في حياة المؤلِّف السَّيِّد أبي الهدى الصَّياديّ رحمه الله تعالى، فأحببت أنْ أخدمه رغم قصور باعي وقلَّة اطِّلاعي؛ لأظهره بِحُلَّةٍ بهيةٍ، وأضعه بين يدي كلِّ سالكٍ ومُسلِّكٍ، بل بين يدي كلِّ مسلمٍ، ولا أدَّعي أنّي قمت بحقّ خدمته ولكن هذا جهد المقل.

وكان هذا العمل بإرشادٍ وتوجيهٍ من سيدي وأستاذي المربي الفاضل العالم الأزهري الشيخ بديع الشبلي أبي خالد حفظه الله تعالى الَّذي وصلني بهذا الطَّريق المبارك، وألبسني الخرقة، وأجازني بالطَّريقة الرّفاعيّة العليّة، وبكلِّ ما تحتويه كما تشرّف بها عن شيخه العارف بالله الشّيخ ياسين المرعشلي، وهو عن شيخه العارف بالله السَّيّد الشّيخ أحمد المراشحي السّبسبي الرّفاعيّ، وهو عن العارف بالله الشّيخ خالد السّمسميّه، وهو عن العارف بالله السَّيّد مصطفى بن محمود جوخدار، وهو عن العلامة الكبير والشّيخ الشّهير السّيِّد محمّد أبي الهدى الصَّيَّاديّ رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

والله أسال أن ينفع به السالكين والمحبين وأن يجعله عملاً مقبولاً خالصاً لوجهه الكريم.

كتبه الراجي عفو ربه العبد الفقير

أحمد رمزه بن حمود جحا

أبو الهدى

منهج التحقيق

١- مقدمة التحقيق.

٢- أصل الكتاب ونسبته إلى المؤلف.

٣- تخريج الآيات القرآنية.

٤- تخريج الأحاديث والآثار، ونقلتُ حُكْمَ بعض الأئمة على الأحاديث الموجودة في غير الصحيحين إن وقفت على ذلك.

٥- مقدمة في الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة وأقوال المحدثين والعلماء في ذلك.

٦- تراجم العلماء عدا المشهورين منهم، ومن لم أقف على ترجمة له.

٧- وضع عناوين للكتاب ضمن معقوفين، وكذلك كل ما زيد من عمل المحقق [ ].

٨- رجعت إلى المصادر والمؤلفات التى نقل منها المؤلف مع ذكر الصفحة وبعض الاختلافات في النقل إن وقفت على هذه الكتب.

٩- شرحت بعض الكلمات الغريبه، ووضعت بعض التعليقات اللطيفة .

١٠- لم أترجم الإمام السيد أحمد الرفاعي الكبير والسيد محمد أبي الهدى الصيادي رضي الله عنهما في أول هذا الكتاب بسبب وجود ترجمتهما في آخر هذا الكتاب .

١١- فهرست الكتاب: فهرس الأحاديث الشريفة، وفهرس الأيات الكريمة، وفهرس الأعلام، وفهرس المصادر، وفهرس الموضوعات .

١٢- وضع حكم الإمام الرفاعي رضي الله عنه في بداية هذا الكتاب قبل الشرح.

١٣- ترقيم حكم الإمام الرفاعي رضي الله عنه.

أصل الكتاب ونسبته إلى المؤلف

لم أقف على نسخة خطية للمؤلف رحمه الله تعالى سوى النسخة التي طبعت في حياته رحمه الله تعالى في مطبعة المعارف في بيروت سنة: ١٨٨٥م.

والذي يؤيد نسبة الكتاب إلى المؤلف ﵁: ذِكْر المؤلف لهذا الكتاب في بعض كتبه، فقد ذكره في كتابه: «الفرقان الدامغ بالحق أباطيل أهل البهتان» ص٨١ الذي ترجم فيه نفسه، وذكر شيوخه وأسانيده ومؤلفاته، وأيضاً ذكره في كتابه: «العناية الربانية» صـ ٨٣ ـ.

وذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار في «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» بعد أن ترجم حضرة السيد أبي الهدى الصيادي قدس الله سره في كتابه «الحلية»: طلبت من حضرة المترجم ترجمته بالمراسلة؛ لتكون لكتابي حلية لطيفة ولذاتي من جملة المواصلة، فأرسل لي حفظه الله من تأليفاته الشريفة جملة، ومنها: كتابه المسمى بـ «قلائد الزبرجد، على حكم مولانا الغوث الشريف الرفاعي أحمد».

وذكر صاحب «معجم المطبوعات» ١/ ٣٥٥ أنَّ من مؤلفات السيد أبي الهدى رحمه الله تعالى: «قلائد الزبرجد».

مقدمة في الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة
وأقوال المحدثين والعلماء في ذلك

قبل البدء بذلك أُذَكِّرُ أخي القارئ بأنَّ هذا الكتاب الَّذي يدعو إلى معالي الأمور، والتَّرقِّي في درجات الكمال، والتَّحقُّق بالعبوديَّة لله ﷻ: هو كتابٌ في فضائل الأعمال، إذ هو ليس بكتاب فقهٍ أو عقيدةٍ.

وكتب فضائل الأعمال يستشهد فيها أصحابها بل يكثرون من أحاديث الفضائل، والتي قد يكون بعضها ضعيفًا، لا لعدم علمهم بضعفها، بل؛ لأنَّ العلماء يتساهلون في أحاديث الفضائل التي لا يتعلَّق فيها حكمٌ بتحليلٍ أو تحريمٍ، ولكي لا يُسارع البعض إلى القدح في أصحاب هذه الكتب أحببتُ أنْ أذكُرَ أقوال ومذاهب العلماء في الاستشهاد والعمل بالحديث الضعيف؛ إذ يوجد فيها ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: يقول أصحاب هذا المذهب بالعمل بالحديث الضعيف مطلقًا إن لم يشتدَّ ضعفه ولم يكن في الباب سواه، وهو قول الإمام أحمد وأبي داود وغيرهم.

المذهب الثاني: يقول أصحاب هذا المذهب بعدم العمل بالحديث الضعيف مطلقاً، وقد صرح بهذا القول يحيى بن معين وابن حزم الظاهري وغيرهم.

المذهب الثالث: وهو ما عليه جمهور العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم، وحكى الاتفاقَ عليه بين العلماء الإمامُ النوويُّ، والشيخ عليٌّ القاري، وابن حجر الهيثمي، وقد ذكر أصحاب هذا المذهب شروطاً للعمل بالحديث الضعيف، وهي:

١- أن يكون الضعف غير شديدٍ، فيخرج من انفرد من الكذَّابين والمتَّهمين وفاحشي الغلط.

٢- أن يكون مندرجاً تحت أصلٍ عام مشروع، فيخرج ما يخترع بحيث لا يكون له أصلٌ أصلًا.

٣- أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته؛ لئلا يَنْسِبَ إلى النَّبيِّ ﷺ ما لم يقله.

وهاك جملة من أقوال العلماء في ذلك:

قال ابن عبد البر: أحاديث الفضائل لا نحتاج فيها إلى من يحتج به.

وقال الحاكم[1]: سمعت أبا زكريا العنبري يقول: الخبر إذا ورد لم يحرِّم حلالًا، ولم يحل حرامًا، ولم يوجب حكمًا، وكان في ترغيبٍ أو ترهيبٍ، أغمض عنه وتسهل في رواته.

وقال ابن مهدي فيما أخرجه البيهقي في «المدخل»: إذا روينا عن النَّبيِّ ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شدَّدنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب، سهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال.

ونقل القطان بسنده عن الإمام أحمد رضي الله عنه قوله: إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام، والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النَّبيِّ ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد.

وقال ابن الصلاح في «مقدمة في علوم الحديث»: يجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة

---

(١) الحاكم في «المستدرك»: كتاب الدعاء والتكبير (١٧) رقم ١٨٠١.

من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ، والقصص، وفضائل الأعمال، وسائر فنون الترغيب والترهيب، وسائر مالا تعلق له بالأحكام والعقائد.

وقال الإمام النووي في «التقريب»: ويجوز عند أهل الحديث وغيرهم التَّساهل في الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع من الضعيف والعمل به من غير بيان ضعفه في غير صفات الله تعالى والأحكام؛ كالحلال والحرام وما لا يتعلق بالعقائد والأحكام.

وقال الإمام السيوطي في «التدريب»: ومِـمَّا نُقل عنه ذلك ابن حنبل، وابن مَهْدي، وابن الـمُبَارك، قالُوا: إذَا روينا في الحلال والحرام شَدَّدنا، وإذا روينَا في الفَضَائل ونحوها تساهلنا[1].

---

(١) انظر: «الكفاية في علم الرواية» للخطيب البغدادي صـ١٣٣-١٣٤ـ، و«علوم الحديث» لابن الصلاح صـ١٠٣ـ، و«تدريب الراوي» للسيوطي صـ٢٥٨ـ، و«فتح المغيث» للحافظ السخاوي ١/ ٣١١-٣١٤، و«منهج النقد» أ.د نور الدين العتر صـ٢٩١-٢٩٤ـ، و«الإيضاح» أ.د. مصطفى الخن و د. بديع اللحام صـ١٠٢-١٠٣ـ.

الحكم الرفاعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا ومولانا ونبيِّنا مُحمَّدٍ رَسولِ الله، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ وَالَاهُ.

أما بعدُ:

فَيَقُولُ فَقِيرُ رَحْمَةِ رَبِّهِ، عَلِيٌّ أبو الفَضْلِ الواسِطيُّ الشَّافِعِيُّ - أَحْسَنُ اللهُ إِليهِ بالعَفْوِ والمَغْفِرَةِ - آمين: رَأَيْتُ في خِزَانَةِ الحَبْرِ الجَلِيلِ، العَرِيقِ الأَصِيلِ، الشَّيخِ عَبْدِ السَّمِيعِ الهَاشِمِيِّ - نَفَعَنَا اللهُ بِعُلُومِهِ- هَذِهِ الرِّقَاعَ بِخَطِّ السَّيِّدِ الكَبِيرِ، والوَلِيِّ المُقدَّمِ الشَّهِيرِ، شَيخِ المَشَّايِخِ، الجَبَلِ الرَّاسِخِ، بَحْرِ المَعَارِفِ، وكَنْزِ العَوَارِفِ، رَبِّ اليَدِ البَيْضَاءِ، والمَنْقَبَةِ العُظْمَى، تَاجِ أَوْلِياءِ عَصْرِهِ، أَبِي العَبَّاسِ، القُطْبِ الشَّرِيْفِ، السَّيِّدِ أَحْمَدَ مُحيي الدِّينِ صَاحِبِ العَلَمَينِ، ابْنِ السَّيِّدِ الجَلِيلِ وَلِيِّ الله أَبِي الحَسَنِ عَلِيٍّ الحُسَيْنِيِّ الرِّفَاعِيِّ - قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ورَضِيَ عَنْهُ - وقد كَتَبَ على حَاشِيَتِها، شَيْخُنا الشَّيخُ عَبْدُ السَّميعِ الهَاشِمِيُّ بِخَطِّهِ: هَذِهِ حِكَمُ الغَوثِ الشَّرِيفِ، سَيِّدِنا السَّيِّدِ أَحْمَدَ الرِّفاعيِّ الحُسَيْنِيِّ ﵁، تكَرَّمَ بها عَلَيَّ وأَمَرَنِي بِحِفْظِهَا، وهي مِنْ أَنْفَسِ الذَّخَائِرِ لِـمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى، وها هي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، والسَّلامُ عَلَيْنَا وعلى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ.

مِنَ العَبْدِ اللَّاش أُحَيْمَدَ، إلى الشَّيْخِ المُحْتَشِمِ أَخِيْنَا عَبْدِ السَّمِيعِ الهَاشِمِيِّ، كانَ اللهُ لنا ولَهُ ولِلْمُسْلِمِينَ، آمين.

أَيْ أَخِي: أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله، واتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وأُحِبُّ أنْ تَحْرِصَ على نَصِيْحَتِي هَذِهِ، فَهِيَ نَافِعَةٌ لَكَ ولِأَمْثَالِكَ إنْ شَاءَ اللهُ؛ وإِيَّاكَ أَنْ تُودِعَها غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمَهَا.

أَيْ عَبْدَ السَّمِيعِ:

١- الفَقِيرُ إذا انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ تَعِبَ، وإِذَا سَلَّمَ الأَمْرَ إلى الله تَعَالَى نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَةٍ ولا أَهْلٍ.

٢- العَقْلُ كَنْزُ الفَوائِدِ، وكِيمِيَاءُ السَّعادَةِ.

٣- العِلْمُ شَرَفٌ في الدُّنْيَا، وعِزٌّ في الآخِرَةِ.

٤- ما أقامَ مع المُسْتَعارِ إلَّا المَحْجُوبُ.

٥- لَيْسَتِ النَّائِحَةُ الثَّكْلَى، كَالنَّائِحَةِ المُسْتَأْجَرَةِ.

٦- كَمْ طَيَّرَتْ طَقْطَقَةُ النِّعَالِ حولَ الرِّجالِ مِنْ رَأسٍ وكَمْ أَذْهَبَتْ مِنْ دِيْنٍ.

٧- لَفْظَتَانِ ثُلمَتَانِ فِي الدِّينِ: القَولُ بالوَحْدَةِ، والشَّطْحِ المُجَاوِزُ حَدَّ التَّحَدُّثِ بالنِّعمَةِ.

٨- دَفْتَرُ حَالِ الرَّجُلِ: أَصْحَابُهُ.

٩- تَعَبُ النَّاسِ وحِسَابُهُم على الرِّيَاسَةِ والشَّهْوَةِ، وفِيهِمَا الغَايَاتُ.

١٠- كُلُّ حَقِيْقَةٍ خَالَفَتِ الشَّرِيعَةَ فَهِيَ زَنْدَقَةٌ.

١١- غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ بالله: الإيقَانُ بِوُجُودِهِ تَعَالَى، بِلا كَيْفٍ ولا مَكَانٍ.

١٢- ثِقَلُ مَرَضِ الْمُوتِ أَوَّلُ قَنَاطِرِ الْمَعْرِفَةِ بالله عِندَ الْمَحْجُوبِينَ، ولِهَذا قِيلَ لنا: «**مُوتُوا قَبلَ أنْ تَمُوتُوا**».

١٣- حَضْرَةُ الْمُوتِ تَكْشِفُ الْحُجُبَ، كَمَا وَرَدَ: «**النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذا مَاتُوا انْتَبَهُوا**».

١٤- كُلُّ تَوْحِيْدِكَ قَبْلَ تَنْزِيْهِ تَعَالَى شِرْكٌ؛ التَّوحِيدُ: وُجْدَانٌ فِي القَلْبِ يَمْنَعُ عَنِ التَّعْطِيْلِ والتَّشْبِيْهِ.

١٥- رُحْ وتَعَالَ، كُلُّكَ خَيَالٌ، اِنْزِلْ يَا مِسْكِيْنُ عَنْ فَرَسِ عُجْبِكَ، رُبَّ عَثْرَةٍ، أَوْصَلَتِ الْـحُفْرَةَ.

١٦- رُبَّ عِلْمٍ ثَمَرَتُهُ جَهْلٌ، وَرُبَّ جَهْلٍ ثَمَرَتُهُ عِلْمٌ.

١٧-كَيْفَ يَصِحُّ لَكَ عِزُّ العِلْمِ، وأَنْتَ كَسَوْتَ عِلْمَكَ ثَوْبَ الذُّلِّ.

١٨- لا تَظُنَّ أنَّ صِبْغَكَ يَسْتُرُ شَيبَكَ، غَيَّرَهُ وَمَا سَتَرَهُ.

١٩- لَوْ خَطَا الرَّجُلُ مِنْ قَافٍ إلى قَافٍ، كَانَ جُلُوسُهُ أَفْضَلَ، وَلَوْ تَكَلَّمَ عَنِ الذَّاتِ والصِّفاتِ، كانَ سُكُوتُهُ أَفْضَلَ.

٢٠- مَنْ تَطَاوَلَ عَلَى الخَلْقِ، قَصُرَ عِنْدَ الـخَالِقِ؛ مَنْ تَعَالَى عَلَى العِبَادِ، سَقَطَ مِنْ عَيْنِ الْـمَعْبُودِ.

٢١- كُلُّ حالٍ تَـحَـوُّلُـهُ فِيهِ، وكُلُّ ظاهرٍ بِهِ مَا يُـخْـفِـيْـهِ.

٢٢- مَنِ ادَّرَعَ بِدِرْعِ الصَّبْرِ، سَلِمَ مِنْ سِهَامِ العَجَلَةِ.

٢٣- الرَّجُلُ الْـمُتَمَكِّنُ إذا نُصِبَ لهُ سِنَانٌ على أَعْلى جَبَلٍ شَاهِقٍ فِي الأَرْضِ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ اللَّيَالِي الثَّمانِ مَا غَيَّرَتْ مِنْهُ شَعْرَةً وَاحِدَةً.

٢٤- الكَاذِبُ يَقِفُ مَعَ الْـمُبْدَعَاتِ، والعَاقِلُ غَايَتُهُ وَرَاءَهَا؛ مَنْ كَمُلَ أَنِفَتْ نَفْسُهُ عَنْ كُلِّ شَيءٍ غَيْرَ رَبِّهِ.

٢٥- الـخَلْقُ كُلُّهُم لاَ يَضُرُّونَ وَلاَ يَنْفَعُوْنَ، حُجُبٌ نَصَبَهَا لِعِبَادِهِ، فَمَنْ رفَعَ تِلْكَ الـحُجُبَ وَصَلَ إِلَيْهِ.

٢٦- الاِطْمِئْنَانُ بِغَيرِهِ تَعَالَى خَوْفٌ، والخَوْفُ مِنْهُ اِطْمِئْنَانٌ مِنْ غَيْرِهِ.

٢٧- تَحْتَ كُلِّ حَالَةٍ حَالٌ رَبَّانِيٌّ، لَوْ عَرَفْتَهُ لَعَلِمْتَ أَنَّكَ تَسْكُنُ بِهِ وَتَسْعَى بِهِ وَأَنْتَ مُسَخَّرٌ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

٢٨- الصُّوْفِيُّ مَنْ صَفَا، فَلَمْ يرَ لِنَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ مَزِيَّةً.

٢٩- كُلُّ الأَغْيَارِ حُجُبٌ قاطِعَةٌ، فَمَنْ تَخَلَّصَ مِنْهَا وَصَلَ.

٣٠- الوَقْتُ سَيفٌ يَقْطَعُ مَنْ قطَعَهُ.

٣١- عَلامَةُ العَاقِلِ: الصَّبرُ عِنْدَ الْـمِحْنَةِ، والتَّواضُعُ عِنْدَ السَّعَةِ، والأَخْذُ بالأَحْوَطِ، وَطَلَبُ البَاقِي سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَى].

٣٢- عَلامَةُ العَارِفِ: كِتْمانُ الحَالِ، وصِحَّةُ الْـمَقَالِ، والتَّخَلُصُ مِنَ الآمَالِ.

٣٣- الدُّنْيا والآخِرَةُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ: عَقْلٌ ودِيْنٌ.

٣٤- العِلْمُ مَا رَفَعَكَ عَنْ رُتبَةِ الْـجَهْلِ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ مَنْزِلِ العِزَّةِ، وَسَلَكَ بِكَ سَبِيْلَ أُوْلِي العَزْمِ.

٣٥- الشَّيْخُ مَنْ إذا نَصَحَكَ أَفْهَمَكَ، وإذا قَادَكَ دَلَّكَ، وإذا أَخَذَكَ نَهَضَ بِكَ.

٣٦- الشَّيْخُ مَنْ يُلْزِمُكَ الكِتَابَ والسُّنَّةِ، ويُبْعِدُكَ عَنِ الـمُحْدَثَةِ والبِدْعَةِ.

٣٧- الشَّيْخُ ظَاهِرُهُ الشَّرْعُ، وَبَاطِنُهُ الشَّرْعُ.

٣٨- الطَّرِيْقَةُ: الشَّرِيْعَةُ، لَوَّثَ هَذِهِ الْـخِرْقَةَ كَذَّابٌ، قَالَ: البَاطِنُ غَيْرُ الظَّاهِرِ! العَارِفُ يَقُولُ: البَاطِنُ بَاطِنُ الظَّاهِرِ، وَجَوْهَرُهُ الْـخَالِصُ.

٣٩- القُرْآنُ بَحْرُ الحِكَمِ كُلِّهَا، وَلَكِنْ أَيْنَ الأُذُنُ الوَاعِيَةُ؟!.

٤٠- رَنَّةُ النَّجَاحِ تُسْمَعُ عِنْدَ قُرْبِ بَابِ الرِّضا مِنَ اللهِ؛ اِرْضَ عَنِ اللهِ، ونَمْ مَرْضِيّاً، ولَكَ الأَمْنُ.

٤١- مَا شَمَّ رَائِحَةَ الْـمَعْرِفَةِ مَنِ افْتَخَرَ بأَبِيهِ وأُمِّهِ، وخَالِهِ وعَمِّهِ، ومَالِهِ ورِجَالِهِ؛ لَيْسَ عِنْدَ اللهِ على شَيءٍ مَنْ رَأى نَفْسَهُ.

٤٢- لَوْ عَبَدَ اللهَ العَابِدُ بِعِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ، وفيهِ ذَرَّةٌ مِنَ الكِبْرِ، فهوَ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وأعْدَاءِ رَسُولِهِ ﷺ.

٤٣- ثَلاثُ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيْهِ لا يَكُونُ وَلِيّاً إلَّا إذا طَهَّرَهُ اللهُ مِنْهُنَّ: الْـحُمْقُ، والعُجْبُ، والبُخْلُ.

٤٤- أَكْذَبُ النَّاسِ عَلَى اللهِ وَالْـخَلْقِ: مَنْ رَأَى نَفْسَهُ خَيْراً مِنَ الـخَلْقِ؛ كُلُّ الظُّلْمِ: التَّعَالِي عَلَى النَّاسِ؛ الظُّلْمُ: حِرْصُ الرَّجُلِ عَلَى الـمَرَاتِبِ الكَاذِبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ،

ومِنْهَا أنْ يُـحِبَّ الارْتِفَاعَ على أخِيْهِ بِكَلِمَةٍ أو جلْسَةٍ لا حَقَّ لهُ بِها؛ وعَلَى ذلك تُقَاسُ الـمَرَاتِبُ.

٤٥- مَنْ أخَذَ النَّاسَ بِقُوَّتِهِ القَاهِرَةِ تَرَكَ فِي قُلُوبِهِمُ الضَّغَائِنَ عَلَيهِ كيفَ كان؛ ومَنْ أخَذَ النَّاسَ بِانْكِسَارِهِ تَرَكَ فِي قُلُوبِهِمُ الاعْتِرافَ لَهُ عَزَّ أو هَانَ.

٤٦- نِعْمَ الرَّفِيْقُ فِي بِلادِ الله تَقْوَى الله؛ ونِعْمَ الـمَرَاحُ الَّذي يَسْتَرِيْحُ القَلْبُ والبَدَنُ بِهِ الإِخْلاصُ.

٤٧- لَنْ يَصِلَ العَبْدُ إلى مَرتَبَةِ أَهْلِ الكَمالِ، وفِيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ حُرُوفِ: أَنَا.

٤٨- الشَّطَّاحُ يَقِفُ مَعَ شَطْحِهِ حَالَةَ الشَّطْحِ إذا لَمْ يَسْقُطْ، والكَامِلُ لا يَشتَغِلُ عَنْ خِدْمَتِهِ.

٤٩- الدَّعْوَى: بَقِيَّةُ رُعُونَةٍ فِي النَّفْسِ، لا يَحْتَمِلُهَا القَلْبُ فَيَنْطِقُ بِهَا لِسَانُ الأَحْمَقِ.

٥٠- التَّحَدُّثُ بِالنِّعْمَةِ ذِكْرُ القُرْبِيَّةِ، والتَّخَلُّصُ مِنْ تَجَاوُزِ مَرْتَبَةِ العَبْدِيَّةِ.

٥١- العَارِفُ لا يَنْظُرُ إلى الدُّنْيَا ولا إلى الآخِرَةِ.

٥٢- كُلُّ الكَمالِ تَرْكُ الأَغْيَارِ، وطَرْحُ الاسْتِبْشَارِ بِحَوَادِثِ الأَكْوَانِ، والذُّلُّ بِكِسْوَةِ الفَنَاءِ بَيْنَ يَدَيْ الْـحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ.

٥٣- لا تَـجْعَلْ رُوَاقَ شَيْخِكَ حَرَمَاً، وقَبْرَهُ صَنَماً، وحَالَهُ دَفَّةَ الـمُكْدِيَةِ؛ الرَّجُلُ مَنْ يَفْتَخِرُ بِهِ شَيْخُهُ، لا مَنْ يَفْتَخِرُ بِشَيْخِهِ.

٥٤- مَنْ صَمَّ سَماعَهُ عَنْ أَصْوَاتِ الأَغْيَارِ سَمِعَ نِدَاءَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾[غافر: ١٦]، فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِ: كَذِبِهِ، وعُجْبِهِ، وأَنَانِيَّتِهِ، وَحَولِهِ وَقُوَّتِهِ، وَوَحْدَتِهِ، وَانْقَهَرَ فِي مَقَامِ عُبُودِيَّتِهِ.

٥٥- إِيَّاكَ وَالقَوْلَ بِالوَحْدَةِ الَّتِي خَاضَ بِها بَعْضُ الْـمُتَصَوِّفَةِ!.

٥٦- إِيَّاكَ وَالشَّطْحَ؛ فإِنَّ الحِجَابَ بِالذُّنُوبِ أَوْلَى مِنَ الحِجَابِ بِالكُفْرِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

٥٧- إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَطِيْرُ فِي الهَوَاءِ فَلا تَعْتَبِرْهُ، حَتَّى تَزِنَ أقوالَهُ وأفعالَهُ بميزانِ الشَّرعِ.
٥٨- إِيَّاكَ والإِنْكَارَ عَلَى الطَّائِفَةِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، سَلِّمْ لَـهُمْ أَحْوَالَـهُمْ، إِلَّا إِذَا رَدَّهَا الشَّرْعُ فَكُنْ مَعَهُ.
٥٩- التَّكَلُّمُ بِالحَقَائِقِ قَبْلَ هَجْرِ الخَلائِقِ مِنْ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ.
٦٠- مَنْ عَدَلَ عَنِ الحَقِّ إلى البَاطِلِ تَبَعًا لِـهَوَى نَفْسِهِ فَهُوَ مِنَ الضَّلالِ بِمَكَانٍ.
٦١- أَوَّلُ أَبْوَابِ الْـمَعْرِفَةِ: الاِستِئْناسُ باللهِ ﷻ، والزُّهْدُ أَوَّلُ قَدَمِ القَاصِدِيْنَ إلى اللهِ ﷻ.
٦٢-مَنْ مَاتَ مُحِبًّاً مَاتَ شَهِيْدَاً، ومَنْ عَاشَ مُـخْلِصَاً عَاشَ سَعِيْدَاً، وكِلا الأَمْرَيْنِ بِتَوْفِيْقِ اللهِ تَعَالى.
٦٣- مَنْ سَلَكَ الطَّرِيْقَ بِنَفْسِهِ أُعِيْدَ قَسْرَاً؛ هَذِهِ الطَّرِيْقَةُ لا تُوْرَثُ عَنِ الأَبِ والجَدِّ إِنَّما هِيَ طريقَةُ العَمَلِ والجِدِّ، والوُقُوفِ عندَ الحَدِّ، وذَرِّ الدُّمُوْعِ على الخَدِّ، والأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالى.
٦٤- ظَنَّ بَعْضُ الجَهَلَةِ أنَّ هذه الطَّريقةَ تُنَالُ بالقِيْلِ والقَالِ، والدِّرْهَمِ والمَالِ، وظَوَاهِرِ الأَعْمَالِ! لا واللهِ؛ إِنَّما نَيْلُهَا بالصِّدْقِ والانْكِسارِ، والذُّلِّ والافْتِقَارِ، واتِّبَاعِ سُنَّةِ النَّبيِّ المُخْتَارِ [ﷺ]، وهَجْرِ الأَغْيَارِ.
٦٥- مَنِ اعْتَزَّ بِذِي العِزَّةِ عَزَّ، ومَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ وَقَفَ مَعَهُ بِلا عِزٍّ.
٦٦- كِتَابُ اللهِ آيةٌ جامِعَةٌ انْدَرَجَتْ فِيْهَا الآيَاتُ الرَّبَّانيَّاتُ.
٦٧- مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِفَهْمِ بَوَاطِنِ كِتَابِهِ، والتِزَامِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ، فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الغَنِيْمَتَيْنِ، وَمَنْ أَخَذَ برأيِهِ ضَلَّ وانْقَطَعَ عَنِ البَاطِنِ والظَّاهِرِ.
٦٨- ذِكْرُ اللهِ جُنَّةٌ مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ سَمَاوِيَّةٍ، وحَادِثَةٍ أَرْضِيَّةٍ، أَجَلْ، إِنَّ الذَّاكِرَ جَلِيسُ الحَقِّ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَأَدَّبَ مَعَ المَذْكُوْرِ، لِكِيْلا يُقْطَعَ عَنِ المُجَالَسَةِ الَّتِي هِيَ بَرَكَةُ القَبُولِ، والطَّهارَةِ مِنَ الغَفْلَةِ.

٦٩- كُلُّ لِسَانٍ يَتَكَلَّمُ مُتَرْجِماً عَنْ حَضْرَةِ القَلْبِ: يُظْهِرُ بِضَاعَتَهَا، ويَفْتَحُ خِزَانَتَهَا؛ فَمَنْ طَهُرَتْ حَضْرَةُ قَلْبِهِ: طَابَ لِسَانُهُ، وعَذُبَ بَيانُهُ، فَإِنِ اعْتَبَرَ بالفَتْحِ السَّيَّالِ عَلَى لِسَانِهِ، واعْتَنَى بِتَطْهِيْرِ حَضْرَةِ القَلْبِ: ازْدَادَ عِرْفَانُهُ وبُرْهانُهُ، ومَنِ اكْتَفَى بِحَظِّ اللِّسَانِ بَقِيَ مَعَ الأَقْوَالِ قَصِيْرَ البَاعِ عَنْ تَنَاوُلِ ثَمَرَاتِ الأَفْعَالِ.

٧٠- رُوْحُ جِسْمِ الْـمَعْرِفَةِ الانْتِبَاهُ الدَّائِمُ، والسِّرُّ السَّلِيْمُ، والقَلْبُ الرَّحِيْمُ، والقَدَمُ الثَّابِتُ.

٧١- مِنَ الحِكْمَةِ: أَنْ تُوْدِعَ المَعْرُوْفَ أَهْلَهُ، ومِنَ الصِّدْقِ: أَنْ لا تَمْنَعَهُ غَيْرَ أَهْلِهِ، وثَمَرَةُ الصَّنِيْعَيْنِ مِنَ اللهِ تَعَالى.

٧٢- إِذَا أُوْدِعْتَ مَعْرُوْفَاً فَلا تَكْفُرْهُ؛ فإِنَّهُ ثَقِيْلٌ عِنْدَ اللهِ.

٧٣- مَا أَفْلَحَ مَنْ دَسَّ، ولا عَزَّ مَنْ ظَلَمَ، ولا يَتِمُّ حَالٌ لِبَاغٍ، ولا يُـخْذَلُ عَبْدٌ رَضِيَ بِاللهِ وَكِيْلاً وَنَصِيْرَاً.

٧٤- مُشَكِّكٌ لا يُفْلِحُ، ودَسَّاسٌ لا يَصِلُ، وبَخِيْلٌ لا يَسُوْدُ، وحَسُوْدٌ لا يُنْصَرُ، وكَلْبُ الدُّنْيَا لا يَسْتَوْلِي عَلَى لَحْمِ جِيْفَتِهَا؛ واللهُ مُحَوِّلُ الأَحْوَالِ.

٧٥- غَارَةُ اللهِ تَقْصِمُ وتَقْهَرُ، وتُدَمِّرُ وتَفْعَلُ، وتَقْلِبُ حَالَ مَمْلَكَةٍ كِسْرَوِيَّةٍ لِكَسْرِ قَلبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ انْتَصَرَ بِاللهِ.

٧٦- كُلُّ النَّاسِ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فَيُغَانُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ؛ فَالمُحَمَّدِيُّ يَسْتَغْفِرُ وَيَدفَعُ الحِجَابَ، والمَحْجُوْبُ يَزْدَادُ طَمْسَاً عَلَى طَمْسٍ؛ والمَعْصُوْمُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ.

٧٧- لا دَوَاءَ لِلْحُمْقِ، وَلا دَافِعَ لِلْحَقِّ، وَلا صُحْبَةَ لِلْمَغْرُوْرِ، وَلا عَهْدَ لِلْغَادِرِ، وَلا نُوْرَ للغَافِلِ، وَلا إِيمَانَ لِـمَنْ لا عَهْدَ لَهُ.

٧٨- كَتَبَ اللهُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ زَكِيَّةٍ أَنْ تُعَذَّبَ فِي الدُّنْيَا بِأَيْدِي الأَشْرَارِ، وَأَلْسِنَةِ الفُجَّارِ.

وَكَتَبَ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ خَبِيْثَةٍ أَنْ تُسِيءَ لِلْمُحْسِنِ، وَأَنْ تَمْكُرَ بالْمُجْمَلِ، والعَوْنُ الإِلهيُّ مُحِيْطٌ بِالعَبْدِ الْمُخْلِصِ الْمُنْكَسِرِ: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة:٢٧٠].

٧٩- عَلامَةُ العَدُوِّ: أَنْ يَرْغَبَ بِمَا فِي يَدَيْكَ، وَأَنْ يَرْغَبَ عَنْكَ إِذَا قَلَّ مَالُكَ، وَأَنْ يَسْتَلَّ سَيْفَ لِسَانِهِ بِمَغِيْبَتِكَ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ تُمْدَحَ فَدَعْهُ لله، فَهُوَ عَثُوْرٌ عَلَى رَأْسِهِ، كَالنَّارِ تَأْكُلُ حَطَبَهَا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء:٤٥].

وعَلامَةُ الصَّدِيقِ: أَنْ يُحِبَّكَ لله، فَالْصَقْ بِهِ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْمَحَبَّةِ لله قَلِيْلٌ.

٨٠-أَوِّلْ كَلامَ بَعْضِ الفُقَرَاءِ، وَكَأَنَّكَ تَدْرَأُ الحُدُوْدَ بِالشُّبُهَاتِ، لَوْ كُنْتُ فِي زَمَنِ الحَلاجِ لأَفتَيْتُ مَعَ مَنْ أفتى بِقَتْلِهِ - إِذَا صَحَّ الخَبَرُ - وَلأَخَذْتُ بالتَّأْوِيْلِ الَّذي يَدْرَأُ عَنْهُ الْحَدَّ، ولَقَنِعْتُ مِنْهُ بالتَّوبَةِ والرُّجُوعِ إلى الله؛ فإنَّ بابَ الرَّحمنِ لا يُغْلَقُ.

٨١-وَهَبَ اللهُ عِبَاداً مِنْ عِبَادِهِ رُتَبَاً رَفِيْعَةً أَطْلَعَ عَلَيْهَا أَهْلَ الوَهْبِ، فَمَنْ أَدْرَكَ سِرَّ الله فِي طَيِّ هَذِهِ المَوَاهِبِ: تَوَاضَعَ لِلْخَلْقِ جَمِيْعَاً؛ فإِنَّ الخَوَاتِيْمَ مجْهُوْلَةٌ، وَسَاحَةُ الكَرَمِ وَسِيْعَةٌ، وَلا قَيْدَ فِي حَضْرَةِ الوَهْبِ، ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[آل عمران:١٨]، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:١٠٥].

٨٢- قَالَ بَعْضُ الأَعَاجِمِ مِنْ صُوْفيَّةِ خُرَاسَانَ: إِنَّ رُوْحَانِيَّةَ ابْنِ شَهْرَيَارِ الصُّوْفِيِّ الكَبِيْرِ قُدِّسَ سِرُّهُ تتصَرَّفُ فِي تَرتِيْبِ جُمُوْعِ الصُّوْفِيَّةِ فِي العَرَبِ وَالعَجَمِ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ، ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لله الوَهَّابِ الفَعَّالِ.

٨٣- النِّيَابَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ عِنْدَ أَهْلِ القُلُوْبِ ثَابِتَةٌ، تَدُوْرُ بِنَوْبَةِ أَهْلِ الوَقْتِ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ، وتَصَرُّفُ الرُّوْحِ لا يَصِحُّ لِمَخْلُوْقٍ؛ إِنَّمَا الكَرَمُ الإِلَهِيُّ يَشْمَلُ أَرْوَاحَ بَعْضِ أَوْلِيَائِهِ، بَلْ كُلِّهِمْ، فَيُصْلِحُ شَأنَ مَنْ يتوَسَّلُ بِهِمْ إلى الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[فصلت:٣١] ، هَذَا الحَدُّ.

٨٤- إِيَّاكَ وَإِفْرَاطَ الأَعَاجِمِ؛ فَإِنَّ فِي أَعْمَالِ بَعْضِهِمُ الإِطْرَاءَ الَّذِيْ نَصَّ عَلَيْهِ الحَبِيْبُ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ.

٨٥- وَإِيَّاكَ وَرُؤْيَا الفِعْلِ فِي العَبْدِ حَيَّاً كَانَ أَوْ مَيْتاً؛ فَإِنَّ الخَلْقَ كُلُّهُم لا يَمْلِكُوْنَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرَّاً وَلا نَفْعَاً.

٨٦- نَعَمْ خُذْ مَحَبَّةَ أَحْبَابِ الله وَسِيْلَةً إلى الله؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الأُلُوْهِيَّةِ يَعُوْدُ صِفَةً لِلْحَقِّ، وَنِعْمَ الوَسِيْلَةُ إلى اللهِ سِرُّ أُلُوْهِيَّتِهِ، وَصِفَةُ رُبُوْبِيَّتِهِ.

٨٧- الوَلِيُّ مَنْ تَمَسَّكَ كُلَّ التَّمسُّكِ بِأَذْيَالِ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَضِيَ بِالله وَلِيَّاً.

٨٨- مَنِ اعْتَصَمَ بِالله جَلَّ، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَى غَيْرِ الله ذَلَّ، وَمَنِ اسْتغنَى بِالأَغْيَارِ قَلَّ، وَمَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ طَرِيْقِ الرَّسُولِ [ﷺ] ضَلَّ.

٨٩- العِلْمُ نُوْرٌ، والتَّوَاضُعُ سُرُوْرٌ.

٩٠- الهِمَّةُ حَالَةُ الرَّجُلِ مَعَ الله، يَتَفَاوَتُ عُلُوُّ مَرْتَبَةِ الإِيمانِ بِعُلُوِّ الهِمَّةِ.

٩١- مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ الفَعَّالُ الـمُطْلَقُ: صَرَفَ هِمَّتَهُ عَنْ غَيْرِهِ.

٩٢- مَنْ عَلَتْ فِي الله هِمَّتُهُ، صَحَّتْ إلى الله عَزِيْمَتُهُ، وانْفَصَلَتْ عَنْ غَيْرِ اللهِ هِجْرَتُهُ.

٩٣- مَائِدَةُ الكِرَامِ يَجْلِسُ عَلَيْهَا البَرُّ وَالفَاجِرُ.

٩٤- لله عِنْدَ الخَوَاتِيْمِ حَنَانٌ وَلُطْفٌ عَلَى عِبَادِهِ فَوْقَ حَنَانِ الوَالِدَةِ عَلَى وَلَدِهَا.

٩٥- إنَّ اللهَ إذَا وَهَبَ عَبْدَهُ نِعْمَةً مَا اسْتَرَدَّهَا.

٩٦- فُيُوْضَاتُ المَوَاهِبِ الإِلَهِيَّةِ فَوْقَ مَدَارِكِ العُقُوْلِ وَتَصَوُّرَاتِ الأَوْهَامِ.

٩٧- مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ، فَوَّضَ الأَمْرَ إلى الفَعَّالِ الْـمُقْتَدِرِ، وفَرَشَ جَبِيْنَهُ عَلَى تُرَابِ التَّسْلِيْمِ.

٩٨- كُلُّ الحَقَائِقِ إذَا انْجَلَتْ يُقْرَأُ فِي صِحَائِفِهَا سَطْرُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص:٨٨].

٩٩- إِذَا أَمْعَنْتَ النَّظَرَ فِي دَوَائِرِ الأَكْوَانِ: رَأَيْتَ العَجْزَ مُحِيْطَاً بِهَا، وَالاِفْتِقَارَ قَائِمَاً مَعَهَا، ولِرَبِّكَ الحَوْلُ والقُوَّةُ، والغِنَى والقُدْرَةُ، وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ.

١٠٠-مَزَالِقُ الأَقْدَامِ: الدَّعْوَى، ورُؤْيا النَّفْسِ، ومُعَارَضَةُ الأَقْدَارِ.

١٠١-لَوْ كَانَ لَكَ مَا ادَّعَيْتَ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ والقُدْرَةِ لَـمَا مِتَّ.

١٠٢- أَيْنَ أَنْتَ يَا عَبْدَ الرِّئَاسَةِ؟ أَيْنَ أَنْتَ يَا عَبْدَ الدَّعْوَى؟ أَنْتَ عَلَى غِرَّةٍ، تَنَحَّ عَنْ رِئَاسَتِكَ وَغِرَّتِكَ، والْبَسْ ثَوْبَ عَبْدِيَّتِكَ وذِلَّتِكَ.

١٠٣-كُلُّ دَعْوَاكَ كَاذِبَةٌ، وَكُلُّ رِئَاسَتِكَ وغِرَّتِكَ هَزْلٌ، القَوْلُ الفَصْلُ: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[النساء:٧٨].

١٠٤-سِرْ بَيْنَ الـحَائِطَيْنِ: حَائِطِ الشَّرْعِ وَالعَمَلِ.

١٠٥-اسْلُكْ طَرِيْقَ الاتِّباعِ؛ فَإِنَّ طَرِيْقَ الاتِّبَاعِ خَيْرٌ، وطَرِيْقُ الابْتِدَاعِ شَرٌّ، وَبَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ بَوْنٌ بَيِّنٌ.

١٠٦-مَرِّغْ خَدَّكَ عَلَى البَابِ، وافْرُشْ جَبِيْنَكَ عَلَى التُّرَابِ، ولا تَعْتَمِدْ عَلَى عَمَلِكَ، والْـجَأْ إلى رَحْمَتِهِ تَعَالَى وقُدْرَتِهِ، وتَجَرَّدْ مِنْكَ ومِنْ غَيْرِكَ، عَلَّكَ تَلْحَقُ بِأَهْلِ السَّلامَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٣].

١٠٧-بَرَكَةُ العَبْدِ الوَقْتُ الَّذِيْ يَتَقَرَّبُ بِهِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

١٠٨-الأَوْلِيَاءُ لَهُمْ الحُرْمَةُ فِي البَابِ الإِلَهِيِّ، ولَوْلا أَنْ جَعَلَ لَهُمْ هَذِهِ القِسْمَةَ لَمَا اخْتَصَّهُم دُوْنَ غَيْرِهِم بِوِلايَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هَؤُلاءِ حِزْبُ الله، جَيْشُهُ العَرَمْرَمُ الَّذِيْ أَيَّدَ اللهُ بِهِ الشَّرِيْعَةَ ونَصَرَ بِهِ الحَقِيْقَةَ، وَصَانَ بِهِ شَرَفَ نَبِيِّهِ ﷺ وَأَلحَقَهُ بِهِ، قالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤].

١٠٩-المَعْرِفَةُ بِالله عَلَى أَقْسَامٍ، وَأَعْظَمُ أَقْسَامِهَا: تَعْظِيْمُ أَوَامِرِ الله تَعَالَى.

١١٠-بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الرَّبِّ حِجَابُ الغَفْلَةِ لا غَيْرَ، قالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة:١٥٢].

١١١-العَبْدُ العَارِفُ يَفْزَعُ إلى الله، ويَتوَقَّعُ سِرَّ الله؛ وَسِرُّ الله: العَوْنُ النَّاشِئُ مِنْ مَحْضِ الكَرَمِ وَالفَضْلِ مِنْ دُوْنِ سَابِقَةِ صُنْعٍ ولا عَمَلٍ.

١١٢-القَلْبُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْ قُدْرَةِ الرَّحْمَنِ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُثَبِّتَ القُلُوْبَ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَدِيْنِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾[النساء:٤٥].

١١٣-المظاهرُ البارِزَةُ مِنهَا ما قُيِّضَ لِلْخَيْرِ، ومِنْهَا ما قُيِّضَ لِلشَّرِّ، والمُتَصَرِّفُ فِيْهَا بَارِيْهَا، فَالمَظْهَرُ المُقَيَّضُ لِلْخَيْرِ يُشْكَرُ، والـمَظهَرُ الْـمُقَيَّضُ لِلشَّرِّ يُنْكَرُ، واللهُ فِي الحَالَيْنِ يُذْكَرُ.

١١٤-لا يَتِمُّ نِظامُ رَجُلٍ أَقَامَهُ اللهُ مَظْهَراً لِلشَّرِّ؛ لأنَّ اللهَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ نِظَامَهُ لَمَا أَقَامَهُ مُظْهِراً فِيمَا يَكْرَهُهُ.

١١٥-دَعْ عَنْكَ الاهْتِمَامَ بِتَقْوِيمِ الْـمُعْوَجِّ قَبْلَ بُرُوزِ السَّانِحَةِ الْـمُقَوِّمَةِ؛ فَإِنَّ سَحَابَ الـخَيْرِ يَمطُرُ بِإِبَّانِهِ، ولا يُطْلَبُ قَبْلَ أَوَانِهِ.

١١٦-لا تُسْقِطْ هِمَّتَكَ بِيَدِ هَمِّكَ فَتَنْقَلِبْ عَنِ الـمَطَالِبِ العَلِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْـهَمَّ كافُورُ الهِمَّةِ والإقْدامُ عَنْبَرُها، والـمَقْضِيُّ كائِنٌ وغيرُهُ لا يَكُونُ.

١١٧-قِفْ عِنْدَ أَفْعَالِكَ الَّتِي وُهِبَتْ لَكَ، ولا تُكَلِّفْ نَفْسَكَ تَبْدِيْلَ مَا اضْطُرِرْتَ بِفِعْلِهِ، ولا تَرَاكَ مَجْبُوْراً أومُخْتَاراً، فَإِنَّ الأَمْرَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ.

١١٨-كُلُّ وَلِيٍّ يَقُولُ ويَصُولُ فَهُوَ فِي حِجَابِ القَولِ والصَّولَةِ، حتَّى يَنْقَهِرَ تَحْتَ سَطْوَةِ الرُّبُوبيَّةِ، ويَفِيءَ إلى أَمْرِ الله، فَإِذَا فَاءَ دَنَا فَتَدَلَّى بِصِدْقِهِ إلى قابِ قوسَي الْـمُتَابَعَةِ الـمُحَمَّدِيَّةِ، وحِيْنَئِذٍ تَصِحُّ لَهُ رُتْبَةُ العُبُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الرُّتَبِ وأَعْلاهَا، وأَقْرَبُهَا مِنَ الله وأَدْنَاهَا، وأَعْظَمُهَا وَسِيْلَةً إِلَيْهِ وأَقْوَاهَا، ولَيْسَ لِلْخَلقِ سِوَاهَا.

١١٩-كُلُّ مَنِ اكْتَحَلَ بِإِثْمِدِ التَّوفِيْقِ عَلِمَ عِلْمَ اليَقِيْنِ، وحَقَّ اليَقِيْنِ: أَنَّ الـمَبَاطِنَ والمَظَاهِرَ تَحْتَ قَهْرِ البَاطِنِ الظَّاهِرِ.

١٢٠-صَفَاءُ القَلْبِ والبَصِيْرةِ، ونَفَاذُ نُورِ البَصَرِ يَكُونُ مِنْ قِلَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّ الجوعَ يُزِيْلُ التَّكَبُّرَ والتَّعاظُمَ والتَّجَبُّرَ، وبِهِ تَعْذِيْبُ النَّفْسِ حتَّى تَصِيْرَ مَشْغُولَةً بِالحَقِّ؛ ومَا رَأَيْتُ شَيْئَاً يَكْسِرُ النَّفسَ مِثْلَ الجُوعِ قَطُّ؛ وأمَّا الشِّبَعُ فَإِنَّهُ يُوْرِثُ قَسْوَةَ القَلْبِ وظُلْمَتَهُ، وعَدَمَ نَفَاذِ نُورِ البَصِيْرةِ، وتَكثُرُ بِسَبَبِهِ الغَفْلَةُ.

١٢١-رِعَايَةُ خَواطِرِ الجِيْرانِ أَوْلَى مِنْ رِعَايَةِ خَواطِرِ الأَقَارِبِ؛ لأَنَّ الأَقَارِبَ خَوَاطِرُهُمْ مَـجْبُوْرَةٌ بِالقَرَابَةِ، وَالجِيْرَانُ لا.

١٢٢-القَلْبُ المُنَوَّرِ يَمِيْلُ إلى صُحبَةِ الصُّلَحَاءِ والعَارِفِيْنَ، ويَنْفِرُ مِنْ صُحْبَةِ الـمُتَكَبِّرِيْنَ والـجَاهِلِيْنَ.

١٢٣-مُعَامَلَةُ عِبَادِ الله بِالإِحْسَانِ، تُوصِلُ العَبْدَ إلى الدَّيَّانِ، والصَّلاةُ على رَسُولِ الله ﷺ تُسَهِّلُ المُرُوْرَ على الصِّراطِ، وتَجْعَلُ الدُّعاءَ مُسْتَجَاباً، والصَّدَقَةُ تُزِيْلُ غَضَبَ الله، والإِحْسَانُ لِلْوَالِدَيْنِ يُهَوِّنُ سَكَرَاتِ المَوْتِ.

١٢٤-صُحْبَةُ الأَشْرَارِ، والحَمْقَى والظَّلَمَةِ وأَهْلِ الحَسَدِ: ظُلْمَةٌ سَوْدَاءُ.

١٢٥-العَارِفُ مَنْ كَانَ عَلَى جَانِبٍ كَبِيْرٍ مِنْ سُلُوكِ طَرِيْقِ الحَقِّ، مَعَ المُوَاظَبَةِ والاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ فلا يَتْرُكُهُ دَقِيْقَةً وَاحِدَةً.

١٢٦-الصُّوْفِيُّ يَتبَاعَدُ عَنِ الأَوْهَامِ والشُّكُوكِ، ويَقُولُ بِوَحْدانِيَّةِ الله تَعَالى فِي ذاتِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ؛ لأَنَّهُ لَيسَ كمثلِهِ شَيءٌ، يَعْلَمُ ذَلِكَ عِلْمَاً يَقِيناً، لِيَخْرُجَ مِنْ بَابِ العِلْمِ الظَّنِّي، ولِيَخْلَعَ مِنْ عُنُقِهِ رِبقةَ التَّقْلِيدَ.

١٢٧-الصُّوفِيُّ لا يَسْلُكُ غَيْرَ طَرِيقِ الرَّسولِ المكرَّمِ ﷺ فلا يَجْعَلُ حَرَكَاتِهِ وسكَنَاتِهِ إِلَّا مَبْنِيَّةً عَلَيْهِ.

١٢٨-الصُّوْفِيُّ لا يَصْرِفُ الأَوْقَاتَ فِي تَدْبِيْرِ أُمُوْرِ نَفْسِهِ؛ لِعِلْمِهِ أنَّ الـمُدبِّرَ: الـحَقُّ عَزَّ وَجَلَّ، ولا يَلجأُ فِي أُمُورِهِ ويُعَوِّلُ على غيرِ الله تَعَالَى.

١٢٩-الصُّوْفِيُّ يَتَجَنَّبُ مُخَالَطَةَ الخَلْقِ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ لأنَّ الصُّوْفِيَّ كُلَّمَا زَادَ اخْتِلاطُهُ بِالخَلقِ ظَهَرَتْ عُيُوبُهُ، والتبَسَ عَليهِ الأَمْرُ، وإِذَا خَالَطَ البَعْضَ فَلْيَخْتَرْ لِنَفْسِهِ صُحبَةَ الصَّالِحِيْنَ؛ فإِنَّ المَرْءَ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ.

١٣٠-نَفَسُ الفَقِيْرِ مِثْلُ الكِبْرِيْتِ الأَحْمَرِ لا يُصْرَفُ إِلَّا بِحَقٍّ لِحَقٍّ.

١٣١-مَنْ لَمْ يَزِنْ أَقْوالَهُ وأَفعالَهُ وأَحْوالَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ ، ولَمْ يَتَّهِمْ خَواطِرَهُ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَنا فِي دِيْوانِ الرِّجَالِ.

١٣٢-مَنْ عَلِمَ مَا يَحْصُلُ لَهُ هَانَ عَلِيهِ مَا يَبْذُلُ.

١٣٣-مَنْ استَقَامَ بِنَفْسِهِ استَقَامَ بِهِ غَيْرُهُ، كَيْفَ يَسْتَقِيْمُ الظِّلُّ والعُودُ أَعْوَجُ؟!.

١٣٤-الفَقِيرُ إِذَا كَسَرَ نَفْسَهُ، وذَلَّ وانْدَاسَ، واحْتَرَقَ بِنَارِ الشُّوْقِ والصِّدْقِ، وثَبَتَ فِي مَيْدَانِ الاسْتِقَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى، صَارَ مَعدِنَ الخَيْرَاتِ، ومَقْصِدَ المَخْلُوقَاتِ، وَصَارَ كالغَيْثِ: أَيْنَ وَقَعَ نَفعَ، وَيَكُونُ حِيْنَئِذٍ رَحْمَةً وسَكِيْنَةً عَلَى خَلْقِ اللهِ تَعَالَى.

١٣٥-رُبَّمَا اتُّبِعَ الكاذبُ وهُجِرَ الصَّادِقُ، وكَثُرَتْ طَقْطَقَةُ النِّعَالِ حَولَ المَغْرُوْرِينَ، وتَبَاعَدَ النَّاسُ عنِ المَتْرُوكِينَ، فلا تَعْجَبْ مِنْ ذلكَ؛ فإِنَّ حالَ النَّفسِ: تُحِبُّ القُبَّةَ المُزَيَّنَةَ، والقَبْرَ المَنْقُوشَ، والرِّواقَ الوَسِيعَ، وتَأْلَفُ الشَّيخَ الكَبِيْرَ العِمَامَةِ، الوَسِيْعَ الكُمِّ، الكَثِيْرَ الحِشْمَةِ!.

فَسَيِّرْ هِمَّةَ القَلْبِ لا هِمَّةَ النَّفسِ لِكَشْفِ هذِهِ الحُجُبِ، وقُلْ لِنَفْسِكَ: لَوْ رَأَيْتِ رسولَ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيْرَةٍ وَقَدْ أَثَّرَتْ فِي جَنْبِهِ الشَّرِيْفِ، ورَأَيْتَ أَهْلَ بَيْتِهِ رِضْوانُ اللهِ وسَلامُهُ عَليهِم لا طَعَامَ لَهُمْ ولا حَشَمَ، ثُمَّ رَأَيْتَ كِسْرَى العَجَمِ عَلَى سَرِيْرِهِ المُرَصَّعِ بِالجَواهِرِ واليَواقِيْتِ، وأَهلَ بَيْتِهِ مُسْتَغْرِقِيْنَ بالتَّرَفِ والنَّعِيْمِ، مُحَاطِينَ بِالخَدَمِ والحَشَمِ، أينَ تَكُونِيْنَ؟ ومَعَ أيِّ صِنفٍ تَنْصَرِفِيْنَ؟

فلا بُدَّ - إنْ وفَّقَهَا اللهُ - أنْ تُحِبَّ مَعِيَّةَ رسولِ الله ﷺ وأهْلِ بيْتِهِ، فَقُدْ بِهَذَا الشَّأْنِ هِمَّةَ القَلْبِ إلى أَهْلِ الحَالِ المُحَمَّديِّ تُحْسَبْ فِي حِزْبِ الله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

١٣٦-وإيَّاكَ أنْ تَنْظُرَ حَالَ تَقَشُّفِكَ شَيْئَاً؛ فَإِنَّ الجُوْعَ بلا مَعْرِفَةٍ وأَدَبٍ مُحَمَّديٍّ، وَصْفٌ مِنْ أَوْصَافِ الكِلابِ.

١٣٧-فَارْفَعْ قَدْرَكَ بِالأَدَبِ المُحَمَّدِيِّ إِلَى مَراتِبِ أَهْلِ الوَصْلَةِ مِنْ صُدورِ القَومِ، واقْطَعْ عَنْكَ رُؤْيَةَ العَمَلِ، واطْمِسْ حُرُوفَ أَنَانِيَّتِكَ فَإِنَّهَا بَقِيَّةُ إِبْلِيسَ، وَكُنْ عَبْدَاً مَحْضَاً تَفُزْ بِقُرْبِ سَيِّدِكَ، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾[النساء:٤٥].

١٣٨-تَعَلَّقَ النَّاسُ اليَوْمَ بِأَهْلِ الحُرْفِ والكِيمياءِ، والوَحْدةِ والشَّطْحِ، والدَّعْوَى العَرِيْضَةِ؛ إِيَّاكَ ومُقَارَبَةَ مِثْلِ هؤلاء النَّاسِ؛ فإنَّهم يقُودُونَ مَنِ اتَّبَعَهُم إِلَى النَّارِ، وغَضَبِ الجَبَّارِ، ويُدخِلُونَ فِي دِينِ الله ما لَيسَ مِنهُ.

وَهُم مِنْ جِلْدَتِنا، إِذَا رَأَيتَهُم حَسِبْتَهُم سَادَاتِ الدُّعَاةِ إِلَى الله تَعَالَى؛ حَسْبُكَ اللهُ، إِذَا رَأَيتَ أَحَداً مِنهُم قُلْ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾[الزخرف:٣٨].

١٣٩-جَاهِلٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الخِرْقَةِ يُلْحِقُ يَدَكَ بِيَدِ القَومِ، ويَأْمُرُكَ بِذِكْرِ الله، ومُلازَمَةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، خَيْرٌ مِنْ تِلكَ الطَّائفةِ كُلِّهَا، فِرَّ مِنْهُم كفِرَارِكَ مِنَ الأَسَدِ، كفِرارِكَ مِنَ المَجْذُومِ.

١٤٠-قالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَ اللهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدْىً، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:

«**دُعَاةٌ على أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا؟ قَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ على أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَأْتِيَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**».

هَذِهِ وَصِيَّةُ نَبِيِّكَ الأَمِيْنِ، سَيِّدِنا وَسَيِّدِ العَالَـمِيْنَ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ، فَاحْفَظْهَا وَاعْمَلْ بِهَا.

١٤١-وإِيَّاكَ والتَّعَزُّزَ بِالطَّرِيْقِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ سُوءِ الأَدَبِ مَعَ الله والخَلْقِ، وإِنَّمَا بُنِيَ هَذَا الطَّرِيْقُ عَلَى التَّذَلُّلِ؛ فَإِنَّ القَوْمَ ذَلُّوا حَتَّى أَتَاهُمُ اللهُ بِعِزٍّ عَلِيٍّ مِنْ عِنْدِهِ، وافْتَقَرُوا حَتَّى أَتَاهُم بِغِنَىً مِنْ فَضْلِهِ.

١٤٢-واحْذَرْ صُحْبَةَ الفِرْقَةِ الَّتِي دَأْبُهَا تَأْوِيْلُ كَلِمَاتِ الأَكَابِرِ، والتَّفَكُّهُ بِحِكَايَاتِهِم ومَا نُسِبَ إِلَيهِم؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ ذَلِكَ مَكْذُوبٌ عَلَيهِم، ومَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ عِقَابِ الله لِلْخَلْقِ لَـمَّا جَهِلُوا الـحَقَّ وحَرَصُوا عَلَى الـخَيْرِ، فَابْتَلاهُمُ اللهُ بِأُنَاسٍ مِنْ ذَوِي الـجَراءةِ السُّفهاءِ، فأدخَلُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَحَادِيْثاً تَنَزَّهَ مَقَامُ رِسَالَتِهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَنْهَا، مِنَ الْـمُرَغِّبَةِ والْـمُرَهِّبَةِ، والغَامِضَةِ والظَّاهِرَةِ، وسَلَّطَ اللهُ أيضاً أُنَاسَاً مِنْ أَهْلِ البِدْعَةِ والضَّلالَةِ، فَكَذَبُوا عَلَى القَومِ والرِّجَالِ الأَكَابِرِ، وأَدْخَلُوا فِي كَلامِهِم مَا لَيسَ مِنهُ، فَتَبِعَهُم البَعْضُ، فَأُلْحِقُوا بِالأَخْسَرِيْنَ أَعْمَالاً.

١٤٣-فَعَلَيْكَ بِالله، وتَمَسَّكْ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ بِذَيْلِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ والشَّرعُ الشَّرِيفُ: نُصْبَ عَيْنِكَ، وجَادَّةُ الإِجْمَاعِ ظَاهِرَةٌ لَكَ.

١٤٤-لا تُفَارِقِ الجَمَاعَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ، تِلْكَ الفِرقَة النَّاجِيَةَ، واعْتَصِمْ بِالله، واتْرُكْ مَا دُونَهُ، وقُلْ فِي سِرِّكَ أَي سيِّدي قَوْلِي:

فليتَكَ تَحْلُوْ والحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ وَلَيْتَـكَ تَرْضَـى والأَنَـامُ غِضَـابُ

وَلَيْـتَ الَّـذِي بِيْنِـي وَبَيْنَـكَ عَـامرٌ وبَيْنِـي وبَيْـنَ العَالَمِيْـنَ خَـرَابُ

إِذَا صَـحَّ مِنْـكَ الـوُدُّ فَالكُـلُّ هَيِّـنٌ وكُـلُّ الَّـذِي فَـوْقَ التُّـرَابِ تُـرابُ

١٤٥- ولا تَعْمَلْ عَمَلَ أَهْلِ الغُلُّوِّ، فَتَعْتَقِدَ العِصْمَةَ فِي المَشَايِخِ، أَوْ تَعْتَمِدَ عَلَيْهِم فِيْمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ ربِّكَ، فَإِنَّ اللهَ غَيُورٌ، لا يُحِبُّ أَنْ يُدْخِلَ فِي مَا آلَ إِلَى ذَاتِهِ بَينَهُ وبَينَ عَبدِهِ أَحَدَاً.

١٤٦-نَعَمْ، هُمْ أَدِلَّاءُ عَلَى الله، وسَائِلُ إِلَى طَرِيقِهِ، يُؤخَذُ عَنْهُم حَالُ رَسُولِ الله ﷺ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[المائدة: ١١٩].

نَتَوَسَّلُ إِلَى الله بِرِضَا الله عَنْهُم، لا يُخْزِي اللهُ عِبَادَهُ الَّذِيْنَ أَحَبَّهُم، وهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِيْنَ.

١٤٧-أُتْرُكِ الفُضُولَ، وانْقَطِعْ عَنِ العَمَلِ بِالرَّأْيِ، وإِذَا أَدْرَكَكَ زَمَانٌ رَأَيْتَ النَّاسَ فِيهِ عَلَى مَا قُلنَاهُ، فَاعْتَزِلِ النَّاسَ؛ فَقَدْ قَالَ - عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «**إِذَا رَأَيْتَ شُحَّاً مُطَاعَاً، وَهَوىً مُتَّبَعاً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِيْ رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِكَ**».

١٤٨-تَخَلَّقْ بِخُلُقِ نبيِّكَ، كُنْ لَيِّنَ العَرِيْكَةِ، حَسَنَ الخُلُقِ، عَظِيْمَ الحِلْمِ، وَفِيْرَ العَفْوِ، صَادِقَ الحَدِيثِ، سَخِيَّ الكَفِّ، رَقِيْقَ القَلْبِ، دَائِمَ البِشْرِ، كَثِيْرَ الاحْتِمَالِ والإِغْضَاءِ، صَحِيْحَ التَّواضُعِ، مُرَاعِيَاً لِلْخَلْقِ، رَاعِيَاً حَقَّ الصُّحبَةِ، مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، كَثِيْرَ الذِّكْرِ، طَوِيْلَ السُّكُوْتِ، صَبُوْرَاً عَلَى المَكَارِهِ، مُتَّكِلاً عَلَى الله، مُنْتَصِراً بِالله، مُحِبَّاً لِلْفُقَرَاءِ والضُّعَفَاءِ، غَضُوْبَاً لله إِذَا انتُهِكَتْ مَحَارِمُ الله.

١٤٩-كُلْ مَا وَجَدْتَ، ولا تَتَكَلَّفْ لِمَا فَقَدْتَ، ولا تَأْكُلْ متَّكِئَاً، والبَسْ خَشِنَ الثِّيَابِ، كَيْ يَقْتَدِيَ بِكَ الأَغْنِيَاءُ، ولا تُحْزِنْ لِجَدِيْدِ ثيابِكَ قُلُوْبَ الفُقَرَاءِ، وتَخَتَّمْ

بِالعَقِيْقِ، وَنَمْ عَلَى فِرَاشٍ حُشِيَ بِاللِّيْفِ، أَوْ عَلَى الحَصِيْرِ، أَوْ عَلَى الأَرْضِ، قَائِمَاً بِسُنَّةِ نبيِّكَ ﷺ فِي الحَرَكَاتِ والسَّكَنَاتِ، والأَفْعَالِ والأَقْوَالِ والأَحْوَالِ.

١٥٠-حَسِّنِ الحَسَنَ، وقَبِّحِ القَبِيْحَ، ولا تَجْلِسْ ولا تَقُمْ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ، ولْيَكُنْ مَجْلِسُكَ مَجْلِسَ حِلْمٍ وعِلْمٍ، وتَقْوَى وحَيَاءٍ وأَمَانَةٍ، وجَلِيْسُكَ الفَقِيْرُ ومُؤَاكِلُكَ المِسْكِيْنُ.

١٥١-ولا تَكُنْ سَخَّاباً ولا فَحَّاشاً، ولا تَذُمَّ أَحَداً، ولا تَتَكَلَّمْ إِلَّا فِيْمَا تَرْجُوْ ثَوَابَهُ، وأَعْطِ كُلَّ جَلِيْسٍ لَكَ نَصِيْبَهُ، ولا تَدَّخِرْ عَنِ النَّاسِ [بِرَّكَ].

١٥٢-واحْذَرِ النَّاسَ واحْتَرِسْ مِنْهُم، ولا تَطوِ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُم بِشْرَكَ، ولا تُشَافِهْ أَحَداً بِمَا يَكْرَهُ.

١٥٣-وصُنْ لِسَانَكَ وسَمَاعَكَ عَنِ الكَلامِ القَبِيْحِ، ولا تَنْهَرِ الخَادِمَ، ولا تَرُدَّ مَنْ سَأَلَكَ حَاجَةً إِلَّا بِهَا، أَوْ بِمَا يَسُرُّ مِنَ القَوْلِ.

١٥٤-وإِذَا خُيِّرْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ فَاخْتَرْ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ مَأْثَماً.

١٥٥-وأَجِبْ دَعوَةَ الدَّاعِ، وتَفَقَّدْ أَصْحَابَكَ وإِخْوَانَكَ، واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، ولا تُقَابِلْ عَلَى السَّيِّئَةِ بِالسَّيِّئَةِ، وقُمِ اللَّيلَ بَاكِياً فِي البَابِ، وَطِبْ بِاللهِ وَحْدَهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ [النساء:٤٥].

١٥٦-قَالَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ ﷺ: مَنْ شَهِدَ فِي نَفْسِهِ الضَّعفَ: نَالَ الاسْتِقَامَةَ.

وقَالَ: أَرْكَانُ الـمُرُوْءَةِ أَرْبَعَةٌ: حُسْنُ الـخُلُقِ، والتَّوَاضُعُ، والسَّخَاءُ، ومُـخَالَفَةُ النَّفْسِ.

وقَالَ: التَّوَاضُعُ يُوْرِثُ المَحَبَّةَ، والقَنَاعَةُ تُوْرِثُ الرَّاحَةَ.

وقَالَ: الكَيِّسُ العَاقِلُ: الفَطِنُ الـمُتَغَافِلُ.

وقَالَ: إِنَّمَا العِلمُ مَا نَفَعَ.

١٥٧-فَاشْهَدْ نَفْسَكَ بالضَّعْفِ والفَقْرِ تَسْتَقِمْ، وشَيِّدْ أَرْكَانَ الـمُرُوْءَةِ تُـحْسَبْ مِنْ أَهْلِها، وتَوَاضَعْ واقْنَعْ تَصِرْ مَحْبُوباً مُسْتَرِيحاً، وتَغَافَلْ تَكُنْ كَيِّسَاً.

١٥٨- وخُذْ مِنَ العِلْمِ مَا يَنْفَعُكَ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى ربِّكَ؛ فَإِنَّ دُنْيَاكَ خَيَالٌ، وكُلُّهَا زَوَالٌ، واللهُ مُحَوِّلُ الأَحْوَالِ.

يَــا أيُّهَــا المَعْــدُودُ أنْفَاسُــهُ	**لا بُــدَّ يَوْمــاً أَنْ يَــتِمَّ العَــدَدْ**
ولَيْلَــةٍ تَــأْتِي بِــلا لَيْلَــهِ	**لا بُــدَّ مِــنْ يَــوْمٍ بِــلا يَــوْمِ غَــدْ**

١٥٩- إِنَّ اللهَ طَوَى أَوْلِيَاءَهُ فِي بُرْدِ سَتْرِهِ تَحْتَ قِبَابِهِ، وحَجَبَهُمْ عَنْ غَيْرِهِ، لا يَعْرِفُهُمْ إِلَّا هُوَ، وهَذَا إِلْزَامٌ بِحُسْنِ الظَّنِّ فِي الخَلْقِ، فَإِيَّاكَ وسُوْءَ الظَّنِّ بِأَحَدٍ، إِلَّا إِذَا قَامَتْ لَكَ عَلَيهِ حُجَّةٌ شَرْعِيَّةٌ، فَرَاعِ شَرْعَ اللهِ مِنْ دُوْنِ انْتِصَارٍ إِلَى نَفْسِكَ، آخِذاً بِالإِخْلاصِ، مُتَجَرِّدَاً مِنْ غَرَضِ نَفْسِكَ ومَرَضِ قَلْبِكَ، وقَبِّحْ مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعُ، وحَسِّنْ مَا حَسَّنَهُ الشَّرْعُ، ولا يَكُنْ قولُكَ وفِعلُكَ إِلَّا للهِ.

١٦٠- وإِذَا لَمْ تَقُمْ لَكَ حُجَّةٌ شَرْعِيَّةٌ عَلَى الرَّجُلِ لا تَأْخُذِ الخَلْقَ أَوْ تُؤَاخِذْهُمْ بِالشُّبُهَاتِ، عَلَيْكَ بِحُسْنِ الظَّنِّ؛ فَإِنَّ للهِ مَعَ الخَلْقِ مُضْمَرَاتِ أَسْرَارٍ يَغَارُ عَلَيْهَا، لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١٦١- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة: ١٤٨]، فَلْتَكُنْ وِجهَتُكَ المَحَجَّةَ البَيْضَاءَ، شَرِيْعَةَ سَيِّدِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١].

١٦٢- أَبَى العَقْلُ إِلَّا إِعْقَالَ مَا بَلَغَهُ بِوَاسِطَةِ الفَهْمِ، وأَبَى القَلْبُ إِلَّا التَّرَقِّي إِلَى مَا فَوْقَ الفَهْمِ، فَاجْعَلْ هِمَّتَكَ قَلْبِيَّةً، وحِكْمَتَكَ عَقْلِيَّةً تُفْلِحْ.

١٦٣- فِي الكَفِّ عِرْقٌ مُتَّصِلٌ بِالقَلْبِ، إِذَا أُخِذَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا تَسْرِي آفَتُهَا إِلَى القَلْبِ، وهَذِهِ آفَةٌ عَظِيْمَةٌ مَخْفِيَّةٌ، لا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا الخَلائِقُ.

١٦٤- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ**» اِزْهَدْ فِي الدُّنيا، وتَبَاعَدْ عَنْ لَذَائِذِهَا.

١٦٥-وإِيَّاكَ ونَوْمَ اللَّيْلِ كَالدَّابَّةِ؛ فَإِنَّ للهِ فِي اللَّيلِ تَجَلِّيَاتٍ ونَفَحَاتٍ، يَغْتَنِمُهَا أَهْلُ

القِيَام، ويُحْرَمُ ثَمرَتَها أَهْلُ التَّلَذُّذِ بِالمَنَامِ.

١٦٦- قُلْ لِلْمَغْرُورِ بِأَمْنِهِ، المُتَلَذِّذِ بِنَوْمِهِ، المَشْغُولِ القَلْبِ عَنْ رَبِّهِ:

يـا نَـؤُوْمَ اللَّيـلِ فـي لذَّتِـهِ   إنَّ هـذا النَّـومَ رَهْـنٌ بِسَـهَرْ

لـيسَ يَنْسَـاكَ وإنْ نَسِـيْتَهُ   طالِـعُ الدَّهْـرِ وتَصْرِيـفُ الغِيَـرْ

إنَّ ذا الـدَّهرَ سـريعٌ مَكْـرُهُ   إنْ عـلا طَّ وإنْ أَوْفَـى غَـدَرْ

أَوْثَـقُ النَّـاسِ بـهِ فـي أَمْنِـهِ   خـائفٌ يَقْـرَعُ أبـوابَ الحَـذَرْ

١٦٧-المُشَاهَدَةُ حُضُورٌ بِمَعْنَى قُرْبٍ مَقْرُوْنٍ بِعِلْمِ اليَقِيْنِ، وحَقِّ اليَقِيْنِ، فَمَنْ حَمَاهُ اللهُ مِنَ البُعْدِ والغَفْلَةِ، وتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِعِلْمِ اليَقِيْنِ وحَقِّ اليَقِيْنِ بِمَعْنَى: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، فَقَدْ دَخَلَ حَضْرَةَ الشُّهُوْدِ، وهِيَ هَذِهِ لا غَيْرُ، وإِلَّا فَالمُشَاهَدَةُ لُغَةً لا تَصِحُ لِمَخْلُوْقٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ وحَسْبُكَ قِصَّةُ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

١٦٨-حَضْرَةُ المُشَاهدةِ لُغَةً ومَعْنَىً؛ حَضْرَةٌ اخْتَصَّ بِهَا صَاحِبُ قَوْسَيْنِ، بِالقَلْبِ والعَيْنِ، والاخْتِلافُ فِيْهَا مَعْلُوْمٌ، واخْتِصَاصُهُ بِهَا عِنْدَ أَهْلِ اللهِ مَجْزُومٌ.

١٦٩-فَأَدِّبْ نَفْسَكَ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَا يُرْضِيْهِ، تُحْسَبْ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الحَضْرَةِ، بِنَصِّ: «**لا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ...**»الحديث.

١٧٠- هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً.

١٧١- مَنْ تَمَشْيَخَ عَلَيْكَ تَتَلْمَذْ لَهُ، ومَنْ مَدَّ لَكَ يَدَهُ لِتُقَبِّلَهَا فَقَبِّلْ رِجْلَهُ، وكُنْ آخِرَ شَعْرَةٍ فِي الذَّنَبِ؛ فَإِنَّ الضَّربَةَ أَوَّلُ مَا تَقَعُ فِي الرَّأسِ!.

١٧٢-إِذَا بَغَى عَلَيْكَ ظَالِمٌ، وانْقَطَعَتْ حِيْلَتُكَ عِنْدَ دِفَاعِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ حِيْنَئِذٍ وَصَلْتَ بِطَبْعِكَ إِلَى صِحَّةِ الالْتِجَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ فَاصْرِفْ وِجْهَةَ قَلْبِكَ عَنْ

غَيْرِهِ وأَسْقِطْ مُرَادَكَ فِي بَابِهِ، واتْرُكِ الأَمْرَ إِلَيْهِ تَنصَرِفْ إِلَيْكَ مَادَّةُ المَدَدِ، فَتَفْعَلُ لَكَ مَا لا يَخْطُرُ ببَالِكَ؛ وهَذَا سِرُّ التَّسْلِيْمِ وصِدْقُ الالْتِجَاءِ إِلَى الله.

١٧٣-وإِنِ ارْتَفَعَتْ هِمَّتُكَ إِلَى الرِّضَا بِالقَدَرِ، كَمَا وَقَعَ لِلإِمَامِ مُوْسَى الكَاظِمِ سَلامُ الله عَلَيْهِ ورِضْوَانُهُ حَيْنَ اعْتَقَلَهُ الرَّشِيْدُ غَفَرَ اللهُ لَهُ وحَمَلَهُ مِنِ المَدِيْنَةِ إِلَى بَغْدَادَ مُقَيَّداً، وحَبَسَهُ، فَبَقِيَ فِي حَبْسِهِ، فَلَمْ يُفْرَجْ عَنْهُ حَتَّى مَاتَ رضي الله عنه، وأُخْرِجَ مَيْتاً مَسْمُوْماً، وقَيْدُهُ فِيْهِ، ومَا انْحَرَفَ عَنْ قِبْلَةِ الرِّضَا حَتَّى مَاتَ رَاضِياً عَنِ الله.

١٧٤- فَتِلْكَ مَرْتَبَةُ الفَوْزِ العَظِيْمِ الَّتِي دَرَجَتْ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

١٧٥- وقَدْ انْدَرَجَ أَئِمَّةُ أَهْلِ البَيْتِ عَلَيْهِمُ سَلامُ الله ورِضْوَانُهُ عَلَى الرِّضَا الخَالِصِ، مَعَ قُوَّةِ الكَرَامَةِ ورِفْعَةِ القَدْرِ عِنْدَ الله.

١٧٦- فَقَدْ صَحَّ أَنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ الأُمَوِيَّ حَمَلَ الإِمَامَ عَلِياً زَيْنَ العَابِدِيْنَ سَلامُ الله عَلَيْهِ ورِضْوَانُهُ مِنَ المَدِيْنَةِ مُقَيَّداً مَغْلُوْلاً فِي أَثْقَلِ قُيُوْدٍ وأَغْلَظِ أَغْلالٍ! فَدَخَلَ عَلَيْهِ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يُوَدِّعُهُ، فَبَكَى، وقَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي مَكَانَكَ يَا ابْنَ رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم.

فَقَالَ: تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَكْرُبُنِي؟ لَوْ شِئْتُ لَمَا كَانَ؛ وإِنَّهُ لَيُذَكِّرُنِي عَذَابَ الله تَعَالَى، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ مِنَ القَيْدِ ثُمَّ أَعَادَهَا، فَعَلِمَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الإِمَامَ حَلَّ مَنْزِلَةَ الرِّضَا، وَوَصَلَ مَقَامَ التَّسْلِيْمِ المَحْضِ، ودَخَلَ حَضْرَةَ الفَوْزِ العَظِيْمِ، فَطَابَ صَدْرُهُ، وسَلا حُزْنُهُ.

١٧٧-فَزِنْ نَفْسَكَ، فَإِنْ قَدِرْتَ عَلَى المَرْتَبَةِ العُلْيَا - وهِيَ رُتْبَةُ الرِّضَا - فَافْعَلْ، وإِلَّا فَانْزِلْ إِلَى المَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةُ صِدقِ الالْتِجَاءِ إِلَى الله مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَدْبِيْرِكَ، وحَوْلِكَ وقُوَّتِكَ، وكُلِّكَ وجُزْئِكَ، وهُوَ تَعَالَى يَفْعَلُ بِكَ بِنَصْرِهِ وقُدْرَتِهِ فَوْقَ إِرَادَتِكَ وتَدْبِيْرِكَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥].

١٧٨-إِذَا هَرَعْتَ إِلَى الله، والتَجَأْتَ إِلَيْهِ، فَاجْعَلْ وَسِيْلَتَكَ حَبِيبَهُ ﷺ، صَلِّ عَلَيْهِ وسَلِّمْ تَسْلِيْماً، وأَكْثِرْ مِنَ الصَّلاةِ والسَّلامِ عَلَيْهِ مَهْمَا أَمْكَنَكَ، وَقِفْ فِي بَابِ الله بِالعَمَلِ بِسُنَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، واسْأَلِ اللهَ سُبْحَانَهُ مُعْتَمِداً عَلَيْهِ تَعَالَى، مُسْتَعِيناً بِهِ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ.

١٧٩-وإِذَا أُغْلِقَتْ عَلَيْكَ الأَبْوَابُ، فَتَرَقَّبْ مِنَ الفَتَّاحِ فَتْحَ البَابِ، فَمَا سَدَّ الخَلْقُ طَرِيْقَاً إِلَّا وَفَتَحَهُ الخَالِقُ، انْفِراداً بِرُبُوبِيَّتِهِ، وتَعَزُّزاً بِأُلوهِيَّتِهِ، فَلا تَقْنَطْ مِنْ رحمَتِهِ، ولا تَيْأَسْ مِنْ رَوحِهِ، وعَلَيْكَ بِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾[النساء:٤٥].

١٨٠-التَّوْفِيْقُ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١٨١- دَعْ هَمَّ الحَسُوْدِ، فَهَمُّهُ بِكَ فَوْقَ هَمِّكَ بِهِ؛ خَلِّ جَانِبَ الأَحْمَقِ، فَكَدَرُكَ بِهِ فَوْقَ كَدَرِهِ بِنَفْسِهِ.

١٨٢- لازِمْ مجَالِسَ العُقَلاءِ، وخُذِ الحِكْمَةَ أَيْنَ رَأَيْتَهَا؛ فإِنَّ العَاقِلَ يَأْخُذُ الحِكْمَةَ لا يُبَالِي عَلَى أَيِّ حَائِطٍ كُتِبَتْ وعَنْ أَيِّ رَجُلٍ نُقِلَتْ، ومِنْ أيِّ كَافِرٍ سُمِعَتْ.

١٨٣-هذِهِ الدُّنيا خُلِقَتْ لِلْعِبْرَةِ؛ والعِبْرَةُ بِكُلِّ مَا فِيْهَا عَقْلٌ، فَخُذْ بِقُوَّةِ عَقْلِكَ العِبْرَةَ مِنْ كُلِّ مَأْخَذٍ، واصْرِفْ نَظَرَكَ عَنْ محَلِّهَا.

١٨٤-إِيَّاكَ والتَّقَرُّبَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ التَّقَرُّبَ مِنْهُمْ يُقَسِّي القَلْبَ، والتَّوَاضُعُ لَهُمْ مُوْجِبٌ لِغَضَبِ الرَّبِّ، وتَعْظِيْمُهُم يَزِيْدُ فِي الذُّنُوْبِ.

١٨٥-اتَّخِذِ الفُقَرَاءَ أَصْحَاباً وأَحْبَاباً، وعَظِّمْهُمْ، وكُنْ مَشْغُولاً بِخِدمَتِهِمْ، وإِذَا جَاءَكَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَانتَصِبْ لَهُ عَلَى أَقْدَامِكَ وتَذَلَّلْ لَهُ.

١٨٦-وإِذَا وَقَعَتْ خِدْمَتُكَ لَدَى الفُقَرَاءِ مَوقِعَ القَبُوْلِ، فَاسْأَلْهُمُ الدُّعاءَ الصَّالِحَ، واجْتَهِدْ أَنْ تَعْمُرَ لَكَ مَقَاماً فِي قُلُوْبِهِمْ؛ فَإِنَّ قُلُوْبَ الفُقَرَاءِ مَوَاطِنُ

الرَّحْمَةِ، ومَوَاقِعُ النَّظَرِ القُدُسِيِّ، وصَفِّ خَاطِرَكَ مِنَ الرُّعُونَاتِ البَشَرِيَّةِ.

١٨٧-ومَنْ كَانَ لَكَ عَلَيْهِ حَقٌّ أَوْ لَهُ عَلَيْكَ حَقٌّ، فَدَارِهِ حَتَّى يُعْطِيْكَ حَقَّكَ، أَوْ إِلَى أَنْ تُعْطِيَهُ حَقَّهُ، وإِنْ قَدَرْتَ فَسَامِحْ مَنْ لَكَ عَلَيْهِ حَقٌّ يُعَوِّضُ اللهُ عَلَيْكَ.

١٨٨-وكُنْ مَعَ الخَلْقِ بِالأَدَبِ؛ فَإِنَّهُ أدبٌ مَعَ الخَالِقِ.

١٨٩-تُبْ بِكُلِّيَّتِكَ مِنْ رُؤْيَةِ نَفْسِكَ، ونَسَبِكَ، وأَهْلِكَ؛ فإنَّ «**مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**».

١٩٠-قُمْ بِصِلَةِ رَحِمِ رَسُولِ الله ﷺ، عَظِّمْ ذَوِي قَرَابَتِهِ؛ فَإِنَّ طَوْقَ مِنَّتِهِ فِي أَعْنَاقِنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

١٩١-صَحِّحِ الحُبَّ لِجَمِيْعِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانُ الله وسَلامُهُ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهم مَصَابِيْحُ الهُدَى، ونُجُومُ الاِقْتِدَا، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**».

خَفِ اللهَ، خَفِ اللهَ: «**رَأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ**»، «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ**».

هذِهِ نصيحَتِي لكَ.

أيْ أَخِي، أَخَذَتْنِي سَكْرَةُ التَّعْلِيْمِ إِلَّا أَنِّي جَرَّبْتُ الزَّمَانَ وأَهْلَهُ، وعَارَكْتُ النَّفْسَ، وخَدَمْتُ الشَّرْعَ، وانْتَفَعْتُ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الصَّفَا.

فَاقْبَلْ نَصِيْحَتِي؛ فَإِنَّهَا إِنْ شَاءَ اللهُ نَشَأَتْ بِإِخْلاصٍ عَنْ حُبٍّ لَكَ.

«**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**».

أَيْ عَبْدَ السَّمِيْعِ، اعْمَلْ بِنَصِيْحَتِي ولا تَرَانِي رَجُلاً.

إِنْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: إِنَّ فِي مَمْلَكَةِ الرَّحْمَنِ مَخْلُوْقاً هُوَ أَضْعَفُ مِنْ هَذَا اللاش أُحَيمِدَ

فَلا تُصَدِّقْهُ؛ بَلْ أقول: يَسَّرَ اللهُ عَلَيَّ وعَلَيْكَ الطَّرِيْقَ، وجَعَلَنَا وإِيَّاكَ والْمُسْلِمِيْنَ مِنَ الـمُصْطَفِيْنَ الأَخْيَارِ، والـمُخْلِصِيْنَ الأَبْرَارِ، أَحْبَابِ الله ورَسُولِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾[النساء:٤٥]، والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَـمِيْنَ.

[افتتاحية الكتاب]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد سادات المرسلين، سيِّدنا ونبينا ومولانا النَّبي العربيِّ الزَّكيِّ الأمين، محمَّدٍ أبي القاسم، علَّة المخلوقين، وعلى آله وأصحابه الكرام الطَّاهرين أجمعين، وعلى التَّابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أما بعد :

فيقول أضعف عباد الله، المتوكِّل في كلِّ أحواله على الله، محمَّد أبو الهدى، ابن السيِّد حسن وادي، ابن السيِّد عليّ، ابن السيِّد خُزام، ابن السيِّد عليّ الخزام، ابن السيِّد حسين برهان الدِّين الرَّفاعيُّ البصريُّ ثمَّ الخالديُّ المخزوميُّ، غفرَ اللهُ له ولوالديهِ وللمسلمينَ، آمين.

قد تنوَّرت بالوقوف على كتاب حِكَم الغوث الأكبر ، والعلم الأشهر ، شيخ سلاطين الشُّيوخ، ومرجع كمَّل أهل التَّمكُّن والرُّسوخ، قطب الأقطاب، وملجأ الأفراد والأنجاب، البحر المطمطم، الَّذي رفع الله رتبته على أوليائه، بأنْ شرَّفه علناً بتقبيل يد النَّبيِّ ﷺ، القطب الجامع الشَّريف، والإمام السَّند الغِطريف[1]، مولانا وسيِّدنا ومفزعنا، مرجع الجليل والحقير، صاحب الشَّجرة أبي العلمين، شيخ العواجز، السيِّد الشَّيخ أحمد الرِّفاعي الحسيني الكبير - قدَّس اللهُ أسرارَهُ وضاعفَ بفضلِهِ أنوارَهُ - آمين.

---

(١) الغِطْريف بالكسر: السيّد الشريفُ السَّخِيّ الكثير الخير . «لسان العرب» مادة: (غطرف).

فلما قَرَّتْ بمطالعة حِكَمِه العين، وكشف الله ببركة تدبُّرها و قراءتها عن القلب حجاب الغين[1]؛ تحرَّكت الهمَّة القلبيَّة لشرح معانيها الجليلة، وإيضاح ما انطوى فيها من وجيز المعاني الجزيلة، مقتصراً فيها على المقاصد اللَّازمة في أسلوبها الكريم، مستمدَّاً من الله ببركة ولاية صاحبها، أنْ يسلك بي سبحانه الطَّريق المستقيم؛ فإنَّه لا يُلْتَجَأُ وحقِّه إلَّا إليه، ولا يُعوَّل في كلِّ الأمور إلَّا عليه، فتمَّ بحمد الله المطلوب، وحصل المرغوب، فكان تعليقاً لطيفاً، وشرحاً شريفاً، وسميته: «قلائد الزَّبَرْجَد»[2]، على حِكَمِ مولانا الغوث الشَّريف الرِّفاعيِّ أحمد.

أَيَّدنا الله ببركة ولايته ونفحاته، ونفعنا الله والمسلمين بعلومه الشَّريفة وبركاته، آمين.

وقد طاب لي أن أكتب المقدمة التي ذكرها جامع الحكم الأحمديَّة المذكورة، صاحب العوارف المأثورة، والمناقب المبرورة، علم العلماء، ونتيجة الفقهاء، الوليُّ المقرب من الجناب الباسطي، مولانا الإمام عليٌّ أبو الفضل الشَّافعي الواسطي قُدِّسَ سِرُّهُ للتَّبرُّك بعبارته وحصول النَّفع بإشارته، قال نفعنا الله به:

(١) الغين: دون الرَّين، وهو الصّدأ، فإنَّ الصّدأ حجابٌ رقيقٌ يزول بالتّصفية ونور التّجلي لبقاء الإيمان معه، والرَّين، هو الحجاب الكثيف الحائل بين القلب والإيمان، ولهذا قالوا: الغين، هو الاحتجاب عن الشّهود مع صحّة الاعتقاد. «التّعريفات» للجرجاني (باب الغين).

(٢) الزَّبَرْجَدُ والزَّبَرْدَجُ: الزُّمُرُّد . «لسان العرب» مادة: (زبرجد).

[مقدمة الشيخ علي أبو الفضل الواسطي]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا ومولانا ونبيِّنا محمَّدٍ رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

أما بعد :

فيقول فقير رحمة ربِّه، عليٌّ أبو الفضل الواسطيُّ الشَّافعيُّ[1] أحسن الله إليه بالعفو والمغفرة آمين: «رأيتُ في خزانة الحَبر[2] الجليل، العريق الأصيل، الشَّيخ عبد السَّميع الهاشمي نفعنا الله بعلومه هذه الرِّقاع بخطِّ السيِّد الكبير، والوليِّ المقدَّمِ الشَّهيرِ، شيخِ المشَّايخِ، الجبلِ الرَّاسخِ، بحرِ المعارفِ، وكنزِ العوارفِ، ربِّ اليدِ البيضاءِ، والمنقبةِ العظمى، تاجِ أولياءِ عصرِهِ، أبي العباسِ، القطبِ الشَّريفِ، السيِّد أحمد محيي الدِّين صاحب العَلَمين[3]، ابن السيِّد الجليلِ وليِّ الله أبي الحسن

---

(١) هو الثقة الشيخ العارف الكبير عليٌّ أبو الفضل المتوفي عام عشرين وستمائة ابن الشيخ محمد أبي المكارم ابن الشيخ الكبير علي أبي الفضل الواسطيِّ القاري رضي الله عنه. «المعارف المحمدية» للإمام الصياد صـ٤٧ـ.

(٢) قال الأَصمعي: لا أَدري أَهو الحِبْرُ أَو الحَبْر للرجل العالم، قال أَبو عبيد: والَّذي عندي أَنه الحَبر بالفتح، ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه، قال: وهكذا يرويه المحدّثون كلهم بالفتح. «لسان العرب» مادة: (حبر).

(٣) قال الإمام الرافعي في «سواد العينين» صـ ٦٧-٧٠ـ: «سألت الشيخ العارف بالله ركن الدين بن نبهان الشيباني عن سبب اشتهار السيد أحمد الرفاعي بأبي العلمين؟ قال: لأنَّ عَلَم الغوثية العظمى والقطبية الكبرى رُفع له مرتين في الأكوان، وهو أنَّ الغوث أحمد بن خلف البلخي الحسيني نزيل بغداد لما مات رُفع لواء الغوثية للسيد أحمد الكبير ، فوقف في باب الله وتذلَّل وتململ على عتبة جدِّه رسول الله ﷺ، وقال: العفو العفو، فقبل الحقُّ منه مقاله فتمكن في مقام غوثيته بالتَّرقي، فرُفع لواء الغوثية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.. وتصدَّر على بساط الغوثية العظمى ثمان سنين على الصَّحيح، وقيل: سِتاً، وتوفي في بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة عن إحدى وتسعين سنة، فرُفِع عَلَم الغوثية مرةً ثانيةً للسيّد أحمد الرّفاعيّ فوقف على الباب فأحاط به النِّداء من كلّ جانبٍ يقول له ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[هود : ١١٢]، فلزم الباب مُمتثلاً، وامتدت مدة غوثيته الثانية ستَّ عشرة سنة وأشهراً على =

عليٍّ الحسيني الرِّفاعي قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ورضيَ عنه وقد كتبَ على حاشِيَتِها، شيخُنا الشَّيخ عبدُ السَّميعِ الهاشميُّ بخطِّه: هذه حِكَمُ الغوثِ الشَّريفِ، سيِّدِنا السيِّدِ أحمد الرِّفاعيِّ الـحُسيني ﷺ، تكرَّم بها عليَّ وأمرني بحفظِها، وهي من أنفسِ الذَّخائرِ لِـمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى». انتهت بحروفها.

[ترجمة المؤلف للشيخ عبد السميع الواسطي]

قلت: الشَّيخ عبد السَّميع الواسطيُّ الهاشميُّ الَّذي ذكره صاحب المقدمة، هو من أعيان نجباء بني العبَّاس، ومن أفضل علماء عصره، كان من أكابر واسط، ومن خواصِّ أفاضلها أهل العلم والدِّين، ثقةً إماماً حسن الرِّوايةِ، معروفاً بالصِّدق والزُّهد والعبادة، وهو من أجلِّ خلفاء مولانا السيِّد أحمد رضي اللهُ عنهما، وتنتهي نسبته إلى الأمير الشَّهير، الهاشمي الكبير، جعفر[1] بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهم أجمعين.

قال شيخ الإسلام حافظ العصر، عبد الرحمن جلال الدِّين السُّيوطي[2] قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه: «رفع الباس عن بني العباس» ما نصُّه: عبد السَّميع بن أبي تمَّام عبد الله بن عبد السَّميع الهاشمي أبو المظفَّر الواسطي، من ذرِّيَّة جعفر بن سليمان الأمير، قرأ

=

الصحيح؛ فلهذا اشتهر بين أولياء الله في الكونين بأبي العلمين».

(١) جعفر بن سليمان تـ(١٧٤أو١٧٥)هـ: الأمير الهاشمي، كان جواداً عالماً فاضلاً، أحد الموصوفين بالشجاعة والفروسية، وقد ولي إمرة الحجاز وإمرة البصرة. «تاريخ المسلمين» للذهبي ٣/ ٢٨٦ .

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين (٨٤٩-٩١١)هـ: إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة، نشأ في القاهرة يتيماً مات والده وعمره خمس سنوات، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنَّه لا يعرف أحدًا منهم، فألف أكثر كتبه، وبقي على ذلك إلى أن توفي، من كتبه: «الإتقان في علوم القرآن»، و«الجامع الصغير»، و«جمع الجوامع»، ويعرف بالجامع الكبير، و«الحاوي للفتاوى» وغير ذلك. انظر: «الأعلام» للزركلي ٣/ ٣٠١.

القرآن على المبارك بن الرواس، والقلانسي، ورحل إلى بغداد فقرأ على أبي الخطاب الجرَّاح، وثابت بن بندار، وسمع من جعفر السراج وعدَّة، روى عنه ابن سكينة، وابن السمعاني، وكان عابداً صوَّاماً، ولد سنة ستٍّ وأربعمائةٍ، ومات في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. انتهى.

وقد أيَّد الله هذه العائلة المباركة العبَّاسيَّة بخدمة سيِّدنا السيِّد أحمد، والتَّلقِّي عنه، فإنَّ وَلَدَ مولانا الشَّيخ عبد السَّميع الهاشمي الواسطي المشار إليه، الشَّيخ الحجة القدوة، العلامة الفهَّامة، ولي الله شرف الدِّين محمَّد بن عبد السَّميع الهاشمي الواسطي[1]، هو الَّذي جمع كتاب «البرهان المؤيد» رواية من فم شيخنا وملجئنا، مرشد الإسلام وشيخ الخواصِّ والعوامِّ، السيِّد أحمد الكبير ﵁، وبالجملة فهم أهل بيتٍ رفع الله بهم أعلام الطَّريقة الأحمديَّة، وشيَّد بهم معالم السُّنَّة السَّنيَّة المحمَّديَّة، ولنرجع للمقصود، **فنقول:**

قال سيدنا صاحب الحكم ﵁:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى اللهُ وسلَّم على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين، والسَّلام علينا وعلى عبادِ الله الصَّالحين.

من العبد اللاش أُحَيْمدَ، إلى الشَّيخ الْـمُحتَشِم أخينا عبد السَّميع الهاشمي، كان اللهُ لنا وله وللمسلمين، آمين.

أي أخي: أوصيكَ بتقوى اللهِ، واتِّباعِ سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وأُحِبُّ أنْ تحرِصَ على

---

(١) محمد بن عبد السَّميع بن عبد الله بن عبد السَّميع الهاشمي الواسطي (٥٠٥–٥٨٠)هـ: شريف صالح عابد، قرأ بالقراءات على أبي بكر المناخلي، وأبي البركات بن كروار، وبالكوفة على عمر ابن حمزة العلوي وسمع من خميس الحوزي، والحسن بن إبراهيم الفارقي، ونصر الله بن محمد بن مخلد، وحدث بواسط الكثير وأقرأ. انظر: «مختصر ابن الدبيثي» للذهبي ١/ ٤٤.

نصيحتي هذه، فهي نافعةٌ لكَ ولأمثالِكَ إنْ شاءَ اللهُ؛ وإيَّاكَ أنْ تودِعَها غيرَ أهلِها فتظلمها.

ابتدأ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ كتابه المبارك: بالبسملة والحمد لله والصَّلاة على رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، عملاً بقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**كُلُّ أمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدأُ فِيهِ بِبسمُ الله الرَّحمنِ الرَّحيم فَهُوَ أَقْطَعُ**».

وامتثالًا لقوله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**كُلُّ أمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدأُ فِيهِ بِحَمْد الله، والصَّلاةُ عليَّ فَهُوَ أَقْطَعُ أَبْتَرُ مَمْحُوْقٌ مِنْ كُلِّ بَرَكَةٍ**»[1].

وقد ذكر الصَّالحين الكرام بخير، وحقَّق نفسه الزَّكيَّة بمقام العبوديَّة، فَعَنونَ نفسه الرَّضية بالعبد، تمكُّنًا ووقوفًا عند حدِّ العبديَّة، الَّذي هو منتهى كلّ مخلوقٍ طهَّرَ الله قلبه من لوث الأغيار، ثمَّ وصفَ نفسه بالاش، أي: الَّذي لا شيء، ولا على شيءٍ، انقهاراً تحت سطوة الرُّبوبيَّة، وتجرُّدًا من علائق النَّفس والبشريَّة، واستنادًا محضًا إلى الله تبارك وتعالى.

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦)، باب الهدي في الكلام (٢١) رقم٤٨٤٠، والنسائي في «السنن الكبرى»: كتاب عمل اليوم والليلة (٨١)، باب ما يستحب عند الحاجة...(١٨٢) رقم ١٠٣٢٨، وابن ماجه في «السنن»: كتاب النكاح (٩)، باب خطبة النكاح (١٩) رقم ١٨٩٤، وابن حبان في «صحيحه»: المقدمة (١) باب ما جاء في الابتداء بحمد الله تعالى (١) رقم ١، وعزاه السيوطي لعبد القادر الرهاوي في الأربعين في «الجامع الصغير»، ورمز لضعفه برقم ٦٢٨٤، ورواه أيضاً البيهقي في «السنن الكبرى»، والدارقطني في «السنن»، وعبد الرزاق في «المصنف»، وابن أبي شيبة في «المصنف» وغيرهم، ورووه بألفاظ مختلفة فيها: «ببسم الله الرحمن الرحيم»، و«ببسم الله»، و«بالحمد لله»، و«بحمد لله»، و«بالحمد»، و«بذكر الله»، و«أبتر»، و«أقطع»، و«أجذم».

وقال الإمام النووي في «الأذكار»، باب حمد الله تعالى (٧١) رقم ٢٨٨: هو حديث حسن، وقد روي موصولًا، وروي مرسلًا، ورواية الموصول جيدة الإسناد، وإذا روي الحديث موصولًا ومرسلًا، فالحكم للاتصال عند جمهور العلماء؛ لأنَّها زيادة ثقة، وهي مقبولة عند الجماهير.

ثم أتبع كلَّ ذلك تأكيداً بتصغير اسمه المبارك، فقال: أُحَيْمَدَ ؛ وعظَّمَ مُخَاطَبَهُ حال كونه من أصحابه وأتباعه، فوصفَهُ بالشَّيخ المحتشم؛ وصدَّرَ وصيَّته له بتقوى الله، واتِّباع سُنَّة رسول الله ﷺ، اقتداءً بالنَّبيِّ المكرَّم ﷺ؛ فإنَّه قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لرجلٍ قال له أوصني: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله؛ فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ**»(١).

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مَائَةِ شَهِيْدٍ**»(٢).

ثمَّ أمره بالحرص على نصيحته، حرصًا على حصول النَّفع لأخيه المسلم عملاً بقول الله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وتحقُّقاً بقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ**»، قَالُوا لِـمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْـمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(٣).

وقد أوضحتُ معنى هذا الحديث الشَّريف في رسالتي «داعي الرشاد»(٤)

---

(١) رواه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: الطبراني في «الصغير» رقم ٩٤٩، ٢/ ١٥٦، وأبو يعلى في «مسنده» رقم ١٠٠٠، ٢/ ٢٨٣، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»١/ ٣٠١: وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وقد وثق هو وبقية رجاله.

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: البيهقي في «الزهد الكبير» رقم ٢٠٧، ٢/ ١١٨، ورواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أبو نعيم في «حلية الأولياء» ٨/ ٢٠٠، والطبراني في «الأوسط» رقم ٥٤١٤، وقال المنذري في «الترغيب» رقم ٦٥: رواه الطبراني من حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به.

(٣) رواه عن تميم الداري رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٦٩٨٢، و١٦٩٨٣، ٤/ ١٠٢، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب بيان أنَّ الدين النصيحة (٢٣) رقم٥٥، وأبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦)، باب النصيحة (٦٧) رقم ٤٩٤٤، والنسائي في «السنن»: كتاب البيعة (٣٩)، باب النصيحة للإمام (٣١) رقم ٤١٩٧.

ورواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٧٩٤١، ٢/ ٢٩٧، والترمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة (٢٨)، باب ما جاء في النصيحة رقم (١) رقم ١٩٢٦، وقال هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في «السنن»: كتاب البيعة (٣٩)، باب النصيحة للإمام (٣١) رقم ٤١٩٩.

(٤) صـ ٢٢ – ٢٣ـ.

حسبما قَرَّرَهُ أئمَّة الدِّين رضي الله عنهم أجمعين، **فقلت:**

- النُّصح لله تعالى: هو الإقرار والتَّصديق بوحدانيَّته، وكماله، وقدرته، وتنزيهه عن كلِّ نقصٍ مع الخضوع له، والرِّضا منه في كلِّ حالٍ، والائتمار بما أمر به، والانتهاء عمَّا نهى عنه.

- والنَّصيحة لكتابه تعالى: حفظه من التَّحريف والتَّأويل الباطل، وتعظيم أحكامه الشَّريفة بالتَّأويلات الصَّحيحة، وقراءته وتلاوته بالأدب والتَّجويد، ورعاية معانيه، وتعليمها لذي القدرة من عباد الله تعالى.

- والنُّصح لرسوله ﷺ: التَّصديق بكافة الأحكام التي جاء بها ﷺ مع حسن التَّخلُّق بأخلاقه الجميلة الشَّريفة، والعمل بطريقته وشريعته، والتَّرغيب بالوسائل الممدوحة للتَّأدب بآدابه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

- والنُّصح لأئمَّة المسلمين: يعني؛ من حاز الإمامة الكبرى، والخلافة العظمى، هو أنَّه إذا غفل الأمير حسب البشريَّة عن قضيَّةٍ لازمةٍ في ملكه لإصلاح أمر الرَّعيَّة، وتشييد الأركان الدِّينيَّة، يعرض له النَّاصح حقيقة الحال بحسن التَّعبير بلا غرضٍ ولا آمالٍ، وأن يجمع له القلوب النَّافرة عنه، ويجلبها بالأساليب الممدوحة لمحبَّته، ويدفع عنه حركة الفساد، ويقطع بحسن نصيحته عنه ألسنة أهل البغي والعناد، ويشتغل بصالحه وقضاء مصالحه على مقتضى إمكانه.

والنُّصح للمسلمين: هو الشَّفقة عليهم، والتَّعظيم لكبيرهم، والمرحمة لصغيرهم، والفرح لفرحهم، والحزن لحزنهم، وهذا هو المقصود من قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التوبة:٧١].

وقد حَذَّر ﷺ خليفته، الشَّيخ عبد السَّميع قُدِّسَ سِرُّهُ من إيداع الحكمة غير أهلها؛ لأنَّ الحكمة إذا استودعت عند غير أهلها الَّذين لا يعرفون قدرها، ولا يدركون شرف النَّتيجة المقصودة منها، يهملونها فتضيع، وتبقى في زوايا الكتمان محجوبة عن أهلها، فتظلم، وما أحسن قول القائل:

ومَنْ منحَ الجُهَّالَ عِلْماً أضاعَهُ ... ومَنْ منعَ المُسْتَوجِبِينَ فقد ظَلَم

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، فإنَّه وإنْ يكن سبب نزول هذه الآية خاصًا، فإنَّ معناها شاملٌ عامٌّ، ونتائجه لا تخفى على ذي طبعٍ سليمٍ.

ثُمَّ قالَ الـمُؤَلِّف رضي الله عنه:

أي عبد السميع :

١- الفَقِيْرُ إِذَا انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ تَعِبَ، وإِذَا سَلَّمَ الأَمْرَ إِلَى اللهِ تَعَالَى نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ عَشِيْرَةٍ ولا أَهْلٍ .

أراد بذلك التفويض إلى الله ، والتَّسليم له سبحانه ، والتَّوكل عليه ، عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَخْلاقِ الْمُؤْمِنِ: قُوَّةً فِي دِيْنٍ، وحَزْماً فِي لِيْنٍ، وإِيمَاناً فِي يَقِيْنٍ، وحِرْصَاً فِي عِلْمٍ، وشَفَقَةً فِي ثِقَةٍ، وحِلْمَاً فِي عِلْمٍ، وقَصْداً فِي غِنَىً، وتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ، وكَسْبَاً فِي حَلالٍ، وبِرَّاً فِي اسْتِقَامةٍ، ونَشَاطاً فِي هُدَىً، ونَهْياً عَنْ شَهْوَةٍ، ورَحْمَةً لِلْمَجْهُودِ؛ وإِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ عِبَادِ اللهِ، لا يحيفُ على مَنْ يبغضُ، ولا يَأثمُ فِيمَنْ يحبُّ، ولا يضيعُ ما استودعَ، ولا يَحسَدُ، ولا يَطعنُ، ولا يَلعنُ، ويعترفُ بِالحقِّ، وإِنْ لَمْ يَشهدْ عليهِ، ولا يتنابزُ بالألقابِ، فِي الصَّلاةِ متخشِّعاً، إلى الزَّكاةِ مسرعاً، فِي الزَّلازلِ وَقُوراً، فِي الرَّخاء شَكُوراً، قَانِعاً بالَّذي لَهُ، لا يَدَّعي مَا ليسَ لَهُ، ولا يجمعُ - أي بعزم - فِي الغيظِ، ولا يغلبهُ الشُّحُ عَنْ مَعروفٍ يُريدُهُ، يُخالطُ النَّاسَ كي يعلمَ، و يناطقُ النَّاسَ كي يفهمَ، وإِنْ ظُلِمَ وبُغِيَ عليهِ صبرَ حتَّى يَكونَ الرَّحمنُ هُوَ الَّذي يَنتَصِرُ لَهُ**»[1] .

---

(١) رواه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه: الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» الأصل الثامن والخمسون والمئتان، في أخلاق المعرفة رقم ١٦٤٤، ص ٥٨٨.

(قوة في دين): أي طاقة عليه وقياماً بحقِّه، جلد عمر ابنه الحدَّ، فقال: يا أبت، قتلتني، قال: إذا لقيت ربك فأخبره أنا نقيم الحدود، (وشفقة): أي خوفاً ومحبةً وعطفاً (في مقة) بالقاف بضبط المصنِّف – أي السيوطي في «الجامع الصغير» - لكن رواية الحكيم (معه) بالعين، مشتقة من المعة، أمعاء البطن، فالشفقة تحنن الرأفة، والإكباب على من يشفق عليه، وإنما يصير مُنكبَّاً بشدَّة الرَّأفة، فإذا كانت الشفقة بغير معة انتشرت فأفسدت، وإذا كانت في معة كانت في حصن فلم تنتشر ولم تفسد؛ لأنَّ هنا حداً يحويها، (وقصداً في غنى): فلا يتوسع في الإنفاق فيقع في =

وقال رسول الله ﷺ: «**أُرِيْتُ الأُمَمَ بِالمَوْسِمِ، فَرَأَيتُ أَمَّتِي قَدْ مَلأَتِ السَّهلَ والجَبَلَ، فَأَعْجَبَنِي كَثْرَتُهُم وهيأَتُهُم، فقيلَ: أَرَضِيْتَ؟ قلتُ: نَعَم، قالَ: وَمَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ لاَ يَكْتَوُونَ، ولاَ يَتطَيَّرُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، فقام عُكَّاشَةُ الأَسَدِي[1]، فقالَ: يا رسولَ الله، ادعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**»، فقام آخر فقالَ: يا رسولَ الله، ادعُ اللهَ أَنْ يَجعلَنِي منَهم، فقالَ ﷺ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»[2].

=

الإسراف، بل يكون وسطاً، فإنما هو رزق الله، (وتَجَمُّلاً في فاقة): أي فقر بأن لا يلقي بيديه إلى التهلكة، ويصبر على القلة، ويرضى بالذلة، ولكته يأخذ شعره، ويقلم ظفره، ويغسل ثوبه، ويتنظف ويتطيب على قدر حاله، (وتحرجاً): أي كَفَّاً (عن طمع)؛ لأنَّ الطمع فيما في أيدي الخلق انقطاع عن الله، (ونشاطاً في هدى): أي لا في ضلالة، فإذا انبسطت نفسه ألجمها بلجام الشرع، (ورحمة للمجهود) في عبادة أو معاش أو بلاء، (وإنَّ المؤمن من عباد الله): قال المناوي: كذا وقفت عليه في خط المصنف وهو تحريف؛ فإنَّ لفظ رواية الحكيم الَّذي نسب المصنف الحديث إلى تخريجه، ما نصه: (وإن المؤمن عياذاً لله): أي هو الَّذي يعيذ المؤمنين من السوء، (لا يحيف على من يبغض): أي لا يحمله بغضه إياه على الجور عليه، (ولا يأثم فيمن يحب): أي لا يحمله حبه إياه على أن يأثم في جنبه؛ فإنه إذا كان كذلك: كان بغضه وحبه لله وفي الله وبالله، وإذا لم يكن كذلك كان بضده، (ولا يتنابز) أي يتداعى (بالألقاب)؛ لأنَّه من شأن البطالين، إذ هم الذين يجترئون على تغيير أسماء تسمَّى بها أهلها تحقيراً لهم، (في الزلازل وقوراً)؛ فلا تستفزه الشدة ولا يجزع من البلاء، (ولا يجمع في الغيظ)؛ فإنَّ الغيظ حرارة الحرص، فإذا جمعه كذلك لم يدعه الحرص أن يتورع في كسبه حتى يتقمَّص في مكاسب السوء، فيجره للتَّقحُّم في جرائم الحرام، لكن يجمعه في تؤدة وسكينة وهيبة ومراقبة، (ويناطق الناس كي يفهم) أحوالهم وأمورهم؛ لأنَّ الأسرار إنما تظهر بالمناطقة . «فيض القدير» للمناوي، بتصرف يسير ٢/ ٦٨٢.

(١) عكاشة – بضم أوله وتشديد الكاف وتخفيفها أيضًا – ابن محصن بن حُرْثان بن قيس بن مرة بن بُكير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي حليف بني عبد شمس تـ(١٢)هـ: من السابقين الأولين وشهد بدراً، قيل: استشهد عكاشة في قتال أهل الردة. «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر رقم ٥٦٣٣، ٣/ ٤٧٣.

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في «الصحيح»: كتاب الرقاق (٨١)، باب يَدْخُلُ
=

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ اتِّكَالِكُم، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[1].

قلت: ولا يخفى أنَّ التَّوكُلَ: الرِّضا بأفعالِ الله تعالى ﷻ، وإلا فالسَّعي بأمر الرِّزقِ، والتَّدبُّر لدفع المضرَّة، داخلٌ تحت أمر الله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [تبارك: ١٥]، فأمر بالسَّعي في طلبِ الرِّزق.

وقال النَّبيُّ ﷺ لرجلٍ جاءَهُ على ناقةٍ، فقال: يَا رَسُولَ الله، أَدَعُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ فقال: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»[2].

=

الْـجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٥٠) رقم٦٥٤١، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب الدَّلِيلِ عَلَى دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الـمُسْلِمِينَ الـجَنَّةَ... (٩٤) رقم ٢١٦، ولفظ البخاري: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَجِدُ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشَرَ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلاَءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ، لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

(١) رواه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٠٥، ١/ ٣٧٠، والترمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧)، باب التوكل على الله (٣٣) رقم ٢٣٤٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد (٣٧)، باب التوكل واليقين (١٤) رقم ٤١٦٤، وابن حبان في «صحيحه»: باب الورع والتوكل (٦) رقم ٧٣٠، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الرقاق (٤٤) رقم ٧٨٩٤، وقال صحيح الإسناد.

(٢) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: الترمذي في «الجامع»: كتاب صفة القيامة... (٣٨)، باب (٦) رقم ٢٥١٧، وقال: هذا حديث غريب، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٢١٢، ٢ / ٨٠.

ورواه عن عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه: ابن حبان في «صحيحه»: كتاب الرقائق (٧)، باب الورع والتَّوكُّل (٦) رقم ٧٣١، والحاكم في «المستدرك»: كتاب معرفة الصحابة (٣١) رقم

=

فمن هذا عُلِمَ أنَّ التَّوكُّل: الاكتفاء بالله، والاعتماد عليه، وإسقاط النَّظر إلى الأغيار والأسباب، والإخلاص برابطة النِّيَّة مع الله ﷻ، ونفيّ الشُّكوك، والتَّفويض إليه جَلَّتْ عَظَمَتُهُ، وحسن الظَّنِّ به في جميع الأحوال، وهو سبحانه ظهير اللاجين، وموئل المتوكِّلين.

=

٦٦١٦، و قال الذهبي في التلخيص: سنده جيد.

قال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٢/ ١٤: قال يحيى القطان: حديث منكر... لكن قال الزركشي: إنَّما أنكره القطان من حديث أنس، وقد أخرجه ابن حبان في «صحيحه» عن عمرو بن أمية الضمري، قال: قال رجل للنبي ﷺ أرسل ناقتي وأتوكل قال: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» وإسناده صحيح، وقال الزين العراقي: رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد، بلفظ: «قَيِّدْهَا وتَوَكَّلْ» وبه يتقوى.

قالَ المُؤَلِّف ﷺ:

٢- العَقْلُ كَنْزُ الفَوَائِدِ، وكِيمْيَاءُ السَّعَادَةِ.

ورد في الخبر: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ: العَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: وعِزَّتِي وجَلالِي، مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ، بِكَ أُعْطِي، وبِكَ أُحَاسِبُ، وبِكَ أُعِزُّ، وبِكَ أُذِلُّ**»[١].

وجاء في الحديث: «**النَّاسُ يَعْمَلُوْنَ الخَيْرَاتِ، وإِنَّهُمْ يُعْطَوْنَ عَلَى قَدْرِ عُقُوْلِهِم**»[٢].

وقال المُؤَلِّف ﷺ في كتابه «البرهان المؤيد»[٣]: «قال عليٌّ أمير المؤمنين ﷺ:

دَوَاؤُكَ منكَ وما تُبصِرُ ... وداؤُكَ فيكَ وما تشعرُ

وتَزْعُمُ أنَّكَ جِرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوى العالَمُ الأكْبَرُ

العَالَمَ الأكبر: العقل، وقد انطوى بك، ومن العَالَمِ المطويِّ فيك يظهر لك جِرمُك[٤] الَّذي استصغرته، إذ لولا وصول جِرمِك إلى الغاية التي تحيط بذلك العالَمَ الأكبر، وتليق له، لـمَّا صار محلًّا للعالم المذكور، فَخُذْ بالهمَّةِ العليَّة على مقدار ما بلغه جِرْمُ هيكلك من الإحاطة بالعالَمَ الأكبر، الَّذي يمتدُّ شعاع مادَّته إلى كلِّ مقامٍ، وتنتهي

(١) رواه عن أبي أمامة ﷺ: الطبراني في «الأوسط» رقم ٧٢٤١، وفي «الكبير» رقم ٨٠٨٦ ؛ ورواه عن أبي هريرة ﷺ: البيهقي في «الشعب» رقم ٤٦٣٣، وابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» رقم ١٥، ص٣٩؛ وعن عائشة رضي الله عنها: أبو نُعيم في «حلية الأولياء» ٧/ ٣١٨ ؛
وعن أبي أمامة ﷺ: العقيلي في «الضعفاء» رقم ١١٦٩؛ وعن الحسن مرسلاً: الإمام أحمد في «الزهد» رقم ١٨٦٠، وابن عدي في «الكامل» رقم ٥١٢.

(٢) رواه عن معاوية بن قرة ﷺ: البيهقي في «الشعب» رقم ٤٦٣٨، والهيثمي في «زوائده على مسند الحارث»: كتاب الأدب (٢٩)، باب ما جاء في العقل (٩) رقم٨١٧، وابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» رقم ١٢، والديلمي في «الفردوس» رقم ٦٨٧٩.

(٣) صـ٥٥- ٥٧ـ.

(٤) الجِرْمُ: أَلْواحُ الجَسد وجُثْمانه. لسان العرب: (جرم).

بوارق رسله إلى كلِّ حيطةٍ، وتَشقُّ عزائم مداركه صفَّ كلِّ مَعْمَعَةٍ[1]، وتبلغ نجابَ فكرته إلى كلِّ حضرةٍ؛ به الله يُعطي ويَمنع، ويَصل ويَقطع، ويُفرِّق ويَجمع، ويَضع ويَرفع، وعليه جُعِلَ مدارُ الأكوان، وهو أوَّل مخلوقٍ من الموادِّ الكبرى الآدميَّة.

أنبأنا الحبيب الكريم، والسيِّد العظيم عليه صلواتُ اللهِ وتسليماتُهُ: «**أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ: العَقْلَ**»[2].

فإذا علمتم ما انطوى فيكم، عظَّمتم شأن ذواتكم، واحتفلتم بإعلاء شرف صفاتكم، حتَّى تَسمُو عن منزلة الحجاب؛ بالقوَّة، بالجمال، بالمال، بالأهل، بالعشيرة، بالمَنصِب، بالرِّياسة.

قال إمامنا الشَّافعي رضي الله عنه:

وكلُّ رِياسةٍ مِنْ غيرِ علمٍ ... أذلُّ مِنَ الجلوسِ على الكُنَاسَة

العقل عاقل العلم، لا يَتِمُّ شرف العِلْم للمخلوق إلا بالعقل، قال جماعةٌ بإعلاء قَدْرِ العِلم على العقل، ولكنَّ ذلك بالنِّسبة إلى الله؛ لأنَّ العِلم صفته تعالى، والعقل صفة المخلوق، وأما بالنِّسبة إلى علمنا وعقلنا، فعقلنا أجلُّ مرتبةً وأرفع منزلةً من علمنا؛ إذ لولا العقل لما تمَّ لنا العِلم.

العاقل: يَكْبُو ويُصرَع، ولكنْ يُؤمَّل له النَّجاح ويُرجى له الخير.

والأحمق: يُصرع ويَكبو، ويُخشى عليه القطيعة وعدم النَّجاح؛ العاقل من فَهِمَ حكمة الدِّين.

بلغنا عن الإمام عليٍّ أمير المؤمنين كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ ورضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: كلُّ عقلٍ لم يُحِطْ بالدِّين فليس بعقلٍ، وكلُّ دينٍ لم يحط بالعقل فليس بدينٍ.

---

(١) المَعْمَعةُ: صوت الشُجَعاءِ في الحرب، ويقال للحرب مَعْمَعةٌ، وله معنيان: أَحدهما صوت المُقاتلةِ، والثاني اسْتِعارُ نارِها. لسان العرب: (معع).

(٢) مر تخريجه صـ٥٠ـ.

هذا الدِّين أتى بأحكامٍ ألزمنا الـمُبَلِّغُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الاجتناب عنها[1]، ووعد وأوعد؛ فإذا تريَّض العقل بالعمل والاجتناب، يصل إلى الإحاطة بسرِّ الوعد والوعيد».

وقال المؤلِّف ﷺ في محلٍّ آخر من كتابه «البرهان المؤيد»[2]: «أي أخي، كلُّ واحدٍ منا مُسَيْكِيْنٌ، أوَّله مضغةٌ وآخره جيفةٌ، شرف هذا العرض جوهر العقل، العقل ما عَقَل النَّفس، وأوقفها عند حدِّها، فإذا لم يكن عقل المرء عاقلاً لنفسه، موقفاً لها عند حدِّها، في أخذها وردِّها، فليس بعقلٍ.

وإذا حُرِمَ المرء الجوهر، ذهب شَرَفُه، وبقيَ عَرَضَاً ثقيلاً كثيفاً، لا يَليق لمرتبةٍ عزيزةٍ، ولا لمنصبٍ نفيسٍ، وإذا تمَّ عقله وكمل، صار الحكم فيه للجوهر المحض، فصلح أن يكون على تيجان الملوك والأكاسرة.

وأوَّل مراتب العقل: الانخلاع عن الأنانيَّة الكاذبة، والدَّعوى الباطلة، وصولة الفتق والرَّتق، والوهب والسَّلب.

وإذا حكمه المقام، وصار صفةً عليَّةً أيضاً فاللازم عليه أن يعرف مُبتدأه الطِّينيِّ، ومنتهاه التُّرابيِّ، وأن يقف بين هذه البداءة والنِّهاية بما يناسبهما من قولٍ وفعلٍ».

فلمَّا تعيَّن، أنَّ العقل جالبُ المنافع بإذن الله، ودافع المكاره، وبه العطاء والمنع، والوضع والرفع، عُلِمَ ما أضمره الغوث الأكبر ﷺ في وجيز عبارته، ولطيف إشارته، وظهر لكلِّ ذي فهمٍ أنَّ العقل كما عبَّر عنه قُدِّسَ سِرُّهُ: كنز الفوائد، وكيمياء السَّعادة.

---

(١) في البرهان (العمل بها).

(٢) صـ٢٩ـ.

ثُمَّ قَالَ رضي الله عنه:

٣- العِلْمُ شَرَفٌ فِي الدُّنْيَا، وعِزٌّ فِي الآخِرَةِ.

قلتُ: ويؤيِّد ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**العُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الله عَلَى خَلْقِهِ**»(١).

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**العُلَمَاءُ أُمَنَاءُ أُمَّتِي**»(٢).

وقال أجلَّ اللهُ مقامَهُ الكريم: «**العُلَمَاءُ مَصَابِيْحُ الأَرْضِ، وَخُلَفَاءُ الأَنْبِيَاءِ، وَوَرَثَتِي وَوَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»(٣).

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**العِلْمُ مِيراثِي، ومِيْرَاثُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي**»(٤).

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**العِلْمُ خَلِيلُ المُؤْمِنِ، والعَقْلُ دِلِيْلُهُ، والعَمَلُ قَيِّمُهُ، والحِلْمُ وزِيْرُهُ، والصَّبرُ أَمِيْرُ جُنُوْدِهِ، والرِّفقُ وَالِدُهُ، واللِّيْنُ أَخُوْهُ**»(٥).

وقال ﷺ: «**العِلْمُ ثَلاثَةٌ: كِتَابٌ نَاطقٌ، وَسُنَّةٌ مَاضِيةٌ، ولا أَدْرِي**»(٦).

---

(١) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١١٥، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» رقم ١٥٧٣، ١٤/ ٢٦٧، وقال المناوي في «فيض القدير» ٤/ ٤٩٤: قال العامري: حسن.

(٢) رواه عن سيدنا عثمان رضي الله عنه: الديلمي في «الفردوس» رقم ٤٢١١.

(٣) عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» رقم ٥٧٠٣، لابن عدي في «الكامل» عن سيدنا علي رضي الله عنه ورمز لضعفه.

(٤) رواه عن أم هانيء رضي الله عنها: أبو نُعيم في «مسند أبي حنيفة» صـ٥٧ـ، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع الصغير» رقم ٥٧١٩.

(٥) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل التاسع والثلاثون في مراتب الأخلاق وفضل العلم رقم ٢٨١، ورواه عن أبي الدرداء رضي الله عنه: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١٥٢، ورواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١٥٣، والديلمي في «الفردوس» عنه وعن أنس رضي الله عنهما رقم ٤١٩٥.

(٦) رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: الطبراني في «الأوسط» رقم ١٠٠١، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٥٧١٠.

وقد مَيَّز الله بين العلماء وبين غيرهم، وشَرَّفهم عليهم وأَجَلَّهُم، فقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

وألزم الله النَّاس بالتَّشبُّث بأذيال خواصِّهم، الَّذين هم العلماء، فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وقد عَرَّف أئمَّة الدِّين العِلم، فقالوا: هو درك حقائق الأشياء مسموعًا ومعقولًا.

وأَعْظَمَ النَّبيُّ الكريم، شأنَ العلم، فقال ﷺ: «**قَلِيلُ العَمَلِ يَنْفَعُ مَعَ العِلمِ، وكَثِيرُ العَمَلِ لا يَنْفَعُ مَعَ الجَهْلِ**»[١].

وكفاك في مدح العلم، وذمِّ الجهل، قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أقول من لوازم العلم: الإعراض عن أهل الجهل، وصمِّ السَّمع عن أقوالهم، وكفِّ الطرف عن أحوالهم، وجمع الهمَّة على إهمالهم، وما أحسن ما قاله في هذا الباب الإمام أبو إسحاق القرطبي[٢] رحمه الله وهو:

إذا سبَّ عرضي ناقصُ القدرِ جاهلٌ ... فليسَ لهُ إلَّا السُّكوتُ جوابُ

ألَمْ تَرَ أنَّ الليثَ ليسَ يضرُّهُ ... إذا نَبَحَتْ يوماً عليهِ كلابُ

---

(١) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» الأصل السابع والستون والمئتان، في فضل العلم بالله رقم ١٨٢٩، ورواه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١٠١٥ بلفظ: «إن قليل العمل مع العلم كثير، وكثير العمل مع الجهل قليل»، وعزاه السيوطي للديلمي عن أنس رضي الله عنه ورمز لضعفه رقم ٦١٥٢.

(٢) ذكرهما الإمام السيوطي في «نظم العقيان في أعيان الأعيان» صـ ٢٩ـ من شعر الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الدائم بن رشيد الدين بن خليفة بن مظفر السلمي، شاعر العصر شهاب الدين المنصوري تـ(٨٨٧)هـ: الشافعي ثم الحنبلي المعروف بالهائم، من ذرية العباس بن مرداس السلمي الصحابي رضي الله عنه.

[الحثُّ على طلب العلم]

وقد أمر السيِّد العظيم عليه أفضلُ الصَّلواتِ والتَّسْلِيمِ بطلب العلم، وحرَّض عليه، وحثَّ كلَّ الحثِّ على استحصاله، فقال: «**اطْلُبُوا العِلمَ ولَوْ بِالصِّينِ؛ فإِنَّ طَلَبَ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1].

[وقال ﷺ]: «**إنَّ المَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَها لِطالِبِ العِلمِ رِضَاً بِمَا يَطْلُبُ**»[2].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُمِ**...» الحديث[3].

وقد صدرت أوامره الشَّريفة المحمَّديَّة، وتشرَّفت بها بطون الدَّفاتر معلنة بإجلال أهل العلم، والتَّجافي عن زللهم، منها: قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**تَجَاوَزُوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ، وزَلَّةِ العَالِمِ، وسَطْوَةِ السُّلطانِ العَادِلِ؛ فإِنَّ اللهَ تَعَالَى آخذٌ بِيَدِهِمْ كُلَّمَا عَثَرَ عَاثِرٌ مِنْهُم**»[4]؛ وذلك لأنَّهم

---

(١) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ابن ماجه في «السنن»: المقدمة، باب فضل العلماء (١٧) رقم ٢٢٤، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٦٦٤، روي من غير زيادة: «ومسلمة»، قال السيد جعفر الكتاني رحمه الله تعالى في «نظم المتناثر» صـ٣٥-٣٦: وروي من حديث أنس وجابر وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وعلي وأبي سعيد رضي الله عنهم وفي كلِّ طُرُقِهِ مقالٌ ... وقال المزي: إنَّ طرقه تبلغ به رتبة الحسن... وقال السُّيوطيُّ: جمعت له خمسين طريقاً وحَكَمْتُ بصحَّته لغيره، ولم أصحِّحْ حديثاً لم أسبق لتصحيحه سواه.

(٢) رواه عن صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٨١١٤، ٤/ ٢٣٩، والترمذي في «الجامع»: كتاب الدعوات... (٤٩)، باب في فضل التوبة... (٩٩) رقم ٣٥٣٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ابن حبان في «صحيحه»: كتاب الطهارة رقم (٨)، باب المسح على الخفين وغيرهما (١٧) رقم ١٣١٩، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع الصغير» رقم ٢١٢٣.

(٣) هو جزء من حديث، رواه عن معاوية رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح» معلقاً: كتاب العلم (٣)، باب العلم قبلَ القَولِ والعمل (١٠) ووصله ابن حجر في «تغليق التعليق» ٢/ ٧٨، والطبراني في «الكبير» رقم ٩٢٩، ورواه عن أبي الدرداء رضي الله عنه: الطبراني في «الأوسط» رقم ٢٦٦٣، وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ١٧٤، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» رقم ٢٦٧٤.

(٤) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في «الأوسط» رقم٥٧١٠، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٠٨٩٦، وقال: في هذا الإسناد مجاهيل، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم ٧٢٦، من غير ذكر «زلة =

أسبابُ المنافع لخلق الله تعالى، وقد قال ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُم للنَّاسِ**»[1].

ولا يخفى أنَّ السَّخيَّ ينفع النَّاس بماله، والعَالِم ينفعُ النَّاس بعلمه، والسُّلطان العادل ينفع النَّاس بعدله، وفيهم قِوَامُ الأمرِ[2].

ألا ترى قول رسول الله ﷺ: «**جَالِسُوا الكُبَرَاءَ، وسَائِلوا العُلَمَاءَ، وخَالِطُوا الحُكَمَاءَ**»[3] وذلك للانتفاع بمآثرهم الَّتي مَنَّ اللهُ تعالى عليهم بها.

[أفضل مراتب العلم]

وقد عدَّ النَّاسُ مراتب العلم، وأهله:

وأحسنها منزلةً، وأشرفها مرتبةً: العلم الدَّال على الله، الموضح لشريعة رسول الله ﷺ.

وأشرف مراتب العلماء: مرتبة التَّخَلُّق بِخُلُقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ بإتقان العِلم بالعمل اتِّباعاً لا ابتداعاً، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

=

العالم وسطوة السلطان الجاهل»، والخطيب البغدادي في «تاريخه» رقم ٤٤٣٠، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٣٢٣٦.

(١) رواه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: الطبراني في «الأوسط» رقم ٥٧٨٧، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١٢٩، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٨/ ٤٠٤، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٤٤٠٤.

(٢) قِوَامُ الأمر بالكسر: نظامه وعمادهُ، يقال: فلان قوام أهل بيته، و قِيَامُ أهل بيته، وهو الذي يقيم شأنهم. «مختار الصحاح» مادة: (قوم).

(٣) رواه عن أبي جحيفة رضي الله عنه: الطبراني في «الكبير» رقم ٣٥٤، والديلمي في «الفردوس» رقم ١٥٦١، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٢٥: رواه الطبراني في «الكبير» من طريقين، أحدهما: هذه، والأخرى: موقوفة، وفيه عبد الملك بن حسين أبو مالك النخعي، وهو منكر الحديث، والموقوف صحيح الإسناد؛ ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٣٥٧٧.

قال صاحب الجوهرة[1]:

وكُلُّ خَيرٍ في اتِّباعِ مَنْ سَلَفْ　　　وكلُّ شَرٍّ في ابتداع مَنْ خَلَفْ

وقد أتيت بكلماتٍ لطيفةٍ في كتابي «ضوء الشمس»[2] نظمتها من كلمات السَّلف الصَّالح مصدرة بحديثٍ نبويٍّ جليل المفاد، ولمناسبتها لهذا المقام أوردتها بحروفها، وهي: «لَمَّا مَنَّ الله على البرية، بوصول نوبة البعثة إلى نبيِّنا المعظَّم صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ انطمس شهاب نار الكفر، ولمع شعاع نور الذِّكر، وتمَّ ببركته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما نقص من مكارم الأخلاق، وانتشر بهمَّته المحمَّديَّة علم العدل والصَّلاح في الآفاق؛ لكونه جمع ما تفرق في إخوانه النَّبيِّين والمرسلين من الهمم والشِّيم، والأخلاق العليَّة الزَّكيَّة، والأوصاف الحميدة المرضيَّة، فلم يبقَ خَصلةً محمودةً إلا أوصل إليها ودلَّ عليها، ولم يترك خصلةً مذمومةً إلا نهى عنها وحَذَّر منها، وجمعت شريعته[3] الطَّاهرة شتات الأحكام الصَّالحة، فصارت تجارةُ الخلق ببركة رسالته رابحةً، وسرى سرُّ خلافته في العوالم، وعَلِمَ الثَّقلان، أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: أشرفُ نائبٍ عن الرُّبوبيَّة، وأعدلُ حاكمٍ.

فإذا فهمت ذلك علمْتَ ما للنَّوع الإنساني من التَّكرمة عند الله، وأدركت أنَّ أشرف أنواع الخلق: الإنسان، وأعلى مراتب الإنسان: خلافة الله، وأعلى مراتب خلافة الله: الرِّسالة.

---

(١) إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، أبو الإمداد، برهان الدين تـ(١٠٤١)هـ: فاضل متصوف مصري مالكي، نسبته إلى (لقانة) من البحيرة بمصر، توفي بقرب العقبة عائداً من الحج، له كتب منها: «جوهرة التوحيد» منظومة في العقائد، و«بهجة المحافل»، و«حاشية على مختصر خليل»، و«نشر المآثر فيمن أدركتهم من علماء القرن العاشر» وغير ذلك. انظر: «كشف الظنون» ١/ ٦٢٠، و«الأعلام» للزركلي ١/ ٢٨.

(٢) ٢/ ٣٤٣-٣٤٨.

(٣) في «ضوء الشمس»: شرعته.

وأعلى مراتب الرسالة: مرتبة أولي العزم من الرُّسل عليهم الصُّلاةُ والسَّلامُ.

وأعلى مراتبهم وأجمعها دعوةً، وأعظمها شرفاً، وأجلّها قدراً، وأرفعها ذكراً، وأطولها سَناماً، وأشمخها مقاماً: الرِّسالة المحمَّديَّة التي اختصَّ اللهُ بها سَيِّد البريَّة ﷺ، فهو قطب الدَّائرة، ومفتاح باب سعادة الدُّنيا والآخرة، وهو ختم الختم، ومحلُّ الإفشاء والكتم، فكمال غيره كمالٌ عن نقص، وكماله كمالٌ عن كمالٍ، أوتي جوامع الكَلِم[1]، وانقطعت به نبوَّة التَّشريع، وقد أُرْسِلَ وكان نبيَّاً، وآدم بين الماء والطِّين[2]، وغيره ما كان نبيَّاً إلا بعد تحصيل شرائط النُّبوة، فجميع النُّبوَّات والرِّسالات والولايات مدرجةٌ في نبوَّته، وولايته، ورسالته ﷺ.

وقد تبيَّن لك أنَّ الإنسان ثمرةُ العالـم، وأنَّ عين الإنسان وعينَ إنسانه[3] نبيُّنا الـمعظم صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وهو رسول الله إلى الـخلق كافةً، والأصل في رسالته بالنسبة إلى الـخلق الدّلالة على الله، والإرشاد إلى الله، وقَوْدُ الـخلق إلى مكارم الأخلاق، ولـهذا المعنى نزلت الكتب، وشُرعت الشَّرائع والسُّنن، وضُربت الأمثال والـمواعظ، واحْتِيْجَ إلى الأنبياء، والـملوك، والعلماء، والوزراء،

(١) أوتي جوامع الكلم: يَعْني القرآن، جمَع الله بلُطْفِه في الألفاظ اليَسِيرَة منْه مَعَانيَ كَثِيرة، ومنه الحديث في صِفَتِه ﷺ أنه كان يَتكَلَّم بِجَوامِع الكَلِم، أي: أنه كان كَثِير الْمعانِي قَلِيلَ الألْفاظ. «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الجزري (جمع).

(٢) روى عَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٧١٩٠، ١٧٢٠٣، ٤/ ١٢٧-١٢٨، والحاكم في «المستدرك»: كتاب التفسير (٢٧) رقم٣٥٦٦، وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي عَبْدُ الله وخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ»، وروى عن أبي هَريرة ﷺ: الإمام الترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب... (٥٠)، باب في فضل النَّبيّ ﷺ (١) رقم ٣٦٠٩ وقال: حديث حسن صحيح غريب، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ﷺ: مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ، قَالَ: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ».

(٣) إِنْسانُ العين: المثال الَّذي يُرى في السَّواد، أي سوادِ العين . «الصحاح في اللغة» مادة: (أنس).

والأعوان، والإخوان، والأصدقاء، ونُدِب الاقتداء، ولولا ذلك لـم يحتج أحدٌ إلى أحدٍ، بل اكتفى كلُّ أحدٍ بنفسه، وعلى هذا المعنى: ترتب الجزاء والعقاب، والمدح والذَّم، فما رأيناه ﷻ أثنى على أحدٍ إلَّا بعملٍ، ولا ذمَّ أحداً إلا بعملٍ، ولا أوعد إلَّا على العمل، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠]، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:٩٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

جعل التَّقوى سبباً لذلك وهي عمل، وقال تعالى أيضاً: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد:٧].

ومن معنى النَّدب على الاقتداء، قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف:٢٨]، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

ومن هذه المعاني، قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**الْكَيِّسُ: مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ الـمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ: مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَـمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي**»[1].

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لا تُـجَالِسُوا كُلَّ عَالِـمٍ إِلَّا عَالِـماً يَدعُوكُم مِنْ خَمْسٍ إِلَى خَمْسٍ: مِنَ الشَّكِّ إِلَى اليَقِيْنِ، ومِنَ الكِبْرِ إِلَى التَّوَاضُعِ، ومِنَ الرِّياءِ إِلَى الإِخْلاصِ، ومِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى الزُّهْدِ، ومِنَ العَدَاوَةِ**

(١) رواه عن شداد بن أوس رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٧١٦٤، ٤/ ١٢٤، والترمذي في «الجامع»: كتاب صفة القيامة... (٣٨)، باب (٢٥) رقم ٢٤٥٩، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد (٣٧)، باب ذكر الموت... (٣١) رقم٤٢٦٠، والحاكم في «المستدرك»: كتاب التوبة والإنابة (٤٠) رقم ٧٦٣٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٦٤٦٨.

إِلَى النَّصِيْحَةِ»[1].

فمن ذلك يُعلم لديك، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ لَـمَّا كانت رسالته الرَّسالة الجامعة، وشريعته الشَّريعة النَّاسخة، وهو المبعوث لتكميل مكارم الأخلاق: أوضح الطُّرق، وفتح الأبواب، ومهَّد المناهج، وسهَّل الأسباب، ولَزِم على كلِّ ذي طبعٍ كريمٍ، وقلبٍ سليمٍ: أنْ يتمسَّك بحبل شريعته، وأن يتشبَّث بذيل طريقته، وأن ينحرف عن صحبة الجاهلين، ويجتنب مودَّة الفاسقين على أنَّ الطَّبع البشري سرَّاقٌ، قريب المأخذ، كالماء يتلوَّن بلون إنائه، ويتشبَّه بكلِّ رفقائه، ومن هذا قول عليٍّ أمير المؤمنين كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ ورضِيَ اللهُ عنه:

فــلا تصــحَبْ أخــا الجَهْــلِ ... وإيَّـــــاكَ وإيَّـــــاهُ

فكَـــمْ مِـــنْ جاهـــلٍ أَردَى ... حَكِيمـــاً حـــينَ آخَـــاهُ

يقـــاسُ المَــــرءُ بالمَــــرءِ ... إذا مــــا هــــو ماشـــاهُ

وللشَّـــيءِ علـــى الشَّـــيءِ ... مقاييـــــسٌ و أشبـــــاهُ

وله كرَّمَ اللهُ وجهَهُ[2]:

ولا تَصحَبِ الكسلانَ في حالاتِـهِ ... كـم صـالحٍ بفسـادِ آخـرَ يفسـدُ

عـدوى البَليـدِ إلـى الجَليـدِ[3] سـريعةٌ ... والجمرُ يوضعُ في الرَّمادِ فيخمدُ

---

(١) رواه عن جابر رضي الله عنه: أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٧٢، والخطيب البغدادي في «تاريخه» رقم ٢١٠٥، وابن عساكر في «تاريخه» ٢٣/ ١٣٢، والديلمي في «الفردوس» رقم ٧٤٤٩.

(٢) ذكرهما الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر» في الباب الرابع ٥٩/٢ من شعر أبو بكر محمد بن العباس الخوازمي، وفي الأصل المطبوع: (عدوى الجليد إلى البليد سريعة)، وفي كتاب الثعالبي: (عدوى البليد إلى الجليد سريعة)، وهي أصح فأثبتها.

(٣) التَّبَلُّدُ: نقيضُ التَّجَلد، وهو استكانة وخضوع، والجليد: يقال للرجل الصلب على الحوادث. انظر: «الفروق اللغوية» في الفرق بين الجلادة والنفاذ، و«لسان العرب» مادة: (بلد).

فأحكم النَّظر في مقصدك، واعمل واعلم أنَّ العمل هو السَّبب، والسَّبب: الباب لنيل سعادتي الدَّارين. شعر:

ألـــم تـــرَ أنَّ اللهَ قـــالَ لمـــريم وهزِّي إليكِ الجِذع يَسَّاقَطُ الرُّطَب

ولو شاءَ أحْنَى الجِذْعَ مِنْ غيرِ هَزِّها ولكنَّما الأشياءُ يَجْرِي لها السَّبب

ولا تكمل السَّعادة إلا بكمال الاقتداء به صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ ومن رام حصول السَّعادة الأبديَّة ولـم يقتد به صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: فمثله كمثل أولاد الفقهاء يريدون التَّصدر للتَّدريس، والإفتاء، والتَّقدم على النُّظراء من غير تحصيلٍ، ولا خدمةٍ للعلماء، ويصعب عليهم الوضع من منازلهم عند أقرانهم؛ وأولاد الشُّيوخ يريدون التَّظاهر بأحوال آبائهم بلا مجاهدةٍ ولا عبادةٍ؛ وأولاد التُّجار يريدون التَّشبُّه بآبائهم في الإنفاق مع ترك الاكتساب، فتسرع أموالهم إلى الذَّهاب، فكلُّ من فعل ذلك فهو ظالمٌ في طريقه إلى مقصده، قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فهم لا محالة يُعدمون العقول، ويُحرمون الوصول لتضييع الأصول في ارتكاب المشاقِّ، ومعالجة السِّباق في اكتساب الأموال والأحوال، ومبارزة الرِّجال الأبطال، ومع الحداثة في السِّن والرأي، قد استولت عليهم العزَّة التي بها يحصل تكذيب الصَّادق، وتصديق الكاذب، والرَّفع من مقداره، والوضع من مقدار غيره، والتَّكبر حيث ينبغي التَّواضع، وعكسه، والمحبَّة بإفراطٍ، والبغض بإفراطٍ لا لسببٍ، وتقريبٌ وتقديمٌ من الأولى تأخيره وإبعاده وبالعكس، والغِرَّة(١) بالسَّلامة على طريق الاستقامة، وكذا كلُّ سالكٍ إلى مقصدٍ بأمثال ذلك، فمن لم ينتفع بالإشارة لم ينتفع بالقناطير المقنطرة.

---

(١) الغِرَّةُ بالكسر: الغفلة. «المصباح المنير» مادة: (الغرة).

فذو النِّهاية: كربِّ أرضٍ كريمةٍ، فعمرها وبذرها، فأدركتها السَّعادة بالإمداد والسَّلامة من الآفات، حتى حصد الثِّمار، وأحرزها، ولم يبقَ عليه إلَّا حفظها من العدوِّ والانتفاع بها.

وذو البداية: لـم يحرث أرضه، فهو يرجو طيبها، يبذر فيها بلا تعبٍ، وله أعداءٌ ينازعونه، ويمنعونه، ومن كان كذلك فقد رام الحصاد قبل الزِّراعة أو قبل الحرث أو قبل حصول الأرض، فهو الظَّالم لنفسه، قال صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**لا تُعْطُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوْهَا**»(1).

فَمِن ثَمَّ عُلِمَ: أنَّ كمال الاقتداء بالحضرة المحمَّديَّة، عين السَّعادة الكلِّيَّة، فَمَنْ فاته كلُّ الاقتداء به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فعليه أن يلزم تعظيم أمره صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ بعمل الَّذي لا بدَّ منه من العبادات المفروضات، والانتهاء كلّ الانتهاء عما نهى عنه من المعاصي، والخطيئات، والتَّخلق بأخلاقه الكريمة على قدر الإمكان، و إعمار أمر الدُّنيا والدّين بسلوك طريقته المؤيّدة، عليه من الله أكمل الصَّلاة وأشرف التَّسليم». انتهى.

وغير مجهولٍ أنَّ العِلمَ يُشَرِّف قدر صاحبه في الدُّنيا، وإذا عمل به العلم فلا شبهة في أنَّ الله يكتبه من أهل العزَّة في الآخرة؛ لحرمة اتباعه لنبيِّه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ...﴾ الآية [التحريم: ٨]، وهذا هو المعنى الَّذي قصده المؤلف رضي الله عنه.

---

(١) هو جزء من حديث رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الحاكم في «المسترك»: كتاب الأدب (٤١) رقم ٧٧٠٨، وقال: هذا حديث صحيح، وعبد بن حُميد في «مسنده» رقم ٦٧٥، وأبو نُعيم في «الحلية» ٣/ ٢١٨-٢١٩، والعقيلي في «الضعفاء» رقم ١٩٤٦، رووه بلفظ: «لا تتكلموا بالحكمة عند الجاهل فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم...».

ثُمَّ قَالَ قُدِّسَ سِرُّهُ:

٤ - مَا أَقَامَ مَعَ الْـمُسْتَعارِ إِلَّا الْـمَحْجُوبُ.

لا يخفى أنَّ المستعار ما أمكن زواله: كالقوَّة، والمنصب، والجاه، والأهل، والولد، والمال، والرجال، وأمثال ذلك، ففي الإقامة مع المستعار ينقطع المخلوق عن مقام العبديَّة، ويجهل الحدَّ الَّذي حُدَّ له، فيتجاوز درجة الآدميَّة، ومرتبة الإنسانيَّة، فيعلو ويغلو، ويُحرِّف الكَلِم عن مواضعه، وربَّما يأخذ به غليظ حجابه إلى إنكار ما لا يُنكر، وذكر ما لا يُذكر، فينحرف عن الطَّريق المستقيم، ويسلك المسلك القبيح الذَّميم، فيصدُّه حجابه، وتكثر منه عن الله حُجَّابه، وما ذلك إلا من إقامته مع المستعار، وجهله بمقام العبوديَّة الَّذي وقف عنده المرسلون الأخيار، والمقرَّبون الأبرار.

وحَسُن ما قلته في كتابي «ضوء الشمس»[1] مما يناسب هذا الباب، وهو: «كيف بنا وقد لعبت فينا رعونات النَّفس، وانبسطت همَّتنا للشَّهوة، وصارت الأغيار مطمح نظرنا وغاية أملنا، فهل بلية الدعوى التي تصدر منا حاصلة إلا من عدم العلم بالكتاب المبين، وحكم الشرع المتين، وناشئة عن الجهل الصِّرف بسنة سيد المخلوقين، وطريق أولاده الطاهرين، وخلفائه الراشدين، وعلماء هذا الدين، وأوليائه العارفين رضي الله تعالى عنهم أجمعين؟ وهل هي إلا الغفلة الكُليَّة عن درك حالة البشريَّة؟! وأنَّى للمسكين المخلوق العاجز من قوَّةٍ يفعل بها ويقول، ويَكِرُّ بها ويصول؟.

كيف تجتمع الحياة والممات، أو العجز والقدرة، أو الفقر والغنى؟! كلا

(١) ١/ ١٣٥-١٣٩.

الضِّدين لا يجتمعان[1]، ولكنَّ: «**النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوْا انْتبَهُوْا**»[2]؛ لأنَّ الدنيا: حجابٌ، ورؤيا النَّفس: حجابٌ، وكم تحت هذا الحجاب من حُجَّاب، ولا تنكشف تلك الحُجب عن القلب إلا بتوفيق الله، وإنَّ من علامات التَّوفيق: الانسلاخ من حُجُبِ[3] الدُّنيا ورؤيا النَّفس.

على أنَّ العاقل لو صرف فكره إلى ذاته وكلِّيَّاته وجزئيَّاته ، لانسلخ بطوعه عن رؤيا نفسه والدُّنيا أيضاً، وما أحسن ما قلت بفضل الله من قصيدة تخلَّصت فيها بمدح النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ تذكُّر الصَّواب في هذا الباب وهذا مطلعها:

اللهُ أكبـــرُ هـــذِهِ الآثــارُ	**منهــا بســابقِ خَلْقِهــا أســرارُ**
فلكــلِّ شــيءٍ حِكمــةٌ وحقيقــةٌ	**حــارَتْ بِفَهــمِ ضَــميرِها الأفكــارُ**
والكــونُ لــو حَقَّقْتَــهُ وفَهِمتَــهُ	**كَنْــزٌ وفيــه شُــؤونُنا الإضــمارُ**
بُســتَانُ رَمــزٍ مُغلَــقٌ بِطِــرازِهِ	**أَرْوَاحُنــا بِرِياضِــهِ الأَطْيَــارُ**
هــوَ مُســتَعارٌ كالودِيعَــةِ عِنــدَنا	**وكأنَّنــا المُــلاَّكُ والأُمَّــارُ**
فاعْجَــبْ بِحَقِّــكَ مــن عَبِيــدٍ عُجَّــزٍ	**يَتَصَرَّفُــونَ كأنَّهُــم أحْــرَارُ**
فــالمَرْءُ مِنَّــا لــو تَفَكَّــرَ ثَوبَــهُ	**حَــالَ اغْتِسَــالٍ ذاقَ كيــفَ يُعَــارُ**
وإذا انْتَحَــى بيــتَ الخَــلا مُتَبَصِّــرَاً	**خَضَــعَتْ بــه فــي ذاتِهــا الأطْــوَارُ**

---

(١) في الأصل: كلا الضدان، وفي «ضوء الشمس»: كلا الضدين، فأثبت ما في «الضوء»؛ والتضاد: هي نسبة بين معنى ومعنىً آخر من جهة عدم إمكان اجتماعهما معاً، وعدم إمكان ارتفاعهما معاً، في شيءٍ واحدٍ وزمانٍ واحدٍ. «ضوابط المعرفة» صـ٥٨.

(٢) قال العجلوني في «كشف الخفاء» رقم٢٧٩٥ هو من قول علي بن أبي طالب ﷺ، وعزاه الشعراني في «الطبقات» لسهل التُستَري. ورواه البيهقي في «الزهد الكبير» عن سهل بن عبد الله التُستَري رحمه الله تعالى رقم ٥١٥.

(٣) في «ضوء الشمس»: حجب الدنيا، وفي الأصل: حب الدنيا، فأثبت ما في «الضوء».

وإذا مَشَى في البَرِّ أدْرَكَ أنَّهُ ... فَردٌ وظَلَّ الدَّارُ والدِّينارُ
وَوُجُودُهُ إنْ نَامَ أرشَدَهُ إلى ... تركِ الوجُودِ ونَومُهُ الإجْبَارُ
وبِنَفسِ هيكَلِهِ بكُلِّ دَقِيْقَةٍ ... يتبارَزُ الأخطارُ والأخطارُ
والسَّمْعُ والصَّمَمُ الثَّقيلُ وعِلَّةٌ ... وشِفاؤُها والبسطُ و الأكدارُ
والأمنُ والخوفُ المَرِيعُ وغيرُهُ ... يُنْبِيْهِ كيفَ تُمَزَّقُ الأغيارُ
نشرٌ وطَيٌّ فيهما لِمُفَكِّرٍ ... حالٌ به تتسلسلُ الأدوارُ
ليلٌ تدورُ عليه أحكامُ الدُّجَا ... ويَلِيهِ في دَوْرِ الشُّؤُونِ نهارُ
والكلُّ للرَّجُلِ الرَّشيدِ حقائقٌ ... تَجرِي بها في سُفْنِها الأقدَارُ
فإذا عَزَمْتَ بقاءَ نفسِكَ فانِياً ... أدركْتَ كيفَ إلى الإلهِ يُسَارُ
وعلمْتَ أنَّ الفعلَ ظاهرُ فِعْلِهِ ... وهو القَديرُ الفاعلُ المختارُ
فاخْلَعْ[1] لَعَمْرُكَ ثوبَ وهْمِكَ بالسِّوَى ... فالجهلُ عندَ ذَوِي البصائرِ عارُ
واصرِفْ وجودَ الرُّوحِ للبابِ الَّذي ... مِنْ فَضْلِهِ تتنزَّلُ الأسرارُ
وَالحَقْ بأرواحِ الأعِزَّاءِ[2] الأُلَى ... فهمُ الكرامُ السَّادَةُ الأخيارُ
رَأَوُا الوجودَ بنورِ عينِ بصيرةٍ ... فَرَأَوْهُ ظِلّاً ما لديهِ قَرارُ
وتَفَكَرُوا الصُّنعَ القديمَ وحادِثَ الـ ... طَّرْزِ الكَرِيمِ فضاءَتِ الأبصارُ
وتَجَرَّدُوا عنهم فَهُمْ بينَ الوَرَى ... أهلُ العقولِ السَّادةُ الأحرارُ[3]
عَلِقُوا بِذَيلِ مُحمَّدٍ شمسِ الهُدى ... وعلى طريقَتِهِ الكريمَةِ سَارُوا

---

(١) في ديوان «مرآة الشهود» للمؤلف صـ ١١٢ـ: (فَانْزَعْ).

(٢) في الديوان صـ١٣١ـ: (الأغِرَّاء).

(٣) في الديوان صـ١١٣ـ: (وتَجَرَّدُوا عنهم فَهُم بينَ الوَرَى   الأَحْرارُ والأُمَّارُ والأَبْرَارُ).

[وقوف النَّبيِّ الأعظم ﷺ عند حدِّ العبوديَّةِ]

ولا يخفى على كلِّ حاذقٍ مُتشرِّعٍ أنَّ نبيَّنا صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ كان يركب الحمار، ويخصف[1] النَّعل، ويرقع القميص، ويَلْبَس الصُّوف، ويُردِف خَلْفَهُ، ويضع طعامه على الأرض، ويُجيب دعوة المملوك، ويَكنُس بيته، ويخيط ثوبه، ويخرج إلى العيد ماشياً، ويرجع ماشياً، ويسلم على الصِّبيان، ويمسح رؤوس اليتامى، ويجلس على الأرض، ويعتقل الشَّاة، ويجيب دعوة العبد على خبز الشَّعير، ويبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، ويأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم و يشهد جنائزهم، ولا يمنع شيئاً يُسأله، وإذا جلس جلس إليه أصحابه حِلَقَاً حلقاً، وإذا دخل عليهم جلس حيث انتهى به المجلس، ولا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتَّى يقضي له حاجته.

وكان يقول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لَسْتُ مِنَ الدُّنْيَا، ولَيْسَتْ مِنِّي، إِنِّي بُعْثْتُ والسَّاعَةُ تَسْتَبِقُ**»[2].

وكان يقول صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**لَوْ تَعْلَمُوْنَ مَا أَنْتُم لاقُونَ بَعْدَ المَوتِ مَا أَكَلْتُم طَعَامَاً عَلَى شَهوةٍ أَبَدَاً، ولا شَرِبْتُم شَراباً عَلَى شَهْوةٍ أَبَداً، ولا دَخَلْتُم بَيْتاً تَستَظِلُّونَ بهِ، ولَـمَرَرْتُم إِلَى الصُّعُدَاتِ تَلْدِمُوْنَ صُدُوْرَكم وتَبْكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُم**»[3].

وكان يقول أيضاً عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَا مِنْ صَبَاحٍ يُصْبِحُهُ الْعِبَادُ إِلَّا وصَارِخٌ يَصْرُخُ: يا أَيُّها النَّاسُ، لِدُوا لِلتُّرابِ، واجْمَعُوا لِلفَنا،**

---

(١) خَصَفَ النعل: خرزها. «مختار الصحاح» مادة: (خصف).

(٢) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» رقم ١٥٤٢، وقال: إسناده صحيح، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٧٢٤٢.

(٣) رواه عن أبي الدرداء رضي الله عنه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥٦/ ٢٨٦، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٧٤٤٥؛ والصَّعِيدُ: الطريقُ يكون واسعاً وضَيِّقاً. «لسان العرب» في صعد.

وابْنُوا لِلخَرَابِ»[1].

فتفكَّر أيَّها العاقل، كيف وقف السيِّد الكامل عند حدِّ عبديَّته، وأوضحَ لنا هذا الحدَّ بحكمته، وتقلَّب صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ على بساط القُربيَّة في حضرة العبوديَّة، ولم يلتفتْ إلى الأغيار بالكليَّة منذ برز إلى الوجود صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ إلى أن انتقل من هذه الدَّار صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ». انتهى.

[أخذ العِبرة من معرفة حقيقة الدنيا]

هذه طريق سيّد المرسلين، وإمام النَّاجين، وأين للعاقل الزَّهوُّ، والعُلوُّ بالمستعار، وما هذه الدُّنيا بحذافيرها إلا خيالٌ ، ولا أوقاتها إلا زوالٌ ؟!:

خُلِقْنـا لأمـرٍ لـو عَلِمْنـا خَفيَّـهُ   لما حَبَّ منَّا المرءُ ليلى ولا لُبْنَى

ولكـنْ جَهِلْنَـا فاستراحَتْ نُفُوسُنا   ومـا تلـكَ إلَّا راحَـةٌ تَعقـبُ الحُزنـا

وكيف لا والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ يقول: «**مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ إِلَّا ابْتَلاهُ اللهُ بِخِصَالٍ ثَلاثٍ: بِأَمَلٍ لا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ، وفَقْرٍ لا يُدْرِكُ غِنَاهُ، وشُغْلٍ لا يَنْفَكُ عَنَاهُ**»[2].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّنْيَا: حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الآخِرَةِ، والآخِرَةُ: حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، والدُّنْيَا والآخِرَةُ: حَرَامَانِ عَلَى أَهْلِ اللهِ**»[3].

---

(١) رواه عن الزبير بن العوام رضي الله عنه: البيهقي في «الشعب » رقم ١٠٧٣٢، والديلمي في «الفردوس» رقم ٦١٦٢، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٨٠٥٣. و(لِدُوا) أي: توالدوا.

(٢) رواه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: الخطيب البغدادي في «تاريخه» رقم ١٤٤٨، والديلمي في «الفردوس» رقم ٦٢١٢.

(٣) الديلمي في «الفردوس» رقم ٣١١٠، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٤٢٦٩، وقال المناوى في «فيض القدير» ٣/ ٥٤٤: فيه جبلة بن سليمان أورده الذهبى فى الضعفاء، وقال ابن معين: ليس بثقة.

وحسن ما قاله بعض العارفين[1]:

إذا كُنْتُ أعلمُ عِلماً يقيناً … بأنَّ جميعَ حياتِي كساعة

فَلِمْ لا أكونُ ضِنِّيناً بها … وأقطَعُها بينَ خوفٍ وطاعة

وجميلٌ ما قاله مفتى العراق الفاضل مُحَمَّد فيضي أفندي الزهاوي[2] وهو:د

في المَرَايا رأيتُ شَيخاً كبيراً … ذا فُنُونٍ قَدْ جَرَّبَ الأحوالَ

قلتُ: كم عشتَ قال: سبعينَ عاماً … قلت: ماذا صنعْتَ فيها فقالا:

طعماتٍ دفعتُها فَضَلاتٍ … وشُروباً أرَقْتُها أبَوالا

وثِيَاباً لبستُها فاخِرَاتٍ … جُدَداً وانْتَزَعْتُها أَسمَالا

ولأَبكِي دَمَاً لأنِّي لَمْ … أعمل مِنَ الصَّالحاتِ لي أَعْمَالا

وما أحسن ما فصَّله المؤلِّف ﷺ في كتابه «البرهان»[3] حيث قال فيما يناسب هذا الشَّان: «المصير إلى الله والرُّجوع إليه، وكلٌّ يعود إلى مَعدِنِهِ، ويستوفي أجله، وتعود عليه المسألة، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه: ٥٥].

هذه الحبَّة التي تأكلونها نبتت بِتُرابٍ مثلكم، كان لهم قوةٌ وبأسٌ شديدٌ، ذهبوا وبانوا[4]، وكأنَّهم ما كانوا:

---

(١) القائل: سليمان بن خلف، أبو الوليد الباجي (٤٠٣-٤٩٤)هـ: الفقيه المتكلم المحدث المفسر الأديب الشاعر، ولد في باجة الأندلس، وله مصنفات منها: «الاستيفاء» شرح الموطأ، و«التعديل والتجريح» لمن خرج عنه البخاري في الصحيح، وغير ذلك من المصنفات، توفي بالمرية. انظر : «سير أعلام النبلاء» ١٨/ ٥٣٦ – ٥٣٩.

(٢) محمد فيضي بن الملا أحمد بن حسن الزهاوي (١٢١٨-١٣٠٨)هـ: كان من أهل العلم والفضل تصدر للتدريس في عدة بلدان، وصار رئيس المدرسين في بغداد، ثم تولى الافتاء سنة (١٢٧٠)هـ واستمر فيه إلى أن توفي. «محمد فيضي الزهاوي نبذه عن حياته» للقرادغي.

(٣) صـ١١٥-١١٧ـ.

(٤) البَيْنُ: الفِرَاقُ. «مختار الصحاح» مادة: (بين).

هــذا تُــرابٌ لــو تَفَكَّــرَهُ الفَتَــى لَــرَأَى عليــهِ مِــنَ الجِبَــاهِ بِسَــاطَا
وكأنَّمــا ذرَّاتُــهُ لــو مُيِّــزَتْ صِــيْغَتْ لألْسِــنَةِ الأُلَــى أَسْــفَاطَا

نَدُوس ألسُناً وجِباهاً، وخُدوداً وشِفاهاً: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

هذه الدُّنيا، وهذه أحوالها، وهذه ديارها ورجالها.

بالله عليكم! هل بعد هذه الفِكْرَةِ، وأخذ العِبرة من طمعٍ بها وبديارها، وإصلاحها و إعمارها؟.

أَعْمُرُ هذا الرِّوَاق حتَّى يسكنه صالحٌ، وإبراهيم، وأبو القاسم، والنساء؟

أم أَعْمُرُ بيتاً أسكنه أنا إذا فارقت الأحباب، وتوسدْتُّ التُّراب؟

أهذا الرِّواق عَمَرَهُ أبي بخيله ورَجِله، وأبقاه لي من بعده؟

لا والله؛ بل الله وهب وأحسن، وأكْرَم وتحنَّن.

هذه المنَّةُ مخصوصةٌ بي؟ لا والله؛ بل الدُّنيا يُعطيها لِـمَنْ يُحبُّ، ولِـمَنْ لا يُحبُّ، والآخرة لا يعطيها إلا لِـمَنْ يُحبُّ.

رُزِقَ أبي بيتاً ومُقاماً، وثوباً وطعاماً، وأنا كذلك، وأولادي وعيالي في لوح غيبه المحفوظ بعلمه لهم رزق، وهكذا جميع الخلق، فَعَلامَ هذه الخيالات، وتَطَرُّقُ سبيل الضَّلالات؟

الكيِّس من خاف ربَّه، ودان نفسه، وعَمِل لِـمَا بعد الموت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

آيةٌ اختلف في تفسيرها الرجال؟:

إرثٌ معنويٌّ تَحسن به القُربى من الله للعبد إذا توسَّد الأرض.

أو الصَّالحون؛ لإرثها وسياسة خلقه على مقتضى استحقاق الخلق؛ فإنَّ الأعمال عينُ العُمَّال، أجلْ! أَعمالُكم عُمَّالكم، وكما تكونوا يُوَلَّى عليكم.

﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، بَيِّنَةٌ على ما ذُكِر.

وفسَّرها جماعةٌ بأرض الجَنَّة؛ والكلُّ على هدىً.

أي أخي، أَمَا تنظر الطِّفل إذا وُلِد يبرز إلى الدُّنيا قابضاً كَفَّهُ حرصاً عليها، وإذا خرج يخرج باسطاً كَفَّهُ معترفاً بفراغ يده من الأمر العارض الَّذي حَرَص عليه؟

كفى بالموت واعظاً، كفى بالموت واعظاً:

أبكي ومِثليَ مَنْ يبكي إذا سَبَقَتْ ... قَوافِلُ القَومِ أهلِ العلمِ والعملِ

بُكاءَ قَومٍ لِلُقْيَا الوَالِهِينَ بِهِ ... وإنَّني الخائِفُ البَاكِي مِنَ الزَّلَلِ»

انتهى.

فانظر كيف طهَّر الله أحبابه من الحجاب بالمُستعار؟ وتَخَلَّقْ بأخلاقهم، وأخلص في محبَّتهم، فالمَرء مع مَنْ أحبَّ.

قالَ الـمُؤَلِّف رضي الله عنه:

٥- لَيْسَتِ النَّائِحَةُ الثَّكْلَى، كَالنَّائِحَةِ الْـمُسْتَأْجَرَةِ.

أراد بذلك رضي الله عنه: أنَّ الدَّخيل في القوم بلا صدقٍ، ولا علمٍ، ولا عملٍ، لا يُعَدُّ منهم، ويعجبني ما ذكره صاحب كتاب «آداب الأقطاب»(١) مولانا علي بن محمد الكازروني الرِّفاعيّ(٢) قُدِّسَ سِرُّهُ في مقدمة كتابه حيث يقول: «سألتني زادك الله توفيقاً، ويَسَّرَ وفتح لك إلى كلِّ خيرٍ طريقاً، أنْ أَذكُر لك طرفاً من آداب التَّصوف وقواعده، ونبذةٍ من أحواله ومراشده، فأجبتُ إلى ذلك إجابة معترفٍ بالتقصير، معتمد على اللطيف الخبير، وسأرشدك لموضع سدادك، وأَدُلُّك على إرشادك، وإن كان هذا فنٌّ قد طُوِي بساطه، وانحلَّ رباطهُ، ونُسي رسمه، ولم يبقَ إلا اسمه، وذهبت الآثار، وعَفَت الدِّيار، ونُسيتِ الآداب، وعمي الصَّواب وطُمست تلك العبارات، واضمحلت تلك الإشارات، وعُدم أهل الطَّريقة على الحقيقة وانقرضوا، وطُوي بساط الأنس بهم ، فليت شعري أين مضوا ؟ شعر:

أُسَائِلُكُم عنها فهلْ مِنْ مُخْبِرٍ؟ ... فَمالي بِنُعْمَ بعدَ أنْ رَحَلُوا عِلمُ

فلو كنتُ أدري أينَ خَيَّمَ أهْلُها ... وأيُّ بلادِ اللهِ إذ رَحَلُوا أَمُّوا

إذاً لَسَلَكْنا مَسْلَكَ الرِّيحِ خَلْفَها ... ولو أصبحَتْ نُعْمُ ومِنْ دونِها النَّجمُ

أُطفئت مصابيح القوم فأظلم لفقدهم الكون، وحصلنا من المعاني على الصُّور،

(١) مخطوط: لوحة ١-٢.

(٢) علي بن محمد بن محمود الشيخ الإمام المؤرخ ظهير الدين الكازروني ثم البغدادي الشافعي العدل (٦١١-٦٩٧)هـ: كان فرضياً حاسباً مؤرخاً شاعراً كثير التلاوة والعبادة، متواضعاً مهيباً وقوراً، وله شعر جيد وأدب وصنف التصانيف منها: «روضة الأريب» تاريخ، و«النبراس المضيء» في الفقه، و«كسر الحساب» في الحساب مجلد، و«السيرة النبوية»، و«الملاحة في الفلاحة». انظر: «معجم المحدثين» ١/ ١٧٢، و«الدرر الكامنة» لابن حجر ١/ ٣٨٣.

وبينها وبينهم بون[1]، ليسَ التَّكحُّلُ في العينينِ كالكَحَلِ[2]، تشبَّه بالقوم من ليس منهم، وقام في مقامهم من لا يُغني عنهم:

رَضُـوا بالطَّيلسـانِ إذ اكْتَسَـوْها ... وتَفْخِـيْمِ البَـرانِسِ والعِمامَـة

كـذا دُجـجِ البُيـوتِ لَهُـنَّ رِيشـنٌ ... ولكـنْ لا يَطِـرْنَ مـعَ الحمامَـة

اقتصروا على تحسين الظَّاهر مع سماجة الخواطر، وقُبح السَّرائر، وخُبث الضَّمائر، فَضَح التَّطبعُ شيمة المطبوع، حَسُنت الأشكال، وقَبُحت الخلال، وتُخُيِّلَ لِـمَنْ خَلَفَ؛ أنَّه يقوم مقام السَّلف، وأين الثريا من يد المتطاول المتناول؟ أين البقر من الأسد؟ أين الضبع من أبي لبد[3]، طاحت والله بهم طوايح الأقدار، فلم يبق سوى الآثار، تلك أُمَّةٌ قد خلت، فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً:

قِـفْ بِالـدِّيارِ فهـذِهِ آثـارُهُم ... تبكـي الأَحِبَّـةَ حسـرةً و تشـوُّقاً

كـم قـد وقفـتُ بهـا أسـائِلُ مُخْبِـراً ... عـن أهلِهـا أو صـادقاً أو مُشـفِقاً

فأجابَنِي داعـي الهَـوَى فـي رسمِهِم ... فارَقْـتَ مَـنْ تَهـوى فَعَـزَّ المُلتَقَـى

أين تلك الأحوال والمقامات، ذهبت مع مَنْ ذهب منِ القوم ومات. عَجُز[4]:

.... وَبَقِيـتُ فِـي خَلـفٍ كَجِلْـدِ الأَجْـرَبِ

كان طريق القوم: عدم النَّوم واغتنام الأسحار، ودوام الأفكار، والخشوع بين يدي الواحد الجبار، لا جرم أنَّه رُفِعت لهم أعلام الإعلام، برضى الواحد العَلاَّم،

---

(١) البَوْنُ والبُونُ: مسافةُ ما بين الشيئين. «لسان العرب» مادة: (بون).

(٢) التكحل: هو وضع الكحل في العينين، أما الكَحَل: يقال رجل أكحل؛ أي: الَّذي يَعْلُو جُفُونَ عينيه سوادٌ مثْلُ الكُحْل من غير اكْتحال. انظر: «مختار الصحاح» مادة: (كحل).

(٣) أبو لبد: الأسد. «تاج العروس» في (لبد).

(٤) يوجد لبيت الشعر مصرعان: الأول يسمى (صدراً)، والثاني يسمى (عَجُزَاً)، والبيت هو:

ذَهَـبَ الَّـذِينَ يُعَـاشُ فِي أَكْنَـافِهِمْ ... وَبَقِيـتُ فِي خَلـفٍ كَجِلْـدِ الأَجْـرَبِ

وهو للشاعر لبيد بن ربيعة من قصيدةٍ له في رثاء أخيه أربد.

فقبورهم تُزار، ومشاهدهم تُحط بها الأوزار. شعر:

لا الـدارُ بَعْـدَهُم دارُ السُّـرُورِ ولا تلـكَ المَنـازِل والأوطـانِ أوطـانُ

فأَحْسَنوا الطَّريقة وسلوكها، وقاموا في مقام الأنس بمحبوبهم، فظفروا في الآخرة بمطلوبهم، ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾[الذاريات] ، فهم جلساء الله وأحباؤه، وخواصُّه وأَوِدَّاؤُه، إن قاموا فبالله، وإن قعدوا فالله، وإن نطقوا فمِنَ الله، وإن سكتوا شُغلوا بالله، قال شيخنا السيد علي ممهِّد الدِّين الرِّفاعي[1] فيهم:

رجالٌ إذا الدُّنيا دَجَتْ أشرقَتْ بِهم وإنْ أجدَبَتْ يوماً بهم ينزلُ القَطْرُ

أقاموا بظهرِ الأرضِ فاخْضَرَّ عُودُها وصاروا ببطنِ الأرضِ فاستوحشَ الظَّهرُ

فهذه صفة القوم، فأين مثلهم اليوم؟ وقد كثر في زماننا الـمُتَسَمُّون بهذه الطَّائفة، والـمُتلبِّسُون بلباسهم، والـمُتَّسِمُّون بِسِمَتِهم فلوَّثوا المذهب، وكدَّروا صافي شربه، ألا ترى أنَّهم يتصدَّرون، ويتشدَّقون، ويحيلون إلى تقبيل الأكفِّ والاحترام، واجتماع المريدين، ومخاطبتهم لهم بالمشيخة، فنقضوا بذلك أركان التَّصَوُّف، وغيَّروا معانيه، واتَّخذوا بيوت العبادة حوانيت السِّيادَةِ، واكتفَوا بلبس الـمُرقَّعات والـمصبغات، وتقصير الأثواب مع إهمال الآداب...» إلى آخر ما قال.

---

(١) السيد علي مهذب الدولة، أما ممهد الدوله هو أخوه السيد عبد الرحيم، والسيد علي هو مهذب الدولة، ابن السيِّد سيفٍ عثمان، ابن السيِّد حسن، ابن السيِّد محمد عسلة، ابن أخت السيِّد أحمد الرفاعي ﷺ: أجلُّ مشايخ العراق، وأنفذهم كلمةً عند الخواص والعوام، والرعايا والحكام، سيد أهل الله، وشيخ وقته، وترجمان الحكمة، وعلم الأئمة ومرشد الأمة، وناصر الشريعة، ورافع لواء السنة، وهو أول مشايخ الرواق بعد الحضرة الرفاعية، وكان السيِّد أحمد ﷺ يقدمه على غيره من أهل بيته وأصحابه، توفي سنة (٥٨٤)هـ، ودفن إلى جانب خاله سيدي السيِّد أحمد رضي الله عنهما. انظر: «روضة الناظرين» للوتري صـ٦٦ـ، و«خلاصة الإكسير» للشيخ علي الواسطي صـ٧٤–٧٥ـ، و«تنوير الأبصار» للسيد أبي الهدى صـ٣٠-٣١ـ.

وأحسن منه ما قاله سيدنا الغوث الأكبر، والعلم الأشهر، مولانا المؤلف ﵁ في كتابه «البرهان المؤيد»[1] وهو: «أيُّها المتصوِّف، لِـمَ هذه البطالة؟ صِرْ صوفيّاً حتَّى نقول لك: أيُّها الصُّوفي.

أي حبيبي، تظنُّ أنَّ هذه الطَّريقة تورث من أبيك، تُسَلسَلُ من جَدِّك، تأتيك باسم بكرٍ وعمروٍ، تصير لك في وثيقة نسبك، تُنقش لك على جيب خِرقَتك على طرف تاجك؟.

حَسِبْتَ هذه البضاعة ثوب شَعْرٍ، وتاجاً، وعكازاً، ودَلقاً، وعِمَامَةً كبيرةً، وزِيّاً صالحِاً؟.

لا والله، إنَّ الله لا ينظر إلى كلِّ هذا، ينظرُ إلى قلبكَ كيف يفرغ فيه سرّه وبركة قُربه، وهو[2] غافلٌ عنه بحجاب التَّاج، بحجاب الخرقة، بحجاب السُّبحة، بحجاب العصا، بحجاب الـمُسُوح ؟!.

أيش[3] هذا العقل الخالي من نور المعرفة؟ أيش هذا الرأس الخالي من جوهر العقل؟ ما عَمِلْتَ بأعمالِ الطَّائفة، وتَلْبَس لباسهم يا مسكين ؟!.

يا أخي، لو كلَّفت قلبك لباس الخشية، وظاهرك لباس الأدب، ونفسك لباس الذُّلِّ، وأنانيَّتك لباس الـمَحْوِ، ولسانك لباس الذِّكر، وتخلَّصت من هذه الـحُجُب، وبعدها تلبَّست بهذه الثياب، كان أولى لك ثمَّ أولى.

لكنْ كيف يقال لك هذا القول، وأنت تظنُّ أنَّ تاجك كتاج القوم، وثوبك كثوبهم؟! كَلَّا، الأشكالُ مُؤْتَلِفَةٌ، والقلوب مختلفةٌ.

لو كنت على بصيرةٍ مِنْ أمرك، خلعت أباك وأمَّك، وجَدَّك وعمَّك، وقميصك

---

(١) صـ٥٠ - ٥٢ ـ.

(٢) في «البرهان» وأنت غافل.

(٣) أيشٍ: أصلها أَيُّ شَيْءٍ، ثُمَّ خُفِّفَتْ اليَاءُ وَحُذِفَتْ الهَمْزَةُ تَخْفِيفًا وَجُعِلَا كَلِمَةً وَاحِدَةً. «المصباح المنير» مادة: (شيء).

وتاجك، وسريرك ومعراجك، وأتيتنا بالله لله، وبعد حسن الأدب: لبستَ، وأظُنُّك بعد الأدب، تقطع نفسك عن الثَّوب والعَوَارِض القاطعة.

أي مسكين، تمشي مع وهمك، مع خيالك، مع كَذِبك، مع عُجْبِك وغُرُورِك، وتَحمِلُ نجاسة أنانيَّتك، وتظنُّ أنَّك على شيءٍ ؟! وكيف يكون ذلك؟!.

تَعلَّم عِلمَ التَّواضع، تعلَّم عِلم الحَيْرَةِ، تعلَّم عِلم المسكنَةِ والانكِسَارِ.

أي بَطَّال، تعلَّمت عِلمَ الكِبر، تعلَّمت عِلم الدَّعوى، تعلَّمت عِلم التَّعالي!

إيش حصل لك من كلِّ ذلك؟.

تطلب هذه الدُّنيا الجَائِفة بظاهر حال الآخرة؟ لبئس ما صنعت، ما أنت إلا كمشتري النَّجاسة بالنَّجاسة.

كيف تُغفِلُ نفسَك بنفسِك، وتكذب على نفسك وأبناء جنسك؟!.

لا يَقْرُبُ الْـمُحِبُّ مِنْ مـحبُوبه حتَّى يَبْعُدَ عن عدوِّه.

رمى بعض المريدين ركوته في بعض الآبار ليستقي الماء، فخرجت مملوءةً بالذَّهب، فرمى بها في البئر، وقال: يا عزيزي، وحَقِّكَ لا أريد غيرك.

مَنْ أثبتَ نفسه مريداً، صار مُراداً؛ من أثبت نفسه طالباً، صار مطلوباً؛ من عَكَفَ على الباب دخل الرِّحاب؛ ومن أحسن القصد بعد الدُّخول تصدَّر في غُرفَةَ الوُصلة.

دخل عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ورضيَ اللهُ عنه مسجدَ رسول الله ﷺ، فرأى أعرابياً في المسجد يقول: إلهي، أريد منك شُوَيْهَةً، ورأى أبا بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه في زاويةٍ أخرى يقول: إلهي، أريدك.

شتَّان ما بين المرادين، شتَّان ما بينَ الهمَّتين.

تلعب الآمال بالعقول، تلعب بالهمم، كلٌّ يطير بجناح همَّته إلى أمله ومقصد قلبه، فإذا بلغ غاية همَّته وقف فلم يجاوزها، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي: على نيَّته وهمَّته». انتهى.

ثم قالَ المُؤَلِّف ﷺ:

٦-كَمْ طَيَّرَتْ طَقْطَقَةُ النِّعَالِ حَولَ الرِّجَالِ مِنْ رَأسٍ وكَمْ أَذْهَبَتْ مِنْ دِيْنٍ.

[التَّحذير من الكبر والعجب والاغترار باجتماع النَّاس]

أراد بذلك عُجب المرء وغروره بالقوم الَّذين يحفُّونه، فيتكبر بطقطقة نعالهم حوله على الخلق، وينسى كونه من تراب، مضغة ابتداؤه، وجيفة انتهاؤه، وهو والَّذين حوله ترابٌ يعودون إلى تراب، وقد صحَّ أنَّ رسول الله ﷺ بصق يوماً على كَفِّه، ووضع أصبعه عليها، فقال: «**يَقُوْلُ اللهُ: ابْنَ آدَمَ، أَتُعْجِزُنِي وقَدْ خَلَقْتُكَ مِثلَ هَذِهِ**»[١]،

وفي حديثٍ آخر: «**لا يَنْظُرُ اللهُ إلى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرَاً**»[٢].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، واخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»[٣].

---

(١) رواه عن بُسر بن جَحَّاش القرشي ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٧٨٧٦، ١٧٨٧٧، ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الوصايا (٢٢)، باب النهي عن الإمساك...(٤) رقم ٢٧٠٧، والحالكم في «المستدرك»: كتاب التفسير (٢٧)، تفسير سورة سئل سائل (٧١) رقم ٣٨٥٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد؛ ووافقه الذهبي في التلخيص. ولفظ ابن ماجه: عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ، قَالَ: بَزَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفِّهِ ثُمَّ وَضَعَ أَصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ، وَقَالَ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَنَّى تُعجِزُنِي ابْنَ آدَمَ! وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، فَإِذَا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هَذِهِ -وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ- قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟!».

(٢) رواه عن أبي هريرة ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب اللباس (٧٧)، باب من جرَّ ثوبه من الخيلاء (٥) رقم ٥٧٨٨، ومسلم في «الصحيح»: كتاب اللباس والزينة (٣٧)، باب تحريم جرَّ الثوب خيلاء... (٩) رقم ٢٠٨٥.

(٣) رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٥٩٩٥، ٢/ ١١٨، والبخاري في «الأدب المفرد» باب الكبر (١) رقم ٥٤٩، والبيهقي في «الشعب» رقم ٨١٦٧، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٨٥٩٨، وقال المناوي في «فيض القدير» ٦/ ١٤٤: رمز لحسنه وهو كما قال أو أعلى فقد قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وقال المنذري: رواته محتجٌ بهم في الصحيح.

وقد صدرت أوامره الشَّريفة بالتَّواضع للمتواضعين، والتَّكبُّر على المتكبِّرين، منها: قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إِذَا رَأَيتُمُ الـمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي، فَتَواضَعُوا لَـهُم، وإِذَا رَأَيتُمُ الـمُتَكَبِّرِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَكَبَّروا عَلَيهِم؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَـهُم مَذَلَّةٌ وصَغارٌ**»[1].

وجاء في الخبر، أنَّه خرجَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يمشي إلى البقيع، فتبعهُ أصحابُهُ، فوقفَ، وأمَرَهُم أنْ يتقدَّموه، ومَشى خَلْفَهم، فَسُئِلَ عن ذلك، فقال: «**إِنِّي سَمِعْتُ خَفْقَ نِعَالِكُم، فأَشْفَقْتُ أَنْ يَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الكِبْرِ**»[2].

قلت: قد وقع ذلك منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تعليماً للخَلْق، وإرشاداً للأمَّة وتنبيهاً لهم، وإلَّا فهو المعصوم المطهَّر مِن كلِّ عيبٍ عليه صلواتُ الله وسلامُهُ، وقد أحسن سيِّدنا المؤلِّف ﷺ حيث يقول في كتابه: «البرهان المؤيد»[3]: «اللهَ اللهَ بالأدب مع الله؛ فإنَّ خلق الله حُجُبٌ وأبوابٌ، فإنْ أدركتم سِرَّ الأدب مع خلق الله، فُتِحَتْ لكم أبواب القَبول عند الله، وإن جهلتم أمر الأدب مع خلق الله، حُجبتم بالـخَلْق عن الله.

ومِنْ ثَمَّ اشتغل أهل العِرفان والذَّوق الخالص بِجَبر القلوب، ووضعوا الخدود

---

(١) قال الإمام العراقي في تخريجه أحاديث «الأحياء» ٢/ ٤٢١: غريب.

(٢) عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» بهذا اللفظ عن أبي أمامة ﷺ رقم ٨٨٧٨ .

ورواه عن أبي أمامة ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٢٣٤٦، ٥/ ٢٦٦، و ابن ماجه في «السنن»: المقدمة، باب مَنْ كَرِهَ أَنْ يُوطَأَ عَقِبَاهُ (٢١) رقم ٢٤٥، والطبراني في «الكبير» رقم ٧٨٦٩، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ٢٠٨: فيه علي بن يزيد الألهاني عن القاسم، وكلاهما ضعيف. ولفظهم: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، قَالَ: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ نَحْوَ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ – قَالَ – فَكَانَ النَّاسُ يَمْشُونَ خَلْفَهُ – قَالَ – فَلَمَّا سَمِعَ صَوْتَ النِّعَالِ وَقَرَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، فَجَلَسَ حَتَّى قَدَّمَهُمْ أَمَامَهُ لِئَلاَ يَقَعَ فِي نَفْسِهِ شَيءٌ مِنَ الْكِبْرِ ..» الحديث.

(٣) صـ١٤٨ـ.

على الطُّرقات تحت الأرجل، وطافت أرواحهم في حضرات القَبول بهذه الأجنحة المعنوية، فعرفوا الحقَّ بالخَلْق، ونزَّهوا الحقَّ عن الخَلْق: «**أَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم لأَجْلِي**»[1]، نصٌّ قُدسِيٌّ، يدلُّكم كيف يُعرَف الحقُّ بالخلق؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ الله، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي الله**»[2].

وذلك الفِكرُ المأمورَون به، فكرُ الأدبَ مع الصَّانع في مصنوعاته جلَّ وعلا». انتهى.

وقد رُويَ أنَّ أمير المؤمنين، سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يمشي وخلفه جماعةً يتَّبعونه، فعلاه بالدِّرَّة، وقال له: «**يَا هَذَا، أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ والَّذِينَ مَعَكَ**»[3].

فَمِنْ ثَمَّ عُلِمَ أنَّ العُجب قاطعٌ عن الله، ومنه تحصل النَّفرة عند الخلق من صاحبه، وربَّما يؤدي إلى أشدِّ الحرج، وإتلاف المُهَج.

---

(١) قال العجلوني في «كشف الخفاء» رقم ٦١٤: لا أصل له في المرفوع.

وراه الإمام أحمد في «الزهد» رقم ٣٩٧، عن عمران القصير، قال: «قال موسى بن عمران: أي ربّ، أين أبغيكَ؟ قال: ابغني عندَ المنكسرةِ قلوبهم»، ورواه البيهقي في «الزهد الكبير» رقم ٣٧٩، عن عبد الكريم بن رشيد: «أنَّ داود عليه السلام، قال: أي رب، أين ألقاك؟ قال: تلقاني عند المنكسرة قلوبهم».

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: البيهقي في «الأسماء والصفات» صـ٣٠٥ـ بلفظ: «تَفَكَّرُوا في كلِّ شيءٍ ولا تَفكَّرُوا في ذاتِ الله»، وأبو الشَّيخ في «العظمة» رقم٢، و٥، و٢٢.

ورواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: الطبراني في «الأوسط» رقم ٦٣١٩، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٢٠، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم ١، رووه بلفظ: «تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ الله، ولا تَفَكَّرُوا فِي الله».

(٣) رواه البيهقي في «الزهد الكبير» في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى رقم ٣٠٣، وابن أَبي الدنيا في «التواضع والخمول» رقم ٥١، ولفظ البيهقي: عن سليمان بن حنظلة البكري قال: كنَّا جلوساً حول أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه نسأله، فقام فاتَّبعناه، فرفع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعلاه بالدِّرَّة، فقال أُبَيٌّ: «مهلاً يا أمير المؤمنين، فقال: إنَّها فتنةٌ للمَتْبُوعِ، ومذلَّةٌ للتَّابعِ».

ثُمَّ قَالَ الـمُؤَلِّفُ ﷺ:

٧- لَفْظَتَانِ ثُلمَتَانِ فِي الدِّينِ: القَوْلُ بِالوَحْدَةِ، والشَّطْحِ الْـمُجَاوِزُ حَدَّ التَّحَدُّثِ بالنِّعمَةِ.

قلت: وقد ابْتُلِيَ بالقَول بالوَحْدَة الـمُطلقة[1]، والشَّطح جماعةٌ من السَّالفين، وحذا حذوهم قومٌ من أهل البدعة في عصرنا أيضاً، فضلُّوا عن الطَّريق، وارتكبوا

---

(١) قال الإمام الرفاعي ﷺ في «حكمه» رقم (٧): «لَفْظَتَانِ ثُلمَتَانِ فِي الدِّينِ: القَولُ بِالوَحْدَةِ، والشَّطْحِ الْـمُجَاوِزُ حَدَّ التَّحَدُّثِ بالنِّعمَةِ»، وقال السيد أبو الهدى الصيادي رحمه الله تعالى في كتابه «نور الإنصاف» صـ ٦٧ ـ في بيان معنى الوحدة المطلقة: «فيقولُ إذاً ربُّ ذلك الزَّعم الفاسد، والمذهب الباطل الكاسد: الله خالق الأشياء وهو هي، ويُسقِط ذلك الضَّال التَّكاليف، ويُعطِّل أحكام الشَّرع، ويرى أنَّ هذا الكون المجتمع هو الله سبحانه – تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلوَّاً كبيراً – وقد أنكر هذا المذهبَ الباطل أئمةُ الدِّين، وأشياخُ المسلمين، وأولياء الله تعالى، وعلماء الأمة طبقة بعد طبقة، وقد أطبقوا كلُّهم على تكفير معتقد هذا القول السَّقيم بلا نزاع».

وقال المؤلف ﷺ الرفاعي الثاني السَّيِّد محمَّد مهدي بهاء الدِّين الشَّهير بالرَّوَّاس قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ونفَعَنا بِهِ في ديوانه «مشكاة اليقين» صـ ٢٢٥ـ: وقلتُ أُمَزِّقُ سجف الشِّقشِقة من أهل الوحدة المطلقة:

دعْ وهمَ أهلِ الوَحدَةِ المُطلقَهْ — وافهمْ رُموزَ الجمع والتَّفرِقَهْ
كلُّ اتِّحادٍ حُكمُهُ باطِلٌ — وشاهِدُ الظَّاهِرِ قدْ مَزَّقَهْ
من غيَّرَ الأَيَّامُ أحوالَهُ — وشيَّبَتْ رغماً لهُ مِفرَقَهْ
ثُمَّ حَنَتْهُ ثمَّ طاحَتْ به — تحتَ الثَّرى في حُفرةٍ مغلَقَهْ
ومن يَرى الفَقرَ ويَلقى العَنا — وتَعتريهِ النُّوَبُ المُقْلِقَهْ
وكلَّ وقتٍ كُلُّهُ حاجَةٌ — لثوبِهِ والخُبْزِ والمَلْعَقَهْ
وتكْتَنِفُهُ في الخَلا وحشَةٌ — ويَتَّزِرْهُ الأُنسُ بالطَّقْطَقَهْ
يبولُ مقْهوراً وتَلوي به — لنومِهِ جُثَّتُهُ المُعرقَهْ
يكونُ عَيْنَ اللهِ عزَّ اسمُهُ — حاشا وذا من دَنَسِ الزَّنْدَقَهْ
فنزِّهِ الخالِقَ عن قولِ من — أَشرَكَ واطْرَحْ هذه الشِّقْشِقَهْ
ما وحَّدَ اللهَ تَعالى امرؤٌ — مُعْتَقِدٌ بالوَحدَةِ المُطلَقَهْ

أشدَّ المآثم، وانتهوا إلى أقبح الغايات، فمنهم جماعةٌ ذهبوا مذهب الحُلوليَّة[1]، ومنهم جماعةٌ اسقطوا الحُلول، ونفوا رتبة المخلوقيَّة، وألحقوها برتبة الخالقيَّة، وحاروا بفَهم الكيفيَّة، فالقول في بعض السَّالفين: إنَّما هو تأويل ما يمكن تأويله من كلماتهم، وإنكار نسبة مالا يمكن تأويله إليهم؛ لكثرة تداول الأيام، وإمكان الافتراء عليهم من أصحاب الزُّور والبُهتان، هذا إن كانوا من أعيان الرِّجال، وأصحاب المقامات والأحوال، وإلَّا فلا نتكلَّف لتأويل كلماتٍ تُخالِف ظاهر الشَّريعة أبداً، على أنَّ الحقَّ أحقُّ أنْ يُتَّبعَ.

---

(١) الحلول: قال الإمام الفخر الرازي في «مفاتيح الغيب» في تفسير سورة مريم آية (٣٠): ذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة:

أحدها: كون الشَّيء في غيره ككون ماء الورد في الورد، والدُّهن في السمسم، والنَّار في الفحم، واعلم أنَّ هذا باطلٌ؛ لأنَّ هذا إنَّما يصحُّ لو كان الله تعالى جسماً! وهم وافقونا على أنَّه ليس بجسم.

وثانيها: حصوله في الشَّيء على مثال حصول اللَّون في الجسم، فنقول: المعقول من هذه التَّبعيَّة حصول اللَّون في ذلك الحيِّز تبعاً لحصول محلِّه فيه، وهذا أيضاً إنَّما يُعقل في حقِّ الأجسام لا في حق الله تعالى.

وثالثها: حصوله في الشَّيء على مثال حصول الصِّفات الإضافية للذَّوات، فنقول: هذا أيضاً باطلٌ؛ لأنَّ المعقول من هذه التبعية الاحتياج! فلو كان الله تعالى في شيءٍ بهذا المعنى لكان محتاجاً فكان ممكناً فكان مفتقراً إلى المؤثِّر، وذلك محالٌ، وإذا ثبت أنَّه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى مُلخَّص يمكن إثباته في حقِّ الله تعالى امتنع إثباته.

أما الاتِّحاد: هو قولهم: إنَّ العبد صار هو الرَّبُّ – والعياذ بالله تعالى – كما ذكره الإمام الغزالي في «المقصد الأسنى» ص١٢٧، وقال الإمام الرازي في «مفاتيح الغيب» في تفسير سورة مريم آية (٣٠) في بيان بطلانه: أما القول بالاتِّحاد فهو باطلٌ قطعاً؛ لأنَّ الشَّيئين إذا اتَّحدا فهما حال الاتِّحاد، إمَّا أن يكونا موجودين أو معدومين، أو يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً، فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحدٌ، فالاتحاد باطلٌ، وإن عُدما وحصل ثالثٌ فهو أيضاً لا يكون اتِّحاداً بل يكون قولاً بعدم ذينك الشَّيئين، وحصول شيءٍ ثالثٍ، وإن بقي أحدهما وعُدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتَّحد بالموجود؛ لأنَّه يستحيل أن يقال: المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتِّحاد محالٌ.

[دليل الكرامة الاستقامة]

وانظر كيف يقول سيِّدنا القطب عبد الوهَّاب الشَّعراني[1] في كتابه «الأنوار القدسية»[2] بما نصُّه: «فلو رأينا الصُّوفي يتربَّع في الهواء لا نعبأ به، إلا إن امتثل أمر الله تعالى واجتنب نهيه، فالـمُحرَّمات[3] الواردة في السُّنَّة، مخاطبٌ بتركها كلُّ الخلق المُكلَّفين، لا يخرج عن ذلك أحدٌ منهم، ومَنِ ادَّعى أنَّ بينه وبين الله تعالى حالةٌ أسقطت عنه التَّكاليف الشَّرعية من غير ظهور أَمَارةٍ تُصدِّقه على دعواه فهو كاذبٌ، كمن يشطح من[4] شهودٍ في حضرةٍ خياليَّةٍ على الله، وعلى أهل الله، ولا يرفع بالأحكام الشَّرعيَّة رأساً، ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التَّكليف عنده، فهذا مطرودٌ عن باب الحقِّ، مُبعدٌ عن مقعد الصِّدق.

وحرامٌ على الفقيه وغيره أنْ يُسلِّم لمثل هذا، وحرام على هذا أنْ يتكدَّر مِنْ نُصحِهِ[5]؛ لأنَّه نصحَه بما يعلم، وبما بلغ إليه عقله.

وحرامٌ على الفقيه أنْ يتكدَّر من نصح الوليِّ؛ لأنَّه أعلى منه فَهْماً في أحكام الله تعالى، وقد نصحه فيما وصل إليه علمه.

---

(١) هو الشيخ الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبة إلى محمد ابن الحنفية، الشعراني، أبو محمد (٨٩٨-٩٧٣)هـ: من علماء الصوفية، ولد في قلقشندة (بمصر)، ونشأ بساقية أبي شعرة (من قرى المنوفية) وإليها نسبته: (الشعراني، ويقال: الشعراوي) وتوفي في القاهرة، له تصانيف، منها: «الأنوار القدسية» في معرفة آداب العبودية، و«الكبريت الأحمر» في علوم الشيخ الأكبر و«كشف الغمة» عن جميع الأمة و«لطائف المنن»، و«لواقح الأنوار» في طبقات الأخيار، يعرف بطبقات الشعراني الكبرى، و«لواقح الأنوار القدسية» في بيان العهود المحمدية، وغير ذلك.«الأعلام» للزركلي ٤/ ١٨١.

(٢) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» صـ٣٧ - ٣٨ـ.

(٣) في الأصل في المحرمات... مخاطباً، وفي «الأنوار»: فالمحرَّمات... مخاطبٌ، فأثبت ما في «الأنوار».

(٤) في «الأنوار»: في.

(٥) في «الأنوار»: ممَّن نصحَهُ.

ولا يُتَوهَّم أنَّ عِلْمَ الأولياء وغوصهم في فَهم الأحكام يتوقف على الآلات عند غيرهم، كالنَّحو، واللُّغة، والمعاني، ونحو ذلك؛ فإنَّ الحقَّ ﷻ لا تقييد عليه، فيعطي من شاء ما شاء كيف شاء؛ فافهم».

[وجوب مفارقة أصحاب الشَّطح]

وذكر الإمام الشعراني أيضا في كتابه «الدُّرر واللُّمع»[1] ما نصه: «سمعت سيدي عليًّا المرصفي[2] رحمه الله يقول: إيَّاكم أنْ تقبلوا هديةً مِمَّنْ فارق صحبة شيخه الَّذي ربَّاه، وأتاكم ليصحبكم، أو تُقْبِلوا عليه، وإن كنتم أعرف بأحوال الطَّريق من شيخه؛ فإنَّ كلَّ من فارق شيخه فقد نادى على نفسه بنقض العهد، وعدم الوفاء بحقِّ الصُّحبة، اللهمَّ إلا أن تكون مفارقته لشيخه بحقٍّ، فلا بأس بقبول مثل هذا، كما فعلت به مراراً في حقِّ مَنْ صحب أصحاب الشَّطح، كالَّذي يجري على مشاهد أهل الوَحدة المطلقة، تقليداً من غير حالٍ غلب عليه، ويقول لمريده: إيَّاك أن تصلي وتعبد ربَّك كما يفعل المحجوبون!.

فإنَّ مثل هذا قد خرج عن الإسلام بالكلِّيَّة، ويجب على كلِّ فقيرٍ أن يُنفِّر منه النَّاس، ويجدد إسلام ذلك المريد الَّذي كان صحبه واعتقد ما يعتقده، فكيف ينبغي للمتورِّع أن يقبل هديته مع أنَّه لا يحلل ولا يحرم؟!.

---

(١) صـ١٣٠ـ.

(٢) هو الشيخ أبو الحسن علي بن خليل نور الدين المرصفي المصري المديني، الشافعي، كان من الأئمة الراسخين في العلم، وهو شيخ الإمام الشعراني توفي رحمه الله تعالى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقنطرة لأمير حسن بمصر، من مؤلفاته: «منهج السالك إلى أشرف المسالك»، و«المقنع والمورد العذب»، و«مباني الطريق في مبادي التحقيق»، و«أحسن التطلاب» في آداب المريد. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني رقم ٣٥٠ ص ٤٨٤، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٢٨٦، و«معجم المؤلفين» ٧/ ٨٨ .

وسمعت سيدي علياً الخواص[1] رحمه الله يقول: إيَّاكم وقبول هدية مِمَّن يعتقد الوحدة المطلقة؛ فإنَّه خرج عن طريق الإسلام» انتهى.

وقال سيدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان المؤيد»[2]: «ينقُلُون عن الحَلاَّج[3] أنَّه قال: أنا الحقُّ! أخطأ بوهمه، لو كان على الحقِّ ما قال: أنا الحقُّ!.

يذكرون له شعراً يُوهم الوَحدة، كلُّ ذلك ومثله باطلٌ، ما أراه رجلاً واصلاً أبداً، ما أَرَاهُ شرب، ما أراه حضر، ما أراه سمع إلا رنَّةً أو طنيناً، فأخذه الوَهم من حالٍ إلى حالٍ.

مَنِ ازداد قرباً ولم يزدد خوفاً فهو ممكورٌ.

إيَّاكم والقولَ بهذه الأقاويل، إنْ هي إلَّا أباطيلٌ، درج السَّلف على الحدود بلا تجاوز.

بالله عليكم، هل يتجاوز الحدَّ إلا الجاهل؟ هل يدوس عَنْوَة في الجُبِّ إلَّا الأعمى؟.

---

(١) هو الشيخ علي الخواص البرلسي، شيخ الإمام الشعراني، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، وكان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسُّنَّة المشرَّفة كلاماً نفيساً تحير فيه العلماء، وكان في ابتداء أمره يبيع الجُمَّيْز (نوع من أنواع التين) وهو شاب، عند الشَّيخ إبراهيم المتبولي، ثم أذن له أن يفتح دكان زيات، فمكث بها نحو أربعين سنة، ثم ترك، وصار يضفر الخوص حتَّى مات، توفي سنة (٩٣٩)هـ ودفن بزاوية الشَّيخ بركات. انظر: «الطبقات الكبرى» للشَّعراني رقم٤٠١، صـ٥١٥ـ، «الطبقات الكبرى» للمناوي رقم ٨٣٤ ، ٣/ ٩٠- ٩٥.

(٢) صـ٣٦ـ.

(٣) هو الحسين بن منصور، وكنيته أبو مغيث، وهو من أهل بيضاء فارس، نشأ بواسط، والعراق، وصحب الجنيد، و النُّوري، وعمرو المكى، والفوطى، وغيرهم، والمشايخ فى أمره مختلفون، ردَّه أكثر المشايخ ونفوه، وأبوا أن يكون له قدم فى التَّصوف، وقبله بعضهم منهم: أبو العباس بن عطاء، ومحمد بن حنيف، وأبو القاسم النصراباذي، وأثنوا عليه، وصححوا له حاله، وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحققين، حتَّى قال محمد بن حنيف: الحسين بن منصور عالمٌ ربانى؛ قتل ببغداد بباب الطاق، يوم الثلاثاء، سنة (٣٠٩)هـ. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني رقم ٢١٠، صـ ١٦١ـ، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/ ١٤٠.

ما هذا التَّطاول؟ وذلك المتطاول: ساقطٌ بالجوع، ساقطٌ بالعطش، ساقطٌ بالنَّوم، ساقطٌ بالوجع، ساقطٌ بالفاقة، ساقطٌ بالهرم، ساقطٌ بالعناء، أين هذا التَّطاول من صدمة صوت: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر:١٦]؟».

وقال رضي الله عنه في محلٍّ آخر من كتابه المذكور[1]: «بلغني عن بعض إخواننا رجال العصر أنَّه يقول:

عَقَدْتُ ببابِ الدَّيرِ عُقْدَةَ زُنَّارِي وقلتُ: خُذُوا لِي مِنْ فَقِيهِ الحِمَى ثَارِي

يريد بذلك معاني أخرى، إيَّاكم والقولَ بمثل هذه الأقاويل، حسن الظَّنِّ يُلْزِمُنا بسيدنا الشَّيخ، ولكنْ أدبنا مع الدِّين ألزم، ووقوفنا مع الحقِّ أهمُّ.

لا نعقد الزُّنَّار، ولا نمرُّ على باب الدَّير، ونُقَبِّل يد الفقيه ورجلَه، ونطلب منه عِلمَ ديننا، ونقول: طلب الشَّيخ مقاصد سترها بهذه الألفاظ، وليته لم يطلبها ولم يسترها، ويقول عوضاً عمَّا قال:

حَلَلْتُ ببابِ الشَّرعِ عُقْدةَ زُنَّارِي وطَهَّرْتُ بالفقهِ الإلهِيِّ أَسرَارِي

ومـا الـديرُ والزنـارُ إلَّا ضـلالةٌ وما الشرعُ إلَّا البابُ للوصلِ بالباري

نعم، حالة أهل الحبِّ تأخذ القلب فيطيش العقل، فيتكلَّم اللِّسان كلام من جُنَّ أو خَمِر، أو غلى دمه أو أغشى عليه.

فدعوا الرَّجل وربَّه، وهذا يكفيه منكم، وتمسَّكوا بالحبل المتين، الَّذي مَنْ تمسَّك به لن يضلَّ أبداً.

هذه الكلمات ومثلها من الشَّطحات، التي تتجاوز حدَّ التَّحدُّث بالنِّعمة، مَثَلُ صاحبها كمثل رجلٍ نام في بيت الخلاء، فرأى في منامه أنَّه جلس على سرير سلطنةٍ، فلمَّا استيقظ خجل وعَرَف مكانه.

---

(١) صـ١١٣-١١٤ـ.

اللهَ اللهَ بالوقوف عند الحدود، عضُّوا على سُنَّة السَّيِّد العظيم بالنَّواجذ:

مَالِـــــي وأَلْفَـــــاظ زَيْـــــدٍ وَوَهْـــــم عَمْـــــرٍو وَبَكْـــــرِ

وَجْـــــهُ الشَّرِيعَـــــةِ أَهْـــــدَى مِـــــنْ سِـــــرِّ ذَاكَ وَسِـــــرِّي

«**صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيْكَ**»[1] انتهى.

وذكر الإمام الشَّعراني في كتابه «الأنوار القدسية»[2] أنَّ سيدي أبا الحسن الشاذلي[3] قُدِّسَ سِرُّهُ يقول: «احذر أنْ يكون إبليس أعلى منك في الأدب مع الله تعالى، قيل: وكيف ذلك؟ فقال: لأنَّه لَمْ ينازع الله تعالى في وصفٍ من أوصافه قط، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦]، وغاية أمره، أنَّه خالف الأمر فاستحق اللَّعنة والطَّرد، ومخالفة الأمر أهون من طلب العبد أنْ يكون شريكاً لله ﷻ فيما يستحقه على عباده.انتهى.

والـمُوقع للعبد في هذه المصائب: حبُّ الرِّياسة، ومبادرة التَّصدر[4] لهذا الباب قبل تأهُّله له، وقد كان أهل العصر الخالي رضيَ اللهُ تعالى عنهم لا يتصدَّر أحدٌ منهم لهذا

---

(١) رواه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب الطب (٧٦)، باب الدواء بالعسل...(٤) رقم ٥٦٨٢، ومسلم في «الصحيح»: كتاب السلام (٣٩)، باب التداوي بسقي العسل (٣١) رقم ٢٢١٧.

(٢) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» صـ٩١ـ.

(٣) هو الإمام أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلي المغربي (٥٩١-٦٥٦)هـ: رأس الطائفة الشاذلية، وإمام الأولياء والصُّوفية، أحد مفاخر الأُمَّة المحمَّدية ولد في بلاد (غمارة) بريف المغرب، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن (شاذلة) قرب تونس، فنسب إليها، ورحل إلى بلاد المشرق فحج ثم سكن الإسكندرية، وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج وكان ضريراً، من مؤلفاته: «رسالة الأمين في آداب التصوف»، و«نزهة القلوب وبغية المطلوب»، و«السر الجليل» في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل. انظر: «طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ ٧٥ ـ، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٣٠٥.

(٤) في «الأنوار»: التَّصدِّي .

الباب إلا بعد رُسوخه وتمكُّنه في مقام البقاء، وليس بعده مقامٌ إلا القطبية؛ لأنَّه حينئذٍ يصدق عليه حديث: «**فَبِيْ يَسْمَعُ، وَبِيْ يُبْصِرُ، وَبِيْ يَنْطِقُ**...»[1] الحديث.

فلا ينطق حتَّى ينطق كما كان حال سيدي الشَّيخ عبد القادر الجيلي[2] رضي الله عنه، فيأمن حينئذٍ من الدَّعوى، ويُسدَّد ويُحفظ في أقواله وأفعاله، ومَنِ ادَّعى وصوله إلى هذه الدَّرجة فلا تُنكر عليه، بل تَكِل[3] أمره إلى الله تعالى، فإنْ يكن كاذباً! فعليه كذبه، وإنْ يكن صادقاً! كنَّا[4] قد لزمنا معه الأدب.

ومواهب الله سبحانه وتعالى لا تنحصر على عباده، وظهور الكرامات ليست بشرطٍ في الولاية، إنَّما يُشترط امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، فيكون أمره مضبوطاً على الكتاب والسُّنَّة، فَمَنْ كان كذلك، فالقرآن شاهدٌ بولايته، وإن لَـم يعتقد فيه أحدٌ، ولا كان له أتباعٌ ولا مريدون». انتهى.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل الحادي والخمسون في بيان عدد الأبدال وصفاتهم رقم ٣٧١ ولفظه: «فإذا أَحْبَبْتُ عَبدِي كنتُ سَمْعَهُ وبَصرَهُ ولِسَانَهُ ويَدَهُ ورِجْلَهُ وفُؤَادَهُ، فَبِيْ يَسْمَعُ، وَبِيْ يُبْصِرُ، وَبِيْ يَنْطِقُ، وبِيْ يَأْخُذُ، وبِيْ يَبطِشُ، وبِيْ يَعقِلُ»، ورواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في «الصحيح»: كتاب الرقائق (٨١)، باب التواضع (٣٨) رقم ٦٥٠٢، بلفظ: «وَمَا زَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ...»، ومن دون «وبي ينطق».

(٢) سلطان الأولياء وإمام الأصفياء، أحد الأقطاب الأربعة، عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي (٤٧١-٥٦١)هـ: مؤسس الطريقة القادرية قدَّس اللهُ سرَّه من كبار الزهاد والصوفية، ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شاباً، سنة ٤٨٨ هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر، وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة ٥٢٨ هـ، وتوفي بها، له كتب منها: «الغنية لطالب طريق الحقِّ»، و«الفتح الرباني»، و«فتوح الغيب»، و«بالفيوضات الربانية». انظر: «طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٤١ـ، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٤٧.

(٣) في «الأنوار»: نُنكر، نَكِل.

(٤) في «الأنوار»: نكون.

[قول الشَّيخ الأكبر في الشَّطح]

وقال الشَّيخ الأكبر محيي الدِّين العربي[1] قُدِّسَ سِرُّهُ في «فتوحاته»[2] في باب معرفة الشَّطح وأسراره، مانصه: «حاشا أهل الله أن يتميَّزوا عن الأمثال أو يفتخروا؛ ولهذا كان الشَّطح: رعونة نفسٍ؛ فإنَّه لا يصدر من مُحقِّقٍ أصلاً، فإنَّ المُحقِّق ماله مشهودٌ سوى ربِّه، وعلى ربِّه ما يفتخر، وما يدَّعي، بل هو ملازمٌ عبوديَّته، مهيأٌ لِمَا يَرِدُ عليه من أوامره، فيسارع إليها، وينظر جميع مَنْ[3] في الكون بهذه المثابة.

فإذا شطح انحجب[4] عمَّا خُلق له، وجهل نفسه وربَّه، ولو انفعل عنه جميع ما يدَّعيه من القوَّة، فيحيي ويميت، ويولي ويعزل، وليس[5] عند الله بمكان، بل حكمه في ذلك: حكم الدَّواء المُسهل، أو القابض، يفعل بخاصِّيَّة الحال لا بالمكانة عند الله، كما يفعل السَّاحر بخاصِّيَّة الصَّنعة في عيون النَّاظرين، فيخطف أبصارهم عن رؤية الحقِّ، فيما أتوا به.

فكلُّ مَنْ شطح، فعن غفلةٍ شطح، وما رأينا، ولا سمعنا عن وليٍّ ظهر منه

---

(١) هو الشيخ العارف الكامل المحقق المدقق محمد بن علي بن محمد، الطائي الحاتمي المرسي، محيي الدين أبو بكر، ابن العربي نزيل دمشق، الملقب بالشيخ الأكبر، ولد في مرسية (بالأندلس) سنة (٥٦٠)هـ، كان ذكياً كثير العلم، كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهَّد وتعبَّد، وساح ودخل مصر والشام والحجاز والروم، وله في كلِّ بلدٍ دخلها مؤلفات، وقد حط عليه ابن عبد السلام بمصر، فلمَّا صحب الشَّيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه وعرف أحوال القوم، صار يترجمه بالولاية والعِرفان والقطبيَّة، مات سنة (٦٣٨)هـ، ودفن في الصالحية بدمشق، له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها: «الفتوحات المكية»، و«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»، و«ديوان شعر»، و«مفاتيح الغيب». انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني رقم ٢٨٩، صـ٢٧٤ـ، و «الأعلام» للزركلي ٦/ ٢٨١.

(٢) في الباب الخامس والتسعون ومائة في معرفة الشَّطح ٢/ ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٣) في الفتوحات (من) وفي هذا الكتاب (ما) فأثبت ما في الفتوحات .

(٤) في الفتوحات (فقد انحجب).

(٥) في الفتوحات (وما هو عند الله).

شطحٌ لرعونة نفسٍ وهو وليٌّ عند الله إلَّا ولا بُدَّ أن يفتقر ويذلَّ، ويعود إلى أصله، ويزول عنه ذلك الزَّهو الَّذي كان يصول به، فذلك لسان حال الشَّطح، هذا إذا كان بحقٍّ هو مذمومٌ، فكيف لو صدر من كاذب ؟!.

فإن قيل: وكيف صورة الكاذب في الشَّطح مع وجود الفعل والأثر منه؟.

قلنا: نِعْمَ ما سألتَ عنه؛ فأمَّا صورة الكاذب في ذلك، فإنَّ أهل الله ما يؤثِّرون إلَّا بالحال الصَّادق إذا كانوا أهل الله، وذلك المُسمَّى شطحاً عندهم حيث لم يقترن به أمرٌ إلهي أمرَ به، كما تحقَّق ذلك من الأنبياء عليهم السَّلام فمِنَ النَّاس مَنْ يكون عالماً بخواصِّ الأسماء، فيُظهر بها الآثار العجيبة، والانفعالات الصَّحيحة، ولا يقول: إنَّ ذلك عن أسماءٍ عنده، وإنَّما يُظهر ذلك عند الحاضرين، أنَّه من قوة الحال والمكانة عند الله، والولاية الصَّادقة، وهو كاذب في هذا كلِّه، وهذا لا يسمى شطحاً، ولا صاحبه شطَّاحاً، بل هو كذبٌ محضٌ ممقوتٌ.

فالشطح: كلمةٌ صادقةٌ صادرةٌ مِنْ رعونةِ نفسٍ، عليها بقية طبعٍ، تشهد لصاحبها ببعده من الله في تلك الحال؛ وهذا القدر كافٍ في معرفة حال الشَّطح».

[قول الشَّيخ الأكبر في الإدلال]

وقال قُدِّسَ سِرُّهُ في الجزء الأول من «فتوحاته»[1] في الباب التاسع والثلاثين: حُكي عن بعضهم أنَّه قال: اقعد على البساط - يريد بساط العبادة - وإيَّاك والانبساط، أي: التزم ما تعطيه حقيقة العبوديَّة من حيثُ إنَّها مكلفةٌ بأمورٍ حدَّها لها[2] سيِّدها؛ فإنَّه لولا تلك الأمور لاقتضى مقامها الإدلال والفخر والزَّهوّ من

(١) في الباب التاسع والثلاثين في معرفة المنزل الَّذي يحط إليه الولي إذا طرده الحق تعالى من جواره ٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) في الفتوحات (له).

أجل مقام مَنْ هو عبدٌ له ومنزلته، كما زها يوماً عتبة الغلام[1] وافتخر فقيل له ما هذا الزَّهو الَّذي نراه في شمائلك ممَّا لم يكن يُعرف قبل ذلك منك، فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولىً، وأصبحت له عبداً.

فما قَبَضَ العبيدَ عن الإدلال، وأن يكونوا في الدُّنيا مثل ما هم في الآخرة إلا التَّكليفُ، فهم في شغلٍ بأوامر سيِّدهم إلى أن يَفْرُغُوا منها.

فإذا لم يبق لهم شغلٌ قاموا في مقام الإدلال الَّذي تقتضيه العبوديَّة، وذلك لا يكون إلَّا في الدَّار الآخرة؛ فإنَّ التَّكليف لهم مع الأنفاس في الدَّار الدُّنيا.

فكلُّ صاحب إدلالٍ في هذه الدَّار، فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلاله، ولا يبلغ درجة غيره مِـمَّن ليس له إدلالٌ أبداً؛ فإنَّه فاتته أنفاسٌ كثيرةٌ في حال إدلاله، غاب عمَّا يجب عليه فيها من التَّكليف الَّذي يناقض الاشتغال به الإدلال، فليست الدُّنيا بدار إدلال، ألَا ترى عبد القادر الـجيلي مع إدلاله لـمَّا حضرته الوفاة وبقي عليه من أنفاسه في هذه الدَّار ذلك القدر الزَّماني، وضع خدَّه في الأرض واعترف بأن الَّذي هو فيه الآن هو الـحقُّ الَّذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار، وسبب ذلك أنَّه كان في أوقاتٍ صاحب إدلال؛ لـما كان الـحقُّ يُعرِّفه به من حوادث الأكوان.

---

(١) عتبة بن أبان البصري، الزاهد، الخاشع، الخائف، العابد المعروف بالغلام؛ لأنَّه تنسك وهو صبي فعُرف بين العُبَّاد بالغلام، كان يُشبَّه في حزنه بالحسن البصري، استشهد ﷺ في حدود السبعين ومائة، قال سلمة الفراء: كان عتبة الغلام من نسَّاك أهل البصرة، يصوم الدهر، ويأوي السواحل والجبانة، قال أبو عمر البصري: كان رأس مال عتبة فلسا، يشتري به خوصاً، يعمله ويبيعه بثلاثة فلوس، فيتصدق بفلس، ويتعشى بفلس، وفلس رأس ماله، قيل لما غزا، قال: لا تفتحوا بيتي ، فلما قتل، فتحوه، فوجدوا قبراً محفوراً، وغل حديد. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٧/ ٦٢، و«الوافي بالوفيات» للصفدي ٦/ ٣٢٧ .

وعَصَمَ الله أبا السُّعود[1] تلميذه من الإدلال، فلازم العبودية المكلَّفة[2] مع الأنفاس إلى حين موته، فما حُكي أنَّه تغير عليه الحال عند موته كما تغير على شيخه عبد القادر، وحكى لنا الثقة عندنا، فقال: سمعته يقول: طريق عبد القادر في طريق الأولياء غريبٌ، وطريقنا في طريق عبد القادر غريبٌ رضي الله عنه وعن جميعهم ونفعنا بهم.

والله يعصمنا من المخالفات، وإن كانت قدِّرت علينا، فالله أسأل أن يجعلنا في ارتكابها على بصيرةٍ حتى يكون لنا بها ارتقاء درجات: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] ». انتهى.

وقال سيدي عبد الوهَّاب الشَّعراني قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه «الأنوار القدسية»[3]: «ومن شأنه - أي: الفقير العارف - إذا اسْتُفْتي على شخصٍ من الفقراء في أمورٍ لا تُدرك إلا بالذَّوق؛ أنْ لا يُبادر إلى الإنكار، بل يتحيَّل في الرَّدِّ عنه ما أمكن، هكذا كان شأن شيخ الإسلام زكريا[4]، والشَّيخ عبد الرَّحيم الأنباسي[5] رضي الله عنهما،

---

(١) أحمد بن أبي بكر بن المبارك أبو السعود ت(٥٨٢)هـ: الزاهد المعروف بابن الشبل من أهل الحريم الظاهري، صحب الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه وأخذ عنه طريق المعاملة والزهد وصار ممن يُشار إليه بالمعرفة والولاية، وظهرت له الكرامات، وفتح عليه بالكلام في طريق القوم وصار له القبول التام عند الناس وأكثر الناس زيارته والتبرك به. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي ٢/ ٣١٠ .

(٢) في المطبوع (المطلقة) وفي الفتوحات (المكلفة) فأثبت ما في الفتوحات.

(٣) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» صـ٩٥ـ.

(٤) زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، أبو يحيى (٨٢٣-٩٢٦)هـ: شيخ الإسلام، قاض، مفسر، من حفاظ الحديث، ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة وكُف بصره سنة (٩٠٦)هـ، له تصانيف كثيرة، منها: «فتح الرحمن في التفسير»، و«تحفة الباري على صحيح البخاري»، و«غاية الوصول»، و«أسنى المطالب». انظر: «الأعلام» للزركلي ٣/ ٤٦.

(٥) زين الدين عبد الرحيم بن إبراهيم عبد الرحيم بن إبراهيم بن حجاج بن محرز الأنباسي الشَّافعي (٨٢٩-٨٩١)هـ: الشيخ العالم ابن العالم، والنَّجيب ابن النَّجيب، اشتغل بالعلوم، =

فإن رأى ذلك الأمر يلزم منه فساد ظاهر[1] الشَّريعة أفتى ولامَ عليه؛ لأنَّ صاحب هذا الكلام ناقصٌ، فليس من أهل الاقتداء، ونصرة الشَّرع أولى من الأدب معه، بخلاف كُمَّل الأولياء، كأبي يزيد البسطامي[2] وعبد القادر الكيلاني رضي الله عنهما وأضرابهما، فيؤوّل كلامهم ما أمكن». انتهى.

[تأويل ما نُسِبَ إلى الإمام عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه من الشَّطح]

والَّذي أراه أنَّ ما صدر عن سيِّدنا الشَّيخ عبد القادر الجيلي قُدِّسَ سِرُّهُ ونفعَنَا بِهِ من الكلمات التي رُئيت بمرائي الشَّطحات[3]، فهي مؤوَّلةٌ منصرفةٌ عن مقام

=

وبرع وتفنَّن، ونفع الطلبة، ولزم بآخرة طريق التَّصوف والسُّلوك، وكتب أشياء في التَّصوف، وكان على قدمٍ من الصَّلاح والعبادة. انظر: «نظم العقيان في أعيان الأعيان» للسيوطي صـ٤٣.

(١) في «الأنوار»: فإن رأى أنَّ ذلك الأمر يلزم منه فسادٌ لظاهر الشريعة.

(٢) هو الشيخ أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي البسطامي الزَّاهد المشهور رضي الله عنه؛ كان جده مجوسياً ثم أسلم، وكان له أخوان زاهدان عابدان أيضاً: آدم وعلي، وكان أبو يزيد أجَلُّهم. وسُئل أبو يزيد: بأي شيءٍ وجدت هذه المعرفة فقال: ببطن جائع وبدن عار؛ وله مقالاتٌ كثيرةٌ ومجاهداتٌ مشهورةٌ وكراماتٌ ظاهرةٌ، نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته فيها سنة (٢٦١)هـ رحمه الله تعالى. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/ ٥٣١، و«الأعلام» للزركلي ٣/ ٢٣٥.

(٣) قال السيد أبو الهدى الصيادي قدَّسَ اللهُ سرَّه في كتابه «نور الإنصاف» صـ ٦٧-٦٨ـ مانصُّه: «نصَّ العارفون من السَّلف الصَّالح أنَّ الشَّطح: هو التَّجاوز، والتَّبجُّح، والتَّزحزح من مكانٍ إلى آخر، وهو رعونة دعوى لا يحتملها القلب فيلقيها إلى اللسان فينطق بها لسان الأحمق.

وقال آخرون: بل هي من الزَّلات التي لا تصدر عن محقّقٍ أصلاً.

وقالوا: الوليُّ إذا كان حاله أكمل من مقامه تصدر منه الكلمات الزَّائدة والشَّطحات، ويغلبه الوجد فيطيش طيش المعجب. وقالوا: الشَّطح الَّذي يلفظ به أهل السُّكر من العارفين، هو كلامٌ صادرٌ عن وجدٍ وشوقٍ وشدة غليانٍ وعِظَم عشقٍ.

وهو في اللغة العربية: الحركة، يقال: شطح يشطح إذا تحرك، ويقال للبيت الذي تحرز فيه الدَّقيق مشطاح من كثرة ما يُحرِّكون فيه الدَّقيق، فشطح العارفين مأخوذٌ من حركة أسرارهم، ولسان الشَّطح كيف كان هو من أسباب الوقيعة بصاحبه، وهو نقصٌ في مرتبة الولاية، وذلك بالنِّسبة إلى المتمكِّنين من الأولياء

=

الشَّطح على الغالب، وأمَّا بعض الكلمات التي لا تقبل التَّأويلات فهي نُسِبَت إليه، ولم تكن منه رضي الله عنه على الأصحِّ، كالكلمات التي سمَّاها واضعها - عليه من الله ما يستحق -: بالغَوثيَّة والمِعراجيَّة، وأسندها إلى الشَّيخ رضي الله عنه، وأخذ به - نزَّه الله مقامه - إلى مذهب الحُلولية، وأهل الوَحدة المطلقة، فهي بُهتانٌ وافتراءٌ محضٌ عليه قُدِّسَ سِرُّهُ، وإنَّه رضي الله عنه مِنْ أعظم مَنْ تحقَّق بقدم الاتِّباع للنَّبيِّ ﷺ في الأقوال والأفعال، وقد دلَّت عليه إرشاداته، وكمالاته، وعباداته، وأمَّا ما نُسب إليه من قوله: قدمي على رقبة كلِّ وليٍّ لله، فما هو إنْ صحَّ إلا مؤوَّلٌ بتأويلٍ شرعيٍ حصل فيه الإيهام لا غير، وتمسَّك بظاهره جماعةٌ من أهل الغُلوِّ في الشَّيخ، الَّذين اتخذوه حِرفةً لإعلاء أنفسهم، وجلب مصالحهم، وانظر ما قاله الإمام أبو حيان[1] في

=

كمال بالنسبة إلى غيرهم، لكن على شرط قبوله التأويل الحسن، فإنَّ من الشَّطح ما يقبل التأويل، ومنه ما لا يقبل التَّأويل، فالشَّطح الَّذي يقبل التَّأويل إن كان عن حالٍ صادقٍ لا يؤاخذ صاحبه، وإن كان عن حالةٍ خياليةٍ فهو من الضَّلال المحض والعياذ بالله، والشَّطحات التي تصدر من أهل الأحوال الصَّادقة لا تقدح في مقامهم ومنازلهم، ولكن لا يُقتدى بهم فيها، ولا يصحُّ أن تروى أو تدون؛ لأنَّ ذلك من مزالق الأقدام، و المتمكِّنون من أهل المقامات لا يصرفهم الحال إلى قولٍ فوق التحدث بالنعمة ...».

وقد ذكر العلامة الوتري في «روضة الناظرين» صـ١٦ـ قول سبط الإمام الرفاعي إبراهيم الأعزب **رضي الله عنهما** في ذلك:

شطحُ الرِّجالِ على السُّقوطِ دليلُ	**وأخو الخمورِ لدى الصُّحاةِ ذليلُ**
يتكاثرونَ بشطحِهِم لحجابِهم	**وأولوا الكمالِ الخاشعونَ قليلُ**
فالذُّلُّ للمولى سبيلٌ واصلٌ	**والشَّطحُ للقطعِ المُريبِ سبيلُ**

(١) محمد بن يوسف بن علي بن حيان بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي، أثير الدين، أبو حيان (٦٥٤- ٧٤٥)هـ: الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر النحوي اللغوي، فريد الدهر، وشيخ النحاة في عصره، وإمام المفسرين في وقته، ولد في غرناطة، وتوفي في القاهرة، وصنف التصانيف المشهورة الكثيرة، منها: «البحر المحيط» في تفسير القرآن، و«النهر» اختصر به البحر المحيط، و«مجاني العصر» في تراجم رجال عصره. انظر: «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة صـ١٥١ـ، و«الأعلام» للزركلي ٧/ ١٥٢.

تفسيره «البحر المحيط» في معنى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس:٢]: «﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد[١]، والضحاك[٢]، والربيع بن أنس[٣]، وابن زيد[٤]: هي الأعمال الصَّالحة من العبادات.

وقال الحسن[٥] وقتادة[٦]: هي شفاعة محمَّد ﷺ.

وقال زيد بن أسلم[٧] وغيره: هي المصيبة بمحمَّد ﷺ.

---

(١) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي (٢١-١٠٣أو١٠٤)هـ: أحد الأعلام من التابعين والأئمة المفسرين، قرأ على عبد الله ابن السائب وعبد الله بن عباس بضعاً وعشرين ختمة ويقال ثلاثين عرضة، توفي بمكة وهو ساجد. انظر: «غاية النهاية» لابن الجزري ١/ ٢٩٣، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي صـ٥ـ.

(٢) الضحاك بن مزاحم أبو القاسم، ويقال: أبو محمد الهلالي الخرساني تابعي، وردت عنه الراوية في حروف القرآن، توفي سنة (١٠٥)هـ. انظر: «غاية النهاية» لابن الجزري ١/ ١٤٨.

(٣) الربيع بن أنس بن زياد البكري، الخراساني، المروزي: بصري، سمع أنس بن مالك ﷺ وأبا العالية الرياحي وأكثر عنه، وكان عالم مرو في زمانه، وقال ابن أبي داود: سجن بمرو ثلاثين سنة، يقال: توفي سنة (١٣٩)هـ. «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٦/ ١٧٠.

(٤) أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن زيد شهاب الدين أبو العباس (٧٨٩-٨٧٠)هـ: دمشقي، من علماء الحنابلة له: «اختصار سيرة ابن هشام» وغير ذلك. «الأعلام» للزركلي ١/ ٢٣٠.

(٥) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد (٢١-١١٠)هـ: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحَبر الأُمَّة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشُّجعان النساك، ولد بالمدينة، في خلافة عمر ﷺ، وكانت أمه خيرة مولاةً لأمِّ سلمة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، وسكن البصرة، وكان غايةً في الفصاحة، تنصبُّ الحِكمة من فيه، توفي بالبصرة. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي٤/ ٢٢٣، و«الأعلام» للزركلي ٢/ ٢٢٦.

(٦) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري المفسر الأعمى التابعي (٦١-١١٨)هـ: أحد الأعلام الكبار، قال سعيد بن المسيب: ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة. انظر: «غاية النهاية» لابن الجزري١/ ٢٨٦، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي صـ٧ـ.

(٧) زيد بن أسلم أبو أسامة المدني تـ(١٣٦) هـ: الفقيه مولى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، روى عن أنس وجابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع وابن عمر وأبي هريرة وعائشة ﷺ، كان ثقة، كثير الحديث، له حلقة في المسجد النبوي، وله كتاب في «التفسير» رواه عنه ولده عبد الرحمن. انظر: «طبقات الحفاظ» للسيوطي صـ٩ـ، و«الأعلام» للزركلي ٣/ ٥٦ – ٥٧.

وقال ابن عبَّاسٍ وغيره: هي السَّعادة السَّابقة لهم في اللَّوح المحفوظ.

وقال مقاتل[1]: سابقة خيرٍ عند الله قدَّموها.

وإلى هذا المعنى أشار وضاح اليمن[2] في قوله:

مَالــكَ وضَّــاحُ دَائِــمَ العَــزَلِ	**ألَسْــتَ تَخْشَــى تقــارُبَ الأجَــل**
صَــلِّ لِـذِي العَـرْشِ واتَّخِـذْ قَـدَماً	**يُنْجِيــكَ يَــوْمَ العِثَــارِ والزَّلَــل**

وقال قتادة أيضاً: سلف صدقٍ.

وقال عطاء[3]: مقام صدقٍ.

وقال [يمان][4]: إيمان صدقٍ.

وقال الحسن أيضاً: ولدٌ صالحٌ قدَّموه.

وقيل: تقديم الله في البَّعث لهذه الأمَّة وفي إدخالهم الجنَّة، كما قال ﷺ: «**نَحْنُ الآخِرُوْنَ السَّابِقُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[5].

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخى، أبو الحسن تـ(١٥٠)هـ: من أعلام المفسرين، أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدَّث بها، وتوفى بالبصرة، من كتبه: «التفسير الكبير»، و«الرد على القدرية»، و«الناسخ والمنسوخ». انظر: «الأعلام» للزركلي٧/ ٢٨١.

(٢) عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال الحميري الخولاني، المعروف بوضاح اليمن: شاعر، رقيق الغزل، كان جميل الطلعة يتقنَّع في المواسم خشية العين، قدم مكة حاجاً في خلافة الوليد بن عبد الملك، فرأى (أم البنين) بنت عبد العزيز بن مروان، زوجة الوليد، فتغزل بها، فقتله الوليد نحو (٩٠)هـ. انظر: «الأعلام» للزركلي ٣/ ٢٩٩.

(٣) عطاء بن السائب الكناني الليثي من أهل المدينة مسح سيدنا علي بن أبى طالب رضي الله عنه رأسه، وقال: بارك الله عليك وعلى ذريتك من بعدك، مات سنة (١٣٦)هـ. انظر: «مشاهير علماء الأمصار» لأبي حاتم البستي صـ٢٠٣ـ، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي صـ١٠ـ.

(٤) ساقط من المطبوع.

(٥) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب الجمعة (١١)، باب فرض الجمعة (١) رقم ٨٧٦، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الجمعة (٧)، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٦) رقم ٨٥٥.

وقيل: بقدم شرفٍ، ومنه قول العجاج[1]:

ذَلَّ بنـو العـوَّام مـن آلِ الحَكَـمِ وتَرَكُـوا المُلْـكَ لِمَلِـكٍ ذي قَـدَم

وقال الزَّجَّاج[2]: درجةٌ عاليةٌ، وعنه منزلةٌ رفيعةٌ، ومنه قول ذي الرُّمَّة[3]:

لَكُـمْ قَـدَمٌ لا يُنْكِـرُ النَّـاسُ أَنَّهَـا مَعَ الحَسَبِ العَادِيِّ طَمَّتْ عَلَى البَحْرِ

وقال الزَّمخشري[4]: قدم صدقٍ عند ربهم سابقة، وفضلاً ومنزلةً رفيعةً، ولَـمَّا كان السَّعي والسَّبق بالقدم سُمِّيت المسعاة الجميلة والسَّابقة: قدماً، كما سُمِّيت النِّعمة: يداً؛ لأنَّها تُعطى باليد، وباعاً؛ لأنَّ صاحبها يَبُوع بها، فقيل: لفلانٍ قدمٌ في الخير، وإضافته إلى ﴿صِدْقٍ﴾ دلالة على زيادة فضل، وأنَّه من السَّوابق العظيمة.

---

(١) عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي، أبو الشعثاء، العجاج تـ(نحو٩٠)هـ: راجز مجيد، من الشعراء، ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها، ثم أسلم، وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك، ففلج وأقعد، وكان لا يهجو، وهو والد رؤبة الراجز المشهور أيضاً، له: ديوان في مجلدين. انظر: «الأعلام» للزركلي ٤/ ٨٦ - ٨٧.

(٢) الإمام إبراهيم بن محمد بن السري الزَّجاج البغدادي أبو إسحاق (٢٤١-٣١١)هـ: نحوي زمانه، ولد ومات في بغداد، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد، وله تآليف جمَّة منها: «معاني القرآن»، و«إعراب القرآن»، و«الإنسان وأعضائه» وغير ذلك. انظر: «سير أعلام النبلاء» ١٤/ ٣٦٠، و«الأعلام» للزركلي ١/ ٤٠.

(٣) غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، ذو الرمة (٧٧-١١٧)هـ: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره، كان شديد القصر دميماً، يضرب لونه إلى السواد، توفي بأصبهان، وقيل: بالبادية، له: ديوان شعر في مجلد ضخم. انظر: «الأعلام» للزركلي ٥/ ١٢٤ .

(٤) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي النحوي المعتزلي تـ(٥٣٨)هـ: إمامٌ في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان، من مصنفاته: «الكشاف»، و«أساس البلاغة» وغيرها. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي٢٠/ ١٥١- ١٥٥.

وقال ابن عطيَّة[1]: والصِّدق في هذه الآية بمعنى الصَّلاح، كما تقول: رجل صدقٍ.

وعن الأوزاعي[2]: قِدم بكسر القاف تسمية بالمصدر». انتهى.

فإذا نظرت لتفسير هذه المعاني رأيت أنَّ الشَّيخ[3] قُدِّسَ سِرُّهُ أراد بذلك: الأعمال الصَّالحة مِنَ العبادات، أو شفاعة النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

أو السَّعادة السَّابقة لجنس الأولياء، وكأنَّه يقول: سعادتي السَّابقة، كما أنَّها طوق مِنَّةٍ مِنَ الله طَوَّق الله به عُنُقي، فكذلك هو طريقٌ يعلو عنق كلَّ وليٍّ لله.

أو أراد بذلك: سابقة خيرٍ، قَدَّمَها عند الله، باتِّباع رسول الله ﷺ، وهي كذلك شاملةٌ للجنس على أنَّ أمر الاتِّباع نافذٌ على رقبة كلِّ وليٍّ.

أو أراد بقوله: سلفه الصَّادق، أو مقام الصِّدق، أو إيمان الصِّدق، أو منزلة الاتِّباع الرَّفيعة، ودرجة الاقتداء المنيعة.

---

(١) عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية أبو محمد الغرناطي القاضي (٤٨٠-٥٤٢)هـ: الإمام الكبير قدوة المفسرين، كان فقيهاً، عارفاً بالأحكام، والحديث، والتفسير، بارع الأدب، بصيراً بلسان العرب، واسع المعرفة، له يدٌ في الإنشاء والنظم والنثر، وكان يتوقَّد ذكاءً، له: التفسير المشهور. انظر: «طبقات المفسرين» للسيوطي صـ٩-١٠ـ، و ((الوافي بالوفيات» للصفدي ٦/ ٤٨.

(٢) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد بن عبد عمرو الأوزاعي، و الأوزاع التي عُرف بها قرية بدمشق خارج باب الفراديس كنيته أبو عمرو (٨٨-١٥٧)هـ: أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وحفظاً وفضلاً وعبادةً وضبطاً مع زهادة، ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها مرابطاً و كان قد دخل الحمام فزلقت رجله وسقط فغشي عليه ولم يعلم به حتَّى مات فيه وقبره ببيروت مشهور يزار، له: كتاب «السنن» في الفقه، و«المسائل» ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها. انظر: «مشاهير علماء الإسلام» لأبي حاتم البستي صـ١٨٠ـ، و«الأعلام» للزركلي ٣/ ٣٢٠.

(٣) أي سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره.

وكلُّ ذلك شاملٌ لقائله إن كان من جنس الأولياء، ولا ريب في أنَّ الشَّيخ قُدِّسَ سِرُّهُ من أعيان الأولياء الكرام ﷺ، وإلا فتأويل الجهلة من أصحاب الإفراط بمحبَّة الشَّيخ ﷺ هذه المقولة، وتفسير معناها مع عدم ملاحظة الدَّقائق الشَّرعية، وحفظ حرمة جنس الأولياء، أهل المراتب العلية، وإهمال رعاية ما نُصَّ من تكريم النوعية الآدمية، والجزم على مضمر سر هذه الكلمة بقدم الرجل المركب من لحم وعظم: ضلال وغلو من أولئك الجهلة المفرطين، واستخفاف بأولياء الله تعالى.

[حكم الاستخفاف بالعلماء]

ويعجبني ما نقله السيِّد الفاضل نعمان أفندي الآلوسي القادري[1] في كتابه «غالية المواعظ» بما نصُّه: «واستخفاف العلماء إنَّما يكون كُفراً إذا كان عاملاً بعلمه؛ لأنَّ من لم يعمل بعلمه لا يستحقُّ التَّعظيم.

ومن قال لفقيهٍ أخذ شاربه: ما أعجب قُبحها! أو أشد قبحاً قص الشَّارب، أو لف العِمامة تحت الذَّقن! قال في «الظهيرية»[2]: يكفر؛ لأنّه استخفافٌ في العلماء.

ومن قال: قصصت شاربك، وألقيت العمامة على العاتق استخفافاً كَفَر، كذا في «الخلاصة» للحميدي». انتهى.

---

(١) نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الآلوسي (١٢٥٢- ١٣١٧)هـ: واعظٌ، فقيهٌ، باحثٌ، من أعلام الأسرة الآلوسية في العراق، ولد ونشأ ببغداد وتوفي بها، وولي القضاء في بلاد متعددة، منها الحلة، قال الأثري في وصفه: كان عقله أكبر من علمه، وعلمه أبلغ من إنشائه، وإنشاؤه أمتن من نظمه، من كتبه: «ابن تيمية وابن حجر»، و«غالية المواعظ»، و«صادق الفجرين»، و«شقائق النعمان». انظر: «الأعلام» للزركلي ٨/ ٤٢.

(٢) «الفتاوى الظهيرية»: لظهير الدين أبي بكر: محمد بن أحمد القاضي المحتسب ببخارى البخاري الحنفي، المتوفى: سنة (٦١٩)هـ، ذكر فيها: أنه جمع كتاباً من الواقعات والنوازل مما يشتد الافتقار إليه وفوائد غير هذه. «كشف الظنون» ٢/ ١٢٢٦.

فأين هذا الاستخفاف من استخفاف من يصرف كلمة الشَّيخ رضي الله عنه لِقَدَمِ الرَّجل، ويقصد بذلك تحقير أولياء الله الَّذين طالما خضعت أعناقهم لله، واشتغلت ألسنتهم بذكر الله، وتعفَّرت جباههم بتراب السُّجود لله، فهل ذلك إلا من الجهل والعناد، وإرادة العلو في الأرض والفساد؟! وحاشا الشَّيخ قُدِّسَ سِرُّهُ أن يقصد هذا المعنى، على شرط صدور هذه الكلمة منه؛ فإنَّه من أكمل من تحقَّق بشريعة جَدِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد عَبَّر عنه العلماء الأعلام بشيخ الإسلام، فكيف يصدر من مثله هذا التَّجاوز على جنسه، والطَّاعن في جنسه كالطَّاعن في نفسه.

وليعلم أنَّ مرتبته قُدِّسَ سِرُّهُ الكمال، والعمل بشريعة النَّبيِّ الطَّاهر في الأقوال والأفعال، فعليك يا أخي، بإجلال منزلته، وإعلاء شرفه ومرتبته، ولا تنظر لأقوال السُّفهاء الممقوتين الَّذين ينسبون ما لا يرضاه إليه، ويصرفون لأغراضهم مؤاخذة ظاهر الشَّريعة عليه، وأنَّى لهم ذلك، وهو وسيع الرِّحاب، ومحفوظ الجناب، وقد تخلق رضي الله عنه بأعظم أخلاق الفقراء، وتَمَكَّن فيها تَـمَكُّن العاملين من العلماء.

قال سيدنا عبد الوهَّاب الشَّعراني قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه «الدُّرر واللُّمع»(1) ما نصَّه: «وأمَّا السيِّد عبد القادر الجيلي رضي الله عنه فمكث في بداية أمره نحو خمس وعشرين سنة يَلْبَس من شراميط الكيمان، ويأكل من قمامات البقول التي يرميها النَّاس في المزابل، أو تسقط منهم في موارد الماء حتَّى وَسَّع الله عليه بالحلال». انتهى.

فانظر لمبالغته في الورع، ووقوفه عند حدود الله، وتَـمَكُّنه بالأعمال الصَّالحة المرضية عند الله، وإنَّك إذا طالعت سيرته الزَّكية تعلم ماله من المجاهدات، وعظيم العبادات، وتعتقد اعتقاداً جازماً أنَّه من خواصِّ الـمُتمكِّنين الواقفين عند ظاهر الشَّريعة الغراء، ومن أعظم النَّاصرين لسُّنَّة جَدَّه سيِّد الأنبياء.

---

(1) صـــ.

ولا يخفى أنَّ جماعة الشَّاذلية ابتلوا بإسناد ما هو أعظم من هذه الكلمة إلى الأستاذ أبي الحسن الشَّاذلي قُدِّسَ سِرُّهُ وهي قولهم: أنَّه قال: قدمي على جبهة كلِّ وليٍّ لله!

وابتلي رجال الطَّريقة التِّيجانيَّة المعروفة في المغرب الآن بإسنادهم إلى الشَّيخ أحمد التيجاني(١) صاحب طريقتهم أنَّه قال: قدماي هذان على هامة كلِّ وليٍّ لله(٢)!.

فإذا أمعنت النَّظر فيما سبق من التَّفصيل، ترى أنَّ الكلمة الـمنسوبة للجيلي رضي الله عنه مع جلالة قدره، ورفعة مقامه، وقَبول كلمته التَّأويل، قال فيها القوم ما قالوا! فما بالك بالكلمات التي تنسب لـمن لـم يبلغ منزلة هذا الإمام الجليل مِـمَّا هو دونه شهرةً ومكانةً من الأولياء، والـمؤاخذة الشَّرعية حافَّةٌ بكلماتهم من كلِّ جهةٍ ؟!.

فهل إلا إنكار صحَّة النِّسبة الـمُسندة إليهم؛ حفظاً لمقامهم، وإجلالاً لمرتبتهم، وردِّها بالكُلِّيَّة على مُـحَّسنيها ومعتقديها، تعظيماً لجنس الأولياء؛ فإنَّ الجنس أجلُّ وأفضل من الفرد كيف كان، فاعمل بها يا أخي، فهو طريق الصَّواب.

---

(١) أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد الشريف التيجاني، أبو العباس (١١٥٠-١٢٣٠)هـ: شيخ (الطائفة التجانية) بالمغرب، كان فقيهاً مالكياً عالماً بالأصول والفروع، مُلِمّاً بالأدب، ساح في طلب الشَّيخ سياحات طويلة، والتقى بالقطب محمد السمّان في المدينة، وأجازه بأحزاب الشاذلية، وورد مكة والتقى فيها بالشيخ الهندي وورث سِرَّه، وقصد مصر لمقابلة الشيخ محمود الكردي وأخذ عنه، وعاد إلى المغرب، ونشر طريقته هناك، ونُسِبَت إلى ذاته، وتوفي بفاس رحمه الله تعالى، ولبعض أصحابه كتب في سيرته منها: «جواهر المعاني»، و«النفحة القدسية في السيرة الأحمدية التجانية»، وله (ورد) في ١٠ ورقات. انظر: «طبقات الشاذلية الكبرى» للحسن بن محمد صـ١٥٤-١٥٥ـ، و«الأعلام» للزركلي ١/ ٢٤٥.

(٢) قال الحسن بن قاسم في «طبقات الشاذلية» صـ١٥٥ـ: وقد ثبت أيضاً كما في «جواهر الأسرار» أنَّه قال لتلميذه سيدي أحمد بن حِرزام بحضرة الرِّجال: يا ابن حرزام، أُمرتُ أنْ أقول الآن: قدمي هذه على رقبة كلِّ وليٍّ لله، وكلِّ وليٍّ لله من خلق آدم إلى يوم القيامة!.

وقل للسُّفهاء الـمُتشيِّخة الَّذين لا يُميِّزون بين الحلال والحرام: قبل تَفَكُّهِكُم بالكلمات المنسوبة إلى الشَّيخ رضي الله عنه وأمثاله، وصرفها بفهمكم السَّقيم إلى الوجه المردود شرعاً: عاملوا الله كما عاملوه، واصدقوا الله كما صدقوه، وجاهدوا في الله كما جاهدوا في الله، وتشبَّثوا بذيل الاتِّباع من غير ابتداعٍ، وارجعوا عن نسبة القوم إلى التَّجاوز؛ فإنَّهم أدَّبَهم الله، وحماهم وصان حِماهم.

[التحذير من تجاوز العبد حدَّه مع إخوانه]

وما أحسن ما قاله سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه في كتابه «البرهان المؤيد»[1] وهو: «العبد متى تجاوز حَدَّه مع إخوانه، يُعَدُّ في الحضرة ناقصاً.

التَّجاوز: عَلَمُ نقصٍ، يُنشرعلى رأس صاحبه، يشهد عليه بالدَّعوى، يشهد عليه بالغفلة، يشهد عليه بالزَّهْو، يشهد عليه بالحجاب.

يتحدث القوم بالنِّعم، لكن مع ملاحظة الحدود الشَّرعيَّة؛ الحقوق الإلهية تطلبهم في كلِّ قولٍ وفعلٍ.

الولاية ليست بفرعونيَّةٍ، ولا بنمروديَّةٍ، قال فرعون: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤] ، وقال قائد الأولياء، وسيِّد الأنبياء ﷺ: «**لَسْتُ بِمَلِكٍ**»[2]، نزع ثوب التَّعالي، والإِمْرَة، والفوقيَّة.

كيف يتجرأ على ذلك العارفون، والله يقول: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يس:٥٩] ؟.

---

(١) صـ٣٦-٣٧ـ.

(٢) رواه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ابن ماجه في «السنن» كتاب الأطعمة (٢٩)، باب القديد (٣٠) رقم ٣٣١٢، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» رقم ١٤١١: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، رواه الحاكم في المستدرك [كتاب المغازي والسرايا (٣٠) رقم ٤٤٦٦، وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي] ولفظ ابن ماجه: قَالَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».

وَصْفُ الافتقار إلى الله وصفُ المؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:١٥].

هذا الَّذي أقوله: عِلْمُ القوم، تعلَّموا هذا العلم؛ فإنَّ جذبات الرَّحمن في هذا الزَّمان قَلَّت». انتهى.

[هل قول: قدمي هذه على رقبة كلِّ وليٍّ لله، هو لسان القطبيَّة]

ومِنَ العجب ما ذكره الشَّيخ نور الدِّين عليّ[1] صاحب «البهجة القادرية»، وتَمَسَّك به جماعةٌ من الشَّاذليِّة، والتِّيجانيَّة، وهو قوله أنَّ الكلمة التي نحن بصدد تأويلها: لسان القطبيَّة.

---

(١) علي بن يوسف بن حريز بن معضاد بن محمد بن أحمد القاري، المشهور بالشيخ نور الدِّين الشطنوفي اللخمي الشافعي (٦٤٧-٧١٣)هـ: كان أصله من الشام من البلقاء، ومولده ووفاته بالقاهرة، وولي تدريس التفسير بالجامع الطولوني، والإقراء بجامع الحاكم، وكان الناس يكرمونه ويعظمونه وينسبونه إلى الصَّلاح، وانتفع به جماعةٌ في القراءات، له: «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار» في أخبار الشيخ عبد القادر الجيلي ومناقبه، **قول العلماء في وصف الكتاب**: قال ابن حجر: جمع هو مناقب الشيخ عبد القادر وسمى الكتاب البهجة، قال الجمال جعفر: وذكر فيها غرائب وعجائب، وطعن النَّاس في كثيرٍ من حكاياته ومن أسانيده فيها.

وقال الذَّهبي: جمع الشَّيخ نور الدِّين الشطنوفي المقرىء كتاباً حافلاً في سيرته وأخباره - يعني الإمام عبد القادر رضي الله عنه- في ثلاث مجلدات، أتى فيه بالبردة وأذن الجرة، وبالصحيح والواهي والمكذوب؛ فإنَّه كتب فيه حكايات عن قومٍ لا صدق لهم.

وقال تقي الدِّين عبد الرحمن الواسطي: قال الشَّيخ نجم الدِّين الخباز الموصلي، والشيخ كمال الدين جعفر الأدفوي، وشيخنا الحافظ الحجة عز الدين أحمد الفاروثي الكازروني وغيرهم: إنَّ الشطنوفي هذا كان كذاباً مُتَّهماً فيما يحكيه في هذا الكتاب بعينه، وقالوا: هو رجلٌ مبعود لا يُعتمد على نقله، ولا يطمئن قلب المؤمن العاقل لسماع شيءٍ من أخباره.

وقال الصَّفدي: صنَّف كرامات الشيخ عبد القادر الجيلي، وذكر فيها عجائب وغرائب، وطعن النَّاس عليه في أسانيدها وفيما حكاه. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر١/ ٣٩٠، و«ترياق المحبين» لتقي الدين الواسطي صـ٥١ـ، و«تاريخ الإسلام» للذهبي٨/ ٤٤٠، و«أعيان العصر وأعوان النصر» للصفدي ٢/ ١٢٠، و«الأعلام» للزركلي٥/ ٣٤.

قلت: يقال للشَّيخ المذكور، ولِـمَنْ وافَقَهُ من الفِرْقَتين المذكورتين، أَهَلْ خَلتِ الأُمَّة الـمُحمَّديَّة من الأقطاب؟ وما أحرز مقام القطبيَّة إلا هؤلاء الثَّلاثة الَّذين ذكرتموهم قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُم على أنَّ هذا اللِّسان لم يُنقل عن غيرهم أبداً؟ فما أدري ماذا يكون جوابهم؟!

والأعجب أنَّهم قالوا: إنَّ هذا اللِّسان يتكلَّم به الكامل من الأقطاب دون غيره!

فقلت: غاب عن أذهانهم أنَّ مِنْ عهد أَكْمَل الأقطاب المُحمَّديِّين، وأفضل المخلوقين بعد النَّبيِّين والمرسلين، سيِّدنا الخليفة الأوَّل الصِّديق الأكبر ﷺ إلى عهد مَنْ أسندوا إليهم هذه الكلمات قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُم سكت الأكملون المتقدِّمون الَّذين لا شبهة في صحَّة أكمليَّتهم ورجحانهم بِحقٍّ على الخلق كباراً وصغاراً، ولم ينطقْ واحدٌ منهم بمثل هذه الكلمات، فهل للمُحْتجِّ ريبةٌ في كمالهم، حمانا الله؟.

فكذلك إذا سُئِل بهذا السُّؤال، ما أدري كيف يقول؟.

[قول الإمام الرِّفاعيِّ ﷺ في التحدث بالنعمة]

ومن العجائب أنَّ قوماً أرادوا صَرْف هذه الكلمات على ظاهرها، وإدخالها في باب التَّحدُّث بالنَّعمة، والحال أنَّ ما جاء في السُّنَّة من باب التَّحدُّث بالنِّعمة مشهورٌ، وفي كتب السُّنَّة مسطورٌ، ولله درُّ سيِّد الأقطاب، شيخنا المؤلِّف، فإنَّه أوضح في كتابه «البرهان»[1] سرائر هذا الشَّأن، وكشف به أستار الحقائق، وبَيَّنَ وجه الأدب مع المخلوق والخالق، وقد عرَّف وأوضح ﷺ في كتابه المذكور، أمر التَّحدُّث بالنِّعمة، فقال: «انظر كيف كان نبيُّك عليه أفضلُ الصَّلواتِ والتَّسلِيمَاتِ، وكيف قال؟ وكيف خَالَق النَّاس بَرَّاً وفاجِراً ؟ واعمل بِعَمَلِه، وقل بقوله، وتَـخَلَّقْ بِخُلُقِهِ ﷺ.

---

(١) صـ٩٤-٩٦ـ.

إنْ كنت لا تعلم، فاسأل العلماء، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣].

يتحدَّث القوم بالنِّعم، اعترافاً بنعمة المنعم، وشكراً لها، وحثاً للنَّاس على العمل؛ لِتَحصُلَ لهم هذه البركة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

يقول الـمُتحدِّث بالنِّعمة: أطلعني ربِّي على كذا، وعلَّمني كذا، ووهبني من الخير والبركة كذا، ولكن لا يقول: أنا خيرٌ منكم، أنا أجلُّ منكم، أنا أشرف منكم.

هذه كلمات دعوى، تكون من رُعُونة النَّفس، يَنْطِق بها لسان الأحمق.

ما الَّذي خَيَّرني عليك، وأجلَّني وشرَّفني؟ صلاةٌ وصومٌ، وغيرُها مِنَ العبادات؟ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

لولا امتثال قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، لخاط العاقل فَمَهُ بِمِخْيَطٍ .

أي أخي، تفتخر بأبيك آدمُ عليه السلام الصَّفوة الأُوْلَى، كَفَرَ أكثرُ أولادِهِ، وكذلك أكثر الأنبياء والمرسلين[1].

تفتخر بعِلمِك؟ إبليسُ حلَّ كلَّ عَوِيصٍ، حلَّ وقرأ صِحاف الموجودات.

تفتخر بمالك؟ قارون هلك بماله.

تفتخر بملكك؟ لم يغن مُلك فرعون عنه من الله شيئاً.

ما هَلَكَ إبراهيم عليه السلام بعد أن تجرَّد إلى ربِّه.

ما ذلَّ موسى عليه السلام بعد أن فرش بساط ذُلِّه بين يدي خالقه.

ما ضَاع شأن يُونُس عليه السلام بعد أن قال بصدق الالتجاء: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

---

(١) أي: وكذلك كفر أكثر أولاد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ما خاب يُوسُف عليه السلام بعد أن استسلم لقضائه معتمداً عليه.

هكذا النَّبيُّون، هكذا المرسلون، هكذا الصِّدِّيقون، هكذا الصَّالحون: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس:٦٤]» انتهى.

وقال الإمام عبد الوهَّاب الشَّعراني قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه «الجواهر والدُّرر»[١]: «وسمعته - يعني شيخه رضي الله عنهما - يقول: قال لي بعض أهل الكتاب: نحن جعلنا مع الله إلهاً آخر، وأنتم جعلتم آلهة لا تحصى.

فقلت: ما هي؟.

قال: تقولون بألوهيَّة الأسباب.

فقلت له: هذا باطلٌ عنَّا، وإنَّما هذا كلام من هو خارجٌ عن الصِّراط المستقيم.

فقال: إذا أنصفتم، فنحن أقلُّ شركاً بالله تعالى منهم.

فعليك يا أخي، باتِّباع العلماء العاملين من السَّلف والخَلَف، وإيَّاك وما انتحله غلاة المتصوِّفة، والله يتولَّى هداك». انتهى.

قلت: وأظنُّ أنَّ القائلين بإلوهيَّة الأسباب أقلُّ شِركاً من القائلين بإلوهيَّة الأشياء، أعني: أصحاب الوَحدة المطلقة[٢]؛ ولهذا حذَّر القوم العارفين من سماع كلماتهم، والقول بأقوالهم، وانظر كيف يقول سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه في كتابه «البرهان»[٣]: «صُمُّوا أسماعكم عن عِلمِ الوَحدة، وعِلم الفلسفة، وما شاكلهما؛ فإنَّ هذه العلوم مزالق الأقدام إلى النَّار، حمانا الله وإيَّاكم.

الظَّاهِرَ الظَّاهرَ، اللَّهمَّ إيماناً كإيمان العجائز: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]». انتهى.

---

(١) صـ١٤٤ـ.

(٢) انظر التعليق صـ٧٩ـ.

(٣) صـ٨٨ـ.

ومن المعلوم أنَّ فتاوى العلماء، وأئمَّة الدِّين، طافحةٌ بتكفير مَنْ يعتقد الوَحدة المطلقة، والأمر وفاقي بين العلماء لا نزاع فيه، نسئل الله الحماية.

وأمَّا أصحاب الشَّطح، فالقول فيهم بالنَّظر إلى الكلمات التي تُروى عنهم، فإنْ كانت تقبل التَّأويل، وقائلها رجلٌ عارفٌ، متمكنٌ في دينه، أخذته سكرة الحبِّ، فتكلم كلمةً يصحُّ فيها التَّأويل، نُؤَوِّل كلامه على شرط درء الحدود بالشُّبهات، عملاً بقوله ﷺ: «**ادْرَءُوا الـحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ**»[1]، و«**أَقِيلُوا الكِرَامَ عَثَرَاتِهِم إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله**»[2].

---

(١) رواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: الترمذي في «الجامع»: كتاب الحدود (١٥)، باب ما جاء في درء الحدود (٢) رقم ١٤٢٤، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الحدود (٤٦) رقم ٨١٦٢، وقال: حديث صحيح الإسناد، والبيهقي في «السنن الكبرى» رقم ١٦٨٣٤، قال الزيلعي في «نصب الراية» ٤/ ٩٨: قال البيهقي: الموقوف أقرب إلى الصَّواب، رووه بلفظ: «ادْرَءُوا الـحُدُودَ عَنِ المُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَإِنَّ الإِمَامَ أَنْ يُخْطِيءَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِيءَ فِي الْعُقُوبَةِ».

ورواه عن أبي هريرة ﷺ: ابن ماجه في «السنن»: كتاب الحدود (٢٠)، باب الستر على المؤمن...(٥) رقم ٢٥٤٥، وأبو يعلى في «المسند» رقم ٦٦١٨.

ورواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً: عبد الرزاق في «المصنف»: باب إعفاء الحد (١) رقم ١٣٦٤٠، والطبراني في «الكبير» رقم ٩٦٩٥، والبيهقي في «السنن الكبرى » رقم ١٦٨٣٩، و١٦٨٤١، رووه بلفظ: «ادْفَعُوا الـحُدُودَ مَا وَجَدْتُمْ لَهُ مَدْفَعًا».

ورواه عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ موقوفاً: ابن شيبة في «المصنف» كتاب الحدود (١) في درء الحدود بالشبهات (٧٠) رقم ٢٨٤٩٣، وعبد الرزاق في «المصنف» باب إعفاء الحد (١) رقم١٣٦٤١، رووه بلفظ: «لَأَنْ أُعَطِّلَ الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقِيمَهَا بِالشُّبُهَاتِ».

ورواه عن سيدنا علي ﷺ مرفوعاً: البيهقي في «السنن الكبرى» رقم ١٦٨٣٦، وقال: في هذا الإسناد ضعف، رواه بلفظ: «ادْرَءُوا الْحُدُودَ، وَلَا يَنْبَغِي لِلإِمَامِ أَنْ يُعَطِّلَ الْحُدُودَ».

(٢) رواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: الإمام أحمد في «مسنده» رقم ٢٥٥١٣، ٦/ ١٨١، وأبو داود في «السنن» كتاب الحدود (٣٣) باب في الحد يشفع فيه (٤) رقم ٤٣٧٥، و النسائي في «السنن الكبرى» كتاب الرحم (٦٧) التجاوز عن ذلة الهيئة (٣٧) رقم ٧٢٩٤، =

ونرى أنَّ الرَّجل المتمكِّن الكامل أجلُّ منزلةً، وأرفع مكانةً من الشَّطَّاح كيف كان؛ لتحقُّقه في مقام العبوديَّة الَّذي هو أشرف المقامات، وأرفع الدَّرجات، وهذا الَّذي اختاره أئمَّة هذا الدِّين سلفاً وخَلَفاً.

=

والطبراني في «الأوسط» رقم ٣١٣٩، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/ ٢٨٢: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، رووه بلفظ: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ».

ورواه عن ابن مسعود ﵁ مرفوعاً: الطبراني في «الأوسط» رقم ٧٥٦٢، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/ ٢٨٢: فيه بسر بن عبيد الله الدراسي وهو ضعيف.

ثُمَّ قَالَ الـمُؤَلِّف ﷺ:

٨- دَفْتَرُ حَالِ الرَّجُلِ: أَصْحَابُهُ.

قد وافقت هذه الحكمة المباركة مضمون ما جاء في الخبر الشَّريف: «إنَّ المَرءَ على دِيْنِ خَلِيْلِهِ»[١].

وقال الإمام الشَّعراني في كتابه «الجواهر والدُّرر»[٢]: «إنَّهم - يعني: أهل الله- يقولون: مَنْ لم يجتمع بشيخٍ مات، فليجتمع على تلامذته يُحيط به علماً». انتهى.

[حال الشَّيخ كمالاً أو نقصاناً تظهر في أتباعه]

ولينظر كيف يقول سيِّدنا المؤلِّف ﷺ في كتابه «البرهان»[٣]: «حالة الشَّيخ كمالاً كانت أو نقصاناً تظهر في أتباعه ومريديه بطناً بعد بطن، فإنْ كانت حالةَ كمالٍ، علا بها حالُ الكامل، وزاد بها حال النَّاقص، وإنْ كانت حالةَ نقصٍ، نقصَ بها حال الكامل، وذهب بها حال النَّاقص، إلا إنْ وهب الكريم فلا تأثيرَ للأحوال.

إيَّاكم وإبقاءَ أثرٍ ينقص حال كُمَّل أتباعكم، ويُذهِبُ حال ناقصهم!.

الرَّجل مَنْ تظهر آثاره بعده، قال الرِّجال:

إنَّ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَينَا ... فَانْظُرُوا بَعدَنا إلى الآثَارِ

اُتركوا بعدكم أثر الذُّلِّ والانكسار، والتَّجرد من الدَّعوى، والخروج من حِيطَة

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٨٣٩٨، ٢/ ٣٣٤، والحاكم في «المستدرك»: كتاب البر والصلة (٣٥) رقم ٧٣٢٠، وقال: حديث صحيح، ووافقه الذهبي، ولفظها: «الْـمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».

والإمام أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦)، باب من يؤمر أن يجالس (١٩) رقم٤٨٣٣، والترمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧)، باب (٤٥) رقم ٢٣٧٨، وقال: هذا حديث حسن غريب، ولفظها: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».

(٢) صـ١٣٥ـ.

(٣) صـ٩٠-٩٣ـ.

الاستعلاء، والتَّذلُّل بباب المولى، ومحبَّة الفقراء والعلماء، وموافقة الأقدار بالتَّسليم إلى الله، والتَّمسك بسنَّة رسوله ﷺ.

وإيَّاكم والغِرَّةَ بالوقت، فما هو عند العارف بشيءٍ، إلا إذا لم يصرفه في غير الطَّاعة، ويأخذ منه ما يثلج صدره، أجل: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَوْمِ القِيامَةِ؛ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلِيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[1].

ما بقي مِنْ قوم سُليمان عليه السلام أحدٌ، ذهب مُلكُه، ونُسِخَتْ شريعته، ونبيُّنا عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام لا يذهب شأنه، ولا تُنْسَخ شريعته بإذن الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:٩].

وَصفُ سُليمان نازعه وصف الملك الدَّيَّان، فطمسه: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦].

ووصف النَّبيِّ ﷺ لَـمَّـا كان العبديَّة، أعانه وصف الرُّبوبيَّة، فدام ذكرُه، وعلا أمرُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة:٦٧].

وقد ترون أنَّ الملوك وذراريَهم وحواشيَهم تذهب، ورُسُومَهم تَنْقَلِب، والرَّعيَّة على حالها!.

هؤلاء نازعتهم صفة الرُّبوبيَّة لَـمَّـا رَأَوُا الـمَالِكِيَّة فزالوا، وهؤلاء صانتهم صفة الرُّبوبيَّة، لـمَّـا تحقَّقوا بمنزلة المملوكيَّة فداموا.

---

(١) رواه عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب العلم (٤٧)، باب من سن سنة حسنة... (٦) رقم ١٠١٧، والنسائي في «السنن»: كتاب الزكاة (٢٣)، باب التحريض على الصدقة (٦٣) رقم ٢٥٥٤، وابن ماجة في «السنن»: باب من سن سنة حسنة أو سيئة (١٤) رقم ٢٠٣، والإمام أحمد في «المسند» رقم ١٩١٧٩. ولفظ مسلم: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ؛ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ».

قال سيدي الشَّيخ منصور[1]: صحيفة حال الشَّيخ أتباعه، لهم من حاله وخُلُقه شمة لا بدَّ أن تفعل كيف كانت، إلَّا إذا غلبها حالٌ سماويٌّ اخْتُصَّ به التَّابع، فربَّما يعلو منزلةَ شيخه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٧٠]، ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ [آل عمران:٧٣].

ترى في أصحاب الحلاَّج: حُبَّ القول بالوَحدة.

ترى في أصحاب أبي يزيد رحمَهُ اللهُ: حُبَّ الإغماض، والتَّكلُّم بالرَّقائق.

ترى في أصحاب الجنيد رضي الله عنه[2]: حُبَّ الجمع بين لسان الطَّريقة والشَّريعة.

---

(١) هو الشيخ منصور ابن الشيخ يحيى ابن الشيخ موسى ابن الشيخ كامل النجاري لأبيه - وينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري النجاري رضي الله عنه - الحسيني لأُمِّه ت(٥٤٠)هـ: الشيخ الوليُّ العارف أوَّل وليٍّ لُقِّبَ بالباز الأشهب، ولد بأم عبيدة بدار أبيه ونشأ بها وتلقى الفقه الشافعي عن أبيه وعن ابن عمِّ أبيه الشيخ أبي منصور الطيب وتخرَّج به وبعمِّه الشيخ معزِّ الدين طلحة أبي محمدٍ الشَّنبكي الأنصاري الفاطمي، وتخرج به - أي الشيخ منصور - الأئمَّة، ولَـمَّا اتسعت دائرة إرشاده ترك رواق أم عبيدة وبنى رواقاً عظيماً ببلدة نهر دقلى بالقرب من واسط، ورزقه الله القطبية العظمى والغوثية الكبرى، وعهد بالمشيخة لابن أخته السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهما من بعده، وكان الأشياخ يقولون: ما كبا جواد الشيخ منصور الرَّباني أبداً، ومات ببلدة نهر دقلى ودفن برواقه المبارك سنة (٥٤٠)هـ. انظر: «إرشاد المسلمين» لعز الدين أحمد الفاروثي صـ١٣-١٤، و«الطبقات الكبرى» للشعراني رقم ٢٥٣، صـ١٩٨، و«روضة الناظرين» للوتري صـ١٩.

(٢) الإمام الجنيد أبو القاسم بن محمد بن الجنيد، النهاوندي الأصل، البغدادي القواريري الخزاز رضي الله عنه، قيل: إنَّ أباه كان قواريرياً - يعني: زجَّاجاً -، وكان هو خزَّازاً، وكان شيخ العارفين وقدوة السَّالكين وعلم الأولياء في زمانه، ولد ببغداد بعد العشرين ومائتين، وتفقَّه على أبي ثور، واختصَّ بصحبة السَّري السَّقطي والحارث المحاسبي وأبي حمزة البغدادي، وعدَّه العلماء شيخ مذهب الصوفيَّة؛ لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسُّنَّة، ولكونه مصوناً من العقائد الذَّميمة، محميَّ الأساس من شبه الغُلاة، سالماً من كلِّ ما يوجب اعتراض الشَّرع، وكان يفتي وله عشرون سنة، وقيل كان على مذهب سفيان الثَّوري وقيل على مذهب أبي ثور صاحب الشافعي رضي الله عنه، وتوفي سنة (٢٩٨)هـ، ودفن عند قبر خاله سري السقطي، له: «رسائل» منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، ومنها ما هو في التوحيد، والغناء، ومسائل أخرى، وله: «دواء الأرواح» رسالة صغيرة. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي صـ٥٥، و«الأعلام» للزركلي ٢/ ١٤١.

ترى في أصحاب السَّلَمَابَاذِيِّ: حُبَّ المعالي، لِمَا كان عليه مِنَ المنزلة.

ترى في أصحاب سيِّدي الشَّيخ أبي الفضل: حُبَّ الوَحدة إلى الله، بالذُّلِّ لله وللخلق.

وقد تنعكس هذه القاعدة في البعض، ولكنْ يكون ذلك بالاختصاص: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

معروفٌ الكرخيُّ[١]، وداود الطائيُّ[٢]، والحسن البصريُّ، ومَنْ تأدَّبَ بصحبتهم من هذه الطَّائفة ﷺ اختصروا أسباب السَّير على كلمتين: التَّمسُّك بالشَّرع، وطلب الحقِّ وحده». انتهى.

ويناسب هذا قول بعضهم:

عَنِ المَرْءِ لا تَسأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِيْنٍ بِالمقارَنِ يَقْتَدِيْ

---

(١) هو الإمام معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ تـ(٢٠٠)هـ: أحد أعلام الزهاد والصوفيَّة، كان من موالي الإمام علي الرِّضا بن موسى الكاظم، ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد، اشتهر بالصَّلاح، وقصده النَّاس للتَّبرك به حتَّى كان الإمام أحمد بن حنبل في جملة من يختلف إليه. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٥/ ٢٣٣، و«الأعلام» للزركلي ٧/ ٢٦٩.

(٢) هو الشيخ داود بن نُصير، أبو سليمان الطائي، الكوفي، الإمام، العالم، العامل، العابد، الزاهد، أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة، وعين أعيان أئمة الأنام، سمع عبد الملك بن عمير، وسليمان الأعمش، وغيرهما، وروى عنه جماعةٌ، منهم إسماعيل بن عُليَّة، وغيره، وكان داود مِمَّن شغل نفسه بالعلم، ودرَّس الفقه وغيره من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العزلة والانفراد والخلوة، ولزم العبادة، واجتهد فيها إلى آخر عمره، توفي بالكوفة سنة ستين، وقيل سنة خمس وستين ومائة رحمه الله تعالى. انظر: «الطبقات السنية في تراجم الحنفية» للتقي الغزي صـ٢٧٨ـ، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/ ٢٥٩.

[ذكر جماعةٍ من أصحاب الإمام الرِّفاعي ﷺ وأصحابهم]

ويَحْسُن هنا أن نذكر للتَّبرُّك جماعةً مِنْ أصحاب المؤلِّف وأصحابهم؛ ليتنبَّه اللَّبيب، ويفهمَ جلالة قدرِه، وعُلوَّ شأنِه وأمرِه، وقد عقدت لأصحابه الكرام وأصحابهم الأعلام باباً مستوفياً مخصوصاً في كتاب «قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرِّفاعي وأتباعه الأكابر»[1]: اتَّفق المؤرِّخون كافَّةً على أنَّ تلامذته ﷺ لا تُحصى، وأطبق الصُّوفيَّة، وأعيان علماء السَّادة الرِّفاعيَّة على أنَّ خلفاؤه وخلفاؤهم بلغت عِدَّتُهم مائة وثمانين ألفاً حالة حياته ﷺ، فَمِنَ الَّذين تخرَّج بصحبته:

الإمام الأجلُّ أبو شجاع[2] الشَّافعيّ الفقيه، شيخ مجتهد المذهب الشَّافعيّ الإمام عبد الكريم الرَّافعي[3].

---

(١) الباب التاسع صـ٣٢٤ -٤٣١ ـ.

(٢) محمد بن منجح بن عبد الله الفقيه القاضي أبو شجاع (٥٠٥-٥٨١)هـ: الصَّوفي الواعظ، تفقه على أبي محمد بن عبد الله بن أبي بكر الشاشي؛ وأجاز له ابن طاهر المقدسي، وله شعرٌ حسنٌ، وتفقَّه أيضاً بالجزيرة على الأستاذ أبي القاسم البزري، وخرج إلى الشام، وولي قضاء بعلبك، ثم عاد إلى بغداد، وتوفي فيها. انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي ٩ /١٢٨، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٦/ ١٩٥.

(٣) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزويني (٥٥٧ – ٦٢٣)هـ: الإمام الجليل أبو القاسم الرافعي نسبته إلى رافع بن خديج الصحابي ﷺ، كان الإمام الرافعي متضلِّعاً من علوم الشَّريعة تفسيراً وحديثاً وأصولاً، مترفِّعاً على أبناء جنسه في زمانه نقلاً وبحثاً وإرشاداً وتحصيلاً، وأما الفقه فهو فيه عمدة المحقِّقين وأستاذ المصنِّفين، وكان رحمه الله تعالى ورعاً زاهداً تقيَّاً نقيَّاً طاهرَ الذَّيل مراقباً لله ﷻ، له السَّيرة الرَّضية المرضيَّة، والطَّريقة الزَّكية، والكرامات الباهرة، قال النووي: الرَّافعي من الصَّالحين المتمكِّنين كانت له كراماتٌ كثيرةٌ، كان له مجلسٌ بقزوين للتفسير والحديث، وتوفي فيها، من مصنفاته: «الفتح العزيز» في شرح الوجيز، و«الشرح الصغير»، و«المحرَّر»، و«شرح مسند الشافعي»، و«سواد العينين» في مناقب أحمد الرفاعي، وغيرها. انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٨/ ٢٨١، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٥٥.

ومنهم الشَّيخ أبو الفرج عمر الفاروثي[1]، ثم الكازروني الواسطي، وعنه أخذ ولده الإمام أبو إسحاق إبراهيم[2]، وعنه ولده عزُّ الدِّين أحمد الفاروثي الكازروني[3]، وعنه

---

(١) عمر أبو الفرج بن أحمد بن سابور بن علي بن غنيمة الفاروقي الواسطي تـ(٥٨٥)هـ: الشيخ الكبير، شيخ وقته في العلوم الشَّرعية، وإليه انتهت رياسة العلم والطَّريق بواسط وبطاح العراق، شهد اليد الشَّريفة النَّبويَّة حين مُدت لشيخه السيِّد أحمد ﷺ، وكان من أخصِّ أتباعه، وأصحابه المقرَّبين منه، صحبه وانتفع به، وروى عنه، وكان من أعيان مجلسه، وكان السيِّد أحمد الرِّفاعي ﷺ يعظِّمه ويثني عليه، وقال له مرةً: تَوِّب إن شئت لنفسك، وإن شئت لشيخك، وعليَّ الضمان بإذن الله أن لا يغلبك أحدٌ من أهل هذا الجمع، وقال فيه أيضاً: ولدي عمر ما فيه نَفَسٌ لغير الله. ومناقبه مشهورة ﷺ، توفي ودفن برواقه بـ (الفاروث) قرية قرب أم عبيدة رحمه الله تعالى. انظر: «إرشاد المسلمين» لعز الدين الفاروثي صـ١١٩-١٢٠.

(٢) الشيخ إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن سابور بن علي أبو إسحاق الفاروثي إمامٌ عالمٌ قرأ بمضمن الإرشاد علي الأسعد بن سلطان عن أبي العز، قرأ عليه ابنه الإمام أبو العباس أحمد. انظر: «غاية النهاية» للجزري١/ ٨.

(٣) الإمام المقرئ الواعظ المفسر الخطيب أحمد بن إبراهيم بن عمر عزُّ الدِّين أبو العباس الفاروثي الواسطي (٦١٤-٦٩٤)هـ: ولد في واسط، وقرأ القراءات على والده وعلى الحسين بن الحسن بن ثابت الطيبي، وسمع في بغداد وواسط وأصفهان ودمشق من خلقٍ، وذكر في كتابه «النفحة المسكية» صـ١٣ـ أنَّه لبس الخرقة الرِّفاعيَّة عن شيخين الأول: هو شيخه ووالده الشَّيخ إبراهيم، وهو عن والده الشَّيخ عمر الفاروثي، وهو عن شيخه سلطان أئمَّة العارفين السيِّد أحمد الرفاعي ﷺ، والشَّيخ الثاني: هو الشيخ السيِّد شمس الدِّين محمَّد الرِّفاعي، وهو عن عمِّه أبي إسحاق محيي الدِّين إبراهيم الأعزب سبط الإمام الرفاعي ﷺ، وألبسه الشَّيخ شهاب الدِّين السُّهْرَوَرْدِي أيضاً خرقة الصُّوفيَّةِ، ولبس منه الخرقة خلقٌ، وقرأ عليه القراءات جماعاتٌ، وقدم دمشق وولي مشيخة الحديث في الظَّاهرية وتدريس النَّاصريَّة والنَّجيبيَّة وولي خطابة الجامع ثم عزل منها فسافر إلى واسط وبها توفي، قال الذهبي: كان فقيهاً، سلفياً، مفتياً، مدرساً، عارفاً بالقراءات ووجوهها وبعض عللها، خطيباً واعظاً زاهداً عابداً صوفياً، صاحب أورادٍ وأخلاقٍ وكرم وإيثارٍ ومروءةٍ وفتوةٍ وتواضعٍ وعدم تكلُّفٍ، وكان كبير القدر وافِر الحُرمة له القَبول التَّام من الخواصِّ والعوامِّ، وله محبَّةٌ في القلوب، ووقعٌ في النُّفوس، وله نوادر وحكاياتٌ حلوةٌ، وكان ظريفاً في لبسه وخطابته، حلو المجالسة طيِّب الأخلاق، لطيف الشَّكل. له: «إرشاد المسلمين لطريقة شيخ المتقين»، و«النفحة المسكية». انظر: «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة رقم ٤٥٧، ٢/ ١٥٩، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٨/ ٦، و«الأعلام» للزركلي ١/ ٨٦.

جماعةٌ أعاظم مِنْ جملتهم برهان الدِّين العلوي، وعماد الدِّين أبو العلم محمَّد الجندي، والنَّجم الأصفهاني، ورضيُّ الدِّين الطَّبري[1]، تتصل به أيضاً نسبة الإمام جلال الدِّين السُّيوطي، والإمام الشَّعراني، وغيرهم، وناهيك بهذه الطَّبقة المباركة مِنْ طبقةٍ.

ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن سيد بونه الخزاعي[2]، وعنه أخذ القطب أبو محمد عبد الرَّحمن المدني العطار المشهور بالزَّيَّات[3]، وعنه أخذ القطب عبد السَّلام بن بشيش[4]، ويقال مَشيش، وعنه أخذ القطب أبو الحسن الشاذلي قُدِّسَ سِرُّهُ وتتصل

---

(١) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد الطبري الأصل المكِّي رضيُّ الدِّين إمام المقام الشَّافعي (٦٣٦-٧٢٢)هـ: كان صَيِّناً منفرداً في الدِّين والتَّأله والعبادة، قلَّ أن ترى العيون مثله مع التَّواضع والوقار والخير، لم يخرج من الحجاز فكان يقول ما رأيت في عمري يهودياً ولا نصرانياً، له كتب، منها: «المنتخب في علم الحديث»، و«اختصار شرح السنة للبغوي» قال الذهبي: حدث أزيد من خمسين سنة. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر ١/ ١٦، و«الأعلام» للزركلي ١/ ٦٣.

(٢) جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيد بونه، أبو أحمد، الخزاعيّ، الأندلسيّ، الزّاهد، من أهل قسطنطانية تـ(٦٢٤)هـ: أخذ القراءآت عن أبي الحسن بن هذيل، وسمع منه ومن أبي الحسن بن النّعمة ببلنسية، وكان شيخ الصوفية في زمانه، علا ذكره وبعد صيته في العبادة، وتوفّي في ذي القعدة عن علوّ سن نحو المائة سنة، وقد شيّعه بشرٌ كثيرٌ، وانتاب النَّاس زيارة قبره، وأخذ القراءات عن خاله يحيى، وابن هذيل، وابن غادة، وابن النّعمة، وسمع بمكّة من عليّ بن عمّار ولبس من ابن الرّفاعي. انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي١٠/ ٩٠-٩١، و«الوافي بالوفيات» للصفدي ٤/ ٢٢.

(٣) عبد الرحمن المدني العطَّار، الملقَّب بالزَّيَّات لسكناه بحارة الزَّيَّاتين بالمدينة المنورة، كان من أكابر الأولياء، توفي في المدينة في القرن الخامس الهجري رحمه الله تعالى. انظر: «طبقات الشاذلية الكبرى» للحسن بن محمد صـ٦٠ -٦١ـ.

(٤) عبد السلام بن مَشيش بن أبي بكر منصوربن علي أو إبراهيم الإدريس الحسنى، أبو محمد تـ(٦٢٢)هـ: ناسك مغربي، اشتهر برسالة له تدعى: «الصَّلاة المشيشية» شرحها كثيرون، ولد في جبل العلم، بثغر تطوان، وقتل فيه شهيدًا، قتله جماعة بعثهم رجل يدعى ابن أبي الطواجن الكتامي (ساحر متنبئ)، ودفن بثغر تطوان رحمه اللهُ تعالى. انظر: «طبقات الشاذلية الكبرى» للحسن بن محمد صـ٩٥ -٦٠ـ، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٩ .

نسبة الشَّاذليّ أيضاً بالشَّيخ عبد السَّلام بن مشيش عن القطب الكبير برِّي العراقي[1]، عن الغوث الأكبر سيِّدنا المؤلِّف ﷺ، وعن الشَّيخ برِّي المشار إليه لبس الخرقة الرِّفاعية سيِّدنا القطب البدويّ[2]، كما صرَّح بذلك الشَّعرانيُّ في «الطبقات الوسطى».

ومنهم القطب الجليل الشَّيخ حسن القطنانيّ[3] عَلَم الدِّيار الشَّامية.

---

(١) الشريف شمس الدين بري العراقي الحسيني النسب الرفاعي الخرقة (٥٢٠-٦٠١)هـ: هو بري بن أحمد بن أبي بكر بن موسى بن بري أبي بكر، وإلى السيد أبي بكر هذا تنسب قبيلة بني بري في السلمية في بلاد الشام، وإليه ينسب الغوث الشريف أحمد البدوي ﷺ، ولد صاحب الترجمة في العراق، والتحق بخدمة الإمام الرفاعي ولازم رواقه، ففوض أمر سلوكه وتربيته لخليفته الشيخ علي بن نعيم العراقي فسلكه وبلغ الفطام على يديه وألبسه الخرقة الرفاعية، ثم عكف على باب أستاذه شيخ الشيوخ الغوث الإمام الرفاعي ﷺ، فأمره بالسياحة إلى ديار أجداده في السلمية، وألبسه خرقته بلا واسطه، وتوفي بالسلمية عن إحدى وثمانين سنة رحمه الله تعالى. «عقود اللآل» لوحة ١٨٠-١٨٢/ خ.

(٢) الغوث الكبير والقطب الشهير أحد الأقطاب الأربعة السيِّد البدوي أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ (٥٩٦-٦٧٥)هـ: أصله من بني بري قبيلة من عرب الشَّام، صاحب الشهرة في الديار المصرية، أصله من المغرب، ولد بفاس، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة ثم بمصر، ودخل مصر في أيام الملك الظَّاهر بيبرس، فخرج لاستقباله هو وعسكره، وأنزله في دار ضيافته، ثم دخل طندتا سنة (٦٢٤)هـ، وزار سورية والعراق سنة ٦٣٤ هـ، وعظم شأنه في بلاد مصر فانتسب إلى طريقته جمهورٌ كبيرٌ بينهم الملك الظَّاهر، وتوفي ودفن في طندتا، لم يذكر له مترجموه تصنيفاً غير (حزب)، و(وصايا)، و(صلوات)، و(الأخبار) في حلِّ غاية الاختصار. انظر: «روضة النَّاظرين» للوتري صـ٤٧-٤٨ـ، و«الأعلام» للزركلي ١/ ١٧٥، و«معجم المؤلفين» ١/ ٣١٤.

(٣) هو القطب الكبير الشَّيخ حسن بن محمد بن علي بن حسن بن علي الرَّبيعي الحوراني أبو عبد الرحيم، أصله من أهل شهبة حوران ثم نزل قطنة - قرية من أعمال دمشق - و صار راعياً لأغنام بعض أهل القرية المذكورة، وكان على جانبٍ عظيمٍ من الورع والزُّهد مكفولاً بعناية الله، محروساً بعين الوقاية من صغره، ولا زال على هذا الحال حتَّى بلغ عمره فوق العشرين سنة، وفي سنة (٥٥٥)هـ تشرَّف بملاقاة الحضرة الرِّفاعية، فأحسن إليه ﷺ بنظرةٍ مخصوصةٍ فأوصلته إلى مرتبة =

والحافظ الشَّيخ تقيُّ الدِّين الواسطيّ.

والإمام أبو الفتح الواسطي[1] نزيل الإسكندرية شيخ مشايخ الإسلام: عبد العزيز الدَّيريني[2]، وعلي الـمليجي[3]، ....

=

الشُّهود في الحال، وكان ذلك في سفر حجِّ السيِّد أحمد الرِّفاعي ﷺ، وتوفي الشَّيخ حسن قُدِّسَ سِرُّهُ بقطنه سنة (٦٠٦)هـ. انظر: «إرشاد المسلمين» للفاروثي صـ١٢١-١٢٢ـ، و«روضة الناظرين» للوتري صـ١٣١-١٣٢ـ.

(١) أحمد بن أبي الغنائم بن صدقة بن أحمد بن الخضر، أبو الفتح القرشي، الواسطي تـ(٥٨٠)هـ: الزاهد، شيخ الشيوخ، القطب الكامل، كان معمور القلب عظيم القدر، وهو خليفة الإمام الرفاعي وأحد أجلاَّء أصحابه، اقتلع السيِّد أحمد ﷺ نخامةً من فمه وهو يتوضأ، وكان الشَّيخ أبو الفتح يَصُبُّ على يديه الماء فأخذ النخامة التى ألقاها شيخه وازدردها، فكشف الله له عن المشرق والمغرب ورأى الإسكندرية، فأطال النَّظر إليها، فقال له شيخه سيِّدنا أحمد: أنت هناك أي مبارك، وإلى ترابها تصير، وكان الأمر كذلك فإنه نزل الإسكندرية سنة (٥٦٠)هـ وأقام بها سنة لم يفتح عليه فيها باب الإرشاد، فرجع إلى أم عبيدة وأقام بها ثلاثة أعوام ثم بعدها أذن له شيخه ﷺ في العود إلى الإسكندرية، فنزلها سنة (٥٦٣)هـ، وأقام بها ست عشرة سنة، وتوفي بها. انظر: «إرشاد المسلمين» للفاروثي صـ١٢٧ـ، و «تاريخ الإسلام» للذهبي ١٠/ ٢٠٨.

(٢) عبد العزيز بن أحمد، الشَّيخ الإمام العالم الصَّالح القدوة المسلِّك عزُّ الدِّين الدميري الأصل الفقيه الشَّافعي، العالم الأديب، الصُّوفي الرِّفاعي، المعروف بالدَّيريني، صاحب الكرامات (٦١٢-٦٩٤)هـ: كان رجلاً متقشِّفاً من أهل العلم، يتبرك النَّاس به، وكان كثير الأسفار في قرى مصر، يفيد النَّاس وينفعهم، وله نظمٌ كثيرٌ في عدَّة فنون، ومشاركةٌ في علومٍ شتَّى، وللشَّيخ عزِّ الدِّين عبد العزيز المذكور كراماتٌ وأحوالٌ، وقبره يزار بديرين، وكان رحمه الله تعالى مِمَّن جمع بين العلم والعمل، من كتبه: «التيسير» في علم التفسير، و«أرجوزة» تزيد على ٣٠٠٠ بيت، و «الدرر الملتقطة» في المسائل المختلطة، و«طهارة القلوب» وغيرها. انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٨/ ٩٨، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة صـ١٠٦ـ، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ١٣.

(٣) الشيخ علي المليجي ﷺ: أحد أصحاب سيدي الشَّيخ أبي الفتح الواسطي، كان معاصراً للإمام
=

وعبد السَّلام الأقليبي[1] رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم الشَّيخ تقيُّ الدِّين الفُقَيِّر النَّهروندي الواسطي[2] شيخ أشياخ الشَّيخ أبي الحسن الشَّاذليّ قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُم.

ومنهم الشَّيخ أبو البدر العاقولي الواسطي.

والشَّيخ عمر الهروي.

والشَّيخ علي بن نعيم البغدادي[3].

=

أحمد البدوي ﷺ، وكان الإمام أحمد البدوي ﷺ إذا أرسل الشَّيخ عبد العال له في حاجةٍ يقول له: إذا وصلت إلى جمزور، فاخلع نعلك؛ فإنَّ هناك خيام المليجي. انظر «الطبقات الكبرى» للشعراني رقم ٢٩٣، ص٢٩٥، و«طبقات المناوي الكبرى» رقم ٥٦٧، ٢/ ١٢١.

(١) عبد السلام بن سلطان تقي الدِّين أبو محمد، المغربي الأصل والمولد، القليبي الدَّار والوفاة، المالكي ﷺ: الشَّيخ الإمام العارف بالله القدوة الفقيه الفاضل الزَّاهد صاحب الكرامات، أخذ عن العارف الرِّفاعي وغيره، قدم من المغرب إلى القاهرة وسكنها مدةً، ثم انتقل إلى قليب بجزيرة بني نصر من الوجه البحري من أعمال القاهرة، تجاه النحرارية ، وكان فقيهاً عالماً، عارفاً بالله، وله كرامات مشهورةٌ عنه، وكانت وفاة الشَّيخ عبد السَّلام بقليب في ثامن ذي الحجة سنة (٦٥٨)هـ، وقبره يزار بقليب رحمه الله تعالى. انظر: «طبقات المناوي الكبرى» رقم ٥٥٦، ٢/ ١٠٧، و«المنهل الصافي» لابن تغري ٢/ ١٢٠.

(٢) الشيخ الكبير العارف بالله ﷺ: تقيُّ الدِّين الفُقَيِّر بالتَّصغير النَّهروندي الفقيه، المسمى: بمكِّي الشَّافعي، ونهروند التي يُنسب إليها من قرى واسط، كان إماماً عارفاً بالله، وله أصحابٌ وأتباعٌ كالنُّجوم، كان رقيق الشِّعر عذب العبارة حسن المحاضرة، كثير الاشتغال بالله، وكان الشَّيخ تقي الدِّين محبوب الحضرة الرِّفاعيَّة، وله شِعرٌ يدلُّ على وَلَهِهِ بالإمام الرِّفاعيّ ﷺ منه قوله:

لي بالرِّفـــاعيِّ صِــــدقُ وَجْـــدٍ ... عَليـــهِ مــــا عِشــــتُ لا أُلامُ

فـــإنْ زَهــــتْ هِمَّتِــي اعــــذرُوني ... فقــــد زَهَـــى عتبـــةُ الغـــلامُ

توفي بنهروند سنة (٥٩٤)هـ. انظر: «إرشاد المسلمين» للفاروثي صـ١٢٠ـ ، و«روضة الناظرين» للوتري صـ١٢٠- ١٢١ـ.

(٣) سلطان أهل الأحوال الشيخ علي بن نعيم البغدادي الحنبلي تـ(٥٨١)هـ: قرأ القرآن على ثابت بن بندار، =

والشَّيخ الجليل قطب الرجال العارف الرباني الشَّيخ حياة بن قيس الحراني[1]، وأمثالهم رضي الله عنهم ونفعنا بهم والمسلمين.

وأقول فيه متبركاً مرتجلاً:

أبـو العلمـينِ الغـوثُ ذو القـدمِ التـي ... علـــى إِثْرِهَـــا الأفْـــرَادُ للهِ تَـــذْهَبُ

عِصَـــابَتُهُ زهـــرُ النُّجـــومِ وإنَّهـــم ... متى غـابَ مـنهم كوكـبٌ لاحَ كوكـبُ

=

وسمع من زاهر وابن الحصين ومن ابن عبد الصمد وتفقه بالبندنيجي، وكان غزيرَ الفضل، كثير العقل، له وقارٌ وهيبةٌ، وكان من الزهد على جانبٍ عظيمٍ لا يكاد يُلحق، وكان شيخه الإمام الرفاعي يقول بشأنه: ولدي علي أويس زمانه، وكان عظيمَ الهيبة في قلوب أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، توفي بواسط قدس الله سره. «عقود اللآل» لوحة ١٨٢/ خ.

(١) هو القطب الشَّيخ حياة بن قيس بن رحّال بن سلطان الأنصاري الحراني ﷺ تـ(٥٨١)هـ: أدرك السيِّد أحمد الرِّفاعيّ قدَّس اللهُ سرَّه وتشرَّف بصحبته ولبس خرقته المباركة بقرية نهر دقلى، وقد تخرَّج بالشَّيخ حياة ﷺ جماعة من أئمَّة القوم، وتلمذ له عصابةٌ كثيرةٌ من أصحاب الأحوال، وانتمى إليه عَالَمٌ عظيمٌ لا يُحصون كثرةً، وأشار إليه المشايخ والعلماء وغيرهم بالتبجيل، وأقرَّ الخاصُّ والعامُّ بفضله والاعتراف بمكانته، وكان أهل حران يستسقون به فَيُسقون بإذن الله تعالى، ويلجئون إليه في المعضلات فتنكشف بعون الله تعالى، سكن حرَّان واستوطنها إلى أن مات فيها قُدِّسَ سِرُّهُ وله ثمانون سنة رحمه اللهُ تعالى، ولم يخلف بحران بعده مثله. انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي ٩/ ١٢٢، و«روضة الناظرين» للوتري صـ٣٧-٣٩.

ثُمَّ قالَ الـمُؤَلِّف ﷺ:

٩- تَعَبُ النَّاسِ وحِسَابُهُم عَلَى الرِّيَاسَةِ والشَّهْوَةِ، وفِيْهِمَا الغَايَاتُ.

لا يخفى ما في هذه الحِكمة الشَّريفة مِنَ المضامين اللَّطيفة المُستنبطة من أصل السُّنَّة المحمَّديَّة، والشِّرعة الطَّاهرة الأحمديَّة، وانظر كيف يقول رسول الله ﷺ في الرِّياسة، وطلب التَّعالي على النَّاس، والحرص على الإمارة: «**إنَّكُم تَحْرِصُونَ على الإِمَارَةِ، وإنَّهَا حَسْرَةٌ يَومَ القِيَامَةِ ونَدَامَةٌ إلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا**»[1].

وجاء في حديث آخر: «**حُبُّ الـمَالِ والشَّرَفِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي القَلْبِ**»[2].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ جُعِلَ قَاضِياً بينَ النَّاسِ، فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيرِ سِكِّيْنٍ**»[3].

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم٩٧٩٠، ٢/٤٤٨، والبخاري في «الصحيح»: كتاب الأحكام (٩٣)، باب ما يُكره مِنَ الحِرص على الإمارة (٧) رقم ٧١٤٨، والنسائي في «السنن»: كتاب البيعة (٣٩)، باب ما يُكره مِنَ الحِرص على الإمارة (٣٩) رقم ٤٢١١، ولفظ البخاري: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الـمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ».

(٢) قال الإمام العراقي في تخريجه لأحاديث «الإحياء» ٢/ ١٩٩: أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أبي هريرة ﷺ بسندٍ ضعيفٍ إلا إنَّه قال: «حُبُّ الغِناء».

وروى عن أبي هريرة ﷺ في ذلك: الطبراني في «الأوسط» رقم ٧٧٢، قال المنذري في «الترغيب» رقم ٤٩٠٨: إسناده جيد، والبيهقي في «الشُعب» رقم ١٠٢٦٧، ولفظ الطبراني: «مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ جَائِعَانِ، بَاتَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ أَغْفَلَهَا أَهْلُهَا، يَفْتَرِسَانِ ويَأْكُلانِ بِأَسْرَعَ فِيهَا فَسَادًا مِنْ حُبِّ الـمَالِ وَالشَّرَفِ فِي دِينِ الْـمَرْءِ الْـمُسْلِمِ».

(٣) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٧١٤٥، ٢/ ٢٣٠، والترمذي في «الجامع»: كتاب الأحكام (١٣)، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي (١) رقم ١٣٢٥، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، و أبو داود في «السنن»: كتاب الأقضية (١٩)، باب في طلب القضاء (١) رقم ٣٥٧٢، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الأحكام (١٣)، باب ذكر القضاء (١) رقم ٢٣٠٨، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الأحكام (٣٢) رقم ٧٠١٨، وقال المناوي في «فيض القدير» ٦/ ١٥٢: قال =

وقد جُرِّبَ أنَّ طلب الرِّياسة محفوفٌ بالمتاعب والأخطار، وقلَّ مَنْ ينجو فيه من النَّوائب والأكدار، وإذا صفا الأمر نادراً لرجُلٍ من أصحاب الرِّياسة، قلَّ أن يجمع بين الدُّنيا والآخرة.

وأمَّا الشَّهوة: فهي أمُّ القبائح، وحُبُّ الرِّئاسة مادَّةٌ مِنْ موادِّ الشَّهوة.

قال الفخر الرازي[1] رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الآية [آل عمران:١٤] : «إنَّ الشَّهوات ها هنا هي الأشياء المشتهيات سُمِّيت بذلك على الاستعارة للتَّعلُّق والاتِّصال، كما يُقال للمقدور قُدْرَةٌ، وللمرجو رجاءٌ، وللمعلوم عِلمٌ، وهذه استعارةٌ مشهورةٌ في اللُّغة، يقال: هذه شهوة فلانٍ، أي: مشتهاه.

قال صاحب «الكشاف»: وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: أنَّه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاةً محروصاً على الاستمتاع بها.

والثانية: أنَّ الشَّهوة صفةٌ مُسترذلةٌ عند الحكماء مذمومةٌ، من اتَّبعها شاهدٌ على نفسه بالبهيميَّة، فكان المقصود من ذكر هذا اللَّفظ التَّنفير عنها». انتهى.

وثابتٌ بالأدلَّة العقليَّة أنَّ الشَّهواتِ أبوابُ المصائب في النَّفس والمال والدِّين،

=

الحاكم: صحيحٌ، وأقره الذهبي، وقال العراقي: إسناده صحيح، وقال ابن حجر: أعلَّه ابن الجوزي، وقال: لا يصحّ، وليس كما قال، وكفاه قوَّةً تخريج النَّسائي له وقد صححه الدَّارقُطني وغيره.

(١) الإمام محمد بن عمر بن الحسين من ذرية سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ، فخر الدين أبو عبد الله (٥٤٤-٦٠٦)هـ: المفسر، المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، وأحد الأئمة في العلوم الشريعة، صاحب المصنفات المشهورة، والفضائل الغزيرة المذكورة، وكان له مجلس كبير للوعظ يحضره الخاص والعام، ويلحقه فيه حالٌ ووجدٌ، وكان إذا ركب يمشي حوله نحو ثلاثمائة تلميذ فقهاء وغيرهم، وكانت وفاته في هراة، ومن تصانيفه: تفسير كبير سماه «مفاتيح الغيب»، و«المحصول والمنتخب»، و«إرشاد النظار» إلى لطائف الأسرار وغيرها. انظر: «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبه صـ٧٣ـ، و«طبقات المفسرين» للسيوطي صـ٢١ـ.

وأضرَّ موادِّ الشَّهوة حبُّ الرِّئاسة؛ فإنَّ طالب الرِّياسة قد يتجاوز الحدود الدِّينيَّة ويكذب ويظلم ويغدر، ويفعل ما لا يجوز فعله؛ لأغراضه الدَّنيَّة، ولذلك حذَّر أئمَّة الدِّين من الرِّئاسة، وأمروا إخوانهم وأحبابهم بالتَّباعد عن طلبها.

وقد نقل القطب عبد الوهَّاب الشَّعراني قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه: «الأنوار القدسيَّة»[1] أنَّ سيِّدنا المؤلِّف الغوث الأكبر السيِّد أحمد الرِّفاعي ﷺ، قال لبعض تلامذته: «كن دائماً ذنباً، ولا تكن رأساً؛ فإنَّ الضَّربة أوَّل ما تقع في الرَّأس».

ويعجبني ما قاله الفاضل السيِّد صالح أفندي المنير الحسيني[2] مِمَّا يناسب هذا الشَّأن:

مهما اسْتَطَعْتَ فلا تَكُنْ رَأْسَاً وإنْ ... رَغِبَتْ بِهذَا الأمرِ جُلُّ النَّاسِ

أَوَمَا تَرَى السَّيَّافَ ليسَ بِقاطِعٍ ... أبداً وَقَاكَ اللهُ غَيرَ الرَّاسِ

---

(١) «الأنوار القدسيَّة في بيان آداب العبوديَّة» صـ ١٢٥ ـ.

(٢) محمد صالح بن أحمد بن سعيد المنير الشافعي الدمشقي تـ(١٣٢١)هـ: فاضل، له نظم حسن، ولد وتعلم وعاش في دمشق، وقصد الآستانة، في قضية له، فتوفي بها، من مؤلفاته: «رسالة» في الحكم بين بعض البروتستانت واليسوعيين، ومنظومة صغيرة سماها: «الطل من المجاز المرسل». انظر: «الأعلام» للزركلي ٦/ ١٦٥.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف ﷺ:

١٠ - كُلُّ حَقِيْقَةٍ خَالَفَتِ الشَّرِيعَةَ فَهِيَ زَنْدَقَةٌ.

قد ألزمنا القرآن باتِّباع هذا النَّبيِّ الكريم، وحَذَّر مِنْ مخالفته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور:٦٣].

وقال ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تأمَّرَ عليكم عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الـخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْـمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ**»(١).

وانظر ما قاله المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»(٢) بما نصُّه: «إيَّاكم ومُحدثاتِ الأمور، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ منهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٣).

عاملوا الله بالتَّقوى، وعاملوا الخَلق بالصِّدق وحُسنِ الخُلُق، عاملوا أنفسكم بالمخالفة، وقِفُوا عند الحدود.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

---

(١) رواه عن العِرباض بن سارية ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٧١٨٤، ٤/ ١٢٦، والترمذي في «الجامع»: كتاب العلم عن رسول الله ﷺ (٤٢)، باب ما جاء في الأخذ بالسنة..(١٦) رقم ٢٦٧٦، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح، وأبو داود في «السنن»: كتاب السنة (٣٥)، باب لزوم السنَّة (٦) رقم ٤٦٠٧، وابن ماجه في «السنن»: المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين(٦) رقم ٤٢.

(٢) صـ٢٠- ٢٣ـ.

(٣) رواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب الصلح (٥٣)، باب إذا اصطلحوا على صُلح جَورٍ..(٥) رقم ٢٦٩٧، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الأقضية (٣٠)، باب نقض الأحكام الباطلة... (٨) رقم ١٧١٨.

إيَّاكم والكذبَ على الله والخَلْقِ؛ فإنَّ الدَّعوى كذبٌ على الله وخلقه.

كلُّ العبوديَّة معرفة مقام العبديَّة .

الدِّين عملٌ بالأوامر، واجتنابٌ عن النَّواهي، وخضوعٌ وانكسارٌ في الأمرين.

العمل بالأوامر يُقرِّب إلى الله، والاجتناب عن النَّواهي خوفٌ من الله.

طلب القرب بلا أعمالٍ محالٌ وأيُّ محالٍ، الخوف مع الجراءَةِ فضيحةٌ.

أُطلُبُوا اللهَ بمتابعة رسوله ﷺ، إيَّاكم وسلوكَ طريق الله بالنَّفس والهوى، فَمَنْ سلك الطَّريق بنفسه ضَلَّ في أوَّل قَدم.

أي سادة، عَظِّمُوا شأن نبيِّكم، هو البرزخ الوسط الفارق بين الخَلقِ والحقِّ، عبدُ الله، حبيبُ الله، رسول الله، أكمل خلق الله، أفضل رسل الله، الدَّال على الله، الدَّاعي إلى الله، المُخبر عن الله، الآخذ من الله، باب الكلِّ إلى الحضيرة الرَّحمانيَّة، وسيلة الكلِّ إلى الحضيرة الصَّمدانيَّة، مَنِ اتَّصلَ به اتَّصل، ومَنِ انفصل عنه انفصل، قال عليه صَلَوَاتُ الله وتسليماتُهُ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِـمَا جِئْتُ بِهِ**»[1].

(١)ذكره الإمام النووي في «الأربعين» رقم ٤١ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ رويناه في كتاب «الحجة» بإسنادٍ صحيحٍ، وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» صـ٥٢٥ـ: يريد بصاحب «كتاب الحجة» الشَّيخَ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشَّافعي الفقيه الزاهد نزيل دمشق، وكتابه هذا هو كتاب «الحجة على تاركي المحجة»... ثم إنَّ الحافظ ابن رجب ضعَّفه، وبيَّن وجوه تضعيفه، وأمَّا الحافظ ابن حجر فقد أشار في «الفتح» ١٣/ ٣٤٥ إلى ثبوته، وجعله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فقال: «وأخرج البيهقي في «المدخل»، وابن عبد البر في «بيان العلم» عن جماعةٍ من التابعين، كالحسن وابن سيرين وشُريح والشَّعبي والنَّخعي بأسانيد جياد ذمّ القول بالرأي المجرَّد، ويجمع ذلك كلَّه حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه: «**لا يؤمنُ أَحَدُكُم حتَّى يكونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِـمَا جئتُ بِه**»، أخرجه الحسن بن سفيان وغيرُه، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين».

أي سادة، اِعلَمُوا أنَّ نُبُوَّة نبيِّنا ﷺ باقيةٌ بعد وفاته، كبقائها حالَ حياته إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وجميع الخلق مخاطبون بشريعته النَّاسخة لجميع الشَّرائع.

ومعجزته باقيةٌ، وهي القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨].

أي سادة، من ردَّ أخباره الصَّادقة، كَمَنْ ردَّ كلام الله تعالى، آمنَّا بالله، وبكتاب الله وبكلِّ ما جاء به نبيُّنا محمَّدٌ رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]».

[أقرب الطُّرق إلى الله]

وسُئِلَ جَدُّنا الخامس السيِّد الشَّيخ حسين برهان الدِّين[1] قُدِّسَ سِرُّهُ ورَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن أقرب الطُّرق إلى الله، فقال للسائل[2]: «الطَّريق إلى الله الشَّرع، وأمَّا ما

(١) هو السيِّد الشَّيخ حسين برهان الدين آل خزام الصَّيَّاديّ الرِّفاعيّ قدَّس اللهُ سرَّه (١٠٩٦-١١٤٦)هـ: ولد في قرية ربع من أعمال البصرة، فلما بلغ عمره ستة أعوام أقرأه أبوه القرآن وعلَّمه التَّجويد وضبط القراءات، وفي السنة الثامنة سلمه أبوه إلى أخيه المحدث المكين السيِّد حسين المبارك، وأخذ عن عمه المشار إليه بعد الإتقان الإجازة بكلٍّ من علم التفسير والحديث والفقه الشريف وغيرها من العلوم، وانتقل بعد أن بلغ خمس عشرة سنة إلى صحبة العلامة الشيخ حسين والعلامة الشيخ عبد المنعم البغداديين، ولا زمهما وانتفع بهما، ثم بعد ذلك عاد إلى البصرة، ودرس بها، وانتفع به خلقٌ كثيرٌ، وأذنه أخوه الشَّهاب نور الدين بالطريقة العلية الرفاعية وأقامه خليفةً عنه، وانتشر صيته دون إخوته، وأطبق على الاعتقاد به العامّة والخاصّة، ثم هاجر إلى بلاد الشَّام، ونزل في قبيلة بني خالد بحماة، وتوفي رحمة الله حين قصد زيارة أخية السيِّد علي المقيم ببادية دمشق بالقرب من حران، فتوفي أخوه قبل وصوله بأيام قلائل ثم ناداه منادي الأجل، فتوفي ودفن مع أخيه بذيل تلٍّ هناك، وبنى عليهما أتباعهما قبةً كبيرةً، ومرقدهما يُزار ويتبرك به رحمهما الله تعالى ونفعنا بهما وبأسلافهما آمين. انظر: «تنوير الأبصار» صـ٩٠-٩٦ـ.

(٢) في «المعراج» صـ٦٣ـ، والسائل: الشيخ ناصر السويدي البغدادي رحمه الله تعالى، الَّذي جمع كتاب «معراج السالكين» وتلقَّاه عن شيخه القطب حسين برهان الدين قُدِّسَ سِرُّهُ.

سمعته من أنَّ الطُّرق إلى الله بعدد أنفاس الخلايق، فتلك طرق القَبول الدَّاخلة في دائرة الشَّرع، كقول القائل: الله، وقَبوله عند قولها، أو كصلاةٍ في جوف اللَّيل، وقَبوله عندها، أو كصدقةٍ وغير ذلك، فإذا تَشرَّعْتَ، فإنَّك دخلت حيطة في دائرتها تجد الطَّرق إلى الله بعدد أنفاس الخلايق:

شَـــرِيعَةُ المُخْتَـــارِ للطَّرايِـــقِ دَائِـــرَةٌ تَجْمَـــعُ للحَقَائِـــقِ

طَرَائِـــقُ الوَصْـــلِ بِهَـــا للخَالِـــقِ بِعَـــدِّ أَنْفَـــاسِ الخَلايِـــقِ انطَـــوَتْ

انتهى.

[التَّرغيب بالتَّمسُّك بسُنَّتِهِ ﷺ]

وقد مَنَّ الله عليَّ بذكر جملةٍ شريفةٍ تناسب هذا الباب كتبتُها في كتابي «ضوء الشمس»(١) وها هي بحروفها: «وجميع العلماء، والأولياء، والصُّلحاء، والأتقياء، والأقطاب، والأفراد، والأنجاب، والأوتاد، وأئمَّة أهل الرَّشاد الَّذين فاضت بركاتُهم على العباد، وملأ ذكرهم البلاد، ملتمسون من رسول الله ﷺ، ومستمدُّون من إمداداته، ومستفيضون من فيوضاته، ومشمولون بإحساناته، ومنعمون بإنعاماته، أيديه لهم شاملةٌ، وألطافه لديهم متواصلةٌ، ولله درُّ البوصيري(٢) حيث قال:

وكلُّهُـــم مِـــنْ رَسُـــولِ اللهِ مُلْـــتمسٌ غَرفـاً مِـنَ البَحـرِ أو رَشْـفاً مِـنَ الـدِّيَمِ

---

(١) صـ١٨٤-١٨٨ـ.

(٢) محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله (٦٠٨-٦٩٦)هـ: شاعر، حسن الديباجة، مليح المعاني، نسبته إلى بوصير (من أعمال بني سويف، بمصر) أمه منها، وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني حبنون، ومولده في بهشيم من أعما البهنساوية، ووفاته بالإسكندرية، له: «ديوان شعر»، وأشهر شعره «البردة»، و«الهمزية». انظر: «الأعلام» للزركلي ٦/ ١٣٩.

فينبغي لكلِّ مَنْ مَنَّ الله تعالى عليه بالإسلام أن يكون في جميع حالاته متابعاً له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولاً وفعلاً وتقريراً، ويعضَّ على سُنَّته، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين من بعده بالنَّواجذ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]؛ أي: ينقادون انقياداً.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، والأسوة: القدوة.

وهل يجهل ذو لُبٍّ وبصيرةٍ أنَّ شريعته الطَّاهرة، وكلمته القاهرة: شريعة العدل الأكمل، وكلمة الحقِّ الَّذي لا يتحوَّل، والفارقة بين الحقِّ والباطل، والكافلة لحفظ حقِّ الضِّعاف من تسلط الأقوياء، ونِعْمَ الكافل، والدَّالة على خَيْرَي الدُّنيا والدِّين، والممدودة الظِّلال لحماية العجزة والمساكين؟.

وما أحسن ما قلت به بفضل الله تعالى:

كَفَى الضَّعيفَ عَنِ الأحزابِ ثمَّ حما ... حِمى الفَقِيْرِ الَّذِي أَغْنَاهُ ظَالِمُهُ

وأَيَّدَ العَدلَ حتَّى قَالَ قَائِل من ... فِي أرضٍ هذا رسول العَدلِ حَاكِمُهُ

فكلُّ مفتقِرٍ تَلْقَاهُ كَافِلُهُ ... وكُلُّ بَاغٍ عَنِيْدٍ فَهُوَ قَاصِمُهُ

فيجب على كلِّ منصفٍ، وصاحب طبعٍ سليمٍ تجرَّدت نفسه من الأغراض السَّقيمة، واندرجت طبيعته في سلك الطِّباع السَّليمة، أن يقتدي به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأن ينصب نفسه لتأييد أحكام شريعته التي هي مهد الأمن للأنام،

وهذا الشَّأن من أهمِّ الـمُهمات لِـمَنْ آمن به صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ واتَّبعه وأحبَّه.

ولا شكَّ أنَّ مَنْ أحبَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ كان لقوله سميعاً، ولأمره مطيعاً، فدعوى محبَّته مع كثرة مخالفته من دعاوي النَّفس المجرَّدة عن البيان، والعارية عن الحجَّة والبرهان، ولله درُّ القائل:

تَعْصِـي الإلـهَ وأنـتُ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هــذا لَعَمْـرِي فِـي القِيـاسِ بَدِيْـعُ

لـو كَـانَ حُبُّـكَ صَـادِقاً لأَطَعْتَـهُ ... إنَّ المُحِـبَّ لِـمَنْ يـُحِبُّ مُطِيْـعُ

وفي الحديث الشَّريف: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الـخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الـمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[١]، وزاد في روايةٍ: **وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»[٢].

وفي حديثٍ آخر: «**مَنِ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[٣].

وعن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أنَّه قال: «**إنَّ أحْسَنَ الـحَدِيْثِ كِتَابُ الله، وخَيْرُ الـهَدْيِ هَدْيُ مُـحمَّدٍ ﷺ، وشَرُّ الأُمُورِ**

---

(١) مر تخريجه صـ١٢١ـ.

(٢) جزءٌ من حديثٍ رواه عن جابر بن عبد الله ﷺ: النَّسائي في «السنن»: كتاب صلاة العيدين (١٩)، باب كيف الخطبة (٢٢) رقم ١٥٧٨، وابن خزيمة في «صحيحه»: كتاب الجمعة (٤)، باب صفة خطبة النَّبيِّ ﷺ...(٥١) رقم ١٧٨٥، ولفظه: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ الله، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ: «مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلا هَادِيَ لَهُ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ...».

(٣) رواه عن مجاهد ويحيى بن جعدة على رجلٍ من الأنصار من أصحاب الرَّسول ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٣٥٢١، ٥/ ٤٠٩، وقال الهيثمي في «مجمع الرزوائد» ٣/ ١٩٣: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

مُـحْدَثاتُـها»[1].

وروى أبو هريرة عن النَّبيّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أنَّه قال: «**الـمُتَمَسِّكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ مائةِ شَهِيدٍ**»[2].

وعن أنسٍ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّتِى فَقَدْ أَحْيَانِي، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِي**»[3].

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: «سنَّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ وولاةُ الأمر من بعده سُنناً، الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله، واستعمالٌ لطاعة الله، وقوةٌ على دين الله، ليس لأحدٍ تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتَّبع غير سبيل المؤمنين، وَلَّاهُ الله ما تولَّى وأصلاه جهنَّم وساءت مصيراً»[4].

وقالوا: الاعتصام بالسُّنَّة نَجاةٌ.

وعن عطاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]؛ أي: إلى كتاب الله، وسنَّة رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

---

(١) لم أجده عن أبي هريرة ﵁، بل رواه عن عبد الله بن مسعود ﵁: البخاري في «الصَّحيح»: كتاب الأدب (٧٨)، باب الهدي الصَّالح (٧٠) رقم ٦٠٩٨. ورواه عن جابر ﵁: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٤٣٧٣، ٣/ ٣١٠، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الجمعة (٧)، باب تخفيف الصلاة والخطبة (١٣) رقم ٨٦٧، وابن ماجه في «السنن»: المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل (٧) رقم٤٥، ومرَّ تخريجه أيضاً عن جابر﵁ في سنن النَّسائي وصحيح ابن خزيمة. انظر: التعليق رقم ٢ صـ١٢٦ـ.

(٢) لقد مر تخريجه صـ٤٣ـ.

(٣) رواه عن أنس ﵁: الترمذي في «الجامع»: كتاب العلم عن رسول الله ﷺ (٤٢)، باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّة واجتناب البدع (١٦) رقم ٢٦٧٨، وقال: هذا حديث حسن غريب، والطبراني في «الأوسط» رقم ٩٤٣٩.

(٤) رواه عن الإمام مالك ﵁: ابن أبي حاتم في «التفسير بالمأثور» رقم ٥٩٦٩.

وقال سهل التُّستَري[1]: أصول مذهبنا ثلاثةٌ:

- الاقتداء بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ في الأخلاق والأفعال.
- والأكل من الحلال.
- وإخلاص النِّيَّة في جميع الأعمال.

وفي الحديث: «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[2].

وانظر يا أخي، ما قاله السيِّد أحمد الرِّفاعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: لو بلغنا أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أمرنا بقصِّ الأعناق لقصصنا اتِّباعاً وامتثالاً لأمره صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

وقال لولد بنته، القطب المقرَّب، أبي إسحاق، السيِّد إبراهيم الأعزب الرِّفاعيّ[3] قُدِّسَ سِرُّهُ: «ما أخذ جدُّك طريقاً لله إلَّا اتِّباع رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فإنَّ مَنْ صحَّت صحبته مع سرِّ رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ

---

(١) سَهْلُ بنُ عبد الله بنِ يونُسَ بن عيسى التُّسْتَرِيُّ، أبو محمد (٢٠٠-٢٨٣)هـ: أحد أَئِمَّة القوم وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الرِّياضياتِ، والإخلاص، وعيوب الأفعال، صاحب كراماتٍ، صَحِب خاله محمَّد بن سَوَّار، وشاهد ذا النُّون المِصريَّ، سنة خروجه إلى الحجّ بمكّة، له: كتابٌ في «تفسير القرآن» مختصر، وكتاب «رقائق المحبين» وغير ذلك. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي صـ٦٧ـ، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٣٩ـ، و«الأعلام» للزركلي ٣/ ١٤٣.

(٢) جزءٌ من حديثٍ رواه عن أنس بن مالك ﷺ: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب النكاح (٦٧)، باب الترغيب في النكاح (١) رقم ٥٠٦٣، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب النكاح (١٦)، باب استحباب النكاح...(١) رقم ١٤٠١.

(٣) هو الإمام محيي الدِّين أبو إسحاق السيِّد إبراهيم الأعزب، ابن مهذب الدَّولة السيِّد عليّ، بن عثمان الحُسيني، سبط الإمام الرِّفاعيّ ﷺ (٥٤٦ -٦٠٩)هـ: كان متواضعاً كريماً خاشعاً متبحراً في علوم الشَّريعة، متمكِّناً في اللغة العربية، حجةً رُحلةً صوفياً صافياً، صاحب كراماتٍ كثيرةٍ، كان أهل الرَّقائق من أصحاب الحقائق يعبرون عنه لعذوبة كلامه بجنيد الوقت، وتوفي في أم عبيدة، ودفن في قبة جدِّه السيِّد أحمد الرِّفاعيّ رضي الله عنهما. انظر: «روضة الناظرين» للوتري صـ٨٥-٩٠ـ، و«تنوير الأبصار» صـ٣٣-٣٦ـ.

اتَّبع آدابه، وأخلاقه، وشريعته، وسُنَّته، ومَنْ سقط من هذه الوجوه، فقد سلك سبيل الهالكين». انتهى.

[التَّرهيب مِنْ مخالفة سُنَّتِهِ ﷺ]

ويكفيك في النَّهي عن مخالفة السُّنَّة النَّبويَّة، والطَّريقة المُحمَّديَّة، ما جاء من الآيات الفُرقانيَّة، والنُّصوص القُرآنيَّة، قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ الآية [النور:٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

ومعلومٌ أنَّ الله تعالى ما أرسل هذا الرَّسول إلَّا لِيُطاع، وما بيَّن صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أحكامَ سُنَّته السَّنيَّة إلا لأجل الاتِّباع.

والخير كلُّه لِـمَنْ اهتدى فاقتدى واتَّبع، والشَّرُّ كلُّه لِـمَنْ زلَّ فضلَّ وابتدع؛ ولذلك قال صاحب الجوهرة:

وكُـلُّ خيـرٍ فِـي اتِّبـاعِ مَـنْ سَـلَفْ   وكُـلُّ شَـرٍّ فـي ابتـدَاعِ مَـنْ خَلَـفْ

والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ولم يترك خيراً إلَّا وحضَّنا عليه كثيراً، ولا شرَّاً إلَّا وحذَّرنا منه تحذيراً، فَمَنْ أراد عِزَّ الدُّنيا والآخرة، فشرعه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أعظم دليل، ومن فارقه قيد شِبْرٍ فقد ضَلَّ سواء السَّبيل». انتهى.

وهذا كافٍ لِـمَنْ وفَّقَهُ الله تعالى.

ثُمَّ قالَ المُؤَلِّف رضي الله عنه:

١١ - غَايَةُ الْـمَعْرِفَةِ بِاللهِ: الإِيْقَانُ بِوُجُودِهِ تَعَالَى، بِلا كَيْفٍ ولا مَكَانٍ.

وقد أجمع على ذلك أئمَّة الدِّين، وصرَّح بذلك القرآن، قال تعالى في شأن ذاته القُدُّوسيَّة: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١].

وقال الحبيب العظيم مُناجياً: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[١].

وقال الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه: العجز عن درك الإدراك إدراكٌ.

وقال سيِّدنا المؤلف رضي الله عنه في كتابه «البرهان»[٢] ما نصُّه: «وقد جمع إمامنا الشَّافعيُّ رضي الله عنه، جميع ما قيل في التَّوحيد بقوله: مَنِ انتهض لمعرفة مُدبِّره، فانتهى إلى موجودٍ ينتهي إليه فكرُه فهو مُشبِّهٌ، وإنِ اطمأنَّ إلى العدم الصِّرف فهو مُعطِّلٌ، وإنِ اطمأنَّ لِموجودٍ، واعترف بالعجز عن إدراكه فهو مُوحِّدٌ.

[حمل المتشابه على المحكم]

أي سادة، نزِّهوا الله عن سمات المُحْدَثين، وصفات المخلوقين، وطهِّروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء[٣] في حقِّه تعالى: بالاستقرار، كاستواء الأجسام

---

(١) رواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الصلاة (٤)، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٢) رقم ٤٨٦، والترمذي في «الجامع»: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ (٤٩)، باب (٧٦) رقم٣٤٩٣، وقال: هذا حديث حسن، وأبو داود في «السنن»: كتاب الصلاة (٢)، باب في الدعاء في الركوع والسجود (١٥٣) رقم ٨٧٥، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الدعاء (٣٤)، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ (٣) رقم ٣٨٤١.

(٢) صـ١٥ - ١٩ـ.

(٣) ينبهنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه هنا من أن ننتحل ونعتقد المذهب الباطل الَّذي يحمل الآيات المتشابهة على ظاهرها، ولكي يتجلى لنا هذا الأمر بوضوح أبين قول الأئمَّة الأعلام من السَّلف والخلف في المحكم والمتشابه في الآيات الكريمة والأحاديث الشَّريفه، أبدأ أولاً ببيان معنى المحكم =

=

والمتشابه، ومن هم السَّلف ومن هم الخلف:

المحكم: هي الآيات القاطعة في دلالاتها لا تحتمل إلا معناها الواضح الصَّريح كقوله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وقوله ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾.

المتشابه: هو كلُّ نصٍّ تجاذبته الاحتمالات حول المعنى المراد منه، وأوهم بظاهره ما قامت الأدلَّة العقليَّة والسَّمعيَّة القرآن والسُّنة على نفيه.

السَّلف: هم القرون الثلاثة الأولى، الصَّحابة والتَّابعون وأتباع التَّابعين، وقيل: هم من كانوا قبل الخمسمائة.

الخلف: هم من كانوا بعد القرون الثلاثة الأولى أو بعد الخمسمائة.

قول السَّلف والخلف في المُتشابه: اتَّفق الخلف والسَّلف على التَّأويل الإجمالي وعلى عدم حمل هذه تلك الآيات على ظاهرها الموهم للجهة والجسميَّة، والجوارح والأعضاء، والتَّحيُّز بمكانٍ – والعياذ بالله تعالى –، لكنَّهم اختلفوا بعد ذلك في تعيين المراد من تلك النُّصوص.

فالسَّلف: ذهبوا إلى عدم الخوض في أيِّ تأويلٍ أو تفسيرٍ تفصيليٍّ لهذه النُّصوص، والاكتفاء بإثبات ما أثبته الله ﷻ لذاته، على نحوٍ يليق بكماله، مع تنزيهه ﷻ عن كلِّ نقصٍ ومُشَابَهَةٍ للحوادثِ، وانظروا إلى تلك النُّقول التي ذكرها الإمام الرفاعي رضي الله عنه عن الأئمَّة الأربعةِ والسيِّد جعفر الصَّادق رضي الله عنه في بيان مذهبهم في ذلك، وأيضاً يظهر للأخ المُحبِّ أنَّ الإمام الرِّفاعيَّ سلفيُّ العقيدة.

أما الخلف: هو تأويل تلك النُّصوص المتشابهة وحملها على المحكم، ففسروا الاستواء في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ بتسلُّط القوَّة و السُّلطان، وهو معنىً ثابتٌ في اللغة معروفٌ، وفسروا اليد في قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ بالقوَّة أو بالكرم ، وفسروا العين في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ بالعِناية والرِّعاية.

والخلاصة: ما ذهب إليه السَّلف أسلم للعقيدة، وقول الخلف أعلم وأحكم.

وروي أن الزَّمخشري سأل الإمامَ الغزالي عن هذه الآية: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾؟ فأجابه بقوله: إذا استحال أن تَعرِفَ نفسك بِكَيفِيَّةٍ أو أَيْنِيَّةٍ، فكيفَ يليق بعبوديَّتك أن تصفه تعالى بأين أو كيف، وهو مقدَّسٌ عن ذلك؟!.ثم جعل يقول:

قُلْ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِّي مَا أَقُول ... قَصِّرِ القَولَ فَذا شَرحٌ يَطُولْ
ثَـمَّ سِـرٌّ غَـامِضٌ مِـنْ دُونِـهِ ... قَصُـرَتْ واللهِ أعنــاقُ الفُحــولْ
أنـتَ لا تَعْـرفُ إِيَّـاكَ ولا ... تَـدْرِ مَـنْ أنـتَ ولاكيـفَ الوُصُـولْ
لا ولا تَـدرِي صِـفَاتٍ رُكِّبَـتْ ... فِيـكَ حَـارَتْ فـي خَفَاياهـا العُقُـولْ
أيـنَ منـكَ الـرُّوحُ فـي جوهرِهـا ... هـلْ تَراهـا فَتَـرَى كيـفَ تَجُـولْ

=

على الأجسام المُستلزم للحُلول، تعالى اللهُ عن ذلك .

وإيَّاكم والقولَ بالفوقيَّة والسُّفليَّة والمكان، واليد والعين: بالجارحة، والنُّزول بالإتيان والانتقال؛ فإنَّ كلَّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة مِمَّا يدلُّ ظاهره على ما ذُكِر، فقد جاء في الكتاب والسُّنَّة مثله مِمَّا يؤيِّد المقصود.

فما بقي إلَّا ما قاله صلحاء السَّلف: وهو الإيمان بظاهر كلِّ ذلك، وردُّ عِلمِ المراد إلى الله ورسوله، مع تنزيه الباري تعالى عن الكيف وسمات الحُدُوث؛ وعلى ذلك درج الأئمَّة.

وكلُّ ما وَصَفَ الله به نفسه في كتابه، فتفسيره: قراءته والسُّكوت عنه، ليس لأحدٍ أن يُفَسِّرَهُ إلا الله تعالى ورسوله.

ولكم حمل المتشابه على ما يوافق أصل المحكم؛ لأنَّه أصل الكتاب، والمتشابه لا يعارض المحكم.

سأل رجلٌ الإمام مالكاً بن أنسٍ رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]؟.

=

وكـذا الأنفـاسُ هـلْ تَحْصُـرُها ... لا ولا تـدري متـى عنـك تَـزُولْ

أيـنَ منـكَ العَقْـلُ والفَهـمُ إذا ... غَلَبَ النَّومُ فقلْ لي يا جَهُولْ

أنـتَ أكـلُ الخُبـزِ لا تَعْرِفُـهُ ... كيفَ يَجْرِي منكَ أم كيفَ تبولْ

فـإذا كانـتْ طَوايـاكَ التـي ... بَـيْنَ جَنْبَيْـكَ كـذا فيهـا ضَـلُولْ

كيفَ تدري مَنْ على العرشِ استوى ... لا تَقُلْ كيفَ استوى كيفَ النُّزُولْ

كيـفَ يحكـي الـرَّبُّ أمْ كيـفَ ... فلَعَمـري لـيسَ ذا إلا فُضُـولْ

فهـوَ لا أيـنَ ولا كيـفَ لـهُ ... وهـوَ ربُّ الكيـفِ والكيـفُ يَحُـولْ

وهـوَ فَـوقَ الفَـوقِ لافَـوقَ لـهُ ... وهـوَ في كـلِّ النَّـواحي لا يَـزُولْ

جـلَّ ذاتـاً وصِـفَاتٍ وسَـمَا ... وتَعَـالَى قَـدْرُهُ عَمَّـا تَقُـولْ

انظر: «تحفة المريد على جوهرة التوحيد» للباجوري صـ٢١٧ـ، و«كبرى اليقينيات الكونية» أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى صـ١٤٠ـ.

فقال: الاستواءُ غيرُ مجهُولٍ، والكَيْفُ غيرُ مَعقُولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، وما أراك إلَّا مُبتدعاً، وأمر به أن يُخرج.

وقال إمامنا الشافعي رضي الله عنه لَـمَّا سُئِل عن ذلك: آمنتُ بِلا تشبيهٍ، وصَدَّقتُ بلا تَمْثِيلٍ، واتَّهَمْتُ نفسي في الإدراكِ، وأمسكت عن الخوضِ فيه كُلَّ الإمساكِ.

وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: مَنْ قال: لا أعرفُ اللهَ أفي السَّماء هو أم في الأرض فقد كَفَرَ؛ لأنَّ هذا القولَ يُوهِمُ أنَّ للحقِّ مكاناً، ومَنْ تَوهَّمَ أنَّ للحقِّ مكاناً، فهو مُشبِّهٌ.

وسُئِل الإمام أحمد رضي الله عنه عن الاستواء؟ فقال: اِسْتَوى كما أخبر، لا كما يَخطُر للبشر.

وقال الإمام ابن الإمام جعفر الصَّادق[1] عليه السلام: مَنْ زعم أنَّ الله في شَيءٍ، أو مِنْ شَيءٍ، أو على شَيءٍ، فقد أشرك؛ إذ لو كان على شَيءٍ لكان محمولًا، ولو كان في شيءٍ لكان مَحصُوراً، ولو كان مِنْ شيءٍ لكان مُـحْدَثاً.

أي سادة، اُطْلُبُوا الله بقلوبكم، هو أقربُ إليكم من حبل الوريد، ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢]». انتهى.

فَمِنْ هذه الآثار الشَّريفة، والأخبار الـمُنيفة، يَظهر لك أنَّ غاية المعرفة: العجز عن الكيف والمكان، مع الإيقان بوجوده تَعالَى وتقدَّس عنِ التَّشبيه والنُّقصان.

---

(١) الإمام أبو عبد الله، جعفر الصَّادق بن مُحمَّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم (٨٠-١٤٨)هـ: كان من سادات أهل البيت، ولُقِّب بالصَّادق لصدقه في مقالته، وفضلُه أشهر من أن يُذكر، وتوفي بالمدينة، ودفن بالبقيع في قَبرٍ فيه أبوه مُحمَّد الباقر وجدُّه عليّ زين العابدين وعمُّ جدِّه الحسن بن عليّ رضي الله عنهم، فلله دَرُّه مِنْ قبرٍ ما أكرمه وأشرفه. انظر: «وفيات الأعيان» لا بن خلكان ١/ ٣٢٧، و«الأعلام» للزركلي ٢/ ١٢٦.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رضي الله عنه:

١٢- ثِقَلُ مَرَضِ الـمُوتِ أَوَّلُ قَنَاطِرِ الـمَعْرِفَةِ باللهِ عِنْدَ الـمَحْجُوبِينَ، ولِهَذا قِيلَ لنا: «مُوتُوا قَبلَ أنْ تَـمُوتُوا»[1].

ثم قال رضي الله عنه:

١٤- حَضْرَةُ الـمُوتِ تَكْشِفُ الـحُجُبَ، كَمَا وَرَدَ: «النَّاسُ نِيَامٌ، فَإذا مَاتُوا انْتَبَهُوا»[2].

لا يـخفى أنَّ من تَدبَّر هاتين الـحِكمتين، والدُّرَّتين اليتيمتين، أدرك أنَّ سيِّدنا الـمؤلِّف رضي الله عنه، طَوى فيهمـا أسرار العرفان، وأوضح ما يلزم في هذه الدُّنيا الفانية للإنسان، وبيَّن للعاقل في الـحِكمة الأولى: أنَّ ثِقَل الـموت، كالقنطرة يَعبُر عليها الـمحجوب - أي: الغافل - إلى معرفة الله، فيذعن طبعه، وتعترف بشريَّته حالة إيقانه بمفارقة هذه الدُّنيا الدَّنيَّة، أنَّ مصيره إلى الله، وأنَّه لا ملجأ مِنَ الله إلَّا إليه .

ولِيُنظر ما أحسن تتمَّة الـحكمة الأولى فإنَّه ختمها بقوله: ولهذا قيل لنا: «مُوتُوا قَبلَ أنْ تَـمُوتُوا»، فإنَّه فَرَّق بهذه الكلمة بين الغافلين الـمحجوبين، والعارفين الـمُتيقِّظين.

فالـمحجوبون لا تنكشف لهم أسرار الـمعرفة بالله إلَّا بعد عبور قنطرة مرض الـموت.

العارفون رضي الله عنهم عملاً بأثر: «**مُوتُوا قَبلَ أنْ تَـمُوتُوا**» يقطعون عن أنفسهم الزَّكية علائق البشريَّة، ويرون أنفسهم وبقيَّة الذَّرات المخلوقة مُـحاطين بالعدم الـمحض، فتنطبع قلوبهم على الانتباه الـخالص، فلا يؤثِّر فيهم حجاب الغين

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء رقم ٢٦٦٩: قال الحافظ ابن حجر هو غير ثابت، وقال القاري هو من كلام الصُّوفية.

(٢) مر تخريجه صـ٦٤ـ.

طرفة عين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

وانظر كيف أتى بالحكمة الثانية على نسقٍ منيعٍ، وأسلوبٍ بديعٍ، فقال: حضرة الموت تَكْشِف الحجب، مُستدلاً بخبر: «**النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذا مَاتُوا انْتَبَهُوا**»، عِلماً بقلَّة العارفين في كلِّ زمنٍ، وقليلٌ ما هم؛ وإيضاحاً لعجز المخلوقين كافَّةً عن العِلمِ بالله في هذه الدَّار.

وشاهد ذلك أمر الله لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في القرآن العظيم بطلب زيادة العلم بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، فما انكشف للعارفين في هذه الدَّار، بالنِّسبة لِـمَا سيظهر في الدَّار الآخرة، كالنُّقطة من البحر؛ فإنَّ عجائب القدرة وقوَّةَ سلطان الرُّبوبيَّة، لا يتمكُّن البشر قبل إزالة حجاب هذه الحياة أن يُحيط بفهمها، أو أن يتحمَّل دهشة الاطِّلاع عليها.

فلذلك عبَّر عن هذه الحياة: بالنوم؛ لانحجاب البشر بها عن حقيقة المعرفة؛ وعبَّر عن الموت: بالانتباه؛ لِـحُصول القابلية الإنسانية من النَّوع الآدمي كلٌّ بنسبة مرتبته للاطِّلاع على حقيقة المعرفة بالله، وبعظمة سلطانه، وعزيز برهانه.

وما صحَّ الاطِّلاع لأحدٍ في هذه الدَّار إلَّا للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ؛ لِقُوَّة استعداده، ولياقة قابليَّته الُمحمَّديَّة ، ولكونه حزب الله، سمَّاه الله حِزباً، مع أنَّ الحزب لا يُطلق إلا على الجماعة، إشارةً لثبات قلبه الشَّريف، وفرط قوَّته، واستعداده، وقابليَّته لِتَلَقِّي التَّجلِّيات، تدنِّياً وتدلِّياً.

ويؤيد ما سبق من المقصود، قوله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً**»[1] صَلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وَوُرَّاثه وأحبابه أجمعين.

---

(١) رواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب الأيمان والنذور (٨٣)، باب كيف كانت يمين النَّبي ﷺ (٣) رقم ٦٦٣١، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الكسوف (١٠)، باب صلاة الكسوف (١) رقم ٩٠١.

قالَ الـمُؤَلِّف رضي الله عنه:

١٤- كُلُّ تَوْحِيْدِكَ قَبْلَ تَنْزِيْهِهِ تعَالَى شِرْكٌ؛ التَّوحِيدُ: وُجْدَانٌ فِي القَلْبِ يَمْنَعُ عَنِ التَّعْطِيْلِ والتَّشْبِيْهِ.

أراد المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: إسقاط تأثير الأسباب، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن المُشاركة والمُجانسة في ذاته وصفاته، وقد فَسرَّ هذه الحِكمة بقوله في كتابه «البرهان»[1]: «طِبْ بِرَبِّك عن الكُلِّ؛ فإنَّ الرُّبوبيَّة تَقَدَّسَتْ وجَلَّتْ عن وَصْف المُشاركة في كلِّ حالٍ.

رُدَّت أعمال الشِّرك إلى المُشركين، وقُبِلَت أعمال التَّوحيد مِنَ الـمُوحِّدين: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠]». انتهى.

ثمَّ عرَّف التَّوحيد: بوجدان سِرٍّ مُضمرٍ في القلب، يَمنع خواطر التَّعطيل والتَّشبيه أن تمرَّ على الحضيرة القلبيَّة، وهذا هو التَّوحيد المحض؛ لأنَّ الله يعلم خائنة الأعين، وما تُخفي الصُّدور، وقد سبق على مثل هذا الكلام، وبه الكفاية.

(١) صـ١٢٤ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف ﷺ:

١٥- رُحْ وتَعَالَ، كُلُّكَ خَيَالٌ، اِنْزِلْ يَا مِسْكِيْنُ عَنْ فَرَسِ عُجْبِكَ، رُبَّ عَثْرَةٍ، أَوْصَلَتِ الْـحُفْرَةَ.

أراد المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بقوله: رُحْ وتعالَ، كلُّك خيالٌ: عدم البقاء في هذه الدَّار.

ومن هذا المعنى قول الصِّدِّيق الأكبر ﷺ:

كُـــلُّ امْـــرِءٍ مُصَـــبحٌ بِأهْلِـــهِ والمُـوتُ أَدْنَـى مِـنْ شِـرَاكِ نَعْلِـهِ

ويؤيد ذلك قول الله تعالى لنبيِّه الطَّاهر المأمون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

وقال ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُوْنَ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَعْلَمُ، لاسْتَرَاحَتْ أَنْفُسُكُمْ مِنْهَا**»[١].

وقال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضاً: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ لا تَدْرُونَ تَنْجُونَ أَو لا تَنْجُونَ**»[٢].

فَمِنْ هذه الأخبار الشَّريفة الـمُحمَّديَّة، يُستدل على هوان الدُّنيا، وسرعة مرورها، ولزوم ترك العُجب فيها.

وقد ورد ما هو أوضح من هذا، وهو أنَّ عمرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ دخلَ على

---

(١) رواه عن عروة بن الزبير عن أبيه رضي الله عنهما: الحاكم في «المستدرك»: معرفة الصحابة (٣١)، رقم٦٦٤٠، ورواه عن عروة بن الزبير مرسلاً: البيهقي في «الشعب» رقم ١٠٣٢٩، و١٠٣٣٠، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٧٤٤٢، وقال المناوي في «الفيض» ٥/ ٤١٤: وفيه موسى بن عبيدة أي الربذي، قال الذهبي: ضعفوه، وقال أحمد: لا تحل الرواية عنه، وعبد الله ابن عبيدة، وثقه قوم وضعفه آخرون.

(٢) رواه عن أبي الدرداء ﷺ: الحاكم في «المستدرك»: كتاب الرقاق (٤٤)، رقم ٧٩٠٥ ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، والبيهقي في «الشعب» رقم ٧٩٣، و(تجأرون): أي ترفعوا أَصواتكم بالدعاء متضرِّعين. «لسان العرب» (جأر).

رسولِ الله ﷺ وهو على حَصيرٍ قَدْ أَثَّرَ في جَنْبِهِ، فقالَ: يا رسولَ الله، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشاً أَوْثَرَ مِنْ هَذَا، قَالَ: «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا، ومَا لِلدُّنْيَا ومَالِي وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي، وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَافَرَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، واسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[1].

ومن هذا المعنى المبارك، قول مولانا السَّيِّد الشَّيخ سراج الدِّين الرِّفاعيّ المَخْزُوميّ[2] قُدِّسَ سِرُّهُ العَزِيْز:

أَذَانُ النَّـاسِ حيـثُ الطِّفْـلُ يَـأْتِي ... وتَـأْخِيْرُ الصَّـلاةِ إلـى الوَفَـاةِ

يُشِـيْرُ بَـأنَّ عَمْـرَ المَـرءِ فِيهَـا ... كَمَـا بـينَ الأذانِ إلـى الصَّـلاةِ

فكأنَّ المؤلِّف رضي الله عنه يقول: أيُّها المسكين المغرور بهذه الحياة القصيرة، المُعجب فيها بقوَّته، وحوله، وطَوله، اِنْزِل عن فرس خيالك وعجبك، بِحولك وقوَّتك؛ فإنَّ القوَّة، والحول، والطَّول، والقدرة، والبقاء لله تعالى، والَّذي أنت فيه عَثْرَةٌ يوشك أن يوصلك حفرة العذاب بعد وصولك حفرة القبر.

---

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الإمام أحمد في «المسند» ٢٧٤٤، ١/ ٣٠١، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الرقاق (٤٤) رقم ٧٨٥٨، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب التاريخ (٦٠)، باب من صفته ﷺ وأخباره (٣) رقم ٦٣٥٨، وله شواهد عن عبد الله بن مسعود في جامع الترمذي وسنن ابن ماجه وغيرهما.

(٢) هو شيخ الإسلام، أبو المعالي السيد مُحَمَّد سراج الدِّين الرفاعي نسبة لأبيه ثم المخزومي نسبة لأمه وهي من نسل سيدنا خالد بن الوليد المخزومي القرشي رضي الله عنه (٧٩٣-٨٨٥)هـ: ولد بواسط، وكان شيخ الإسلام في زمنه علماً وعملاً وتحقيقاً وتمكناً ورياسةً، خَدَمَهُ العلماء وأخذ عنه الصُّلحاء وأجرى الله على يديه خوارق العادات، وتوفي ببغداد رحمه الله تعالى، وله كتبٌ نافعةٌ منها: «البيان في تفسير القرآن»، و«سلاح المؤمن» في الحديث، و«صحاح الأخبار» في نسب السادة الفاطمية الأخيار، وغيرها. انظر: «روضة الناظرين» للوتري صـ١١٠-١١٣ـ، و«تنوير الأبصار» صـ٧٠-٧١ـ، و«هدية العارفين» ٢/ ٥٨.

وكأنَّه يقول ﵁ في وجهٍ آخر: أيُّها المعجب بنفسه على أبناء جنسه، تأدَّب مع الله وخَلْقِه، فَرُبَّ عَثْرَةٍ لك يقودك إليها عجبك وغرورك وترفعك على الخلق، تصل بها إلى حفرة الانحطاط عن جاهك، وحياتك، وغير ذلك.

ويناسب هذا قول القائل:

كَـمْ نِعْمَـةٍ زَالَـتْ بِـأَدْنَى زلَّـةٍ(1) ... ولِكُـلِّ شَـيءٍ فِـي تَقَلُّبِـه سَـبَب

(1) في المطبوع: (ذله)، وفي «نظم اللآل في الحكم والأمثال» صـ٢٩ـ: (زلة).

ثم قال المؤلف ﷺ:

١٦- رُبَّ عِلْمٍ ثَمَرَتُهُ جَهْلٌ، وَرُبَّ جَهْلٍ ثَمَرَتُهُ عِلْمٌ.

وألحقها بقوله:

١٧-كَيْفَ يَصِحُّ لَكَ عِزُّ العِلْمِ، وأَنْتَ كَسَوْتَ عِلْمَكَ ثَوْبَ الذُّلِّ.

أراد ﷺ بقوله: **رُبَّ عِلمٍ ثَمرتهُ جهلٌ**؛ أي: رُبَّ علمٍ اختطفت صاحبه أجنحة الغرور بالعِلم، فاكتفى به عن العمل، وتَعَالَى عنِ الخلق، فأنتج له العِلم المذكور ثمرة القطيعة التي ينجها الجهل.

وأراد بقوله: **ورُبَّ جهلٍ ثمرته عِلمٌ**؛ أي: ورُبَّ جهلٍ ألزم صاحبه الانكسار والاحتقار لنفسه، فلزم أبواب العارفين، والعلماء العاملين، وأخذ عنهم، وانتفع منهم، فأورثه اعترافه بجهله وانكساره معه علماً.

[حال الصُّوفيَّة والعلماء تحت أربع درجاتٍ]

وما أحسن ما قاله سيِّدنا المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان»[1] وهو: «**أي سادة،** كُلُّ حال القوم من أوَّلهم إلى آخرهم تحت أربع درجات، وكلُّ حال العلماء والفقهاء كذلك.

فأما الدَّرجة الأولى من حال القوم: فدرجة رجلٍ طلب المُرشد لِـمَا رأى من إقبال العامَّة على الطَّائفة، فأحبَّ ذلك، وفَرِح بالرّواق والجِمعيَّة والزِّيِّ.

والدَّرجة الثَّانية: درجة رجلٍ طلب المُرشد عن حسن ظنٍّ بالطَّائفة، فأحبَّهم وأَحبَّ ما هم عليه، وأخذ بصميم القلب كلَّ ما نُقِل عنهم، وأخذ منهم بالاعتقاد الصَّحيح النَّظيف.

الدَّرجة الثَّالثة: درجة رجلٍ سلك المقامات، وقطع العقبات، وبلغ من الطَّريق العوالي

---

(١) صـ١٣٨ – ١٤١ـ.

مِنَ الدَّرجات، ولكن وقف تارةً عند قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا...﴾ الآية [فصلت:٥٣].

فساعةً يرى الكون بمشهد الآية التي أُرِيَت له، فيغيب بها عمَّن أراه إيَّاها.

وساعةً يرى نفسه بمشهد الآية التي أُرِيَت له في نفسه، فيغيب بها.

وهذا المشهدُ مشهدُ الإدلال، ومنه تَحصُل الشَّطحاتُ والتَّجاوز، وإظهار العُلوِّ على الأعالي، والبروز بحال السَّلطنة، والظُّهور بالقول والفعل، والحَول والقوَّة.

والدَّرجة الرَّابعة: درجة رجلٍ سلك الطَّريق مُقتفياً آثار النَّبيِّ ﷺ، في كلِّ قولٍ وفعلٍ وحالٍ وخُلقٍ، حاملاً راية العبديَّة، فارشاً جبين الذُّلِّ في الحضرة الرَّبَّانيَّة، يشهد على [كلِّ] هامةٍ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨].

ويقرأ من صحيفة [جبهة][1] كلِّ ذرةٍ مخلوقةٍ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

يقف عند حدِّه، ويبسط على تراب الأدب بساطَ خدِّه، ويَمرُّ في أثناء سيره على عقبات الآيات، فينصرف عنها إلى المعبود: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

فصاحب الدَّرجة الأولى: محجوبٌ.

وصاحب الدَّرجة الثَّانية: مُحِبٌّ.

وصاحب الدَّرجة الثَّالثة: مشغولٌ.

وصاحب الدَّرجة الرَّابعة: كامِلٌ.

وفي كلِّ درجةٍ مِنَ الدَّرجات المذكورات، درجاتٌ كثيرةٌ تَظْهَر للعارف مِنْ حال الرَّجُل.

وأما درجات العلماء والفقهاء:

فالدَّرجة الأولى: درجة رجلٍ طلب العلم للمُماراة، والجِدَال، والتَّفاخر، وجَمْعِ

---

(١) (جبهة): هذا ما في «البرهان» وهي ساقطة في الأصل المطبوع.

المال، وكثرةِ القِيلِ والقال.

والدَّرجة الثَّانية: درجة رجلٍ طلب العلم لا للمُناظرة، ولا للرِّئاسة، ولكن ليُحسب في أعداد العلماء، فَيُمدح بين أهله وعشيرته وأهل قريته، مكتفياً بهذا المِقدار، متمسِّكاً بالظَّاهر لا غير.

والدَّرجة الثَّالثة: درجة رجلٍ حلَّ عويص المُشكلات، وكشف دقائق المَنقولات والمعقولات، وغاص بُحُور الجَدَل، مُضمِراً الهمَّةَ لِنُصرة الشَّرع في أحواله، إلا أنَّه أخذته عِزَّة العِلمِ على مَنْ هو دونه.

وإذا انتصر للشَّرع وعُورض بدليلٍ، اختطفته نُصرة نفسه، فأفرط وأقام الأدلَّة على خصمه، وشَنَّع عليه، ورُبَّما كَفَّره وطعن فيه، وهَجم عليه هُجوم الحيوان المفترس، مع عدم رعاية الحدِّ المحدود شرعاً في كلِّ حالٍ مِنْ أحواله وأحوال خصمه.

والدَّرجة الرَّابعة: درجة رجلٍ علَّمه الله فنصب نفسه لتنبيه الغافل، وإرشاد الجاهل، وردِّ الشَّارد، ونشر الفوائد والنَّصيحة، وإنكار ما يُنكر شرعاً، وقَبول ما يُقبل شرعاً، بحسن التَّجرد من الغرض.

يرى أنَّ الحسَنَ ما حسَّنَه الشَّرع، والقبيح ما قبَّحه الشَّرع، يأمر بالمعروف أمر حكيمٍ غيرَ غليظٍ ولا فظٍّ، وينهى عن المنكر نهي مُشفقٍ غير ظالمٍ ولا عادٍ.

فصاحب الدَّرجة الأولى: سَيِّئٌ.

وصاحب الدَّرجة الثَّانية: مَحرومٌ.

وصاحب الدَّرجة الثَّالثة: مغرورٌ.

وصاحب الدَّرجة الرَّابعة: عَارفٌ.

وفي كلِّ درجةٍ مِنَ الدَّرجات المذكورات كذلك درجاتٌ تَظهرُ مِنْ حال الرَّجُل.

والمعصوم من عصمه الله». انتهى.

فانظر ما أجمل هذا التفصيل الحسن، فإنَّه إذا فقهت استوفى مراتب الصُّوفية والفقهاء.

وتدبَّر كيف التفت مُخاطباً لِمَنْ أضاع ثمرة العِلم، وطلب عِزَّه، فقال له:

كيف يصح لك عزُّ العلم الَّذي هو بركة العمل التي تُنتج العِلم اللَّدُنِّيِّ، بشاهد قوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ بِما يَعلمُ، وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَم**»[1]، وأنت كسوت علمك ثوب الذُّلِّ والإهانة بترك العمل، والانحراف عن الطَّريق المستقيم، الَّذي به وصل أهل العلم بالله إلى الله؟!.

وهذا عين مضمون البيت المنسوب إلى الإمام الشَّافعي رضي الله عنه، وهو:

ولو أنَّ أهلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُم ... ولو عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمُوا

فتعظيمه في النُّفوس إنَّما هو تعظيم شعائر الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

ومن كان عالِماً بالدُّنيا، جاهلاً بالآخرة، فهو مبغوضٌ عند الله، بدليل قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إنَّ اللهَ تَعَالَى يبغضُ كُلَّ عالِمٍ بالدُّنيا، جَاهلٍ بالآخِرَةِ**»[2].

فالله نسأل، وبرسوله العظيم نتوسل، أن يجعلنا من العالمين العاملين المقبولين عنده المرضيِّين؛ إنَّه أرحم الرَّاحمين.

---

(١) رواه عن أحمد بن حنبل، عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: أبو نُعيم في «حلية الأولياء» ١٠/ ١٥وقال: «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التَّابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فَوَهِم بعض الرُّواة أنَّه ذكره عن النَّبيّ ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقُربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد، عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه».

(٢) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ: الحاكم في «تاريخه» كما عزاه إليه السيوطي في «الجامع» ورمز لحسنه. ورواه عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً بلفظ: «إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ، حِمَارٌ بِالنَّهَارِ، عَالِمٌ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٌ بِالآخِرَةِ»، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب العلم (٤) رقم ٧٢، والبيهقي في «السنن الكبرى»: كتاب الشهادات (٨٢)، رقم ٢٠٥٩٣.

قال الـمؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٨- لا تَظُنَّ أنَّ صِبْغَكَ يَسْتُرُ شَيبَكَ، غَيَّرَهُ وَمَا يَسْتُرُهُ[١].

قد أتى بهذه الحكمة الرَّصينة على وجهٍ استجمع غاية الـحُسن، ونهاية البلاغة؛ لاستعماله الصِّبغ الَّذي لا يكون إلَّا في المحسوس وفي المعقول، فهذا الاستعمال اللطيف مجازٌ بالاستعارة، وإيضاحه أنْ تقول: شبَّه البّطالة والانحراف عن طريق الاستقامة: بالشَّيب، وشبَّه الرِّياء الَّذي يستعمله البَّطال: بالصِّبغ، وشبَّة فِراسة المؤمنين: بالـمُقَل التي تَرى الشَّيب المصبوغ مغيراً بالصِّبغ معلوماً لديهم أنَّه تَحوَّل عن شكله الصَّحيح بعارض الصِّبغ.

وفي هذا السَّبك مِنْ حُسن الإيجاز، ورِقَّة المعنى، ما لا يخفى على صاحب ذوقٍ وعلمٍ، ويؤيد هذا ما ورد: «**إنَّ من أَسَرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَها، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ**»[٢].

وحَسنٌ ما قاله سيِّدنا المؤلِّف ﷺ في كتابه «البرهان»[٣] وكأنَّه نُظِمَ لإيضاح هذا

---

(١) في «المعارف المحمدية» للإمام الصياد صـ٤٩ـ، و«الكليات الأحمدية» للسيد أبي الهدى صـ١٢٤ـ: (سَتَرَهُ).

(٢) رواه عن جندب بن سفيان ﷺ: الطبراني في «الكبير» رقم ١٧٠٢، و«الأوسط» رقم ٧٩٠٦، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٢٢٥: وفيه حامد بن آدم وهو كذاب.

ورواه عن سيدنا عثمان ﷺ: ابن أبي حاتم في «التفسير بالمأثور» ٨٣٤٢ عن الحسن، قال: رَأَيْتُ عُثْمَانَ يَخْطُبُ، يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ السَّرَائِرِ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا عَمِلَ أَحَدٌ عَمَلاً قَطُّ سِرًّا، إِلا أَلْبَسُهُ اللهُ رِدَاءَهُ عَلانِيَةً، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ».

ورواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ: أبو نُعيم في «الحلية» ٥/ ٣٦-٣٧، قال رسول الله ﷺ: «أَسِرُّوا ما شِئْتُم، فَوَ الله مَا أَسَرَّ عَبدٌ وَلا أَمَةٌ سَرَيْرَةً إلا أَلْبَسُهُ اللهُ رِدَاءَهاخَيْرَاً فَخَيْرَاً، وَشَرَّاً فَشَرَّاً...» وقال: غريب مَن حديث زبيد.

(٣) صـ١٢١ـ.

المعنى، وهو:

بَـدَّلتَ بالْحِنَّـا بَيَاضَـكَ أَحْمَـرَا وخُدِعْتَ فيهِ وقُلتَ: شَعرِي أَحْمَرُ

ومِنَ المعلوم أنَّ هذه الحكمة المباركة شيدت دعائم السُّنة من أربع جهاتها:

دعامتها الأولى: أن جاءت بتنبيه الغافل، ونُصح الجاهل.

والثَّانية: ورَّت بالفعل ولم تُصرح باسم أحدٍ.

الثَّالثة: قال لسان حالها الحقَّ، ولم يَخَف في الله لومة لائم.

الرَّابعة: التزام أثر النَّبيِّ ﷺ بهدي الجاهل، وتنبيه الغافل، وإحياء السُّنَّة، وإماتة البدعة.

فرضي الله عن سيِّدنا المؤلِّف؛ فإنَّه كما ناب عن جدِّه ﷺ بإعلاء منار الشَّريعة الغراء، ونَشرِ أعلام المحجة البيضاء، والتَّخَلُّق بأخلاق جدِّه صاحب الخُلُق العظيم، والسَّير بصحة الاتِّباع على طريقه الصِّراط المستقيم، فكذلك مَنَّ الله عليه بلسان أُضمِرَت فيه الوِرَاثة الُمحمَّديَّة، فَجَرتْ عليه ينابيع الحِكمة المستفاضة من صاحب جوامع الكَلِم سيِّد البريَّة، فأنَّى يأتي الزَّمان له بِخَلَفٍ، وقد ثبت بشواهد أفعاله وأحواله عدم وجود مثله بعد الصَّحابة، وأئمَّة الآل الكرام في السَّلف:

حَلَـفَ الزَّمـانُ ليأتيَّـنَّ بِمِثلِـهِ حَنَثَـتْ يَمِينُـكَ يـا زَمَـانُ فَكفِّـرِ

ثم قال رضي الله عنه:

١٩- لَوْ خَطَا الرَّجُلُ مِنْ قَافٍ إلى قَافٍ، كَانَ جُلُوسُهُ أَفْضَلَ، وَلَوْ تَكَلَّمَ عَنِ الذَّاتِ والصِّفاتِ، كانَ سُكُوتُهُ أَفْضَلَ.

أراد بذلك إشغال الواصل بالـمُكْرِم لا بالكرامة، وأشار إلى منع المتكلم عن الخوض بالذَّات والصِّفات، وهذا مذهب العارفين، وأهل الحقِّ المُؤيَّدين، ألَا ترى كيف قال في كتابه «البرهان المؤيد»[1]: «الأولياء يستترون من الكرامة كاستتار المرأة من دم الحيض.

أي أخي، الكرامة عزيزةٌ بالنِّسبة إلى المُكرم، ليست بشيءٍ بالنِّسبة لنا؛ لأنَّ هذا الإكرام لـمَّا ورد من باب الكريم، عَظُمَ وعَزَّ، وتلقَّته القلوب بالإجلال.

ولـمَّا تحوَّل لفظ النِّسبة إلى العبد هان الأمر، واستتر الكامل من هذه النِّسبة الَّتي تحوَّل أمرها من باب قديم إلى باب حديثٍ[2] حادثٍ، خيفةً مِنِ استحسان النِّسبة الثَّانية؛ فإنَّ قَبُولَها سُمٌّ قاتلٌ.

كلُّنا عارٍ إلَّا مَنْ كساه، كلُّنا جائعٌ إلَّا مَنْ أطعمه، كلُّنا ضَالٌّ إلَّا مَنْ هداه، ليس للعاقل إلَّا قرع باب الكريم في الشِّدَّة والرَّخاء.

المخلوقُ: ضعفٌ، عجزٌ، فقرٌ، حاجةٌ، عدمٌ مَحْضٌ.

أكرم الله أحبابه الـمُتَّقين، وأظهر على أيديهم الخوارق، وأيَّدهم بروحٍ مِنْ عنده، ورفع منارهم، فاشتغلوا به تعالى عن كلِّ ذلك.

خافُوا الله، فأسكنهم جنَّة قُربه، وأكرمهم إذ نزلوا به بالنَّظر إلى وجهه الكريم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤١]». انتهى.

---

(١) صـ٣٣- ٣٤ـ.

(٢) في «البرهان»: (من باب قديم إلى باب حادث)، من غير (حديث).

ولينظر كيف أشار بقوله: ولو تكلَّم عن الذَّات والصِّفات، كان سكوته أفضل، إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «**تَفَكَّرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ**»[1] الحديث.

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ فَتَهْلَكُوا**»[2].

ومعلومٌ أنَّ كتب السُّنَّة طافحةٌ بمثل هذه الأخبار النَّبويَّةِ؛ والآثارُ الصَّادقة الزَّكيَّة واضحةٌ لا تحتاج للإيضاح.

---

(١) مر تخريجه صـ٧٨ـ.

(٢) مر تخريجه صـ٧٨ـ.

ثم قال الـمؤلِّف ﷺ:

٢٠- مَنْ تَطَاوَلَ عَلَى الـخَلْقِ، قَصُرَ عِنْدَ الـخَالِقِ؛ مَنْ تَعَالَى عَلَى العِبَادِ، سَقَطَ مِنْ عَيْنِ الْـمَعْبُودِ.

لا يـخفى أنَّ الـحِكمةَ الأولى مأخوذةٌ مِنْ سرِّ قوله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**الظُّلْمُ ثَلاثَةٌ: فَظَلْمٌ لا يَغْفِرُهُ اللهُ، وظُلمٌ يَغْفِرُهُ، وظُلْمٌ لا يَتْرُكُهُ؛ فأمَّا الظُّلْمُ الَّذي لا يَغْفِرُهُ اللهُ: فَالشِّركُ**، قالَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ **وأمَّا الظُّلْمُ الَّذي يَغْفِرُهُ اللهُ: فَظُلْمُ العِبادِ أنفُسَهُم فِيمَا بَيْنَهُم وبَيْنَ رَبِّهِم؛ وأمَّا الظُّلْمُ الَّذي لا يترُكُهُ اللهُ: فظلمُ العبادِ بَعْضَهُم بَعْضَاً حَتَّى يَدينَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ**»[(١)].

ولا يـخفى أنَّ التَّطاول: هو الامتداد والارتفاع، ولا يتمُّ امتداد يده إلى النَّاس، وارتفاعه عليهم إلَّا بالقوَّة القاهرة، وهذا هو الظُّلم بعينه، وفيه الكِبر أيضاً على الـخلق.

والرسولُ الـمعظم ﷺ يقول: «**مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا فِي رَأْسِهِ حَكَمَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ، فَإِذَا تَوَاضَعَ قِيلَ لِلْمَلَكِ: ارْفَعْ حكمَتَهُ، وَإِذَا تَكَبَّرَ قِيلَ لِلْمَلَكِ: ضَعْ حكمَتَهُ**»[(٢)].

---

(١) رواه عن أنس بن مالك ﷺ: أبو داود الطيالسي في «مسنده» رقم ٢١٠٩، صـ٢٨٢ـ، وأبو نعيم في «الحلية» ٦ / ٣٠٩، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٤٨: رواه البزار عن شيخه أحمد ابن مالك القشيري ولم أعرفه، وبقية رجاله قد وثقوا على ضعفهم.

(٢) رواه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: الطبراني في «الكبير» رقم ١٢٩٣٩، ورواه عن أبي هريرة ﷺ: البيهقي في «الشعب» رقم ٨١٤٣، وعزاه السيوطي في «الجامع» للبزار عن أبي هريرة ﷺ ورمز لحسنه، رقم ٧٩٨٤، وقال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٥/ ٦٠٥: ورمز لحسنه – أي: السيوطي – وهو كما قال، فقد قال المنذري والهيثمي: إسنادهما حسن.

والـحَكَمة هنا بفتح الحاء والكاف: شأن المرء وأمره، كما في القاموس[1].

والتَّعالي على العباد: مخالفة أمر الله تعالى في شأنهم، ورعاية حقوقهم، وهذا – والعياذ بالله – من موجبات الطَّرد من باب الله.

ألَا ترى إبليس لَـمَّا تعالى وتكبَّر، وامتنع مِنَ السُّجود لآدم عليه السلام كيفَ قال الله تعالى له مُوَبِّخاً: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص:٧٥]؛ أي: من المخالفين لأمري، كما ذكر ذلك ابن عبَّاسٍ.

والعُلوُّ: العُتوُّ، والتَّكبُّر بالمال، كما قاله ابن عباسٍ – رضيَ اللهُ تَعَالَى عنهما – في تفسير قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ ﴾؛ أي: الجنة ﴿ نَجۡعَلُهَا ﴾؛ أي: نعطيها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا ﴾ عُتُوّاً وتكبُّراً ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

وقد علمت أنَّ تعالي إبليس أسقطه من نظر رحمة الله، وأحلَّه دار البَوار[2]، والغضب المؤبَّد، وكذلك من ينهج منهج إبليس يحصل له من الجزاء والـمَقت الإلهي ما يناسب حال اقتدائه بإبليس.

وقد صرَّح الحُجَّة الإمام الفخر الرَّازي في تفسيره على هذه الآية بما يؤيِّد هذا المعنى، فقال: «أمَّا قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ ﴾ فتعظيمٌ لها، وتفخيمٌ لشأنها، يعني: تلك التي سمعتَ بذكرها، وبلغَك وصفها، ولم يُعَلِّق الوعد بترك العُلوِّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلب إليهما.

---

(١) الحَكَمَةُ محرَّكةً: ما أحاطَ بِحَنَكَي الفَرسِ من لِجامِه وفيها العِذارانِ، و من الإِنسانِ: مُقَدَّمُ وَجْهِه، ورأسُه، وشأنُه، وأمْرُه. «القاموس المحيط» باب الميم، فصل الحاء، وقال ابن الأثير في شرح الحَكَمَةفي هذا الحديث في «النهاية في غريب الأثر» في (حكم): الحَكَمَةُ: حديدة في اللِّجام تكون على أَنْف الفَرَس وَحَنَكِهِ تمنعه عن مخالفة راكبه، ولما كانت الحكَمَةُ تأخذ بِفَم الدَّابة وكان الحَنَكُ مُتَّصلاً بالرأس جَعلَها تمنع مَن هي في رأسه، كما تَمنَع الحَكَمَةُ الدَّابَّة.

(٢) البوار: الهلاك. «لسان العرب» في (بور).

وعن عليٍّ عليه السلام: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ أنْ يكونَ شِراكُ نَعلِهِ أجودَ مِنْ شِراكِ نعلِ صاحِبِهِ فيدخُلَ تَحْتَها**»[1].

قال صاحب «الكشاف»: ومِنَ العلماء من يجعل العُلوَّ: لفرعون؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٤]، والفساد: لقارون؛ لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[القصص:٧٧]، ويقول: مَنْ لَمْ يكن مثل فرعون وقارون فله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، ولا يتدبر قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبَّره عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام». انتهى.

وقول المؤلِّف رضي الله عنه: سقط من عين المعبود، أوضح معناه الفخر أيضاً في تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ...﴾الآية [طه:٣٩] بما نصُّه: «قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، قال القفال[2]: لِتُرى على عيني، أي: على وفق إرادتي، ومجاز هذا أنَّ من صنع لإنسانٍ شيئاً وهو حاضرٌ ينظر إليه، صَنَعَهُ لَه كَمَا يُحِبُّ، ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه، فكذا ها هنا.

وفي كيفية المجاز قولان:

الأول: المراد من العين: العِلم، أي: تُرى على عِلمٍ منِّي، ولَـمَّا كان العَالِـم بالشَّيءِ يَحرسه مِنَ الآفات، كما أنَّ النَّاظر إليه يَحرسه عنِ الآفات، أطلق لفظ العَينِ على العِلم لاشتباههما من هذا الوجه.

---

(١) الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل الرابع والثمانون والمائتان، في إنَّ الدنيا ملعونة، والطبرى في «التفسير» في تفسير سورة القصص آية ٨٣.

(٢) محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي، القفال، أبو بكر (٢٩١-٣٦٥)هـ: من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، من أهل ما وراء النهر، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء، وعنه انتشر مذهب الإمام الشافعي في بلاده، مولده ووفاته في الشاش (وراء نهر سيحون) رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام، من كتبه: «أصول الفقه»، و«محاسن الشريعة»، و«شرح رسالة الشافعي». «الأعلام» للزركلي ٦/ ٢٧٤.

الثاني: المراد من العين: الحراسة؛ وذلك لأنَّ النَّاظر إلى الشَّيء يحرسه عمَّا يؤذيه، فالعين كأنَّها سبب الحراسة، فأطلق اسم السَّببِ على المُسبَّبِ مَجازاً، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

ويقال: عين الله عليك إذا دعا لك بالحفظ والحياطة.

قال القاضي(١): ظاهر القرآن يدلُّ على أنَّ المراد من قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾: الحفظ والحياطة، كقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾[طه:٤٠] فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له». انتهى.

وفي هذه الكفاية.

---

(١) القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب، البصري، ثم البغدادي، المالكي، ابن الباقلاني ت(٣٣٨-٤٠٣)هـ: صاحب التصانيف، والإمام العلامة، أوحد المتكلمين، مقدم الأصوليين، وكان يضرب المثل بفهمه وذكائه، وكان ثقةً إماماً بارعاً، صنف في الرَّدِّ على الرافضة، والمعتزلة، والخوارج، والجهمية، والكرَّامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه؛ فإنَّه من نظرائه، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها، من كتبه: «إعجاز القرآن»، و«الملل والنحل»، و«هداية المرشدين». انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي رقم ١١٠، ١٧/ ١٩٠، و«الأعلام» للزركلي ٦ / ١٧٦.

ثم قال المؤلِّف ﷺ:

٢١- كُلُّ حالٍ تَحَوُّلُهُ فِيهِ، وكُلُّ ظاهرٍ بِهِ مَا يُخْفِيْهِ.

نبَّه سيِّدنا المؤلف ﷺ على عدم الاغترار بالأحوال والمظاهر؛ لأنَّ الأحوال تتحول، والمظاهر تختفي وتنقلب، ولا بقاء في هذه الدَّار الفانية بحالٍ من الأحوال.

وألزم بفتق حجاب الغفلة التي تحجب الهمة بالحال عن محوِّله، وبالمظهر عن مظهره.

وفي معنى الحكمة إشارةً لقول النَّبيِّ ﷺ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ**»[1].

ويعجبني بهذه المناسبة قول القائل:

أَرَى الْمَرءَ دَيْناً للمَنَايَا ومَالَهَا ... مِطَالٌ إذا حَلَّتْ بنفسٍ دُيُونُهَا

فماذا بَقاءُ الفَرعِ مِنْ بَعدِ أَصْلِهِ ... سَتَلقَى الَّذِي لاَقَى الأصولَ غُصونُها

وما أجمل قول سيِّدنا المؤلِّف ﷺ في كتابه «البرهان»[2]: «المصير إلى الله والرُّجوع إليه، وكلٌّ يعود إلى مَعدِنِهِ، ويستوفي أجله، وتعود عليه المسألة، قال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

هذه الحبَّة التي تأكلونها نبتت بِتُرابٍ مثلكم، كان لهم قوَّةٌ وبأسٌ شديدٌ، ذهبوا

---

(١) رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: الإمام أحمد في «مسنده» رقم٤٧٦٤، ٢/ ٢٤، والإمام البخاري في «الصحيح» كتاب الرقاق (٨١) باب قول النَّبيِّ ﷺ كن في الدنيا...(٣) رقم ٦٤١٦، من غير زيادة «وَعُدَّ نَفْسَكَ في أَهْلِ الْقُبُورِ»، والترمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧)، باب ما جاء في قصر الأمل (٢٥) رقم ٢٣٣٣.

(٢) صـ١١٥ـ.

وبانوا، وكأنَّهم ما كانوا :

هــذا تُــرابٌ لــو تَفكَّــرَهُ الفَتَــى ... لَــرَأى عليــهِ مِــنَ الجِبَــاهِ بِسَــاطَا

وكأنَّمـــا ذَرَّاتُـــهُ لـــو مُيِّـــزَتْ ... صِــيْغَتْ لألْسِــنَةِ الأُلَــى أَسْــفَاطَا

نَدُوس ألسُناً وجِباهاً، وخُدوداً وشِفاهاً: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر:٢]». انتهى.

ويطابق المعنى قول المعريِّ[1] من قصيدةٍ:

خَفِّـفِ الـوَطْءَ مـا أظُـنُّ أَدِيـمَ الـ ... أرْضِ إلَّا مِـــنْ هَـــذِهِ الأَجْســـادِ

وقَبِيـــحٌ بِنَـــا وإنْ قَـــدُمَ العَهْـــ ... ـــدُ هَـــوَانُ الآبَـــاءِ والأجْـــدَادِ

إلى أن قال:

رُبَّ لَحْـدٍ قَـدْ صَـار لَحْـداً مِـراراً ... ضَـــاحِكٍ مِـــنْ تَـــزَاحُمِ الأضْـــدادِ

وَدَفِيـــنٍ عَلـــى بَقايَـــا دَفِيـــنٍ ... فِـــي طَويـــلِ الأزْمَـــانِ وَالآبَـــادِ

وحَسنٌ قول الشَّاعر أيضاً:

شَـــمِّرْ عســـىَ أنْ يَنْفَـــعَ التَّشـــميرُ ... وانْظُـــرْ بِفِكْـــرِكَ مَـــا إليـــهِ تَصِـــيرُ

طَولـــتَ آمـــالاً تكلفهـــا الهَـــوَى ... ونَســـيتَ أنَّ العُمـــرَ منـــكَ قصـــيرُ

قــد أفصــحَتْ دُنيــاكَ عــن غــدراتِها ... وأتَــى مَشــيبُكَ والمشــيبُ نــذيرُ

دارٌ لَهـــوتَ بلهوِهـــا مُتمتِّعـــاً ... ترجـــوا المقـــامَ بهـــا وأنـــتَ تســـيرُ

---

(١) أحمد بن عبد الله بن سليها، التنوخي، أبو العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩)هـ: الأديب اللغوي الشَّاعر الفيلسوف، ولد ومات في معرة النعمان، أصيب بالجدري صغيراً فعمي في السَّنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، وهو من بيت علم كبيرٍ في بلده، ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه، أما شعره وهو ديوان حكمته وفلسفته، فثلاثة أقسام: «لزوم ما لا يلزم»، و«سقط الزند»، و«ضوء السقط». انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ١٥٧، و«هدية العارفين» ١/ ٤٠.

فاعلَـــمْ بأنَّـــكَ راحـــلٌ عنهـــا ... **ولـو عمَّـرتَ فيهـا مـا أقـامَ ثَبَيـرُ**[1]

لـيسَ الغِنَـى فـي العـيشِ إلَّا بُلغـةٌ ... **ويَسـيرُ مـا يكفيـكَ منـه كثيـرُ**

لا يَشـغلنَّكَ عاجـلٌ عـن آجـلٍ ... **أبـداً فَمُلتـبسُ الحقيـرِ حقيـرُ**

ولقـد تسـاوى بـينَ أطبـاقِ الثَّـرى ... **فـي الأرض مـأمورٌ بهـا وأميـرُ**

وقال الفقيه شمس الدِّين العقيلي الواسطي[2] رحمه الله: «هذه الدُّنيا تقلب أحوالها بأحوالها، وتُقَدُّ أوصالها بنصالها، جعلها الله دار عبور، وبيت مرور، فَمِلْ بها عن نفسك، ومِلْ بنفسك عنها، وانتصر لله على نفسك وعليها، تَحْسُن في دار القرار أوقاتك، وتَعْظُم عند الله بالخير مجازاتك».

وحسنٌ ما رواه صاحب «أمِّ البراهين» الإمام الفقيه مُحمَّد بن قاسم الواسطي[3] عن بعضهم، قال:

وحـدَّثتكَ اللَّيـالي وهـي فاعِلـةٌ ... **تفريـقَ مـا جمعتْـهُ فاسـمعِ الخَبَـرا**

وكُنْ على حَذرٍ منها فقد نَصَحَتْ ... **وانْظُـرْ إليهـا تَـرَى الآيـاتِ والعِبَـرا**

فهلْ رأيتَ جديداً لـم يَعُدْ خَلِقاً؟ ... **وهلْ سمعتَ بصفوٍ لم يَعُدْ كَدِرا؟**

---

(١) ثَبِيرٌ: جَبَلٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَمِنىً. «مصباح المنير» مادة: (ثبير).

(٢) قد يكون والله أعلم شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العقيلي البهنسي الشافعي القادري كان حياً سنة (٩٩٣)هـ: فاضل من آثاره: «المفتاح لبعض أسرار الكريم الفتاح في علمي الخواص والحروف». انظر: «معجم المؤلفين» ١٠/ ١٤٣.

(٣) هكذا ورد اسمه في المطبوع، لكنَّ الصواب والله أعلم، كما ذكره السيد أبو الهدى الصيادي رضي الله عنه في أكثر من كتاب من مؤلفاته أنه قاسم بن محمد بن الحجاج بن علي بن أبي بكر بن أبي الفضل الواسطي الشافعي، صاحب كتاب «أم البراهين» في ترجمة الإمام الرفاعي ألف كتابه سنة ثمان وسبعين وستمائة. انظر: «ترياق المحبين» لأبي الفرج الواسطي صـ١٥ـ، «جلاء الصدى» لابن جلال صـ١٦ـ، و«تنوير الأبصار» للسيد أبي الهدى صـ ٥ ـ.

أينَ الملوكُ ومَنْ سَاسُوا الأمورَ ومَنْ ... ذلَّ الجموعُ لهم واستعبَدُوا البَشَرا

طغَى عليهم زمانٌ كان ينصرُهم ... فلم يدَعْ لهم عَيناً ولا أَثَرا

ويناسب معنى هذه الحكمة وجهٌ آخر، وهو قول الإمام أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ:

دَوَاؤُكَ منكَ وما تُبصِرُ ... وداؤُكَ فيكَ وما تشعرُ

وتَزْعُمُ أنَّكَ جِرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوى العالَمُ الأكْبَرُ

وقد فسر سيِّدنا المؤلِّف ﷺ في كتابه «البرهان»[1] العالم الأكبر الَّذي عناه أمير المؤمنين بهذين البيتين: بالعقل، فقال: «العَالَم الأكبر: العقل، وقد انطوى بك، ومن العَالَم المطويِّ فيك يظهر لك جِرمُك الَّذي استصغرته، إذ لولا وصول جِرمِك إلى الغاية التي تُحيط بذلك العالَم الأكبر، وتليق له، لَمَا صار مَحلّاً للعالم المذكور، فَخُذْ بالهمَّةِ العَليَّة على مقدار ما بلغه جِرْمُ هيكلك...».

وقد صرَّح في هذا الباب بترفُّع العقل عن منزلة الحجاب عن الله بالقوَّة، والجمال، والمال والأهل، والعشيرة، والمنصب، والرِّئاسة، تحقُّقاً بمعنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾[القصص:٨٨]، وهو ﷻ مُحوِّل والأحوال.

ويعجبني قول الإمام السيِّد سراج الدِّين الرِّفاعيِّ المخزوميِّ قُدِّسَ سِرُّهُ في معنى هذه الحكمة:

أنتَ فيما أهملتَه لكَ داءُ ... وإذا ما اجتهدتَ أنتَ الدَّواءُ

كلُّ حالٍ فيه التَّحوُّل منه ... وتَناهِي هذا الظُّهورِ الخفاءُ

وفي هذه الحكمة المباركة وجهٌ آخر، وهو أنَّ كلَّ بارزٍ ظاهرٍ به حالة ظهوره ما أخفاه عن النَّاس، كقول الشَّاعر:

---

(١) صـ٥٥ـ.

ومَهْمَا تَكُنْ عندَ امرءٍ مِنْ خَليقَةٍ وإنْ خَالَها تَخفَى على النَّاسِ تُعْلَمِ

وهذا المعنى مأخوذٌ من قوله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلا كُوَّةٌ يَخرُجُ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَائِناً مَا كَانَ**»[1].

وهذا أحسن الوجوه فليدرك.

(١) رواه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: الإمام أحمد في «مسنده» رقم ١١٢٤٦، ٣/ ٢٨، وأبو يعلى في «مسنده» رقم ١٣٧٨، ٢/ ٥٢١، وابن حبان في «صحيحه» كتاب الحظر والإباحة (٤٤) باب التواضع والكبر والعجب (٦) رقم ٥٦٧٨، والحاكم في «المستدرك» كتاب الرقاق (٤٤) رقم ٧٨٨٧٧، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٧٤٠٢، وقال الحافظ المناوي في «الفيض» ٥/ ٣٨٩: قال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي: إسناد أحمد وأبو يعلى حسن.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف ﷺ:

٢٢- مَنِ ادَّرَعَ بِدِرْعِ الصَّبْرِ، سَلِمَ مِنْ سِهَامِ العَجَلَةِ.

ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

وقال سيد الـمخلوقين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين: «**الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ**»(١).

وقال ﷺ: «**الصَّبرُ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ**»(٢).

وفي الحديث أيضاً: «**انْتِظَارُ الْفَرَجِ بِالصَّبرِ عِبَادَةٌ**»(٣).

وأمَّا حكمة التَّأنِّي في الأمور فإنَّها كما صرحت بها السُّنَّة السَّنيَّة، أطبق عليها أصحاب العقول في البريَّة.

---

(١) رواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعاً: البيهقي في «الشعب» رقم ٩٧١٦، وقال: والمحفوظ عن ابن مسعود ﷺ من قوله غير مرفوع، وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣٤؛ ورواه عنه موقوفاً: الحاكم في «المستدرك»: كتاب التفسير (٢٧) رقم ٣٦٦٦ ، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، والطبراني في «الكبير» رقم ٨٥٤٤ ، وقال المنذري في «الترغيب» ٤/ ١٤٠: رواه الطبراني في «الكبير»، ورواته رواة الصحيح، وهو موقوفٌ، وقد رفعه بعضهم.

(٢) رواه عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعاً: الديلمي في «الفردوس» رقم٣٨٤٠، ورواه عن سيدنا علي ﷺ موقوفاً: البيهقي في «الشعب» رقم٤٠، وابن أبي شيبة في «المصنف» كتاب الإيمان والرؤيا، باب (٦) رقم ٣٠٤٣٩، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٥١٣٦.

(٣) رواه عن ابن عمر وابن عباس ﷺ: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ٤٦، ٤٧، ورواه عن سيدنا علي ﷺ: البيهقي في «الشعب» رقم ١٠٠٠٣، و عن أنس ﷺ: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١٢٨٣، والديلمي في «الفردوس» رقم ١٤٢٦، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٢٧١٨.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الْمُؤَلِّف ﷺ :

٢٣- الرَّجُلُ الْـمُتَمَكِّنُ إذا نُصِبَ لهُ سِنَانٌ(١) عَلَى أَعْلى جَبَلٍ شَاهِقٍ فِي الأَرَضِ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ اللَّيَالِي الثَّمانِ مَا غَيَّرَتْ مِنْهُ شَعْرَةً وَاحِدَةً.

قلت: وهذا هو الإيمان الصَّحيح، والاعتقاد المتين الرَّجيح، والتَّحقق بمقام الرِّضا من الله، مع صدق الاعتماد عليه والتَّسليم له ﷻ، عملاً بقول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «**يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ، اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، و إِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(٢).

وحسن هنا قول الإمام الشَّيخ سراج الدِّين الرِّفاعيّ قُدِّسَ سِرُّهُ:

رفعتُ لهُ بإيمانٍ أُموري ... وحسبي أنْ يُؤيِّدَها الخبيرُ

ولستُ بسائلٍ بعدَ اتِّكالي ... أسارَ الرَّكبُ أم نزلَ الأميرُ

وأحسن منه قول الإمام الحسين السِّبط ﷺ: «**مَنِ اعْتَمَدَ عَلَى حُسْنِ اِخْتِيَارِ اللهِ تَعَالَى لَهُ لَـمْ يَتَمَنَّ غَيْرَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ ﷻ**»(٣).

---

(١) سنان: الرمح وجمعه أَسِنَّةٌ. «مختار الصحاح» مادة: (سنن).

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: التِّرمذي في «الجامع»، كتاب صفة القيامة... (٣٨)، باب (٥٩) رقم ٢٥١٦، وقال حسنٌ صحيحٌ، والإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٦٦٩، ١/ ٢٣٩.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٣/ ٢٥٣.

ثم قال الـمُؤَلِّفُ ﷺ:

٢٤- الكَاذِبُ يَقِفُ مَعَ الْـمُبْدَعَاتِ، والعَاقِلُ غَايَتُهُ وَرَاءَهَا؛ مَنْ كَمُلَ أَنِفَتْ نَفْسُهُ عَنْ[1] كُلِّ شَيءٍ غَيْرَ رَبِّهِ.

الوقوف مع المبدعات اشتغالٌ عن المبدع، وهو دأب أصحاب الدَّعوى الكاذبة، والعاقلون لا يشتغلون بالمبدعات عن المبدع، ولذلك تأنف أنفسهم لكمالها عن أن تشتغلَ بشيءٍ من الأغيار، وهذا علوُّ الهمَّة الَّذي جاء فيه خبر: «**عُلُوُّ الْـهِمَّةِ مِنْ الإِيمَانِ**»[2].

وقد أوضح هذا سيِّدنا المؤلِّف في كتابه «البرهان»[3] فقال: «رمى بعض المريدين رَكْوَته في بعض الآبار ليستقي الماء، فخرجت مملوءةً بالذَّهب، فرمى بها في البئر، وقال: يا عزيزي، وحَقِّكَ لا أريد غيرَك».

وحسن في هذا المقام قول مولانا السيِّد سراج الدِّين قُدِّسَ سِرُّهُ:

قالوا تمسَّكْ بغيرِ اللهِ قلتُ لهم:	**ما الغيرُ إلا هباءً قامَ بالعَرَضِ**
لكُلِّ شيءٍ إذا فَارقتَهُ عِوَضٌ	**وليسَ للهِ إنْ فارقتَ من عِوضِ**

(١) في «المعارف المحمدية» صـ٥٠ـ (من).

(٢) لم أجده.

(٣) صـ٥٢ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف ﵁:

٢٥- الـخَلْقُ كُلُّهُم لَا يَضُرُّونَ وَلَا يَنْفَعُوْنَ، حُجُبٌ نَصَبَهَا لِعِبَادِهِ، فَمَنْ رفَعَ تِلْكَ الـحُجُبَ وَصَلَ إِلَيْهِ.

٢٦- الِاطْمِئْنَانُ بِغَيرِهِ تَعَالَى خَوْفٌ، والـخَوْفُ مِنْهُ اِطْمِئْنَانٌ مِنْ غَيْرِهِ.

قد تَبَيَّن مِنْ حديث ابن عبّاسٍ[1] ﵁، وغيره من الأحاديث الجليلة النَّبويَّةِ، والآيات الـمُعظَّمة القرآنيَّة، وثبتَ بالأدلَّةِ الـجليلة العقليَّةِ:

أنَّ الخلقَ لا يضرُّون ولا ينفعون، وإنَّما هم كما ذكرَ سيِّدنا المؤلِّف ﵁: حجبٌ قامت بيدِ القُدرة لا بنفسها، تَوَهَّمَ منها المحجوب بها حصول التأثير في النَّفع والضرِّ، فمن أسقطَ تأثير الأشياء والأسباب، وهاجر بصدق العزيمة إلى المؤثر الـمُسَبِّب وصلَ إليه.

وانظر ما أحسن ما أتى به سيِّدنا المؤلِّف ﵁ بعد قوله: فَمَن رفع تلك الـحُجب وصل إليه، فقال: الاطمئنان بغيره تعالى خوف، والخوف منه اطمئنان من غيره، فإنَّ في هذه الكلمة من تثبيت قلب السَّالك ما يكفي عن الإطالة لاستجماعه أوجز المعاني، وأجزل الحقائق؛ لأنَّ السَّالك لَـمَّا رفع حجب الآثار والأسباب بيد الهمَّة، وأسقط تأثير الضرِّ والنَّفع منها، احتاج إلى شيءٍ تطمئنُ به نفسه، ويسكن إليه رَوْعُه، فعرَّفه سيِّدنا المؤلِّف أنَّ الاطمئنان بغيره تعالى خوفٌ؛ لأنَّ من حصل له الله، حصل له كلُّ شيءٍ، ومن فاته الله فاته كلُّ شيءٍ، وأوضح له أيضاً أنَّ الخوف من الله تعالى اطمئنانٌ من غيره، بشاهد قول رسول الله ﷺ: «**مَنِ اتَّقَى اللهَ أَهَابَ اللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَـمْ يَتَّقِ اللهَ أَهَابَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**»[2].

---

(١) مر تخريجه صـ١٥٨ـ.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل الرابع والعشرون والمائة في ضغطة القبر وعذابه رقم (٨٣٨)، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» بعد أن عزاه للحكيم عن واثلة بن الأسقع =

وقال ﷺ: «**مَنِ اتَّقَى اللهَ عَاشَ قَوِّياً، وسَارَ فِي بِلاَدِ اللهِ آمِناً**»[1].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

وقد جمع سيِّدنا أبو الدَّرداء[2] رضي الله عنه أسرار هذه الحكمة المباركة ببيتين كأنَّما نُظِما شرحاً لمضمونها وهما:

يريـــدُ العبـــدُ أَنْ يُعطَـــى مُنَـــاهُ ... ويَـــــأْبَى اللهُ إلَّا مَـــــا أرادَا

يقـــولُ المـــرءُ فائِـــدَتِي ومَـــالِي ... وتَقْـــوَى اللهِ أفضـــلُ مـــا اســـتفادَا

=
رضي الله عنه رقم ٨٢٩٩.

(١) رواه عن سيدنا علي رضي الله عنه: أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٧٥، والديلمي في «الفردوس» ٥٧٦٣، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٨٢٩٨.

(٢) هو عويمر أبو الدرداء رضي الله عنه مشهور بكنيته وباسمه جميعاً، واختلف في اسمه فقيل هو عامر وعويمر لقب، واختلف في اسم أبيه فقيل: عامر أو مالك أو ثعلبة أو عبد الله أو زيد وأبوه ابن قيس بن أمية بن عامر بن عدي بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، أسلم يوم بدر وشهد أحدًا وأبلى فيها، توفي رضي الله عنه سنة (٣٢) في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر رقم ٦١١٧، ٤/ ١٠٧- ١٠٨.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٢٧- تَحْتَ كُلِّ حَالَةٍ حَالٌ رَبَّانِيٌّ، لَوْ عَرَفْتَهُ لَعَلِمْتَ أَنَّكَ تَسْكُنُ بِهِ وَتَسْعَى بِهِ وَأَنْتَ مُسَخَّرٌ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ»[1].

أراد المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ إعلام العبد أنَّ تحت كلِّ حالةٍ من حالاته شأناً ربَّانياً يسكن به العبد، ويسعى به حالة كونه في مقام الانقهار لذلك الشَّأن عن غير علمٍ منه به.

ولذلك قال المؤلِّف ﷺ: لو عرفته أي: عرفت ذلك الشَّأن الربَّانيِّ، لعلِمتَ العلم اليقين أنَّ ربَّك هو الـمُسكن الـمُحرِّك، وأنت مسخَّرٌ، ودليل ذلك الخبر الشَّريف وهو: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ**».

وانظر كيف أمر الله تعالى رسوله ﷺ بسؤال الكفار عن الكالئ لهم، فقال تعالى له: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الأنبياء:٤٢] إعلاماً للجاهل، وتنبيهاً للغافل؛ لأنَّ الكالئ: الحارس، الضَّار النَّافع، والأغيار كبارهم وصغارهم على اختلاف طبقاتهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، كما صحَّ ذلك بنصِّ القرآن.

قلت: وقد قال الفخر الرَّازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]: «احتج جمهور الأصحاب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ على أنَّ فعل العبد مخلوق لله تعالى».

وأطال الفخر الرازي في ذلك، والَّذي اختاره أمير المؤمنين عليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى

---

(١) رواه عن سيدنا علي ﷺ: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب التفسير (٦٥)، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (٧) رقم ٤٩٤٩، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب القدر (٤٦) باب كيفية الخلق الآدمي ...(١) رقم ٢٦٤٧، ولفظهما: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ »، وابن ماجه في «السنن»: المقدمة باب في القدر (١٠) رقم ٧٨ ولفظه: «اعْمَلُوا وَلاَ تَتَّكِلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ».

عَنهُ: أنَّ الله ﷻ خلق العبد وأعماله، وجعل من أعماله أفعالاً ناتجة بالاختيار، وأفعالاً ناتجة بالاضطرار:

- فما كان منها بالاختيار، فهو الفعل الحاصل بالإرادة الجزئيَّة التي وهبها الله تعالى لعبده، كالقيام والقعود، والذَّهاب إلى المسجد والسُّوق، وغير ذلك، واشتغال اللِّسان بالذِّكر أو بضدِّه من الكلام التي تترتب المؤاخذة الشَّرعية عليه، فمثل ذلك كلِّه يُسئل عنه، ويُجازى العبد به خيراً كان أو شراً.

- وأما الأفعال الاضطراريَّة، كالنَّوم، واليقظة، والمرض، والموت، وغير ذلك من مجاري الأقدار السَّماوية التي لا صنيع للعبد بها، فالعبد غير مسؤولٍ عنها، مثابٌ على ما يصاب به منها.

فتدبَّر هذه المعاني الكريمة ترشد، والله يتولَّى هدانا وهداك.

ثم قال الـمؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٢٨- الصُّوْفِيُّ مَنْ صَفَا، فَلَمْ يرَ لِنَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ مَزِيَّةً.

التَّصوف: التزام الآداب الظاهرة؛ لأنَّها تدلُّ على الآداب الباطنة، وحضور القلب، وعدم الغفلة.

وقالوا: التصوف: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً، فإنَّ من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه.

وقالوا: التصوف: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالذل والانكسار، وترك التعرض والاختيار، وصحة البذل والإيثار.

وقال سيِّدنا المؤلِّف ﵁ في كتابه «البرهان»[1]: «التَّصوُّف: الإعراض عن غير الله، وعَدَمُ شُغلِ الفكر بذات الله، والتَّوكُّلُ على الله، وإلقاء زمام الحال في باب التَّفويض، وانتظار فتح باب الكرم، والاعتماد على فضل الله، والخوف من الله في كلِّ الأوقات، وحسن الظَّنِّ به في جميع الحالات».

وقال ﵁ في محلٍّ آخر من الكتاب المذكور[2]: «أي سادة، الفقير على الطَّريق ما دام على السُّنَّة، ومتى حاد عنها زلَّ عن الطَّريق.

[سبب تسمية هذه الطَّائفة بالصُّوفيَّة]

قيل لهذه الطَّائفة: الصُّوفيَّة، واختلف النَّاس في سبب التَّسمية؛ وسببها غريبٌ لا يعرفه الكثير من الفقراء، وهو أنَّ جماعةً من مضر يقال لهم بنو الصُّوفة، وهو الغوث بن مُرٍّ بن أُدٍّ بن طابِخَة الرَّبيط، كانت أُمُّهُ لا يعيش لها ولدٌ، فنذرت إن عاش لها ولدٌ لتربطنَّ برأسه صُوفةً، وتجعله ربيط الكعبة.

وقد كانوا يُجِيزون الحاجَّ، إلى أنْ منَّ الله بظهور الإسلام فأسلموا وكانوا عُبَّاداً ،

(١) صـ١٣٠ـ.

(٢) صـ٢٧-٢٨ـ.

ونُقِل عن بعضهم حديث رسول الله ﷺ.

فَمَنْ صحبهم سُمِّيَ بالصُّوفيِّ، وكذلك مَنْ صحب من صحبهم، أو تعبَّد ولبس الصُّوف مثلهم ينسبونه إليهم، فيقال: صُوفِيٌّ.

[معنى التَّصوُّف]

ونَوَّع الفقراء الأسباب، فمنهم من قال: التَّصوُّف الصَّفاء.

ومنهم من قال: المُصافاة، وغيرَ ذلك.

وكلُّه صحيحٌ من حيثُ معناه؛ لأنَّ أهل هذه الخرقة التزموا الصَّفاء والمصافاة، وعملوا بالآداب الظَّاهرة، وقالوا: إنَّها تدلُّ على الآداب الباطنة.

وقالوا: حُسنُ أدب الظَّاهر، عنوان أدب الباطن.

وقالوا: مَنْ لم يعرف أدب الظَّاهر، لا يُؤتَمَن على أدب الباطن.

كلُّ الآداب منحصرةٌ في متابعة النَّبيِّ ﷺ قولاً وفعلاً، وحالاً وخلقاً.

فالصُّوفيُّ: آدابه تدلُّ على مقامه، زِنُوا أقواله وأفعاله، وأحواله وأخلاقه بميزان الشَّرع، يُعلم لديكم ثِقَلُ ميزانه وخِفَّته.

خلق النَّبيِّ ﷺ القرآنُ، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

من التزم الآداب الظَّاهرة دخل في جنسية القوم، وحُسب في عدادهم.

ومَنْ لم يلتزم الآداب الظَّاهرة فهو فيهم غيرٌ، لا يَلتَبِس حاله عليهم؛ لأنَّ استعمال الآداب دليل الجِنسيَّة؛ بل تكون عِلَّة الضَّم.

قال رُوَيْمٌ(١): التَّصوُّف كلُّه أدبٌ.

وهذا الأدب الَّذي أشارت إليه الطَّائفة، أدب الشَّرع، كن متشرِّعاً، ودعْ

(١)هو الشيخ رُوَيمْ بن أحمد البغدادي الدار والوفاة، القاضي أبو محمد، من جِلَّة المشايخ، مقرئ، فقيه، كبير الشأن، كان من أعزِّ أصحاب الجنيد، وصحب أصحابه، مات ببغداد سنة (٣٠٣)هـ. انظر: «طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٣٩ ـ، و«إرشاد المسلمين» صـ٢٠ـ.

حاسدك يكذب عليك، وينسب ما يُحبُّ إليك.

ولســـتُ أُبـــالي فـــي زَمـــانِي[1] بِريبـــةٍ إذا كنـــتُ عنـــدَ اللهِ غيـــرَ مُريـــبِ

إذا كـــانَ ســـرِّي عنـــدَ ربِّـــي مُنَزَّهـــاً فَمَـــا ضَـــرَّني واشٍ أتَـــى بِغَريـــبِ»

انتهى.

وذكر صاحب «أم البراهين»[2]أنَّ سيِّدنا المؤلِّف ﷺ كان يقول:

ليـــسَ التَّصَـــوُّفُ بـــالخِرَق مَـــن قـــالَ هـــذا مـــا صَـــدَقْ

إنَّ التَّصـــوفَ يـــا فتـــى حـــرقٌ يُمازِجُهـــا قَلَـــقْ

وقد شطرتها تشبُّثاً بأذياله قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ فقلت:

ليـــسَ التَّصَـــوُّفُ بالخِـــرَق أو بالتَّوهُّـــمِ والعَلَـــقْ

أو بالتَّعَـــالي والجَفـــا مَـــن قـــالَ هـــذا مـــا صَـــدَقْ

إنَّ التَّصـــوُّفَ يـــا فتـــى ســـرٌّ علـــى القلـــب انتســـقْ

ويَئِـــجُّ مِـــنْ مكنونِـــهِ حـــرقٌ يُمازجُهـــا قلـــقْ

وأنشد بعضهم[3]:

تنـازعَ النَّـاسُ فـي الصُّـوفيِّ واختلفـوا فيـه وظنُّـوه مُشـتَقّاً مِـنَ الصُّـوفِ

ولسـتُ أمنحُ هـذا الاسـمَ غيـرَ فتـىً صافي وصوفي حتَّى سُمِّيَ الصُّوفيِّ

فإذا أدركتَ ما اندرج فيما قدمناه لك من معنى التَّصوُّف، ومِنْ وصف الصُّوفيِّ، تيقَّنت أنَّ مَنْ كانت هذه نسبته، وهذه صفته لا يَرى لنفسه على غيره مزيَّةً.

---

(١) في «البرهان»: ولست أبالي من رماني بريبة...

(٢) هو قاسم بن محمد بن الحجاج بن علي بن أبي بكر بن أبي الفضل الواسطي الشافعي، صاحب كتاب «أم البراهين» في ترجمة الإمام الرفاعي. انظر: «ترياق المحبين» لأبي الفرج الواسطي صـ١٥ـ، و«جلاء الصدى» لابن جلال صـ١٦ـ.

(٣) هما للشيخ علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز أبي الفَتح البُسْتي (٤٠٠)هـ: شاعر عصره وكاتبه، ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته. «الأعلام» ٤/ ٣٢٦.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رضي الله عنه:

٢٩- كُلُّ الأَغْيَارِ حُجُبٌ قاطِعَةٌ، فَمَنْ تَخَلَّصَ مِنْهَا وَصَلَ.

أراد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بـ**الأغيار**: غير الله سبحانه وتعالى، وعدَّها حُجباً قاطعة، أي: أسباباً مانعةً عن القرب من باب الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: **فَمَن تَخَلَّص منها**، أي: فَمَن أعرض عنها، وطرحها عن قلبه، وأقبل على الله بكلِّيَّته، **وصلَ**، أي: إلى الله، وصار من أوليائه الَّذين لا تشتغل قلوبهم بغينٍ طرفة عينٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

ويؤيد قول المؤلِّف رضي الله عنه حديث: «**مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِيْنَ صَبَاحَاً، ظَهَرَتْ يَنَابِيْعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ**»[١].

(١) رواه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أبو نعيم في «الحلية» ٥/ ١٨٩، والديلمي في «الفردوس» رقم ٥٧٦٧، ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ٤٦٦، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٨٣٦١.

ثم قال المؤلِّف ﵁:

٣٠- الوَقْتُ سَيفٌ يَقْطَعُ مَنْ قطَعَهُ.

شبَّه الوقت بالسَّيف؛ لشدَّة قطعه.

والوقت مروره أسرع من قطع السَّيف فيمن قطع عزمه عن اغتنام بركة الوقت؛ فإنَّ للأوقات هوابطٌ وتجلياتٌ، لا ينتفع بها إلَّا اليَقِظ المنتبه الَّذي لا يُضيِّع وقته.

وفي هذه الحكمة المباركة حثٌّ على اغتنام بركة أهل الوقت، فقد قال الجنيد ﵁: من حُرِمَ بركةُ أهل الوقت، فوقته كلُّه مقت.

وقد عدَّ الشارع ﷺ حسن الظنِّ من العبادة، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ العِبَادَةِ**»[1].

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﵁: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٧٩٤٣، ٢/ ٢٩٧، وأبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦)، باب في حسن الظن (٨٩) رقم٤٩٩٣، وابن حبان في «الصحيح»: كتاب الرقائق (٧) باب حسن الظن بالله تعالى (٣) رقم٦٣١، والحاكم في «المستدرك»: كتاب التوبة والإنابة (٤٠) رقم ٧٦٠٤، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٣٧٢٢.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رضي الله عنه:

٣١- عَلامَةُ العَاقِلِ: الصَّبرُ عِنْدَ الْـمِحْنَةِ، والتَّواضُعُ عِنْدَ السَّعَةِ، والأَخْذُ بالأَحْوَطِ، وَطَلَبُ البَاقِي سُبْحَانَهُ [وَتَعَالَى](١).

فانظر كيف جمع أحسن الشِّيَم وأكرمها، وجعلها علامةً للعاقل، وابتدأ بالصَّبر، تَشَبُّثاً بأذيال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فإنَّه قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**الصَّبْرُ رِضَا الـحَكِيْمِ**»(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: «**الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى**»(٣).

قال أئمَّة الحديث رضي الله عنهم: أراد بالصَّدمة الأولى: ثورة المصيبة وشِدَّتها، والصَّدم: ضرب الشَّيء الصُّلب بمثله، والصَّدمة: المرَّة منه.

وقالوا: أراد بالصَّبر: الورع؛ لأنَّ العبادة قسمان: نُسكٌ، وورعٌ، فالنُّسك: ما أمرت به الشَّريعة، والورع: ما نهت عنه؛ وإنَّما ينتهى عنه بالصبر فكان: «**الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيْمَانِ**»(٤) كما جاء في حديثٍ آخر.

وكان الصَّبر أيضاً رضا الحكيم الَّذي ألهمه الله رشده، وآتاه من لدنه فهماً وعلماً، وأقامه مظهراً لقوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾[البقرة:٢٦٩].

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالصَّبر في عِدَّة آيَات، فقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ

---

(١) هذه الزيادة في «المعارف» صـ٥٠ـ، و«الكليات» صـ١٢٥ـ.

(٢) رواه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: الحكيم التِّرمذي في «نوادر الأصول» في الأصل الثالث والثمانون والمائة في أجر الصبر الجميل عند المصيبة رقم ١١١٨، والديلمي في «الفردوس» رقم ٣٨٤٣، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢٥/٢٤٧، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٥١٣١ رووه بلفظ: «الصَّبْرُ رِضَا» من غير «الحَكِيم».

(٣) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب الجنائز (٢٣) باب الصبر عند الصدمة الأولى (٤٢) رقم ١٣٠٢، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الجنائز (١٥) باب في الصبر على المصيبة... (٨) رقم ٩٢٦.

(٤) مر تخريجه صـ١٥٧ـ.

رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل:١٢٧].

وقد وعد الله الصَّابرين بالنَّجاح، وحسن العاقبة، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآية [البقرة:١٥٥].

ووعدهم أيضاً بمعونة معيَّتِهِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

ووعدهم بحسن الصَّبر مع الأجر على الصَّبر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر:١٠].

وشهد القرآن بحزم الصَّابر التَّقي، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

ثم أتى المؤلِّف ﷺ بقوله: والتَّواضع عند السَّعة، فقد جعل التَّواضع عند السَّعة علامةً للعاقل؛ لأنَّ العاقل إذا اتسع به أمر المال والجاه، والعزَّة والشُّهرة، وغلب بعقله على كلِّ ذلك، وتواضع للخلق، وتذلَّل للحقِّ؛ فإنَّ ذلك لا يزيده إلَّا رفعةً وعزَّاً.

وإذا علَّمه الطَّيش، ولَـمَّ به الغرور، وتكبَّر على الخلق، ونسي الحقَّ، فقد شهد على نفسه بِخِفَّة العقل، ولا يتمُّ شأنه أبداً.

ولَـمَّا كان الغرور والكِبر على الغالب لا يتشعَّب في النَّفس إلا في أيَّام السَّعة، عدَّ المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ التَّواضع عند السَّعة من علامات العاقل الَّذي يريد دوام نعمتِه.

ويؤيِّد ذلك قول الرَّسول العظيم عليه أفضلُ الصَّلاةِ والتَّسليمِ: «**التَّوَاضُعُ لا يَزِيْدُ العَبْدَ إلَّا رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا يرفَعْكُمُ اللهُ تَعَالَى...**» الحديث[1].

---

(١) قال الإمام العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» في تخريج ما في الإحياء من الأخبار صـ٢٢٩ـ في فضيلة العفو والإحسان: أخرجه الأصفهاني في «الترغيب والترهيب»، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ﷺ بسندٍ ضعيفٍ.

وعزاه السَّيوطي في «الجامع» لابن أبي الدنيا في ذم الغضب ورمز لضعفه رقم ٣٤١١.

تنبيه:

الوقار لا يُعدُّ من الكِبر، إنَّما هو أدبٌ يحفظ به الرَّجل حرمته أن ينتهكها الجهال، وقد يكون ذلك في الرَّجل العالم العاقل الورع الغنيِّ، وفي الرَّجل العالم العاقل الَّذي لا مال له، ولا ثوب.

وقد يُظهر الوَقور شرف الوقار تُجاه الأحمق الَّذي لا يُدرك شرف الذَّات، كما وقع للإمام الشَّافعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ حين احتقره بعض الجهال لثوبٍ خَلِقٍ كان عليه، فأنشد:

لَئِنْ كَانَ ثَوْبِي فَوْقَ قِيمَتِهِ الْفَلْسُ ... فَلِي فِيهِ نَفْسٌ دُونَ قِيمَتِهَا الإِنْسُ

وثَوْبُك شمسٌ تَحْتَ أَنْوَارِهِ الدُّجى ... وَثَوْبِي لَيْلٌ تَحْتَ ظُلمَتِهِ الشَّمْسُ

وحَسُنَ في هذا الباب قول الشَّاعر[1]:

إذا المَرْءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عِرضُهُ ... فكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

ولنرجع للمقصود، فنقول: قال يحيى بن معاذ[2] ﵁: التَّواضع في كلِّ أحدٍ حسنٌ، لكنَّه في الأغنياء أحسن، والكِبر سَمِجٌ، لكنَّه في الفقراء أسمج.

قالت الحكماء: ما تكبَّر أحدٌ إلا مِن زلَّةٍ يجدها في نفسه.

وقالوا: الشَّرف في التَّواضع.

وقالوا: التَّواضع نعمةٌ لا يُحسد عليها، والتَّكبُّر مِحنةٌ لا يُرحم عليها، والعِزُّ في التَّواضع، فَمَن طلبه في الكِبر لا يجده.

ثمَّ أتبع المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ علامة التَّواضع بقوله: والأخذ بالأحوط، وطلب الباقي سبحانه، أراد بقوله: الأخذ بالأحوط استعمال الحكمة في الأعمال أخذاً بقول رسول الله ﷺ: «**الحِكْمَةُ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَتَرْفَعُ الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ**

---

(١) هو للسموأل بن غريض بن عادياء الأزدي شاعر جاهلي حكيم. «الزركلي» ٣/ ١٤٠.

(٢) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا تـ(٢٥٨)هـ: واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته، من أهل الري، أقام ببلخ، ومات في نيسابور. «الأعلام» للزركلي ٨/ ١٧٢.

حَتَّى تُجْلِسَهُ مَجَالِسَ الْـمُلُوكِ»[1].

وقيَّد استعمال الحِكمة بطلب الباقي سبحانه، أَلَا ترى قول النَّبيِّ ﷺ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْـمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ إِلى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلقَى فِي النَّارِ**»[2].

فإذا أمعنت النَّظر في هذه الحكمة الأحمديَّة الجليلة رأيت أنَّ سيِّدَنا الغوث المؤلِّف ﷺ أوضح شأن العقل، وأنار برهانه، وأتى بما لم يأت به غيره من أعاظم الأفراد المتمكِّنين، وأجِلَّاء صدور الأقطاب المقربين، وما أحراه وأليقه بما قاله فيه سيِّدنا الشَّيخ أبو بكر بن يحيى الواسطي[3] بمحضرٍ منه رضي الله عنهما وهو قوله:

يا واحدَ الخلقِ بالأفْعالِ والكَرَمِ ... وأوجَزَ النَّاسِ بالتِّبيانِ والحِكَمِ

يا مَنْ أيَاديهِ لا تُحصى مواهِبُها ... يا أحمدَ النَّاسِ مِنْ عُربٍ ومِنْ عَجمِ

يا مَنْ إذا قالَ قولاً أو حمى حرماً ... وَفَّى بِميثاقِهِ و العهدِ والذِّممِ

أنت الَّذي عطَّرَ الأكوانَ مخبَرُهُ ... وضمَّ للفضل حُسنَ الخَلْقِ والشِّيَمِ

ولقد أجاد وأصاب، وأتى من الصَّواب بفصل الخطاب، على أنَّ هذا السيِّد الجليل والعَلَمِ الطَّويل:

هيهاتَ أنْ يأتِي الزَّمَانُ بمثلِهِ ... إنَّ الزَّمَانَ بِمثلِهِ لبَخِيلُ

---

(١) رواه عن أنس بن مالك ﷺ: أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ١٧٣، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» رقم ١٣٠٦، والديلمي في «الفردوس» رقم ٢٧٦٩، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٣٨٢٧.

(٢) رواه عن أنس بن مالك ﷺ: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب الإيمان (٢)، باب حلاوة الإيمان (٩) رقم ١٦، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب بيان خصال من اتصف بهن ...(١٥) رقم ٤٣.

(٣) هو أخو الشيخ منصور البطائحي ابن الشيخ يحيى النجاري الأنصاري خال الإمام الرفاعي ﷺ، وهو من شيوخه في العلم الشرعي.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٣٢- عَلامَةُ العَارِفِ: كِتْمَانُ الْـحَالِ، وصِحَّةُ الْـمَقَالِ، والتَّخَلُّصُ مِنَ الآمَالِ.

جعل علامة العارف: كتمان الحال، عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْـحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَـحْسُودٌ**»[١].

وأتبع العلامة الأولى بقوله: وصحة المقال، إلزاماً بالصِّدق، ونهياً عن الكذب، عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**الْكَذِبُ يُسَوِّدُ الْوَجْهَ...**» الحديث[٢].

ثم أتبعها بالعلامة الثَّالثة، وهي قوله: والتَّخلص من الأمال، استغناءً بالله سبحانه وتعالى، وعملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**استَغْنُوا بغِنَى الله**»[٣].

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَلَوْ بِشَوْصِ السِّوَاكِ**»[٤]، أي: بغسالته، وقيل: بما يتفتَّت منه عند التَّسوك.

ولا يخفى أنَّ العارف: هو الحكيم الَّذي انبجست معرفة الله تعالى من عين قلبه، وهو المراد بقوله ﷺ: «**كَادَ الْـحَكِيْمُ أَنْ يَكُونَ نَبِيَّاً**»[٥].

---

(١) رواه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: الطبراني في «الصغير» رقم ١١٨٦، و«الأوسط» رقم ٢٤٥٥، و «الكبير» رقم ١٨٣، والبيهقي في «الشعب» رقم ٦٦٥٥، وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٢١٥، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٩٨٥.

(٢) رواه عن أبي برزة رضي الله عنه: ابن حبان في «صحيحه»: كتاب الزينة والتطيب (٤٣) باب الكذب (٩) رقم ٥٧٣٥، وأبو يعلى في «مسنده» رقم٧٤٤٠، والبيهقي في «الشعب» رقم٤٨١٣، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٦٤٥٦.

(٣) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» رقم ٧٣٣، ٣/ ٢٤٨، وأبو بكر الدينوري في «القناعة» رقم ٥٣، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٩٨٩.

(٤) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في «الكبير» رقم ١٢٢٥٧، والبيهقي في «الشعب» رقم ٣٥٢٧، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/ ٩٤: رواه البزار والطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات، وقال المناوي في «فيض القدير» ١/ ٦٣٨: قال الحافظ العراقي: إسناده صحيح، وقال المنذري في «الترغيب» رقم ١٢١٤: إسناده جيد.

(٥) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: الخطيب في «تاريخ بغداد» رقم ٢٨٢٣، ٥/ ٣١٠.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٣٣- الدُّنْيا والآخِرَةُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ: عَقْلٌ ودِيْنٌ.

أراد بذلك أنَّ نفع الدُّنيا والآخرة، ينتظم بين نتيجة كلمتين:

الأولى: العقل: وهو الجوهر الَّذي يعقل النَّفس عند حدِّها، في أخذها وردِّها.

والثانية: الدِّين: وهو في اللُّغة: الجزاء، ثم الطَّاعة، وقد سمَّوا الطَّاعة ديناً؛ لأنَّها سبب الجزاء، كما ذكر ذلك الفخر الرَّازيُّ في «تفسيره».

ولا يخفى أنَّ الدين الَّذي اختاره الله تعالى وارتضاه وأمر به، إنَّما هو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقد جاء في شأن العاقل أيضاً قوله ﷺ: «**اسْتَرْشِدُوا العَاقِلَ تَرْشُدُوا، ولا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا**»[1].وقلت في معنى هذه الحكمة بيتين:

أخــيّ لــكَ العــزُّ يــومَ المعــاد ... وفــي هــذِهِ الــدُّنيا تَغــدُو مَكِينــا

وتبلــغُ مَجــداً رفيــعَ العِمــاد ... إذا أنــتَ أحــرزْتَ عقــلاً ودِينــا

(١) عزاه السيوطي في «الجامع» للخطيب البغدادي في رواة مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه ورمز لضعفه، وقال ابن حجر في «لسان الميزان» رقم ٣٣٣: هذا حديثٌ لا يصح.

ثُمَّ قَالَ الـمُؤَلِّفُ ﷺ:

٣٤- العِلْمُ مَا رَفَعَكَ عَنْ رُتبَةِ الْجَهْلِ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ مَنْزِلِ العِزَّةِ، وَسَلَكَ بِكَ سَبِيْلَ أُوْلِي العَزْمِ.

العلم الَّذي قصده المؤلِّف ﷺ، إنَّما هو العلم النَّافع الَّذي يتِمُّ به الجمع بين منفعتي الدُّنيا والدِّين، كالفقه والتَّفسير والحديث، وغير ذلك من العلوم النَّافعة الشَّرعية.

ولم يعتبره بنسبة حامله عِلماً إلَّا بقيودٍ مخصوصةٍ وهي:

- أن يرفع صاحبه عن رتبة الجهل، فلا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ولا يتعدَّى حدود الله، ويأتمر بأوامر الله، وينتهي عمَّا نهى عنه الله، فحينئذٍ يكون متحقِّقاً بمرتبة العلم، مترفِّعاً بها عن مرتبة الجهل.

- وأن يبعده علمه أيضاً بعد تحقُّقه بمرتبة العلم عن موطن الاعتزاز، والاغترار بالعلم، فلا يشهد نفسه أحسن من أحدٍ، اجتناباً وابتعاداً عن خُلُق إبليس - لعنه الله -، وتَمَسُّكاً بذيل الشَّرع الشَّريف، والكلام القديم المنيف.

وشرط عليه بعد هذا أن يسلك به علمه سبيل أولي العزم الَّذين صبروا في الله، واستقاموا كما أمر الله؛ لِيَبْلُغ مقام القوم الَّذين قال فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

ولِيُحفظ من ورطة العِلم الَّذي لا ينفع؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِـمٌ لَـمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ**»(١).

---

(١) رواه عن أبي هريره ﷺ: الطبراني في «الصغير» رقم ٥٠٧، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٧٧٨، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١١٢٢.

وإنَّ من دعائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ...**» الحديث[1].

(١) رواه عن زيد بن أرقم ﵁: الإمام مسلم في «الصحيح»: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الذكر والدعاء (٤٨)، باب في الأدعية (١٨) رقم٢٧٢٢، والنَّسائي في «السنن»: كتاب الاستعاذة (٥٠)، الاستعاذة من دعاء لا يستجاب (٦٥) رقم ٥٥٣٨، وروي أيضاً عن أبي هريرة وأنس بن مالك وابن مسعود وعبد الله بن عمرو ﵃.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٣٥- الشَّيْخُ مَنْ إذا نَصَحَكَ أَفْهَمَكَ، وإذا قَادَكَ دَلَّكَ، وإذا أَخَذَكَ نَهَضَ بِكَ.

٣٦- الشَّيْخُ مَنْ يُلْزِمُكَ الكِتَابَ والسُّنَّةِ، ويُبْعِدُكَ عَنِ الـمُحْدَثَةِ والبِدْعَةِ.

٣٧- الشَّيْخُ ظَاهِرُهُ الشَّرْعُ، وَبَاطِنُهُ الشَّرْعُ.

أراد بـ**الشَّيخ** المرشد؛ لأنَّ الشَّيخ لغةً: مَنْ بلغ الأربعين.

واصطلاحاً: مَنْ بلغ رتبة أهل الكمال، ولو كان صبيًّا.

والمرشد: من الإرشاد، وهو ضد الإضلال.

ووصَفَهُ بأنَّه هو الَّذي إذا نصح السَّالك أفهمَهُ بموعظته طريق نجاحه، وإذا اجتذبه بيد إرشاده دلَّه على أسباب سعادته، وأوصله إليها.

وإذا أخذه وقَبِلَه صاحباً ورفيقاً، نهض به ورفعه من حيطة الغفلة، وورطة الشَّكِّ والانتباه وساحة اليقين، وذلك بأن يُلزمه، ويجبره بعساكر همته، وسلطان حكمته على متابعة الكتاب والسُّنَّة، وهجر الـمُحْدَثة والبدعة، عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الـخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْـمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٍ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»[1].

ثم وصفَ الشَّيخ بأنَّ ظاهره عينُ الشَّرع، وباطنه عين الشَّرع، يريد بذلك أنَّ أفعاله الظَّاهرة، وأفعاله الباطنة قائمةٌ بالشَّرع لا تنحرف عنه مقدار شعرة امتثالاً لقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنِ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[2].

---

(١) حديث «عليكم بسنتي...» مر تخريجه صـ١٢١ـ من غير زيادة: «وكل ضلالة في النار» ؛ لأنَّها جزء من حديث آخر مر تخريجه أيضاً صـ١٢٦ـ.

(٢) مر تخريجه صـ١٢٦ـ.

فحينئذٍ ظهر للعاقل أنَّ الشَّيخ الَّذي يِصحُّ أن يكون قدوةً ومرشداً؛ إنَّما هو المتَّصف بهذه الأوصاف.

وإلَّا فكلُّ من ادَّعى الـمشيخة لا يليق بمجرد الدَّعوى أن يكون قدوةً للنَّاس؛ لأنَّ رتبة المشيخة، لَـمَّا كانت رتبة إرشادٍ وهدايةٍ، وجب على صاحبها التَّمكن في مقام مرتبته بما يؤيِّد برهانها، ويرفع أركانها من الأخلاق، والأفعال، والأحوال، والأقوال الـمحمَّديَّة، وحينئذٍ لا بأس عليه أن يتصدَّر لإرشاد الـخلق طمعاً بحصول نتيجة قول النَّبيِّ ﷺ: «**لَئِنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم**»(1).

ولا ريب أنَّ من دعا إلى ضلالةٍ موزورٌ، ومن دعا إلى هدىً مأجورٌ، وقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ فَاتُّبِعَ، كانَ عَلَيْهِ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا؛ وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتُّبِعَ، فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»(2).

وعلى هذا الـميزان درج سادات الـمشايخ الَّذين منهم الأقطاب الأنجاب والأبدال، ومنهم القطب الغوث الَّذي هو موضع نظر الله من العالـم في كلِّ زمان.

---

(1) رواه عن سهل بن سعدٍ ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ (٦٢)، باب مناقب علي...(٩) رقم ٣٧٠١، ومسلم في «الصحيح»: كتاب فضائل الصحابة (٤٤)، باب من فضائل علي...(٤) رقم ٢٤٠٦.

(2) رواه عن أنس بن مالك ﷺ بهذا اللفظ: ابن ماجة في «السنن»: المقدمة، باب من سن سنة حسنةً أو سيئةً (١٤) رقم٢٠٥. وقال الإمام البوصيري في «مصباح الزجاجة» رقم٧٣: هذا إسنادٌ ضعيفٌ؛ لضعف سعد بن سنان، وله شاهدٌ من حديث أبي هريرة ﷺ رواه ابن ماجة والتِّرمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

[كلام القوم في القطبية والغوثية]

تنبيه:

قد تكلَّم القوم وغيرهم في القطبيَّة والغوثيَّة، واختلفت فيها الرِّويات، فقال قومٌ من الصُّوفية: القطب من جنس الأولياء من بني آدم، من أمَّة النَّبيِّ ﷺ يأكل، ويشرب، وينكح، ويأتي بالعزائم والرُّخَص، ويُجاهد هواه: قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، يقوم ويقعد مقتفياً آثار رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: إنَّ الله سبحانه وتعالى اصطفى لنفسه من خلقه في كلِّ زمنٍ ثلاثمائةٍ: وهم خُلَّصُ الأولياء.

وسبعين: وهم الأبدال والنُّجباء.

وأربعين: وهم الأوتاد.

وعشرةً: وهم النُّقباء.

وسبعةً: وهم العُرفاء.

وثلاثةً: وهم المختارون.

وواحداً: وهو القطب الغوث.

فإذا قُبض القطب الغوث، يختار من الثَّلاثة واحدٌ يُجعَل مكانه.

ويختار من السَّبعة واحدٌ يُضمُّ إلى الثَّلاثة.

ويختار من العشرة واحدٌ يُضمُّ إلى السَّبعة.

ويختار من الأربعين واحدٌ يُضمُّ إلى العشرة.

ويختار من السَّبعين واحدٌ يُضمُّ إلى الأربعين.

ويختار من الثَّلاثمائة واحدٌ يُضمُّ إلى السَّبعين.

ويختار من الخلق واحدٌ لإتمام الثَّلاثمائة؛ ولا يزال كذلك إلى يوم القيامة.

وعلى رأي هذه الفرقة: إنَّ الغوث قد يكون من غير أهل البيت النَّبويِّ، خلافاً

لجماهير العارفين من الصُّوفيَّة ﵃؛ فإنَّهم يقولون: إنَّ القطب الغوث لا يكون إلا من أهل بيت النَّبيِّ ﷺ.

ولا يخفى أنَّ القطب، لغةً: قلب الرَّحى، أي: عمودها الَّذي تدور عليه.

ويقال: قطب القوم، أي: سيِّدهم الَّذي ينتهي إليه رأيهم، ويدور عليه أمرهم.

ومن هنا اصطلح الأولياء ﵃ على تسمية رئيسهم ومُقَدَّمهم بالقطب، وقد اتَّفقوا جميعاً مع اختلاف رواياتهم: أنَّ القطب لا يكون في كلِّ زمان إلَّا واحداً، وهو الغوث الفرد الجامع الَّذي يتلقى الأوامر الباطنة من رسول الله ﷺ، ويفيضها على أصحاب النَّوبة ﵃.

وأظنُّ أنَّ أصحاب النَّوبة هم المرادون بحديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**خِيَارُ أُمَّتِي فِي كُلِّ قَرْنٍ خَمْسُمائةٍ، والأَبْدَالُ أَرْبَعُونَ، فَلا الخَمْسُمائة يَنْقُصُونَ، ولا الأَرْبَعُونَ، كُلَّما مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مِنَ الخمسمائة مكانَهُ، وأَدْخَلَ فِي الأَربَعِينَ مكانَهُ، يَعفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُم، ويُحْسِنُونَ إلى مَنْ أَسَاءَ إليهم، ويَتَواسَونَ فيما آتَاهُم اللهُ**»(١).

(١) أبو نُعيم في «حلية الأولياء» ١/ ٨، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١/ ٣٠٣، والدَّيلمي في «الفردوس» رقم ٢٨٧١.
قال مُحمَّد صبغة الله في «ذيل القول المُسدَّد» ١/ ٨٤-٨٥: «قال السُّيوطي في «النُّكت»: خَبَرُ الأبدال صحيحٌ فضلاً عمَّا دون ذلك، وإن شئت قلت: متواترٌ، وقد أفردته بتأليفٍ استوعبتُ فيه طُرُق الأحاديث الواردة في ذلك.
والحاصل: أنه ورد من حديثِ عمرَ ﵁: أخرجه ابن عساكر من طريقين.
وعليٍّ ﵁: أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وغيرهم من طرق أكثر من عشرة بعضها على شرط الصحيح.
وأنسٍ ﵁: وله ست طرق، منها طريقٌ في «معجم الطبراني الأوسط» حسَّنه الهيثمي في «مجمع الزوائد».
وعبادة بن الصَّامت ﵁: أخرجه أحمد بسندٍ صحيحٍ.
=

[عدمم حصر القطبية في طائفة من الطوائف]

وقد وقع الغلوُّ في بعض المتصوِّفة؛ فإنَّهم حصر بعضهم هذه المرتبة المباركة - أعني القطبيَّة - في مشايخهم، ورجال طريقتهم، كفرقةٍ من الشَّاذليَّة؛ فإنَّهم يقولون: إنَّ القطب الغوث لا يكون إلَّا شاذليًّا، وقد صرَّح بذلك ابن عباد الشَّاذلي المغربي[1] في «رسالته».

وذكر لبعضهم قصيدةً يمدح بها السَّادة الشَّاذليَّة يقول فيها: «خُدامهم أُستاذُ

=

وابن عباسٍ ﷺ: أخرجه أحمد في «الزُّهد» بسندٍ صحيح.

وابن عمرَ ﷺ: وله ثلاث طرقٍ في «المعجم الكبير» للطبراني، و«كرامات الأولياء» للخلال، ولأبي نعيم.

وابن مسعودٍ ﷺ: وله طريقان في «المعجم الكبير»، و«الحلية».

وعوف بن مالكٍ ﷺ: أخرجه الطبراني بسندٍ حسنٍ.

ومعاذ بن جبلٍ ﷺ: أخرجه الديلمي.

وأبي سعيد الخدري ﷺ: أخرجه البيهقي في «الشعب».

وأبي هريرة ﷺ: وله طريقٌ أخرى غير التي أوردها ابن الجوزي أخرجها الخلال في «كرامات الأولياء».

وأم سلمة رضي الله عنها: أخرجه أحمد، وأبو داود في «سننه»، والحاكم، والبيهقي وغيرهم.

ومن مرسل الحسن: أخرجه ابن أبي الدنيا في «السخاء»، والبيهقي في «الشعب».

ومن مرسل عطاء: أخرجه أبو داود في «مراسيله».

ومن مرسل بكر بن خنيس: أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الأولياء».

ومن مرسل شهر بن حوشب: أخرجه ابن جرير في «تفسيره».

وأما الآثار عن الحسن البصري وقتادة وخالد بن معدان وأبي الزاهرية وابن شوذب وعطاء وغيرهم من التابعين فمن بعدهم فكثيرةٌ جداً، ومثل ذلك بالغٌ حدَّ التَّواتر المعنويِّ لا محالة بحيث يُقطَع بصحة وجود الأبدال ضرورةً» انتهى.

(١) محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفزي الحميري الرندي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد (٧٣٣ -٧٩٢)هـ: متصوف باحث، من أهل (رندة) بالأندلس، وتوفي بفاس، له كتب منها: «الرسائل الكبرى» في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات، و«غيث المواهب العلية» بشرح الحكم العطائية. انظر: «الأعلام» للزركلي ٥/ ٢٩٩.

كُلِّ زمانٍ» يعني بخدامهم الَّذي هو أستاذ كلِّ زمان: القطب الغوث قُدِّسَ سِرُّهُ.

وإنِّي لفي مَعزلٍ إن شاء الله عن هذه المبالغة والغُلوِّ والجُرأة، وإنِّي أعتقد أنَّ الوهب الإلهي لا ينحصر في طائفةٍ من الطَّوائف، ولا في طريقةٍ من الطَّرائق، على أنَّه ﷻ لا حَجْرَ عليه يَهب ما شاء لِـمَن شاء، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[المائدة:٥٤].

هذا مع أنَّ فضل الأستاذ أبي الحسن الشَّاذلي قُدِّسَ سِرُّهُ وأتباعه السَّالكين على منهجه، المتمسِّكين بالسُّنَّة السَّنيَّة، والطَّريقة المحمَّديَّة، لم تزل حرمتهم في كلِّ زمنٍ محفوظةً، وبأعين التَّعظيم ملحوظةً.

[رد القول بالأصالة والوكالة للقطبية]

وقد جاء فرقةٌ من المتصوِّفة بوجهٍ آخر، فإنَّ بعضهم جعل القطبيَّة تارةً أصالةً، وتارةً وكالةً، تُعطى لأناسٍ بالأصالة، ولأناسٍ عن أناسٍ بالوكالة، فهذا الوجه حالة كونه ليس بمقبولٍ، فكذلك غير معقولٍ.

وقد كنت رأيت في كتاب «الفيض الوارد»(١) للعلامة الفاضل السيِّد محمود أفندي الآلوسي (٢) المرحوم، مفتي العراق عليه رحمة الخَلاَّق ما نصُّه: «قد ذكر الإمام الرَّباني(٣) مُجدِّد الألف الثَّاني في «مكتوباته»: إنَّ القطبيَّة كانت لأئمَّة أهل

---

(١) صـ١٨٢ـ.

(٢) محمود بن عبد الله الحسينى الآلوسى، شهاب الدين، أبو الثناء (١٢١٧-١٢٧٠)هـ: مفسرٌ، محدثٌ، أديبٌ، من المُجدِّدين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها، كان سلفي الاعتقاد، مجتهداً، ونسبة الأسرة الآلوسية إلى جزيرة (آلوس) في وسط نهر الفرات، على خمس مراحل من بغداد، من كتبه: «روح المعاني» في التفسير، و«مقامات» في التصوف والأخلاق، و«حاشية على شرح القطر»، و«الفيض الوارد» على روض مرثية مولانا خالد. انظر: «الأعلام» للزركلي ٧/ ١٧٦، و«هدية العارفين» ٢/ ١٦٨.

(٣) الشيخ أحمد بن عبد الأحد السهرندي الفاروقي النقشبندي الشهير بالإمام الرباني الصوفي الحنفي (٩٧١-١٠٣٤)هـ، من تصانيفه: «آداب المريدين»، و«إثبات الواجب»، و«المبدأ والمعاد»، و«مكتوبات» في ثلاث مجلدات. انظر: «هدية العارفين» ١/ ٨٤.

البيت أصالةً، وصارت من بعدهم وكالةً، حتَّى ظهر الشَّيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّسَ سِرُّهُ، فأُعطيها أصالةً حتَّى إذا ذهب إلى حظائر القدس، أعطيها من جاء بعده وكالةً عنه، فكلُّ الأقطاب من بعده نوابه ووكلاؤه، ولا يزال الأمر كذلك حتى يظهر المهدي، فَيُعطاها أصالةً، وفي قوله قُدِّسَ سِرُّهُ:

غربَتْ شُمُوسُ الأوَّلِينَ وشَمْسُنَا أبَدَاً على فَلَكِ العُلى لا تَغْرُبُ

رَمَزَ إلى ذلك. انتهى. فليحفظ» انتهى.

فكنت أتعجَّب كيف سكتَ المرحوم المومأ إلية مع غزارة علمه، وسعة اطِّلاعه، وحدَّة ذهنه، وقوَّة بارقة فهمه، واعتصابه كما يُدرك من مؤلَّفاته للحقِّ وأهله؟ وكيف لم يكتب على هذه المقولة الواهية شيئاً؟!

ولا زالت تتلجلج هذه القصة أحياناً في الخاطر حتَّى وقفت له رحمه الله على تفسيره «روح المعاني» الَّذي شيَّد به محكمات الحكم الشَّرعية أرفع المباني، فرأيته كتب في الجزء السَّابع من تفسيره المذكور المبرور، فيما كتبه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣] ما نصُّه: «والآية متضمِّنة الوعد منه ﷻ لأهل بيت نبيِّه ﷺ بأنَّهم إنْ ينتهوا عمَّا ينهى عنه، ويأتمروا بما يأمرهم به: يُذهِب عنهم لا محالة مبادئ ما يُستهجن، ويُحلِّيهم أجلَّ تحلية بما يُستحسن.

وفيه إيماءٌ إلى قَبول أعمالهم، وترتُّب الآثار الجملية عليها قطعاً، ويكون هذا خصوصيَّةً لهم ومزيَّةً على مَنْ عداهم، من حيث إنَّ أولئك الأغيار إذا انتهوا وائتمروا لا يُقطع لهم بحصول ذلك.

ولذا نَجِد عُبَّادَ أهل البيت: أتمَّ حالاً من سائر العُبَّاد المشاركين لهم في العبادة الظَّاهرة، وأحسن أخلاقاً وأزكى نفساً، وإليهم تنتهي سلاسل الطَّرائق التي مبناها كما لا يخفى على سالكيها: التَّخلية والتَّحلية، اللَّتان هما جناحان للطيران إلى

حظائر القدس، والوقوف على أوكار الأنس، حتَّى ذهب قومٌ إلى أنَّ القطب في كلِّ عصرٍ لا يكون إلا منهم خلافاً للأستاذ أبي العبَّاس المرسي [1] حيث ذهب كما نقل عنه تلميذه التَّاج ابن عطاء الله[2] : إلى أنَّه قد يكون من غيرهم.

ورأيت في «مكتوبات» الإمام الفاروقي الرَّبَّاني مجدد الألف الثاني قُدِّسَ سِرُّهُ ما حاصله: «إنَّ القطبية لم تكن على سبيل الأصالة إلا لأئمَّة أهل البيت المشهورين، ثم إنَّها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النِّيابة عنهم، حتَّى انتهت النَّوبة إلى السَّيِّد الشَّيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّسَ سِرُّهُ النُّوراني فنال مرتبة القطبيَّة على سبيل الأصالة، فلمَّا عرج بروحه القدسيَّة إلى أعلى علِّيِّين نالَ مَنْ نالَ بعده تلك الرُّتبة على سبيل النِّيابة عنه، فإذا جاء المهدي ينالها أصالةً كما نالها غيره من الأئمَّة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، انتهى.

وهذا ممَّا لا سبيل إلى معرفته والوقوف على حقيقته إلا بالكشف، وأنَّى لي به، والَّذي يغلب على ظنِّي أنَّ القطب قد يكون من غيرهم، لكنَّ قطب الأقطاب لا يكون إلَّا منهم؛ لأنَّهم أزكى النَّاس أصلاً، وأوفرهم فضلاً، وأنَّ مَنْ ينال هذه

---

(١) أبو العباس المرسي أحمد بن عمر بن محمد الأنصاري المالكي (٦١٦-٦٨٦)هـ: الشيخ الزاهد، الكبير، العارف، العلامة، المحقق، القدوة، الشاذلي تصوُّفاً، الأشعري معتقداً، توفي بالإسكندرية رحمه الله تعالى . انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي ١٣/ ٢٠١، و«الكواكب الدرية» للمناوي رقم ٤٩٥.

(٢) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله تاج الدين أبو الفضل الاسكندري تـ(٧٠٩)هـ: له اليد الطولى في العلوم الظاهرة، والمعارف الباطنة، إمام في التفسير والحديث والأصول، وله ذوق ومعرفة بكلام الصوفية وآثار السلف، وله عبارة عذبة لها وقع في القلوب، وكان تلميذاً لأبي العباس المرسي صاحب الإمام الشاذلي؛ توفي بالمنصورية في القاهرة، له تصانيف منها: «الحكم العطائية» في التصوف، و«تاج العروس» في الوصايا والعظات، و«لطائف المنن» في مناقب المرسي وأبي الحسن. انظر: «الكواكب الدرية» للمناوي رقم٦١٢، و«الأعلام» للزركلي ١/ ٢٢٢.

الرُّتبة منهم لا ينالها إلا على سبيل الأصالة دون النِّيابة والوكالة.

وأنا لا أعقل النِّيابة في ذلك المقام وإن عَقِلْتُ قلت: كلُّ قطبٍ في كلِّ عصرٍ نائبٍ عن نبيِّنا عليه من الله تعالى أفضلُ الصَّلاة وأكمل السَّلام، ولا بدع في نيابة الأقطاب بعده عنه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ كما نابت عنه الأنبياء قبله فهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الكامل المُكمَّل للخليقة، والواسطة في الإفاضة عليهم على الحقيقة، وكلُّ مَنْ تقدَّمه عصراً من الأنبياء، وتأخَّر عنه من الأقطاب والأولياء نوَّابٌ عنه ومستمدون منه.

وأقول: إنَّ السَّيِّد الشَّيخ عبد القادر قُدِّسَ سِرُّهُ وغَمَرَنا بِرُّه قد نال ما نال من القطبيَّة بواسطة جدِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أتمِّ وجهٍ وأكمل حالٍ ، فقد كان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ من أَجِلَّة أهل البيت، حَسنيًّا من جهة الأب، حُسينياً من جهة الأم، لم يصبه نقصُ لو أن وعسى وليت، ولا يُنكِر ذلك إلا زنديقٌ أو رافضيٌ يُنكِر صُحبة الصِّديق، وأرى أنَّ قوله رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

أَفَلَتْ شُمُوسُ الأَوَّلِينَ وشَمْسُنَا ... أبَداً على فَلَكِ العُلى لا تَغْرُبُ

لا يَدُلُّ على أنَّ من ينال القطبيَّة بعده من أهل البيت الَّذين عنصرهم وعنصره واحدٌ، نائبٌ عنه ليس له فيضٌ إلا منه؛ بل غاية ما يدلُّ عليه، ويُومئ إليه: استمرار ظهور أمره، وانتشار صيته، وشهرة طريقته، وعموم فيضه لِـمَن استفاض على الوجه المعروف عند أهله منه، وذلك ممَّا لا يكاد يُنكَر، وأظهر من الشَّمس والقمر». انتهى.

فرأيت أنَّه رحمه الله استعمل قلمَهُ نجاحاً في هذا الباب، يطوف طُرق الرَّقائق، فيأتي بأوضح الحقائق، أو غوَّاصاً يغوص بُحور الحقائق، فيستخرج دُرر الرَّقائق، على أنَّه التزم جانب الأدب مع القوم الكرام، والآل العظام، فما أهمل مقدارهم، ولا استخفَّ منارهم، وذكر ما للشَّيخ قُدِّسَ سِرُّهُ من المنزلة، وذَكَرَه

بمـا يليق له، واستدلَّ بكلماته المباركة على استمرار ظهور أمره وطريقته وصيتِه وشهرتِه.

وغير خافٍ أنَّ ما استدلَّ به من كلمات الشَّيخ قُدِّسَ سِرُّهُ وقع مثلها، وأصرح منها من جماعةٍ أَجِلاَّء من إخوانه الأولياء.

[أقوال الأئمَّة في شأن الإمام الرّفاعيّ ﵁]

ومنهم من شهد لهم غيرهم بهذا الظُّهور، كسيِّدنا المؤلِّف ﵁، فإنَّ جماعةً من أعظم خواصِّ الأولياء شهدوا له بدوام دولة الطَّريقة، واستمرار بركة الحقيقة في بيته وذرِّيَّته إلى يوم القيامة بإذن الله.

ومن ذلك ما حكاه الإمام عبد الكريم الرافعي قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه «سواد العينين»[1] بمـا نصُّه: «أخبرني شيخنا الإمام الـحجَّة القدوة عمر أبو حفص شهاب الدِّين السُّهْرَوَرْدِي[2]، عن عمِّه الولـيِّ العارف شيخ الشُّيوخ أبـي النَّجيب[3]، عن شيخه الإمام الـهمـام البحر الطَّام مُـحمَّد بن عبد

(١) صـ٥٨-٥٩ـ.

(٢) عمر بن محمد بن عبد الله بن عموية، أبو حفص شهاب الدين القرشي التيمي البكري السهروردي (٥٣٩-٦٣٢)هـ: فقيه شافعي، مفسر، واعظ، من كبار الصوفية، مولده في سهرورد، ووفاته ببغداد، كان شيخ الشيوخ ببغداد، صحب عمه أبا النجيب وعنه أخذ التصوف والوعظ، والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي وغيرهما، وانحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد ابن عبد البصري، له كتب، منها: «عوارف المعارف»، و«بغية البيان» في تفسير القرآن، و«جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب». انظر: «وفيات الأعيان» ٣/ ٤٤٦، و«الأعلام» للزركلي ٥/ ٦٢.

(٣) عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصديقي، أبو النجيب السهروردي (٤٩٠-٥٦٣)هـ: فقيه شافعي واعظ، من أئمة الصوفية، ولد بسهرورد، وسكن بغداد، فبنيت له فيها رباطات للصوفية من أصحابه، وولي المدرسة النظامية، وتوفي ببغداد، له: «آداب المريدين»، و«شرح الأسماء الحسنى». اتنظر: «الأعلام» للزركلي ٤/ ٤٩.

البصري[1] ﷺ، قال: كلُّ الأولياء أدركنا مقاماتهم وما وصلوا إليه، وعرفنا منتهاهم في السَّير إلا السَّيِّد أحمد الرِّفاعيّ، فإنَّه لا يُعرف منتهاه في السّير، وإنَّما رجال عصرنا على الإطلاق يعرفون الوجهة التي اتَّجه إليها، ومن ادَّعى الوصول إلى مرتبته، أو الاطِّلاع على رتبته فكذِّبوه.

أي إخواني، هذا رجلٌ لا يُعرف ولا يُحدُّ، هذا رجلٌ انسلخ من علائق بشريَّته، وعوائق نفسه، كانسلاخ الثوب عن البدن، والأولياء في عصرنا هذا كبارهم وصغارهم، المشارقة والمغاربة، الأعارب والأعاجم، عيالٌ عليه يَستمدُّون منه، ويأخذون عنه، وهو شيخ الكلِّ في الكلِّ، يسحُّ النوال من حجرة جدِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على قلبه، وهو يقسمه على الرِّجال في الأرضين، ولا ينقطع مدده بإذن الله، والدَّولة له ولذرِّيَّته إلى يوم القيامة، مع طيب نفس المحبِّ، ورغم أنف الحاسد، يفعل الله ما يشاء لا رادَّ لأمره ولا منازع لحكمه».

وذكر الإمام الهمام، البحر الطَّام، سلطان المحدثين، ولي الله الشَّيخ عزُّ الدِّين أحمد الفاروثيّ الواسطيّ قُدِّسَ سِرُّهُ في «النَّفحة المسكيَّة»[2] ما نصُّه: «وبالسَّند الصَّحيح إلى شيخنا الشَّيخ منصور البطائحيِّ الرَّبَّانيِّ ﷺ، أنَّه رأى رسول الله ﷺ وهو يقول له: «يا منصور، أبشرك أنَّ الله تعالى يعطي أختك بعد أربعين يوماً ولداً، يكون اسمه أحمد الرِّفاعيّ، مثلما أنا رأس الأنبياء، كذلك هو رأس الأولياء، وحين يكبر فخذه إلى الشَّيخ عليّ القاريّ الواسطيّ[3]، وأعطه له كي يربيه؛ لأنَّ

---

(١) هو الشيخ أبو محمد القاسم بن عبد الله البصري من أعيان مشايخ العراق، وعظماء العارفين، وأجلاء المقربين، وصاحب العجائب والغرائب، مالكي المذهب، سكن بالبصرة وبها مات سنة (٥٨٠)هـ. انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني رقم ٢٧١، صـ٢٢٠ـ.

(٢) صـ١٠-١١ـ.

(٣) هو الشيخ علي أبو الفضل بن محمد بن أبي بكر القرشي المقري الواسطي الشافعي المعروف بابن القاري (٤٦٠-٥٣٩)هـ: شيخ الشيوخ بركة المسلمين شيخ واسط وابن شيخها، ولد بواسط، =

ذلك الرَّجل عزيزٌ عند الله، ولا تغفل عنه»، قال: فقلت له: الأمر أمركم يا رسول الله، عليك الصَّلاة والسَّلام؛ وكان الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ.

وقد بشر به قبل وِلادَته بسنين أكابر الأولياء، وانتظر ظهوره أماجد الأصفياء، وأمروا إخوانهم إذ رأوه وصاروا في زمانه: أن يعرفوا حقَّ حرمته، وعظيم منزلته.

وقالوا: إنَّه صاحب الوقت والزَّمان، والدُّولة له ولذرِّيَّته إلى يوم القيامة.

وقالوا: إنَّه متى ظهر يغلق أبواب الصَّالحين، ويصير الوقت له ولأهله، وتحكُّمه وتصرُّفه يصل إلى مرتبةٍ عظيمةٍ، يضرب داغه على جبهات الذَّراري في أصلاب الآباء، وسيسلك طريقاً لم يسلكها أحدٌ قبله ولا بعده، وهي طريقة الذُّلِّ والانكسار، والمسكنة والافتقار، والخضوع والحَيرة، ولم يكن في الطُّرق إلى الله أعظم وأصعب منها.

ومِـمَّن بشَّر به بالأسانيد الصَّحيحة الثَّابتة : الشَّيخ تاج العارفين أبو الوفا[1]،

=

وتفقه بأبيه وبعمه أبي محمد كامخ، وبأبي عبد الله الكازروني، وانتهت إليه الرياسة بواسط، وبه تخرَّج الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنهما وقد أجازه بالعلم والطريق دون أصحابه، ولم يسمح بإجازته العامة لغيره، فقيل له في ذلك، فقال: على من أنجب مثل أحمد أن ينقرض من غيره – يعني: أن لا يكون له خليفة غيره –، وكان أصحاب الشيخ علي الواسطي أكثر من أربعين ألفاً، وإذا بلغ أحدهم الفطام يأمره بملازمة السيد أحمد الرفاعي وتجديد البيعة عليه، توفي الشيخ علي ودفن برواقه في واسط، وكان الإمام الرفاعي يقول فيه: شيخنا أبو الفضل جبلٌ من جبال السُّنَّة، وإمامٌ من أئمَّة الهدى المصطفين الأخيار نفعنا الله بهم أجمعين. انظر: «إرشاد المسلمين» لعز الدين أحمد الفاروثي صـ٣٨ ـ رقم ١، و«روضة الناظرين» للوتري صـ١٦ـ.

(١) السيِّد أبو الوفا تاج العارفين محمد بن محمد بن محمد بن زيد بن حسن المرتضى بن زين العابدين علي بن الحسين سبط النَّبيّ ﷺ (٤١٧-٥٠١)هـ: كان شافعي المذهب على الصّحيح، وكانت بداية أمره مشوبة بحب الفروسية والكرِّ والفرِّ حتّى صار يقطع الطّريق على النّاس، وكانت توبته على يد الشّيخ أبي محمّد الشنبكيّ رضي الله عنهما وكان سلوك أبي الوفا ثلاثة أيام وبعدها وصل إلى مرتبة محاذاة القطب الغوث الجامع، وكان من أجلِّ أهل عصره، وانتهت إليه رياسة

=

والشَّيخ أحمد كنز العارفين الزَّاهد، والشَّيخ نصر الـهاماني، والشَّيخ أحمد بن خميس، والشَّيخ أبو بكر النجاري الأنصاري، والشَّيخ منصور الرَّبَّاني البطائحي، وغيرهم رضي الله عنهم.

والَّذين عددتهم لك مَنْ عرفتهم غصَّت بفضائلهم الأوراق، وانتشر صيتهم في الآفاق، وقال جمٌّ من أهل الولاية: بعلوِّ مرتبته عن الغوثيَّة والسَّلطنة، وإنَّ له عند الله منزلةً لا يعرفها أحدٌ من رجال عصره، وإنَّه كان في حضرة الحبيب.

وقال القطب الرَّبَّاني الشَّيخ عبد القادر الجيلاني، والشَّيخ اليعقوبي[1]، وغيرهما من رجال وقته في شأنه: إنَّه رجلٌ لا يُعرف ولا يُحد ولا يَصل إلى مرتبته أحدٌ.

وأما أخلاقه فقد وافقتها أعراقه، طاب أصلاً وخَلْقاً وحالاً وخُلُقاً، وكان خُلُقهُ السُّنَّة الـمُحمَّديَّة، ومشربه الحالة النَّبويَّة، لم يُعهد ولم يُسمع في طبقات القوم من بعد الصَّحابة، وأئمَّة الآل رضي الله عنهم، عن أحدٍ من الرِّجال أنَّه بلغ ما بلغه قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُ من الصَّفاء والزُّهد والصِّدق والتَّواضع والحَيرة والافتقار، أتى بكلِّ أخلاق أهل عصره وعباداتهم، ولم يأت كلُّهم بكلِّ أخلاقه وعباداته، وجاء بكلِّ كراماتهم ومناقبهم، ولم يَجيء كلُّهم بكلِّ كراماته ومناقبه، فالحمد لله الَّذي مَنَّ علينا باتِّباعه، وجعلنا من أتباعه». انتهى.

ومثل ذلك حكى الإمام الشَّعراني قُدِّسَ سِرُّهُ في «مننه الكبرى»، و«عهوده»

=

الطّريق في زمانه وتخرَّج به الأعلام وصدور المشايخ مثل الشيخ علي الهيتي، والشيخ بقاء بن بطو وغيرهم، وتوفي في بلدة قلمينيا بليدة صغيرة بجانب بغداد. انظر: «ترياق المحبين» لأبي الفرج الواسطي صـ٤١ـ، و«روضة الناظرين» للوتري صـ٢٧ـ.

(١) الشيخ الجليل العارف ذو الأسرار والمعارف السيد الكبير البعيد الصيت الشهير علي بن إدريس اليعقوبي صاحب الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنهما توفي سنة (٦٢٠)هـ. انظر: «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» لليافعي ٢/ ١٥٥.

وكثيرٍ من كتبه.

وصرَّح بمثل ذلك تحدُّثاً بنعمة الله تعالى سيِّدُنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ في كثيرٍ مِنْ كلماته اتِّباعاً للحبيب العظيم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واقتداءً به فإنَّه قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْر**»[1]، وقال: «**أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِالله وَأَتْقَاكُمْ**»[2].

وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام أنَّه قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥].

وشعيب عليه السلام قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧].

وعليّ رضي الله عنه قال: «**وَالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ عَهِدَ لِي رَسُولُ الله ﷺ أَنَّهُ لا يُحِبُّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُنِي إِلَّا مُنَافِقٌ وإنَّ بينَ جَنْبَيَّ لَعِلْماً جَمَّاً**»[3].

---

(١) رواه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: الإمام الترمذي في «الجامع»: كتاب تفسير القرآن... (٤٨)، باب ومن سورة بني إسرائيل (١٨) رقم ٣١٤٨، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد (٣٧)، باب ذكر الشفاعة (٣٧) رقم ٤٣٠٨، وروي أيضاً عن سيدنا أبي بكر الصِّديق وأنس بن مالك وأبي هريرة وابن عبّاسٍ وعبادة بن الصَّامت وعبد الله بن عمرو بن العاص وواثلة بن الأسقع رضي الله عنهم.

(٢) رواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب الإيمان (٢)، باب قول النَّبيِّ ﷺ أنا أعلمكم بالله...(١٣) رقم٢٠، بلفظ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِالله أَنَا».
ورواه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: الحاكم في «المستدرك»: أول كتاب المناسك رقم ١٧٤٢، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلمٍ، ولفظه: «أَبالله تُعَلِّمُونِي أَيُّها النَّاسُ، فَأَنَا وَالله أَعلَمُكُم بِالله، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ...».

(٣) رواه عن زِرِّ بن حُبَيْش عن سيدنا علي رضي الله عنه من غير زيادة: «وإنَّ بينَ جَنْبَيَّ لَعِلْماً جَمًّا»: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب الدليل على أنَّ حبَّ الأنصار وعليٍّ رضي الله عنهم... (٣٣) رقم ٧٨، والنَّسائي في «السنن»: كتاب الإيمان وشرائعه (٤٧)، باب علامة الإيمان (١٩) رقم ٥٠٣٣، وابن ماجه في «السنن»: في المقدمة، بابٌ في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١١) رقم ١١٤.

فَمِنْ هذا الْـمِنوال[1] ما قاله سيِّدُنا المؤلِّف ﷺ في شأن نَفْسِهِ النَّفيسةِ، منها ما نقله عنه جامع «البرهان»[2] شيخ الإسلام شرف الدِّين أبو طالب ابن الإمام عبد السّميع الهاشمي العبَّاسيّ الواسطيّ قُدِّسَتْ أَسْرَارُهُم وهو: «أي سادة، ما تركت طريقاً صعباً، ولا مَسلكاً غضَّاً[3] إلا كَشَفْتُ قِنَاعه، ورفعت بأكُفِّ عساكر الهِمَّةِ سِترَه الـمَسدُول وشِراعَه.

ودخلتْ على الله مِنْ كلِّ بابٍ، فرأيتُ على الكلِّ ازدحاماً عظيماً، فجئتُه من باب الذُّلِّ والانكسار فرأيته خالياً، فَوَصَلت وحَصَّلت مَطْلُوبي والطُّلاَّب على الأبواب.

أعطاني ربِّي من فضله ومواهبه ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خطر على قلب بَشرٍ من أهل هذا العصر.

وعَدنِي رسولُ كرمه: أن يأخذ بيد مُرِيْدِي ومُحِبِّي، ومَنْ تَـمسَّك بي وبذرِّيَّتِي وخُلفائي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة عند انقطاع الحِيَل.

بهذا جرت بيعة الرُّوح ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[الروم:٦]».

ومنها ما ذكره صاحب «التِّرياق» الحافظ تقي الدِّين الواسطيّ[4] قُدِّسَ سِرُّهُ أنَّ الشَّيخ يعقوب بن كراز قُدِّسَ سِرُّه قال لسيدنا السيِّد أحمد المشار إليه صبَّ الله سِجال فضله ورحمته عليه: «أي سيِّدي، مثلك مثل العروس على المنصَّة، فهي ما

---

(١) الـمِنْوَالُ: الخَشَب الذي يَلُفُّ عليه الحَائِكُ الثَّوْبَ، وهو النَّوْل أيضاً، وجَمْعُه أَنْوَال، ويقال للقَوْم إذا اسْتَوَتْ أَخْلاقُهم: هُمْ على مِنْوَالٍ واحدٍ. «مختار الصحاح» مادة: (نول).

(٢) صـ١١٧-١١٨ـ.

(٣) في الأصل المطبوع: (غصاً)، وفي «البرهان»: (غضاً)، فأثبت ما في «البرهان».

(٤) هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد المحسن بن عمر بن عبد المنعم، أبو الفرج تقي الدين الأنصاري الواسطي الرفاعي الشافعي (٦٧٤-٧٤٤)هـ: المقرء من حفاظ الحديث، توفي ببغداد، من كتبه: «ترياق المحبين» في مناقب أحمد الرفاعي وطبقات أتباعه، و«اللؤلؤة» في الحديث محذوف الأسانيد، و«شرح حرز الأماني» للشاطبي. انظر: «الأعلام» للزركلي٣/ ٣١٤، و«معجم المؤلفين» ٥/ ١٥٢.

زالت قائمةً لا يزال ينادي عليها، والطَّبل يضرب، والمدعيات يأتين، فإذا نزل العروس سكت المنادي، وانقطعت المدعيات.

فقال: لا، أي يعقوب، ما يزال المنادي ينادي والعروس على المنصَّة، والطَّبل يضرب، والمدعيات يأتين، فلا العروس تنزل، ولا المنادي يسكت، ولا المدعيات ينقطعن إلى يوم القيامة، وبها جرت البيعة، ولن يُخلف الله وعده وهو أعلم وأحكم».

ونقل عنه صاحب «الترياق» أيضاً أنَّه قال: «دولتي باقيةٌ إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى».

ويؤيد ذلك أدلَّةٌ كثيرةٌ، وبراهين وفيرةٌ، أحسن الله بها إليه، ومَنَّ الله بها عليه، يَضيق لها دفتر الاستقصاء، ويكلُّ لها قلم الإحصاء:

منها أنَّ مرقده الشَّريف اختار الله تعالى له أن يكون في بَرٍّ أقفرٍ، داخلاً في حكم القبور الدَّواثر الثي هي خير القبور، كما أنبأتنا بذلك الأخبار[1]، ورواقه المبارك مُغيَّباً عن الأبصار، ومع ذلك، فقد ملأت بفضل الله أسراره الأقطار، وهيبة كراماته المستمرَّة أترع بها الأفئدة والأسرار، وانتشرت طريقته المباركة بتداول الأعصار في جميع الأقطار والأمصار انتشار أشعة الشَّمس ظهر النَّهار.

ومنها أنَّ الله أيَّد طريقته بعلماء الأولياء، وأولياء العلماء، والرِّجال الَّذين ثبتت لهم القطبيَّة، وعمَّت شهرتهم في البريَّة.

ومنها أنَّ الله تعالى صان عوام أهل طريقته فضلاً عن خواصها من الدَّعوى، والشَّطح، والغرور، والتَّعزُّز في الطَّريق، واحتقار الخلق، والتَّرفع عليهم،

---

(١) قال العجلوني في «كشف الخفاء» رقم ١٢٦٩، ١/ ٤٥٠: «خير القبور الدوارس»: هذا مشهورٌ على الألسنة، وليس معناه بظاهره صحيحاً، فإنَّه يُسَن أن يجعل على القبر علامة لِيُعرف، فيزار، كما وضع رسول الله ﷺ حجراً عند رأس عثمان بن مظعون، وقال أَتَعَلَّم بها قبر أخي.

وطهَّرهم الله من القول بالوَحدة المطلقة، وأمثال ذلك من العقائد الفاسدة، والكلمات الواهية الباطلة.

ومنها أن جعل أكثر خدمة طريقته ومُحبيه الفقراء والضُّعفاء، كما وقع لجَدِّه سيِّد الأنبياء صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه الأئمَّة الأتقياء.

ومنها أن حفظ الله ﷻ أساس طريقته من الأحوال النَّاقصة التي تنقص حال كمَّل أتباعه، وتذهب حال ناقصهم، كما هو مقرر بين القوم، وقد التزم أتباعه في كلِّ زمانٍ على الغالب: الحدود، ووقفوا عندها، وتردَّوا برداء الانكسار والافتقار إلى الله تعالى، والتَّواضع والشَّفقة على خلق الله تعالى، تَخَلُّقاً بِخُلُقِه الشَّريف ﷺ، وتأسِيّاً برسول الله ﷺ.

فإذاً بركة استمرار الظُّهور الَّذي أشار إليه العلامة الآلوسي في «تفسيره»، حاصلةً لسيِّدنا السيِّد أحمد ﷺ، وظاهرةً في طريقته وأتباعه بالبراهين الواضحة، أكثر من ظهورها في غيرهم، وما بقي إلَّا القول بأنَّ فضل الله تعالى لا يُحْجَر عليه، له التَّصرف المُطلق في مُلكه سبحانه، يفعل ما يشاء، ويَحكم ما يريد، ويفتح لِـمَن يُحبُّه بِمحض فضله وعِنايته أبواب السُّلوك، ويُلحق بنظرةٍ مِنْ عين رحمته العبدَ المملوكَ بمراتب الملوك والأولياء ﷺ.

كلُّهم عبيده الدَّاخلون في سلك أحبابه، الفائزون بِمنَّة اقترابه، على أقدام الأنبياء الكرام لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم، ولا نغلو فيهم، ونُحبُّهم لله، ونقول: ﷺ.

ولنرجع للمقصود، فقد طال البحث، ونقول: قد ظهر لك من نصِّ الحكمة الأحمديَّة، أنَّ المشيخة عبارةٌ عن التَّمسُّك بالسُّنَّة المُحمَّديَّة، فالزم لعمرك هذا الباب، تفتح لك بإذن الله جميع الأبواب.

ثم قال المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٣٨- الطَّرِيْقَةُ: الشَّرِيْعَةُ، لَوَّثَ هَذِهِ الـخِرْقَةَ كَذَّابٌ، قَالَ: البَاطِنُ غَيْرُ الظَّاهِرِ! العَارِفُ يَقُولُ: البَاطِنُ بَاطِنُ الظَّاهِرِ، وَجَوْهَرُهُ الْـخَالِصُ.

أراد بذلك أنَّ الباطن نتيجة الظَّاهر؛ ولذلك لم يفرِّق ﵁ بين الطَّريقة والشَّريعة، إذ لولا الشَّريعة لـمَا عُرِفَتِ الطَّريقةُ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

فعلى هذا لا يَصحُّ شرط محَبَّة الله إلَّا بِمحبَّة رسول الله، ولا يتمُّ هذا الشَّأن إلا بطاعته ﷺ، واتِّباع ما جاء به؛ لقوله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠].

ولهذا السِّرِّ الواضح، قال المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: لوَّث هذه الخرقة كذَّاب، أي: دنَّس خرقة القوم مختلقٌ افترى على طريقهم، فسمَّاه باطناً، وجعله غير ظاهر الشَّرع، ثمَّ قابل قول الكذَّاب المختلق بقول العارف المحقِّق، فقال: العارف يقول: الباطن باطن الظَّاهر، أي: سرُّه الَّذي نتج منه، بشاهد قول النَّبيِّ ﷺ: «**عِلْمُ البَاطِنِ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ ﷻ، وحُكْمٌ مِنْ حِكَمِ اللهِ يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ**»(١).

وهذا السِّرُّ الَّذي عناه الحبيب المعظم ﷺ مشروطٌ حصوله بالعمل؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَم**»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

---

(١) رواه عن سيدنا علي بن أبي طالب ﵁: الديلمي في «الفردوس» رقم ٤١٠٤، ورمز السيوطي في «الجامع» لضعفه، رقم ٥٤٧٣.

(٢) مر تخريجه صـ١٤٣ـ.

وليعلم أنَّ الله ﷻ يختصُّ بفضله عباداً من عباده فيجتذبهم سابق رحمته إليه من دون سابقة علمٍ ولا عملٍ، فيدخلهم محض الاختصاص في سلك المَحبوبيَّة، وحينئذٍ يقومون بواجب العبوديَّة بكمال الإخلاص، والاهتمام بالأوامر الشَّرعيَّة، وإلَّا فلا تصحُّ القربى للعبد الآبق أبداً.

ومن هنا قال سيِّدنا المؤلِّف: **إنَّ الباطن باطن الظَّاهر، وجوهره الخالص**؛ أي: المحض الَّذي لم يُشب جوهره بعرضٍ من أعراض المبدعات والمحدثات أبداً، إنَّما هو جوهرٌ من جوهرٍ، قيل: لمضمره باطنٌ، ولمرئيِّه ظاهرٌ، وهو في الحقيقة واحدٌ، ولا شك في ذلك لمسلم أبداً، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٣٩- القُرْآنُ بَحْرُ الحِكَمِ كُلِّهَا، وَلَكِنْ أَيْنَ الأُذُنُ الوَاعِيَةُ ؟!.

أراد بقوله: بحر الحكم، أي: الحقائق الجامعة لخيري الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

ولَـمَّا كان القرآنُ العظيمُ أعظم بُحور الحِكم الإلهية، أنزله الله على أعظم أنبيائه، تشريفاً لقدره عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وجعله أعظم معجزةً له ﷺ؛ لأنَّ المُعجزات التي وقعت وانقضت يمكن أن يَجْحَدها الجاحدُ الحاسد، وأن يُنكِرَها جهلاً وطيشاً، المشركُ المعاند، وأمَّا معجزة القرآن العظيم الشَّأن، فهي بحمد الله موجودةٌ حاضرةٌ، وبين أيدي الخلق متداولةٌ ظاهرةٌ، تردع أهلَ الزَّيغ والفساد، وتقمع أرباب الجحود والعناد، على أنَّ القرآن العظيمَ جعله الله تعالى مُعجزاً بعشر سورٍ، ثمَّ جعله معجزاً عليه بسورةٍ[١].

وقد تَحدَّى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بسورةٍ منه، فبُهِتَ لها فُصَحاء العرب، وعَجَزُوا عن أن يأتوا بمثل سورة الكوثر التي هي أقصر السُّور؛ لأنَّ فصاحة القرآن، ووجوه بلاغته، وشريف نظمه، وجميل مزاياه ونُكاته، كلُّها خوارقٌ لا طاقة للمخلوق على الأتيان بشيءٍ منها.

وقد انطوى هذا الكتاب الكريم، والكلام القديم، على عظائم المعجزات والأخبار بالمُغيَّبات، وأتى بكلِّ حِكمةٍ لا بدَّ منها، ولا غِنَىً عنها.

ولذلك أرشدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ إلى منزلته، ودلَّنا على شريف مكانته، فقال: القرآن بحر الحكم كلِّها عند من يفهم ويَعِي ويدرك ما قرَّرناه من

---

(١) قال الله ﷻ في ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣]، وقال ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس:٣٨].

عِظَمِ شأن القرآن.

ولهذا أتبع ما قال بقوله: ولكن أين الأذن الواعية، أي: التي إذا سمعت كلام الله وعَت، وفَهِمَت بعض ما انطوى فيه من الحِكَم الرَّبانيَّة، والإرشادات الصَّمدانيَّة، ويؤيِّد هذه الحِكمَة قول النَّبيِّ ﷺ: «**القُرآنُ غِنَىً لاَ فَقْرَ بَعْدَهُ ، وَلاَ غِنَىً عَنْهُ**»(١).

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**القُرْآنُ هو النُّورُ المُبِيْنُ، والذِّكْرُ الحَكِيمُ، والصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ**»(٢). وفي هذا إبلاغٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى.

---

(١) رواه عن أنس بن مالك ﷺ: أبو يعلى في «المسند» رقم ٢٧٧٣، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم ٢٧٦، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥٨/ ٧٣-٧٤، وقال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٤/ ٥٣٥: قال العراقي سنده ضعيف.

(٢) هو جزء من حديث طويل رواه عن سيدنا علي ﷺ: الترمذي في «الجامع»: كتاب فضائل القرآن...(٤٦)، باب ما جاء في فضل القرآن (١٤) رقم ٢٩٠٦، وقال: هَذَا حديثٌ لا نَعْرِفُهُ إلا من هَذَا الوجه وَإِسنادُهُ مَجْهُولٌ، والدارمي في «السنن»: كتاب فضائل القرآن (٢٣)، باب فضل من قرأ القرآن (١) رقم٣٣٣١، وابن شيبة في «المصنف»: كتاب فضائل القرآن رقم ٣٠٠٠٧، والبيهقي في «الشعب» رقم١٩٣٥.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه

٤٠ -رَنَّةُ النَّجَاحِ تُسْمَعُ عِنْدَ قُرْبِ بَابِ الرِّضا مِنَ اللهِ؛ اِرْضَ عَنِ اللهِ، ونَمْ مَرْضِيَّاً، ولَكَ الأَمْنُ .

لا يخفى أنَّ القوم أكثروا الأقوال في ذكر الرِّضا، فمنهم من قال: الرِّضا حالٌ، ومنهم من قال: مُكْتَسَبٌ، ولهم فيه أبحاثٌ.

وقالوا: هو أن لا يعترض العبد على مقادير سيِّده.

وقالوا: الرِّضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام، وتنزُّلات الأقدار، وهذا سرُّ قول النَّبيِّ ﷺ في دعائه: «**أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ**»[1]؛ لأنَّ الرِّضا بعد القضاء، هو الرِّضا الأكمل.

ولذلك قال سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه: رنَّة النَّجاح، أي: نغمة صوت البِشر في الغيبيَّة بنجاح حال العبد بعد صدمة القضاء تُسمع، وتَظهر حالة قرعه بابَ الرِّضا من الله سبحانه وتعالى؛

ولهذا السِّرِّ قال سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه مُعلِّماً ومُرشداً: اِرْضَ عَنِ الله، ونَمْ مَرْضِيَّاً، ولَكَ الأَمْنُ بعد الرِّضا من دهشة وارد القضاء، فإنَّ العبد إذا لزم الرِّضا من سيِّده مع ضعفه وعجزه، ومسكنته واحتقاره، فلا بدَّ أن يقابله العظيم، القادر الكريم، البرُّ الرَّحيم، بما يناسب أوصاف ربوبيَّته، وشأن ألوهيَّته، من الكرم والرَّحمة، والفضل والعناية، ويجعله في ساحة إحسانه مُعزَّزاً مَكيناً، محتفلاً أميناً.

---

(١) هو جزء من حديث طويل يرويه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢١٧١٠، ٥/ ١٩١، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الدعاء والتكبير... (١٧) رقم١٩٠٠، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد. ورواه عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه: الطبراني في «الكبير» رقم ٨٢٥، وفي «الأوسط» رقم ٦٠٩١، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١١٣: ورجالهما ثقاتٌ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٤١- مَا شَمَّ رَائِحَةَ الْـمَعْرِفَةِ مَنِ افْتَخَرَ بأَبِيهِ وأُمِّهِ، وخَالِهِ وعَمِّهِ، ومَالِهِ ورِجَالِهِ؛ لَيْسَ عِنْدَ الله على شَيءٍ مَنْ رَأى نَفْسَهُ.

٤٢- لَوْ عَبَدَ اللهَ العَابِدُ بِعِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ، وفيهِ ذَرَّةٌ مِنَ الكِبْرِ، فهوَ مِنْ أَعْدَاءِ الله وأَعْدَاءِ رَسُولِهِ ﷺ.

جمعت هذه الكلمات المباركة: النهي عن التَّفاخر بالأنساب، والمال، والرِّجال، والعُجب، والكِبر، استناداً لقول رسول الله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ مِنَ الْـجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ**»[1].

وقوله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**لاَ يَدْخُلُ الْـجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[2].

وعنه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ وَلا أُبَالِي**»[3].

---

(١) رواه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: الطبراني في «المعجم الكبير» رقم ٦١٠٠، وله شاهدٌ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه رواه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٢٩٥٤، ٥/ ٣٤٢، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الجنائز (١١)، باب التشديد بالنياحة (١٠) رقم ٩٣٤، بلفظ: «أَربَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْـجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ».

(٢) رواه عن ابن مسعود رضي الله عنه: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب تحريم الكبر وبيانه (٣٩) رقم ٩١، والإمام التِّرمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة (٢٨)، باب ما جاء في الكبر (٦١) رقم ١٩٩٩، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، وأبو داود في «السنن»: كتاب اللباس (٢٧)، باب ما جاء في الكبر (٢٨) رقم ٤٠٩١، وابن ماجه في «السنن»: المقدمة، بابٌ في الإيمان (٩) رقم ٥٩.

(٣) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٧٣٧٦، ٢/ ٢٤٨، وأبو داود في «السنن»: كتاب اللباس (٢٧)، باب ما جاء في الكبر (٢٨) رقم٤٠٩٠، وابن ماجه في «السنن»: كتاب =

وقال ﷺ: «**ثلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوَىً مُتَّبَعٌ، وإِعْجَابُ الْـمَرءِ بِنَفْسِهِ**»[1].

فإذا طبَّق العاقل حِكَمَ الحضرة الأحمديَّة على هذه النُّصوص الشَّريفَة النَّبويَّة، أدرك ما في العُجب، والتَّفاخر، والكِبر، مِنَ الخطر، ووقف عند حدِّ عبديَّته بما يناسب عجز البَشر.

=

الزهد (٣٧)، باب البراءة من الكبر والتواضع (١٦) رقم ٤١٧٤.

(١) رواه عن أنس بن مالك ﷺ: الطبراني في «الأوسط» رقم ٥٤٥٢، والبيهقي في «الشعب» رقم ٧٥٤، والقضاعي في مسند الشهاب ٣٢٥، ورمز السيوطي في «الجامع» لضعفه رقم ٣٤٧٢.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٤٣- ثَلاثُ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيْهِ لا يَكُونُ وَلِيّاً إِلَّا إِذَا طَهَّرَهُ اللهُ مِنْهُنَّ: الْـحُمْقُ، والعُجْبُ، والبُخْلُ.

ولا يخفى أنَّ الحمق نتيجته سوء الخُلق، والنَّبيُّ ﷺ قال: «**حُسْنُ الْـمَلَكَةِ يُمْنٌ وَسُوْءُ الْـخُلُقِ شُؤْمٌ**»(١).

والعُجب: هو استعظام الرَّجل عَمَلَ نفسِهِ، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَـخَشِيْتُ عَلَيْكُم مَا هَوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، العُجْبَ العُجْبَ**»(٢) كررها صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ و سَلَّمَ مرتين.

والبخل: وهو الحرص، والشُّحُّ، والتَّهالك على حُطام الدُّنيا، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ، فَمَنْ كان سَخِيّاً أَخَذَ بِغُصْنٍ منها حتى يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، والشُّحُّ شَجَرَةٌ فِي النَّار، فَمَنْ كان شَحِيْحَاً أَخَذَ بِغُصْنٍ منها حتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ**»(٣).

---

(١) رواه عن رَافِعِ بن مَكِيثٍ ﵁: أبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦)، باب في حق المملوك (١٣٣) رقم٥١٦٢، والطبراني في «الكبير» رقم ٤٤٥١، وأبو يعلى في «المسند» رقم ١٥٤٤، ولفظه: «حُسْنُ الـمَلَكَةِ نَمَاءٌ وَسُوءُ الْـخُلُقِ شُؤْمٌ»، وزاد الطبراني: «وَالْبِرُّ زِيَادَةٌ فِي الْعُمُرِ، وَالصَّدَقَةُ تَمْنَعُ مَيْتَةَ السُّوءِ».

(٢) رواه عن أنس بن مالك ﵁: البيهقي في «الشعب» رقم ٧٢٥٥، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١٤٤٧، والديلمي في «الفردوس» رقم ٥١٢٦، وقال المناوي في «فيض القدير» ٥/ ٣٣١ : قال العراقي: فيه سالم أو سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال المنذري في «الترغيب» رقم ٤٤٣١: رواه البزار بسندٍ حسنٍ.

(٣) رواه عن أبي هريرة ﵁: البيهقي في «الشعب» رقم ١٠٨٧٧، وابن عدي في «الكامل» رقم ٦٦، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» رقم ٧٦، ١/ ٢٥٣، وكذلك روي عن جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري ﵃، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٤٨٠٣، وقال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٤/ ١٨١: قال الزين العراقي: وطرقها كلها ضعيفة.

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ الله تَعَالى، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الْـجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ؛ وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ الله تَعَالى، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الْـجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى الله مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ**»[1].

فتدبَّر هذه الأخبار الصَّادقة يظهر لك ما قاله سيِّدنا المؤلِّف نفعنا الله بعلومه من أنَّ الأحمق، والمُعجب بنفسه، والبخيل، لا يكون وليًّا؛ لأنَّ الوليَّ لَـمَّا كان من أحباب الله، يأبى الله أن يُخَلِّقَهُ بخُلُقٍ يكرهه.

ألا ترى سيِّدنا المؤلف ﷺ مع ما كان عليه من حُسن الخُلُق، والتَّواضع، كيف كان أجودَ مِنَ المطر تَخَلُّقاً بخُلُقِ جدِّهِ سيِّد البدو والحضر ﷺ.

فقد روى الإمام الشعراني في «مننه»[2] ما حاصله: «أنَّ حلقة سيِّدنا السيِّد أحمد الرِّفاعي المشار إليه ﷺ من إخوانه لورده ومجلس ذكره كلّ يومٍ كانت ستة عشر ألفاً، وكان يمدُّ لهم السّماط صباحاً ومساءً».

وقال صاحب «التِّرياق»: «كان السيِّد أحمد الرِّفاعي ﷺ على جانبٍ عظيمٍ من سخاء النَّفْسِ، وكرم الطبع، وما أشبهه بجدِّه ﷺ؛ فإنَّه كان يُعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، ثقةً بالله واعتماداً عليه، وفيه أقول آخذاً معنى ابن رشيق[3] في بيتيه

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الإمام التِّرمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة (٢٨)، باب ما جاء في السخاء (٤٠) رقم١٩٦١، وقال: هذا حديث غريب، والبيهقي في «الشعب» رقم١٠٨٥١، ورواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها: الطبراني في «الأوسط» رقم ٢٣٦٣، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٠٨٤٧، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٤٨٠٤.

(٢) صـ٥٥٥ـ.

(٣) قال ابن رشيق في بيتيه يمدح الأمير تميم :

أَحاديثُ تَرْويها السُّيُولُ عَنِ الْحَيا ... عَنْ البَحْرِ عَنْ كَفِّ الأَمِيرِ تَمِيم

أَصَحُّ وَأَقْوى ما سَمِعْناهُ في النَّدى ... مِنَ الْخَبَرِ المَأْثُورِ مُنْذُ قَديم

وهو الحسن بن رشيق القيرواني، أبو علي (٣٩٠ -٤٦٣)هـ: أديب، ناقد، باحث، ولد في المسيلة =

المشهورين:

أَعَزُّ رواياتِ المَكَارِمِ حُجَّة وأصدقُها قيلاً بأحسَنِ مُسندِ

حديثٌ رواه السَّيلُ عن خيرِ وابلٍ عنِ البحرِ عن كفِّ الرِّفاعيِّ أحمدِ»

=

(بالمغرب) وتعلم الصياغة، ثم مال إلى الأدب وقال الشعر، فرحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ ومدح ملكها، واشتهر فيها من كتبه: «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، و«الشذوذ في اللغة»، و«شرح موطأ مالك» وغير ذلك. انظر: «الأعلام» للزركلي ٢/ ١٩١.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الْمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٤٤- أَكْذَبُ النَّاسِ عَلَى اللهِ وَالـخَلْقِ: مَنْ رَأَى نَفْسَهُ خَيْرَاً مِنَ الـخَلْقِ؛ كُلُّ الظُّلْم: التَّعَالِي عَلَى النَّاسِ؛ الظُّلْمُ: حِرْصُ الرَّجُلِ عَلَى الـمَرَاتِبِ الكَاذِبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، ومِنْهَا أَنْ يُحِبَّ الارْتِفَاعَ على أَخِيْهِ بِكَلِمَةٍ أو جلْسَةٍ لا حَقَّ لهُ بِها؛ وعَلَى ذَلِكَ تُقَاسُ المَرَاتِبُ.

أرشدنا المؤلِّف قُدِّسَ سِرُّهُ وغَمَرَنا بِرُّهُ: أنَّ إعجاب المرء بنفسه كَذِبٌ على الله والخَلق، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١].

فكأنَّه أسند إلى الرُّبوبيَّة بغير علمٍ ولا هدىً إعلاءه على غيره من الخَلق الَّذين ربَّما كانوا عند الله كلُّهم أحسن منه، وأقرب منزلةً، وأدنى مكانةً، فَبِرؤيته نفسه خيراً من الخَلق، افترى الكذب على الله والخلق، بل وعلى نفسه.

ولهذا أتبع سيِّدنا المؤلِّف قوله المذكور بقوله: كُلُّ الظُّلمِ: التَّعَالِي على النَّاسِ، ثمَّ صرَّحَ بأنَّ الظُّلم: هو حرص الرَّجل على المراتب الكاذبة، وأنْ يُحبَّ الارتفاع على أخيه بكلمةٍ، أو جلسةٍ لا حقَّ له بها.

وما أحسن هذا المعنى؛ لأنَّ الحرص على المراتب الكاذبة، وحبَّ التَّرفُّع على النَّاس، يأخذ بصاحبه إلى المناهج الذَّميمة، وربَّما يقوده غَرضُه للكذب والفساد، وإلقاء الفتن بين العباد، ومنع من يستحق، وجرح الأعراض بسهام الأغراض، وغير ذلك مِـمَّا لا يكاد يُحصر من الخِصال القبيحة حمانا الله والمسلمين.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٤٥ - مَنْ أَخَذَ النَّاسَ بِقُوَّتِهِ القَاهِرَةِ تَرَكَ فِي قُلُوبِهِمُ الضَّغَائِنَ عَلَيهِ كيفَ كان؛ ومَنْ أَخَذَ النَّاسَ بِانْكِسَارِهِ تَرَكَ فِي قُلُوبِهِمُ الاعْتِرافَ لَهُ عَزَّ أو هَانَ.

٤٦ - نِعْمَ الرَّفِيْقُ فِي بِلادِ اللهِ تَقْوَى اللهِ؛ ونِعْمَ الْـمَرَاحُ الَّذي يَسْتَرِيْحُ القَلْبُ والبَدَنُ بِهِ الإِخْلاصُ.

أشار سيِّدنا المؤلِّف ﷺ بهذه الحِكمة للرِّفق، وعدم القهر؛ لأنَّ الرِّفق حِكمةٌ تصلح بها القلوب، والجفاء والغلظة من أسوء الخصال المُنفِّرة للطِّباع، ويؤيِّد ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**الرِّفْقُ رَأْسُ الحِكْمَةِ**»[1].

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**الرِّفْقُ بِهِ الزِّيَادَةُ والبَرَكَةُ، ومَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْـخَيْرَ**»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[آل عمران:١٥٩].

وقد أوضحت الحكمة الأحمديَّة مضمون هذه الآية الجليلة القرآنيَّة، والأحاديث الشَّريفة النَّبويَّة، ألا تراها كيف صرَّحت أنَّ مَنْ علا على النَّاس، وتغلَّب عليهم بما أفاضته القدرة إليه من القوَّة القاهرة، ولم يراع حقَّ الله في عباده لا بدَّ أن تبقى القدرة الرَّبانيَّة كميناً في قلوب الخَلق، يوشك أن تفعل سهام

---

(١) رواه عن جرير بن عبد الله ﷺ: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم٥١، والديلمي في «الفردوس» رقم ٣٢٩٨، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٤٥٢٩.

(٢) رواه عن جرير بن عبد الله ﷺ: الطبراني في «الكبير» رقم ٢٤٥٨، والديلمي في «الفردوس» رقم ٣٢٩٨، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٨: وفيه عمرو بن ثابت وهو متروك، ورواه عن جرير ﷺ مختصراً بلفظ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ»: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب البر والصلة (٤٥)، باب فضل الرفق (٢٣) رقم ٢٥٩٢، وأبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦)، باب في الرفق (١١) رقم ٤٨٠٩، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الأدب (٣٣)، باب الرفق (٩) رقم ٣٦٨٧.

الكمين المذكور بتأثيرات القلوب في ذلك الرَّجل من أي صنفٍ، ومن أي طائفةٍ كان ما لا تفعله البيض والسّمر، ولله الخلق والأمر.

ومَنْ وَفَّقه الله فتَرَدَّى برداء الانكسار لله، وعامل الخَلق بالرِّفق، لا بدَّ أنْ يُسخِّر الله له القلوب، فينقاد النَّاس إليه لساناً وجَناناً، عزيزاً كان ذلك الرَّجل، أو هيِّناً.

وإلزاماً بهذا الشَّأن، وإبعاداً عن العزَّة، قال سيِّدنا المؤلِّف: **نِعْمَ الرَّفِيْقُ في بِلادِ اللهِ تَقْوَى اللهِ؛ ونِعْمَ المَراحُ الَّذي يَسْتَرِيْحُ القَلْبُ والبَدَنُ بِهِ الإخْلاصُ.**

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق:٢- ٣].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لرجلٍ قال له أوصني: «**عَلِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فإنَّها جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ**»(١).

وحسن ما قاله ابن الوردي(٢) في لاميَّته:

واتَّــــقِ اللهِ فَتَقْــــوَى اللهِ مَـــــا	**جَــاوَرَتْ قَلْـــبَ امْــرِئٍ إلَّا وَصـــلْ**
لَــيْسَ مَـــنْ يَقْطَــعُ طرفــاً بطـــلاً	**إنَّمـــا مَـــنْ يَتَّقِـــي اللهَ البطـــلْ**

وقال سيِّدنا الأستاذ أبو المعالي، السيِّد سراج الدِّين الرِّفاعيّ البغداديّ قُدِّسَ سِرُّهُ:

---

(١) رواه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أبو يعلى في «المسند» رقم١٠٠٠، والطبراني في «الصغير» رقم ٩٤٩، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٥٤٩٥.

(٢) ابن الوردي القاضي زين الدين المعري الكندي عمر بن مظفر، أبو حفص (٦٩١- ٧٤٩)هـ: شاعر، أديب، مؤرخ، ولد في معرة النعمان، وولي القضاء بمنبج، وتوفي بحلب، من كتبه: «ديوان شعر» فيه بعض نظمه ونثره، و«تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة» نثر فيه ألفية ابن مالك في النحو، و«شرح ألفية ابن مالك» نحو، و«شرح ألفية ابن معطي» نحو، و«منطق الطير» منظومة في التصوف. «الأعلام» للزركلي ٥ / ٦٧.

لیسَ الشُّجاعُ الَّذي يَحْمِي فريستَهُ … يـومَ القتـالِ ونـارُ الحـربِ تشـتعلُ

لكـن مَـنْ كـفَّ طَرْفـاً أو ثَنَـى قـدماً … عـن الحـرامِ فـذاكَ الفـارسُ البطـلُ

وقد ظهر للعاقل أنَّ أحسن ما يستريح القلب والبدن به: الإخلاص، وهو تصفية العمل لله عن ملاحظة المخلوقين.

ومن علاماته: نسيان رؤية الأعمال، وهو: سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ يستودِعُهُ قلبَ مَنْ أحبَّهُ مِنْ عِبَادِهِ، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل عليه السلام.

وهذا ميزان النَّجاح لِـمَنْ أراد به الله الخير والفلاح.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٤٧ - لَنْ يَصِلَ العَبْدُ إلى مَرتَبَةِ أَهْلِ الكَمَالِ، وفِيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ حُرُوفِ: أَنَا.

٤٨ - الشَّطَّاحُ يَقِفُ مَعَ شَطْحِهِ حَالَةَ الشَّطْحِ إذا لَمْ يَسْقُطْ، والكَامِلُ لا يَشتَغِلُ عَنْ خِدْمَتِهِ.

٤٩ - الدَّعْوَى: بَقِيَّةُ رُعُونَةٍ فِي النَّفْسِ، لا يَحْتَمِلُهَا القَلْبُ فَيَنْطِقُ بِهَا لِسَانُ الأَحْمَقِ[1].

شَرَط المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ وصول مرتبة الكمال بالانخلاع عن الأنانيَّة البتَّة البتَّة، وبيَّن أنَّ مَنْ بقيت فيه بقيَّةٌ مِن آثارها لا يصل إلى مرتبة الكمال؛ لأنَّ مرتبة الكمال: التخلِّي عن الأوصاف الذَّميمة، والتَّحلِّي بالأوصاف الكريمة.

والأنانيَّة: إنَّما هي وصف إبليس لعنه الله، قال في شأن آدم عليه السلام: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١٢]، فأعقبه قول هذه الكلمة خِزياً، وطرداً، ولعناً والعياذ بالله.

فإذاً تعيَّنَ على سالك طريق الرَّبِّ أنْ يتبرَّأ مِن وصف إبليس، وأن يتمسَّك بذيل صاحب الخُلُقِ النَّفِيْسِ ﷺ.

ولينظر كيف قال سيِّدنا المؤلِّف أمدَّنا الله بمدده: الشَّطَّاح، أي: المُتجاوز.

وقال قومٌ: معنى الشَّطح: التَّبجُّح.

وصاحبه؛ أي: الشَّطَّاح، يقف عن التَّرقِّيات والمجاهدات، والأعمال الموجبة لإعلاء المراتب والدَّرجات، مع شطحه وتَجاوزه، مُنحطَّاً عن المراتب الرَّفيعة حالة الشَّطح، هذا إذا لم يسقط بصدمة شطحه عن مرتبته بالكلِّيَّة؛ لأنَّ الشَّطح من

---

(١) قال تقي الدين الواسطي في «ترياق المحبين» صـ٢٠ـ ناقلاً عن الإمام الرفاعي رضي الله عنه في الشَّطح ما نصُّه: «هذا الطريق واضحٌ أغلق مناهجه جماعةٌ اصطلم عليهم الحال، وما بلغوا مقام التَّمكين، فتجاوزوا بالشَّطح والدَّعوى الحدودَ، فتبعهم فريقان: فريقٌ انقاد بحسن الظنِّ، وفريقٌ قاده الجهل، وكلاهما على شفا جرفٍ، ألا إنَّ الطَّريق مَحَجةٌ بيضاء كل ما فيه من قولٍ، وفعلٍ بَطَنَ أو ظهر لا يتجاوز دائرة الشَّرع، ألا إنَّ كل طريقةٍ خالفت الشَّريعة زندقةٌ».

أعظم مزالق الأقدام؛ لأنَّ صاحبه ربَّما ينصرف عنه انطماسه وذهوله ووارد غيبته، ويعود إلى الصَّحو، ويبقى مُتكلِّماً في حضرةٍ خياليَّةٍ فيسقط، ويبعد، ويلحق بأهل الأنانيَّة حفظنا الله والمسلمين.

ولذلك أعقب سيِّدنا المؤلِّف قوله هذا بقوله: والكامل، أي: المتمكِّن في مقامه لا يشتغل عن خدمته لربِّه بشيءٍ من حوادث الأكوان، وينزِّه صدق عبديَّته عن كذب الدَّعوى؛ لأنَّ الدَّعوى من بقايا أوساخ النَّفس، تجتمع على القلب، فيضيق لها، فيقذفها إلى ساحة اللِّسان، فيتلقَّاها لسان الرَّجل الأحمق، كتلقِّي الوارد، فينطق بها.

بيِّنةٌ تشهد عليه بالنُّقصان، ولا نقصان أعظم من هذا، فافهم.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رضي الله عنه:

٥٠- التَّحَدُّثُ بِالنِّعْمَةِ ذِكْرُ القُرْبِيَّةِ، والتَّخَلُّصُ مِنْ تَجَاوُزِ مَرْتَبَةِ العَبْدِيَّةِ.

٥١- العَارِفُ لا يَنْظُرُ إلى الدُّنْيَا ولا إلى الآخِرَةِ .

٥٢- كُلُّ الكَمَالِ تَرْكُ الأَغْيَارِ، وطَرْحُ الِاسْتِبْشَارِ بِحَوَادِثِ الأَكْوَانِ، والذُّلُّ بِكِسْوَةِ الفَنَاءِ بَيْنَ يَدَيْ الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ.

نقل الإمام عبد الكريم الرَّافعي في كتابه «سواد العينين»[1] أنَّ سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه قال في كتابه «طريق السَّائرين إلى الله» ما نصُّه: «الوليُّ الجامع لا يَرى بعد تمكُّنه في مقام النِّهاية فرقاً لنفسه على غيره مع شهود نعمة الله فيه، آخذاً بسبيل نبيِّه صلى الله عليه وسلم الَّذي سَلَكَهُ بأمر ربِّه، لَـمَّا قال له تعالى في القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠]، فسقطت الفرقيَّة النَّوعية بالمِثليَّة الآدميَّة، وشوهدت النِّعمة القدوسية بذكرها المجمل.

والَّذي أراه أنَّ الوليَّ الجامع الكامل مع انحجابه عن رؤية الفرقيَّة، وتحقُّقه بشهوده النِّعمة، يتأدَّب أنْ يذكرها، بل يعترف بها، ويقوم بشكرها للمنعم تعالى إلَّا إذا جَهِل أهل مصره، أو أهل عصره قدر نعمة الله عليه، فخاف عليهم الوقوع في ورطة: «**مَنْ آذَى لِي وَلِيّاً فقدْ حَارَبَني**»[2].

---

(١) صـ ٧٩ -٨٠ـ.

(٢) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب الرقائق (٨٤)، باب التواضع (٣٨) رقم ٦١٣٧، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب البر والإحسان رقم ٣٤٧، ولفظ البخاري: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، ورواه الإمام أحمد في «مسنده» عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها رقم ٢٦٢٣٦، ٦ / ٢٥٦، بلفظ: «مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيًّا فَقَدِ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي...»، وأبو يعلى في «مسنده» عن ميمونة زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم رقم ٧٠٨٧، بلفظ: «مَنْ آذَى لي وليّاً فقد استحق محاربتي...»، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة رضي الله عنه رقم ٧٨٨٠: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْعَدَاوَةِ».

فهنالك يتحدَّث بالنِّعمة مراعياً هذه الحِكمة، صارفاً وِجْهَة القلب عن الزَّهو والعُجب والعُلوِّ على الأمثال، مُقْتبساً من أشعَّة نور الـهُدى الـمُحمَّديِّ، منطمساً في نفسه، لا تُحرِّكه زعازع النَّخوة، ولا تَهشُّهُ عواصف الأكوان، ويتساوى عنده المدح والذَّم، والذُّلُّ والعِزُّ، والفقر والغِنى.

عِلماً بأنَّ البقاء المحض والقدرة النَّافذة لله تعالى وحده، والعبد عدمٌ محضٌ عجزٌ ضعفٌ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء:٢٨]، وتسليماً للحاكم الآمر الفاعل المطلق الَّذي لا قيد يمنع نوافذ أحكامه وأوامره وأفعاله، إنَّ ربَّك على كلِّ شيءٍ قديرٍ». انتهى.

وقد أوضحت هذه المقولة المباركة ما انطوى في نصِّ كلمات الحِكَم مِنَ المعاني، ولم يبق إلَّا معنى قوله ﷺ: العَارِفُ لا يَنْظُرُ إلى الدُّنيا ولا إلى الآخِرَةِ، فإنَّ هذا المعنى المبارك مقصد الـخُلَّص من العباد الـمُتمكِّنين الَّذين تأنف نفوسهم عن الدُّنيا ونعيمها اشتغالًا بربِّهم جلَّ وعلا، ولا يطمعون في الجنَّة، ولا يخافون من النَّار، بل يعبدون الله، ويضرعون إليه طمعاً بمشاهدة وجهه الكريم في الدَّار الآخرة، وخوفاً من القطيعة والهجر.

وهذا سرُّ قول الشَّارع الكريم عليه أفضل الصَّلوات والتَّسليم: «**الدُّنْيَا حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الآخِرَةِ، وَالآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ اللهِ**»(١).

فَمِن هذا ظهر أنَّ أهل الكمال خُلُقُهم ترك الأغيار، والتَّرفُّع عن الاستبشار بحوادث الأكوان، والخضوع على بساط الفناء عن النَّفس والخَلْق بالذُّلِّ للحقِّ الحيِّ السَّرمديِّ الأبديِّ الدَّيموميِّ؛ فإنَّه سبحانه الصَّمد الَّذي لا يتحوَّل، والباقي الَّذي عليه دون غيره المُعوَّل.

---

(١) مر تخريجه صـ٦٧ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٥٣- لا تَجْعَلْ رُوَاقَ شَيْخِكَ حَرَمَاً، وقَبْرَهُ صَنَمَاً، وحَالَهُ دَفَّةَ الـمُكْدِيَةِ؛ الرَّجُلُ مَنْ يَفْتَخِرُ بِهِ شَيْخُهُ، لا مَنْ يَفْتَخِرُ بِشَيْخِهِ.

أشار رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بقوله: لا تَجْعَلْ رُوَاقَ شَيْخِكَ حَرَمَاً إلى قول النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**لَا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَالْـمَسْجِدِ الْـحَرَامِ، وَالْـمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[1].

فكأنَّه يقول قُدِّسَ سِرُّهُ لا تحثَّ النَّاس على شدِّ الرِّحال إلى رواق شيخك، كأنَّك تجعله حرماً رابعاً يجب شدُّ الرِّحال إليه؛ فإنَّ هذا من الغلوِّ حمانا الله.

وكأنَّه بقوله له: وقبره صنماً يشير إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «**لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي وثَناً يُعْبَدُ بَعْدِي**»[2]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[3].

أمر الشَّارع الكريم ﷺ بالتَّوحيد المحض، ونهى عن الزَّيغ والشِّرك، وحذَّر الأمَّة من اتِّخاذ قبور الصَّالحين أوثاناً تُعبد وتُقصد؛ لأنَّ ذلك ممَّا يهدم الدِّين

---

(١) رواه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (٢٠)، باب مسجد بيت المقدس (٦) رقم ١١٩٦، ومسلم في «الصحيح» واللفظ له: كتاب الحج (١٥) باب سفر المرأة مع محرم... (٧٤) رقم٨٢٧.

(٢) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم٧٣٥٢، ٢/ ٢٤٦، بلفظ: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً، لَعَنَ اللهُ قَوْماً اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، وأبو يعلى في «المسند» رقم٦٦٨١، بلفظ: «لا تَجْعَلنَّ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللهُ قَوْمًا...»، والبخاري في «التاريخ الكبير» رقم ١٧٧، بلفظ: «لا تَتَّخِذوا قَبْرِي وَثناً».

(٣) رواه عن جُندَب رضي الله عنه: مسلم في «الصحيح»: كتاب المساجد...(٥) باب النهي عن بناء المساجد على القبور...(٣) رقم٥٣٢، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب التاريخ (٦٠) باب من صفته وأخباره (٣) رقم ٦٤٢٥، والطبراني في «الكبير» رقم ١٦٨٦.

والعياذ بالله؛ لأنَّ الجهلة الَّذين لا يُفرِّقون بين الحقِّ والباطل: يظنُّون، بل يعتقدون أنَّ هذا المخلوق المدفون في هذا القبر المُزيَّن المحتفل المحتشم يصل ويقطع، ويُفرق ويَجمع، ويُعطي ويَمنع، وهذا الاعتقاد والعياذ بالله من الضَّلال والشِّرك بمكان؛ فلذلك نبَّه سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ إخوانه المسلمين، وحذَّرهم الوقوع في هذا الخطر العظيم، ونبَّه السَّالك أن لا يَجعل حال شيخه الَّذي كان عليه دفَّة الكَدِّ والاكتساب، وشبكة الصَّيد للدُّنيا.

وأتبعها بقوله: الرَّجُلُ مَنْ يَفْتَخِرُ بِهِ شَيْخُهُ، أي: بصدقه، وقناعته، وزهده، وتوكُّله على الله، وصفاء سريرته، وحسن التجائه إلى الله ﷻ، وكمال متابعته لنبيِّه ﷺ، لا مَنْ يفتخر بشيخه، وهو مُجَرَّدٌ من جميع الأوصاف الكريمة، مشتملٌ على الأخلاق الذَّميمة؛ فإنَّ مثل ذلك الرَّجل لا ريب بعدم دخوله في أعداد الرِّجال الخالصين، وأنَّى يكون له؟! وحضرة الحقِّ لا يدخلها إلا أهل الحقِّ.

[دخلاء الصُّوفيَّة وواجب الرَّد عليهم]

تنبيه:

قال ﷺ: «**إِذَا ظَهَرَتِ البِدعُ، ولَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَمَنْ كانَ عِندَهُ عِلْمٌ فَلْيَنْشُرْهُ؛ فَإِنَّ كَاتمَ العِلمِ يَومَئِذٍ كَكَاتِمِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[1]، رواه ابن عساكر عن معاذ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا.

وغير خافٍ أنَّ طريق الصُّوفيَّة أدخل فيه أهل الزَّيغ والبدع، وأصحاب الجهل والعناد شُبهاً كثيرةً، وجعلوه مشوباً بالمحدثات والمفاسد، وأرادوا تَحريفه عن

---

(١) رواه عن معاذ بن جبل ﷺ: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥٤/ ٨٠، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم٧٥١.

أصله حتَّى كَثُر سالكوه من هؤلاء الرَّعاع[1]، وقَلَّ طارقوه من أهل الحقيقة، المبرَّئين من الابتداع، وكَثُرت الخرافات، والأباطيل، والتُّرَّهات، المصوغة من أكذب الرِّوايات والأقاويل، وتبجَّح بإسنادها إلى الصَّالحين جماعةٌ من الكذَّابين، فأتوا مع جهلهم بما يُسْتَهجن من أساطير الأوَّلين: فجماعةٌ منهم رفعوا لواء الكفر والزَّندقة، وتجرَّؤا على الله بالقول والوحدة المطلقة!.

وجماعةٌ نشروا راية الإشراك، وتبرقعوا برداء الإرجاف عن غير إدراك، واتَّخذوا تعظيم رؤساء طريقهم شبكةً لصيد المآرب والمقاصد، وأدخلوا عليهم وعلى طريقهم بما عزوه أسوء المفاسد، فترى منهم مَنْ يُعطي لشيخ طريقته أوصاف الرُّبوبيَّة، ويأتي على ذلك بأدلَّةٍ يهزأ بها كلُّ عاقلٍ في البريَّة، وإذا نصحتَهم بما أتت به السُّنَّة والقرآن قابلوك بحكايات العجائز ما أنزل الله بها من سلطانٍ، وإذا قلت: قال الله تعالى، وقال رسوله الصَّادق العدناني، قالوا: نعم، ولكنْ قال كذلك الشَّيخ البنبائي، والهمداني.

فحينئذٍ وجب على كلٍّ من تشرَّف بِخرقة العِلم والطَّريقة، وانتسب إلى القوم أهل الحقيقة على الحقيقة: أن يُجاهد في الله حقَّ جهاده بهداية الضَّالِّين، وردِّ الشَّاردين، وستر الطَّريقة السَّمحاء من فضائح أهل القبائح، واستعمال لسان الغيرة لتبرئة أعراض السَّلف الصَّالح؛ فإنَّهم دَرجوا على التَّمسُّك بالسُّنَّة والكتاب، ووصلوا إلى الله ببركة الشَّريعة الغرَّاء من دون شكٍّ ولا ارتيابٍ.

وقد قام قومٌ لِهدم منارهم بدعوى أنَّهم مِنْ أنصارهم.

فلذلك تعيَّن على مَنِ انتسب إليهم أن يغار لهم بتنزيه جانبهم ممَّا حمله أهل البدع والجهل عليهم.

---

(١) الرَّعاعُ: الأَحداثُ، ورَعاعُ الناس: سُقَّاطُهم وسفلتُهم. «لسان العرب» مادة: (رعع).

طريــقُ القَــومِ واضِــحَةُ السَّــبيلِ مُؤَسَّسَـــةٌ علـــى الـــنَّهجِ الجَميـــلِ

رَوَاهـــا العَـــارفونَ بِـــلا نِـــزاعٍ عـــنِ المختـــارِ بالسَّـــندِ الجليـــلِ

فَمَـــنْ زادَ الطَّريـــقَ الحـــقَّ حرفـــاً يُـــردُّ وقـــد يُطالـــبُ بالـــدَّليلِ

فَخَـــلِّ الجـــاهلينَ ودعْ أذاهـــم ومـــا انتحلـــوهُ مِـــنْ قـــالٍ وقيـــلِ

ولازمْ إثـــرَ أهـــلِ اللهِ تَنْجُـــو إذا فـــرَّ الخَليـــلُ مِـــنَ الخَليـــلِ

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٥٤- مَنْ صَمَّ سَمَاعَهُ(١) عَنْ أَصْوَاتِ الأَغْيَارِ سَمِعَ نِدَاءَ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر:١٦]، **فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِ: كَذِبِهِ، وعُجْبِهِ، وأَنَانِيَّتِهِ، وَحَولِهِ وَقُوَّتِهِ، وَوَحْدَتِهِ، وَانْقَهَرَ فِي مَقَامِ عُبُودِيَّتِهِ.**

٥٥- إِيَّاكَ وَالقَوْلَ بِالوَحْدَةِ الَّتِي خَاضَ بِهَا بَعْضُ الـمُتَصَوِّفَةِ!.

٥٦- إِيَّاكَ وَالشَّطْحَ؛ فَإِنَّ الحِجَابَ بِالذُّنُوبِ أَوْلَى مِنَ الحِجَابِ بِالكُفْرِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

٥٧- إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَطِيْرُ فِي الهَوَاءِ فَلا تَعْتَبِرْهُ، حَتَّى تَزِنَ أَقوالَهُ وأَفعالَهُ بميزانِ الشَّرعِ.

٥٨- إِيَّاكَ والإِنْكَارَ عَلَى الطَّائِفَةِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، سَلِّمْ لَـهُمْ أَحْوَالَـهُمْ، إِلَّا إِذَا رَدَّهَا الشَّرْعُ فَكُنْ مَعَهُ.

أشار ﷺ إلى أنَّ مَنْ صمَّ سماع قلبه عن الالتفات إلى مظاهر أصوات الأغيار الفانية سمع بأذن روحه، وفهم بواعية سرِّه قبل الانتقال إلى الدَّار الآخرة نداءَ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر:١٦]، فَنَزَل لفَهم هذا النِّداء الـحقِّ عن مطيَّة نفسه الـمزيَّنة الـمُسَوَّمَة بآلة كذبه، وعُجْبِه، وأنانيَّته، وحَوْلِه الُمحاط بالعدم، وقوَّته المستغرقة في العجز، ووحدته الشَّاهدة عليه بالفرق، وانقهر لفهم هذا السِّرِّ في مقام عُبوديَّتِهِ، وضعفه، وعجزه، وفنائه، واتَّصف بحقيقته، وانسلخ عن تجاوزه.

ثمَّ أتبع ما قال بقوله: **إيَّاكَ والقولَ بالوحدَةِ**؛ أي: الُمطْلقة التي خاض وغَرِق بها بعضُ الـمُتَصوِّفة الـمُبعدين عن صفِّ الصُّوفيَّة.

إيَّاكَ والشَّطحَ، أي: التَّجاوز والتَّبجح؛ فإنَّ الحِجَاب الحَائل بالذُّنوب عن

(١) في «المعارف المحمدية»، و«الكليات الأحمدية»: مَنْ صَمَّ أسماعَهُ.

حضرة القرب أولى من الحجاب القاطع عن الله بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

ولا ريب فالقول بالوَحدة المطلقة شِركٌ بَحتٌ لا تأويل له.

والشَّطح بالتَّكلُّف مِن شُهود حضرةٍ خياليةٍ جراءةٌ على الله، وفيه أيضاً ما فيه مِن تجاوز الحدود الشَّرعيَّة، وهتك أستارها المرعيَّة، وتَحقير مَنْ أعزَّه الله، وإعزاز مَنْ لا خَلاقَ له عند الله، والمشاركة بأوصاف الرُّبوبيَّة كدعوى الإعطاء والمنع، والوصل والقطع، والإعلاء والوضع، والوهب والسَّلب، وأمثال ذلك من الأوصاف المخصوصة بالله، أو بمن أذن له الرَّحمن وارتضاه جلَّت قدرته.

فعلى هذا الميزان إذا رأيت الرَّجل يطير في الهواء، أو يتربَّع على الماء، فلا تعتبره، أو تدخله في أعداد الصَّالحين حتَّى تَزِنَ أقواله وأفعاله بميزان الشَّرع، فإنْ وافقه قولاً وفعلاً، فحاله مقبولٌ وممدوحٌ، وإنْ خالفه، فمردودٌ ومُقَبَّحٌ.

إيَّاكَ والإنكارَ على الطَّائِفَةِ في كلِّ قَوْلٍ وفعلٍ، لمجرَّد كونهم صوفيَّة؛ فإنَّ ذلك مِنَ الحسد والعناد، بل سلِّم لهم أحوالهم الَّذين هم عليها، إلا إذا ردَّها نصٌّ صريحٌ من نُصوص الشَّرع، فكن معه وردَّ ما ردَّه الشَّرع مُتجرِّداً مِنْ غرضك وغاية نفسك، وهذا قول أهل الحقِّ، ومذهب كلِّ محقٍّ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٥٩- التَّكَلُّمُ بِالـحَقَائِقِ قَبْلَ هَجْرِ الـخَلائِقِ مِنْ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ.

يشير إلى أنَّ التَّفكُّه بكلمات أهل الحقائق تقليداً من غير تحقيقٍ قبل هجر الخلائق، والتَّخلُّص مِنْ جميع العوائق، والعلائق، وصحَّة التَّجرُّد إلى الخالق بالعزم الخالص، والقلب الصَّادق، إنَّما هو شهوةٌ من شهوات النُّفوس لا دخل له بطريق الحقِّ أبداً.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٦٠- مَنْ عَدَلَ عَنِ الحَقِّ إلى البَاطِلِ تَبَعَاً لِـهَوَى نَفْسِهِ فَهُوَ مِنَ الضَّلالِ بِمَكَانٍ.

لا يَخفى أنَّ الحقَّ ما جاء به رسولُ الله ﷺ، وما خالفه ضلالٌ وبطلانٌ، والله تعالى قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧].

والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِـمَا جِئْتُ بِهِ**»[١].

فعلى هذا من عدل عن طريقه الكريم، وصراطه المستقيم إلى شهوات نفسه الدَّنيَّة تبعاً لهواها فهو على الضَّلالة «**وكُلّ ضَلالةٍ فِي النَّارِ**»[٢] كما أخبرنا بذلك النَّبيُّ المختار.

(١) مرَّ تخريجه صـ١٢٢ـ.

(٢) مرَّ تخريجه صـ١٢٦ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٦١- أَوَّلُ أَبْوَابِ الْـمَعْرِفَةِ: الِاسْتِئْنَاسُ باللهِ ﷻ، والزُّهْدُ أَوَّلُ قَدَمِ القَاصِدِيْنَ إلى اللهِ عز وجل.

يشير إلى أنَّ أوَّل أبواب المعرفة بالله الاستئناس بذكره ﷻ، وعبادت، والوحشة من كلِّ قاطعٍ يقطع عنه ﷻ تحقُّقاً بقوله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ...**» الحديث[1].

ثمَّ أتبع ما قال بقوله: والزُّهدُ أوَّلُ قَدَمِ القَاصِدِيْنَ إلى الله عز وجل، وهو سرُّ قول النَّبيِّ ﷺ: «**الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْـحَلاَلِ، وَلَا إِضَاعَةِ الْـمَالِ، وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا: أَنْ لاَ تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ منكَ بما فِي يَدِ الله، وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْـمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ منكَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ**»[2].

فهذا الزُّهد أوَّل قدمٍ يضعه القاصد في طريق الله إلى الله، وهو الباب الموصل إلى الحضرة العليَّة، كما شهد بذلك الواصلون إلى الحضرات القدسيَّة.

---

(١) رواه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب الرِّقاق (٨١)، باب من أحبَّ لقاء الله...(٤١) رقم٦٥٠٧، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الذِّكر...(٤٨)، باب من أحبَّ لقاء الله...(٥) رقم ٢٦٨٣.

(٢) رواه عن أبي ذر العفاري رضي الله عنه: الترمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧)، باب في ما جاء في الرهادة في الدنيا (٢٩) رقم٢٣٤٠، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد (٣٧)، باب الزهد في الدنيا (١) رقم ٤١٠٠. ورواه عن أبي الدرداء رضي الله عنه: الطبراني في «الأوسط» رقم ٧٩٥٤، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» ٩/ ٣٠٣، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٤٥٩٣.

ثمَّ قال المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٦٢- مَنْ مَاتَ مُحِبَّاً مَاتَ شَهِيْدَاً، ومَنْ عَاشَ مُخْلِصَاً عَاشَ سَعِيْدَاً، وكِلا الأمْرَيْنِ بِتَوْفِيْقِ الله تَعَالى.

٦٣- مَنْ سَلَكَ الطَّرِيْقَ بِنَفْسِهِ أُعِيْدَ قَسْرَاً؛ هَذِهِ الطَّرِيْقَةُ لا تُوْرَثُ عَنِ الأَبِ والجَدِّ إنَّما هِيَ طريقَةُ العَمَلِ والجِدِّ، والوُقُوفِ عندَ الحَدِّ، وذَرِّ الدُّمُوْعِ على الخَدِّ، والأَدَبِ مَعَ الله تَعَالى.

٦٤- ظَنَّ بَعْضُ الجَهَلَةِ أنَّ هذه الطَّريقةَ تُنَالُ بالقِيْلِ والقَالِ، والدِّرْهَمِ والمَالِ، وظَوَاهِرِ الأعْمَالِ لله لا والله؛ إنَّما نَيْلُهَا بالصِّدْقِ والانْكِسارِ، والذُّلِّ والافْتِقَارِ، واتِّبَاعِ سُنَّةِ النَّبيِّ المُخْتَارِ ﷺ، وهَجْرِ الأغْيَارِ.

أنْبَأتْ كلماتُ المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ عن أسرارٍ مُحَمَّدِيَّةٍ عجيبة المآل، جيِّدة المنوال؛ لأنَّه أشار بقوله: مَنْ مَاتَ مُحِبَّاً مَاتَ شَهِيْدَاً، إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ وَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ**»[1].

---

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» رقم ٢٥٩٧، وقال الحافظ المناوي في «فيض القدير» ٦/ ٢٤٠: وفيه سويد بن سعيد قال أحمد: متروك، وقال ابن معين: لو كان لي فرس ورمح لغزوته، قال ابن الجوزي: ومدار الحديث عليه فهو لا يصح لأجله، ورواه الحاكم من عدَّة طُرُقٍ كلها معلولة وهذا الطَّريق أمثلها، فقد قال ابن حجر: عن بعضهم إنَّه أقواها... وقد غلط في هذا الطريق بعض الرواة فأدخل إسناداً في إسناد.

وقال ابن القيم: هذا الحديث... موضوع ولا يجوز كونه من كلام المصطفى ﷺ وأطال، لكن انتصر الزركشي لتقويته، فقال: أنكره ابن معين وغيره على سويد لكنَّه لم ينفرد به، فقد رواه الزبير بن بكار، قال: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النَّبيِّ ﷺ فذكره، وهو إسنادٌ صحيحٌ، وقد ذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج، وقال: رواته ثقاتٌ.

وقال ابن عرَّاق في «تنزيه الشَّريعة» كتاب الموت والقبور رقم ٩،٢/ ٣٩٤: ذكر غير واحد من المصنفين أنَّ هذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات وأعلَّه بسويد بن سعيد، وتعقَّبوه =

هذا إذا تعلَّق عشقه وحبُّه بالأغيار، وخاف مقام ربِّه، ونهى النَّفس عن الهوى؛ فإنَّ الجنَّة هي المأوى له، وهو من الشُّهداء بصريح حديث سيِّد الأنبياء، فكيف بِمَنْ مات مُحبَّاً لله ملتفتاً عن غيره؟ أفناه العشق الإلهي فاضمحلَّ حاله، وآلَ إلى الموت مآلُه؛ فإنَّ مثل ذلك المُحبِّ بمرتبة الشَّهادة أولى من غيره بلا ريب.

وقول سيِّدنا المؤلِّف: مَنْ عَاشَ مُخْلِصَاً عَاشَ سَعِيْدَاً، يشير إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ أَخْلَصَ لله أربعينَ يَوْماً ظَهَرَتْ ينابيعُ الحِكْمَةَ مِنْ قَلْبِهِ على لِسَانِهِ**»[1].

والله تعالى يقول: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾} [البقرة:٢٦٩].

فإذا كان إخلاص العبد أربعين يوماً يصير سبباً بإذن الله لتفجُّر ينابيع الحِكمة من قلبه، ومَنْ يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، والخير الكثير لا بدَّ وأن تكون من جملته السَّعادة، فَمَنِ استغرق أوقات عمره بالإخلاص لله تثبت له السَّعادة بإذن الله.

وكِلا الأمْرَيْنِ، أي: محبَّة الله والإخلاص لله لا يتمُّ للعبد إلَّا بتوفيق الله تعالى؛ فلأجل ذلك أوجب القوم العارفون صحَّة الاستناد إلى الله، والتَّجرُّد من الاعتماد على الأعمال على كُلٍّ من طلاب الحقِّ.

ويؤيِّد ذلك قول المؤلِّف طَابَ مَرقَدَهُ: مَنْ سَلَكَ الطَّرِيْقَ بِنَفْسِهِ مُعْجَباً بها مُعتمداً على عمله، منحرفاً عن الطَّريق الَّذي سَنَّه النَّبيُّ ﷺ، أعيد إلى مقام جهله قسراً، على أنَّ الحبيب المعظم ﷺ بابُ الله الَّذي من لم يقصده منه سُدَّت عليه الطُّرق والأبواب، ورُدَّ بعصي الأدب إلى إصطبل الدَّوابِّ.

=

بأنَّ سويداً من رجال مسلم، وبأنَّه تابعه المنجنيقي، ومن طريقه أخرجه الدارقطني.

(١) مرَّ تخريجه صـ١٦٧ـ.

وتأكيداً لهذا المعنى، وتأكيداً لهذا المَبْنَى، قال صاحب الحِكَم ﵁: **هَذِهِ الطَّرِيْقَةُ لا تُوْرَثُ عَنِ الأَبِ والجَدِّ**؛ لأنَّها جوهريَّةٌ وخالص عملٍ، وليست بمالٍ ولا عَرَضٍ **إنَّما هِيَ طريقةُ العَمَلِ والجِدِّ، والوُقُوفِ عندَ الحَدِّ**، الَّذي حدَّه النَّبي المؤيَّد ﷺ، **وذَرِّ الدُّمُوْعِ** خيفةً من الله **على الخَدِّ**، والأدب معه ﷻ بكلِّ حالٍ من الأحوال، وبكلِّ فعلٍ من الأفعال.

نعم ظَنَّ بَعْضُ الجَهَلَةِ أنَّ هذه الطَّريقةَ المسنونة، والجادة المباركة الميمونة، تُنَالُ بالقِيْلِ والقَالِ، والحكايات والأمثال، والدِّرْهَمِ والمَالِ، وطقطقة النِّعال، وظَوَاهِرِ الأعْمَالِ المشوبة بالرِّياء في الأفعال! لا والله؛ إنَّما نَيْلُهَا بالصِّدْقِ والانْكِسارِ إلى الملك الجبَّار، والذُّلِّ ولافْتِقَارِ بين يدي مقدِّر الأقدار، واتِّباعِ سُنَّةِ النَّبي المُخْتَارِ ﷺ التي هي طريق النَّجاة والسَّعادة في هذه الدَّار وفي تلك الدَّار، وهَجْرِ الأغْيَارِ القاطعين عن الله في الأحوال والأقوال.

وهجر الأغيار لا يتمُّ إلا إذا تمكَّنت خشية الله في قلب العبد؛ فإنَّها متى تمكَّنت في القلب تنتج كلَّ خيرٍ بشاهد قوله ﷺ: «**خَشْيَةُ اللهِ رَأْسُ كُلِّ حِكْمَةٍ، والوَرَعُ سَيِّدُ العَمَلِ**»[1].

(١) رواه عن أنس بن مالك ﵁: أبو نعيم في «حلية الأولياء» ٢/ ٣٨٦، وابن أبي الدنيا في «الورع» رقم١١، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم ٤٠، والديلمي في «الفردوس» رقم ٢٩٦٤.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا المُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٦٥- مَنِ اعْتَزَّ بِذِي العِزَّةِ عَزَّ، ومَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ وَقَفَ مَعَهُ بِلا عِزٍّ.

الاعتزاز بالله لا يكون إلَّا عند عبدٍ صَحَّتْ محبَّته لله؛ فإنَّ محبَّة الله تمحو آثار الأغيار من القلب، ومتى انمحت آثار الأغيار من القلب سقطت هيبة الغيريَّة منه، فلا يعتزُّ مُحبُّ الله بغيره، ولا يخشى غيره.

ومن المعلوم أنَّ صِدق المحبَّة: كمال الاشتغال بالمحبوب، والانحراف عن غيره بالكلِّيَّة، والصَّبر على غُصص المحبَّة، وتحمُّل أثقالها.

وحسن ما قاله الجنيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ حين سُئِل عن المحبَّة، فقال: مَنْ ذهب عن نفسه، واتَّصل بذكر ربِّه، وقام بأداء حقوقه، ونظر إليه بقلبه فأحرقت قلبَه أنوارُ هيبته، وصفا في مناجاته: شرب من كأس حُبِّه، وكَشَفَ له المحبوبُ أستار غيبه، فهو مُحبٌّ؛ إنْ تكلَّم فبالله، وإنْ نطق فَمِنَ الله، وإنْ تحرَّك فبأمر الله، وإنْ سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله تعالى.

وقال الجنيد رضي الله عنه أيضاً: دفع السَّريِّ السَّقطي[1] رضي الله عنه إليَّ رقعةً، وقال: هذه لك خيرٌ من سبعمائة قصَّة أو حديثٍ، فإذا فيها:

ولَـمَّا ادَّعَيْتُ الـحُبَّ قالـتْ: كَـذَبْتَني ... فمـالي أَرَى الأعضـاءَ منـكَ كَواسِـيا؟!

فَمَا الحُبُّ حتَّى يلصقَ القلبُ بالحَشَا ... وتـذبلَ حتَّـى لا تجيـبُ المُنادِيـا

وتنحـلَ حتَّـى لا يُبْقِـي لـكَ الهَـوَى ... سـوى مُقْلَـةٍ تَبكِـي بهـا وتُناجِيـا

(١) هو الإمام سَرِيُّ بنُ الـمُغَلَّس السَّقَطِيُّ، كنيته أبو الحسن، وهو خالُ الجُنَيْد و أستاذُه، صحبَ معروفاً الكَرْخِيَّ، و هو أولُ من تكلم ببغداد في لسان التوحيد، و حقائق الأَحْوال، وهو إمامُ البَغْداديين، و شيخُهُم في وَقْته، بغدادي المولد والوفاة، توفي سنة (٢٥٣)هـ، وكان دفنه في مقبرة الشونيزية. انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ٩/ ١٨٧، و«طبقات الصُّوفية» للسلمي صـ٣١ـ.

ومن المعلوم أنَّ من كانت هذه صفته انصرفت إلى الله وجهته، وانقطعت عن الأغيار بالكُلِّيَّة كلِّيَّته، وتمَّ بالله تعالى عزُّه ونصرته، وهذا سرُّ قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق:٣].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ عَاذَ بالله فَقَدْ عَاذَ بِمُعَاذٍ**»[1].

وهذا ما أراده المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بقوله: **مَنِ اعْتَزَّ بِذِي العِزَّةِ عَزَّ**، وأمَّا قوله: **مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ وَقَفَ مَعَهُ بِلا عِزٍّ**، فإنَّه مأخوذٌ من قول رسول الله ﷺ: «**مَنِ اعْتَزَّ بالعَبِيْدِ أَذَلَّهُ اللهُ**»[2].

وهذا أوضح ما يقال، وأشرف ما يذكر وبه الكفاية.

(١) رواه عن سيدنا عثمان وابن عمرٍ ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٤٧٥، ١/ ٦٦، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب القضاء (٢٨) رقم ٥٠٥٦، والطبراني في «الكبير» رقم ١٣٣١٩، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٨٨٤٤، ولفظ الإمام أحمد: عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَوْهَبٍ أَنَّ عُثْمَانَ قَالَ لِابْنِ عُمَرَ: اقْضِ بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: لا أَقْضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَلا أَؤُمُّ رَجُلَيْنِ أَمَا سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ عَاذَ بِالله فَقَدْ عاذَ بِمُعَاذٍ»، قَالَ عُثْمَانُ: بَلَى، قَالَ: فَإِنِّي أَعُوذُ بِالله أَنْ تَسْتَعْمِلَنِي، فَأَعْفَاهُ وَقَالَ: لاَ تُخْبِرْ بِهَذَا أَحَداً.

(٢) رواه عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» في الأصل السابع والثمانون والمائة، في النهي عن الاعتزاز بالعبيد رقم١١٣٢، وأبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٧٤، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم٣٥٠، والعقيلي في «الضعفاء» رقم٨٣٠، قال المناوي في «فيض القدير» ٦/ ١٠٠: وفيه عبد الله بن عبد الله الأموي، قال في الميزان عن العقيلي: لا يتابع على حديثه أورد له هذا الخبر، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يخالف في روايته.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٦٦- كِتَابُ الله آيةٌ جامِعَةٌ انْدَرَجَتْ فِيْهَا الآيَاتُ الرَّبَّانيَّاتُ.

٦٧- مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِفَهْمِ بَوَاطِنِ كِتَابِهِ، والتِزَامِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ، فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الغَنِيْمَتَيْنِ، وَمَنْ أَخَذَ بِرأيِهِ ضَلَّ وانْقَطَعَ عَنِ البَاطِنِ والظَّاهِرِ.

أشار بذلك إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[١].

وقال سيِّدنا المؤلِّف في كتابه «البرهان»[٢]: «إيَّاكم ومُحدثاتِ الأمور، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ منهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[٣].

عاملوا الله بالتَّقوى، وعاملوا الخَلق بالصِّدق وحُسنِ الخُلُق، عاملوا أنفسكم بالمخالفة، وقِفُوا عند الحدود.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النحل:٩١].

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

إيَّاكم والكذبَ على الله والـخَلْقِ؛ فإنَّ الدَّعوى كذبٌ على الله وخلقه.

كلُّ العبوديَّة معرفة مقام العبديَّة

الدِّين عملٌ بالأوامر، واجتنابٌ عن النَّواهي، وخضوعٌ وانكسارٌ في الأمرين.

العمل بالأوامر يُقرِّب إلى الله، والاجتناب عن النَّواهي خوفٌ من الله.

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الحاكم في «المستدرك» واللفظ له: كتاب العلم (٢) رقم ٣١٩، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى»: كتاب أدب القاضي (٨١)، باب ما يقضي به القاضي...(٢٠) رقم ٢٠١٢٤، بلفظ: «إِنِّي قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا...»، والدارقطني في «السنن»: كتاب الأحباس (٢٤) رقم ١٤٩، بلفظ: «خَلَّفْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا...».

(٢) صـ٢٠- ٢٣ـ.

(٣) مرَّ تخريجه صـ١٢١ـ.

طلب القرب بلا أعمالٍ محالٌ وأيُّ محالٍ، الخوف مع الجراءَةِ فضيحةٌ.

أُطلُبُوا اللهَ بمتابعة رسوله ﷺ، إيَّاكم وسلوكَ طريق الله بالنَّفس والهوى، فمن سلك الطَّريق بنفسه ضَلَّ في أوَّل قَدمٍ.

أي سادة، عَظِّمُوا شأن نبيِّكم، هو البرزخ الوسط الفارق بين الخَلقِ والحقِّ، عبدُ الله، حبيبُ الله، رسول الله، أكمل خلق الله، أفضل رسل الله، الدَّال على الله، الدَّاعي إلى الله، المُخبر عن الله، الآخذ من الله، باب الكلِّ إلى الحضيرة الرَّحمانيَّة، وسيلة الكلِّ إلى الحضيرة الصَّمدانيَّة، مَنِ اتَّصلَ به اتَّصل، ومَنِ انفصل عنه انفصل، قال عليه صَلَوَاتُ اللهِ وتسليماتُهُ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»(1).

أي سادة، اعلموا أنَّ نبوَّة نبيِّنا ﷺ: باقيةٌ بعد وفاته، كبقائها حالَ حياته إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وجميع الخلق مخاطبون بشريعته النَّاسخة لجميع الشَّرائع.

ومعجزته باقيةٌ، وهي القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨].

أي سادة، من ردَّ أخباره الصَّادقة، كَمَنْ ردَّ كلام الله تعالى، آمنَّا بالله، وبكتاب الله وبكلِّ ما جاء به نبيُّنا محمَّدٌ رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]».

وقلتُ فيما يناسب هذه الحكمة المباركة ارتجالًا:

كتــــابُ اللهِ للإســـــلامِ نـــــورٌ ... بِـــهِ انْـــدَرَجَتْ جَميـــعُ المعجـــزاتِ

---

(١) مرَّ تخريجه صـ١٢٢ـ.

أتـــى بجليـــلِ بُرهـــانٍ جَلـــيٍّ ... وآيــــاتٍ صـــراحٍ بينــــاتِ

بواطِنُـــهُ طَـــوَتْ كُـــلَّ المعـــاني ... وظَـــــاهِرُهُ طريــــقٌ للنَّجـــاةِ

فَمَـــنْ أحْيَـــاهُ باطِنُـــهُ بنـــورٍ ... وظـــــاهرُهُ بعنـــوانِ الثَّبـــاتِ

فقـــدْ رَبِحَـــتْ تجارتُـــهُ بحـــقٍّ ... وأُسْـعِدَ فـي الحيـاةِ وفـي الممـاتِ

ومَـــنْ قَطَعَتْـــهُ أيـــدي الغَـــيِّ عنـــهُ ... تَقَطَّـــعَ بالمَواضِـــي الْمُرهنـــاتِ

فَخُـــذْهُ لكُـــلِّ مَكْرُمَـــةٍ طَرِيْقَـــاً ... تَفُـــزْ بالباقيـــاتِ الصَّـــالحاتِ

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٦٨- ذِكْرُ الله جُنَّةٌ[١] مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ سَمَاوِيَّةٍ، وحَادِثَةٍ أَرْضِيَّةٍ، أَجَلْ، إنَّ الذَّاكِرَ جَلِيسُ الحَقِّ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَأَدَّبَ مَعَ المَذْكُوْرِ، لِكَيْلا يُقْطَعَ عَنِ الـمُجَالَسَةِ الَّتِي هِيَ بَرَكَةُ القَبُولِ، والطَّهارَةِ مِنَ الغَفْلَةِ.

نبَّه أنَّ الذِّكر بمنزلة الحصن من النَّوازل السَّماويَّة، والحوادث الأرضيَّة، وأيَّد ذلك بقوله: إنَّ الذَّاكِرَ جَلِيسُ الحقِّ، ولا ريب أنَّ مَنْ كان جليس الحقِّ، كان في أمان الله مِنَ النَّوازل والحادثات، وقد جاء في الخبر أنَّ الله تعالى يقول: «**أنا جَلِيسُ مِنْ ذَكَرَنِي**»[٢].

وورد أيضاً أنَّ جبريل عليه السلام، قال لرسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يَقُولُ: أَعْطَيْتُ أَمَّتَكَ مَا لَـمْ أُعْطِهِ أمَّةً مِنَ الأُمَمِ، فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ يا جِبْرِيلُ، قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢]، وَلَـمْ يَقُلْ هَذَا لِغَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ**»[٣].

وفي معنى المجالسة ورد أنَّ موسى عليه السلام، قال: «**يا ربُّ، أينَ تَسكُنُ؟ قالَ: فِي قَلْبِ عَبْدِي الـمُؤْمِن**».

ومعناه سكون الذِّكر في القلب، وإلا فالرَّبُّ جلَّتْ عظمتُهُ، وعَلَتْ قُدرتُهُ منزَّهٌ عن المسكن والمكان.

فإذاً من كان جليس الحقِّ، وجب عليه كما قال سيِّدنا المؤلِّف: **أنْ يتأدَّبَ** معه سبحانه وتعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وصحَّة الاستناد إليه، وكمال الاعتماد عليه؛ لِكَيْلا يُقْطَعَ عنِ المجالَسَةِ التي هي عبارةٌ عن بَرَكَةِ القَبُولِ، بالإقبال على الحقِّ،

---

(١) الجُنَّةُ: الوِقايةُ. «لسان العرب» مادة: (جنن).

(٢) رواه عن التابعي كعب الأحبار رضي الله عنه مقطوعاً: البيهقي في «الشعب» رقم ٦٨٠، وأبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٣٧، وابن أبي شيبة في «المصنف» رقم ١٢٢٤.

(٣) لم أجده بهمتي القاصرة.

والطَّهارَة مِنَ الغَفْلَةِ التي هي الاشتغال بالخلق، وكلُّ الإفلاس الاستئناس بالنَّاس.

وقد قال العارفون: الذِّكرُ منشورُ الولاية، فمن وُفِّقَ للذِّكر فقد أُعطي المنشورَ، ومَنْ سُلِبَ الذِّكر فقد عُزِلَ.

وقال أبو عليٍّ الدَّقاق [1] قُدِّسَ سِرُّهُ: ذكرُ الله سيفُ المريد، يقاتلُ به الأعداءَ، ويدفعُ به الآفاتَ والبلاءَ، إنَّ العبدَ إذا فزعَ بقلبه إلى الله ﷻ يدفعُ عنه في الحال ما يكرهه.

وهذا سرُّ ما جاء في نصِّ الحكمة المباركة الأحمديَّة.

---

(١) الحسن بن علي بن محمد، الأستاذ أبو عليٍّ الدَّقاق النيسابوري تـ(٤٠٦)هـ: الزاهد العارف، شيخ الصوفية، تفقه بمرو عند الخضري، وأعاد على أبي بكر القفال، وبرع في الفقه، ثم سلك طريق الصوفية وصحب الأستاذ أبا القاسم النصراباذي وأخذ الطريقة عنه وزاد عليه حالاً ومقالاً، واشتهر ذكره في الآفاق وانتفع به الخلق، ومنهم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة وحكى عنه أحوالاً وكرامات. انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي ٦/ ٤٤٤، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة صـ٢٤ ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا المُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٦٩- كُلُّ لِسَانٍ يَتكَلَّمُ مُتَرْجِماً عَنْ حَضْرَةِ القَلْبِ: يُظْهِرُ بِضَاعَتَهَا، ويَفْتَحُ خِزَانَتَهَا؛ فَمَنْ طَهُرَتْ حَضْرَةُ قَلْبِهِ: طَابَ لِسَانُهُ، وعَذُبَ بَيانُهُ، فَإِنِ اعْتَبَرَ بالفَتْحِ السَّيَّالِ عَلَى لِسَانِهِ، واعْتَنَى بِتَطْهِيْرِ حَضْرَةِ القَلْبِ: ازْدَادَ عِرْفَانُهُ وبُرْهانُهُ، ومَنِ اكْتَفَى بِحَظِّ اللِّسَانِ بَقِيَ مَعَ الأقْوَالِ قَصِيْرَ البَاعِ عَنْ تَنَاوُلِ ثَمَرَاتِ الأَفْعَالِ.

أوضح رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ أنَّ مفتاح خزانة القلب، وتُرجُمان حضرتها: اللِّسان، فإنْ طاب وعَذُب فقد دلَّ على ما أضمرته زاوية القلب، وإنْ خَبُثَ وساء، فقد برز بنتيجة ما في القلب على أنَّ سرَّ المرء يظهر مِنْ فلتات لسانه كما قيل:

إنَّ الكــلامَ لفِــي الفُــؤَادِ وإنَّمــا ... جُعِـلَ اللِّســانُ علـى الفـؤادِ دلـيلا

ألا ترى كيف قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الْـمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ** »[1].

فقد اعتبر أوصاف الضمير بهفوات اللِّسان، ويؤيِّد ذلك قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**ليسَ الخُلْفُ أنْ يَعِدَ الرَّجل ومِنْ نِيَّتِهِ أنْ يَفِيَ، ولكنَّ الخُلْفَ أنْ يَعِدَ الرَّجُلَ ومِنْ نِيَّتِهِ أنْ لا يَفِيَ**»[2].

---

(١) رواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٣٨٣٩ ، ١/ ٤٠٤، والترمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة (٢٨)، باب ما جاء في اللعنة (٤٨) رقم ١٩٧٧، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الإيمان (١) رقم ٢٩، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ ، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٧٥٨٤.

(٢) رواه عن زيد بن أرقم ﷺ: أبو يعلى بهذا اللفظ كما عزاه السيوطي إليه في «الجامع» ورمز لحسنه رقم٧٥٧٥، وأبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٢)، باب في العدة (٩٠) رقم ٤٩٩٥، والبيهقي في «السنن الكبرى»: كتاب الشهادات (٨٢)، باب من وعد غيره...(٤٤) رقم ٢٠٦٢٧، وفي «الشعب» رقم ٤٣٦٤، والطبراني في «الكبير» رقم ٥٠٨٠، رووه بلفظ: «إِذَا وَعَدَ الرَّجُلُ أَخَاهُ وَمِنْ نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ لَهُ فَلَمْ يَفِ وَلَـمْ يَجِيء لِلْمِيعَادِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ».

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْـجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْـجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْـجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1].

فعلى هذا ترتَّب ما ترتَّب على اللِّسان بسبب اعترافه من حضيرة القلب، فإنْ كان المغترف صاحب قلبٍ طاهرٍ، واعْتَبَرَ حالة اغترافه من ساحة قلبه الطَّاهرة بالفتح ومطر الحكمة السَّيَّال من سماء قلبه الجاري على لسانه، وأيقظه الاعتبار فأحسن الانتباه، واعتنى بتطهير حضرة القلب فوق ما هي عليه: ازداد عِرفانه بربِّه، وعلا بُرهانه حالة نطقه.

ومن اكتفى بحظِّ اللِّسان، وحُسنِ البيان، فغفل وأهمل القلب بقي مع سبك الأقوال، وحسن الألفاظ محجوباً عن مقامات أهل الكمال، قصير الباع قاصر الهمَّة عن تناول ثمرات الأفعال التي تدخله في أعداد أعيان الرِّجال.

[العارف مطلوبه مولاه سبحانه وتعالى]

وقد قال سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه في كتابه «البرهان»[2]: «دخلَ عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ورضِيَ اللهُ عَنهُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأى أعرابياً في المسجد، يقول: إلهي، أريد منك شُويهةً، ورأى أبا بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه في زاويةٍ أخرى، يقول: إلهي، أريدك.

فشتَّان[3] ما بين المُرادَين، شتَّان ما بَيْنَ الهِمَّتين.

تلعب الآمال بالعقول، تلعب بالهمم، كلٌّ يطير بجناح همَّته إلى أمله ومَقصَد

---

(١) رواه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب الإيمان (٢)، باب فضل من استبرأ لدينه (٣٩) رقم ٥٢، ومسلم في «الصحيح»: كتاب المساقات (٢٢)، باب أخذ الحلال...(٢٠) رقم ١٥٩٩.

(٢) صـ٥٢- ٥٣ـ.

(٣) في «البرهان»: شتان ما بين المرادين.

قلبه، فإذا بلغ غاية هِمَّته وقف فلم يجاوزها، قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٤]، أي: على نيَّته وهمَّته.

أي أخي، لا تجعل غاية همَّتك ومنتهى قصدك: أنْ تَمَرَّ على الماء، أو تطير في الهواء، يصنع الطَّيرُ والحوت ما أردت.

طر بجناح هِمَّتك إلى ما لا غاية له». انتهى.

وقلت مفرداً:

لـيسَ اللِّسـانُ برافـعٍ لـكَ مِنْبَـراً ... إنْ لـم يُصَـانَ بِهمَّـةٍ وشـمائِلِ

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٧٠- رُوْحُ جِسْمِ الْـمَعْرِفَةِ الانْتِبَاهُ الدَّائِمُ، والسِّرُّ السَّلِيْمُ، والقَلْبُ الرَّحِيْمُ، والقَدَمُ الثَّابِتُ.

بيَّن سيِّدنا المؤلِّف ﷺ: أنَّ معرفة العبد بربِّه كالجسم، ولكن مجرَّد المعرفة به ﷻ على ما عليه العامَّة من الإيمان بوجوده، والاعتراف بنوافذ أقداره لا يكون كافياً في مقام المعرفة الكاملة لتجرُّد ذلك الجسم من الرُّوح الَّتي تدبِّر أعضاءه، وتقوم بحركاته وسكناته، وقد جعل المؤلِّف روح جسم المعرفة مُركَّبةً من الانتباه الدَّائم: وهو دوام التَّفكُّر بآلاء الله، والتَّبرِّي من الغفلة عن الله.

والسِّرُّ السَّليم أيضاً: وهو سلامة النِّيَّة في الأعمال من شوائب الرِّياء، والالتفات إلى الأغيار.

والقلب الرَّحيم: وهو القلب الَّذي أتحفه الله تعالى بالرَّحمة للخلق، والشَّفقة عليهم.

والقدم الثَّابت: وهو الإيمان الصَّادق الَّذي لا يشوبه الرِّيب فيما أنزل الله على رسوله ﷺ.

فعلى هذا من اجتمعت فيه هذه الخصال، فقد أتحف الله جسم معرفته بروحٍ قدسيَّةٍ تُلحقه بالقوم العارفين بالله الَّذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون؛ ولا يخفى أنَّ الانتباه الدَّائم إنَّما يحصل من الخشية من الله تعالى، والخوف منه سبحانه.

وقد صحَّ أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في بعض أدعيته المباركة: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيْكَ...**»[1] إلى آخر ما قاله في دعائه المبارك.

---

(١) رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: التِّرمذي في «الجامع»: كتاب الدعوات...(٤٩)، باب (٨٠) رقم ٣٥٠٢، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، والنَّسائي في «السنن الكبرى»: كتاب عمل اليوم والليلة (٨١)، ما يقول إذا جلس...(١١٤) رقم ١٠٢٣٤، والحاكم في «المستدرك»: كتاب =

وأمَّا السِّرُّ السَّليم: فهو اليقين الَّذي تهون به مصائب الدُّنيا، وقد سأله رسول الله ﷺ في دعائه من ربِّه.

وأمَّا القلب الرَّحيم الخاشع الأوَّاه: وهو الَّذي أشار إليه النَّبيُّ ﷺ حيث قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قُلُوْبًا أَوَّاهَةً مُخْبِتَةً مُنِيْبَةً فِي سَبِيْلِكَ**»(1).

واستعاذ من عكسه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقال في بعض أدعيته: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَقَلَبٍ لا يَخْشَعُ**»(2).

ولَـمَّا كان الخشوع من أشرف الخصال النَّاجحة المقرِّبة إلى الله تعالى سأله رسول الله ﷺ من ربِّه، واستعاذ من فقدانه، وعَرَّفنا عزَّة قدره، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ هَذِهِ الأُمَّةِ: الْـخُشُوعُ حتَّى لا يُرَى فِيْها خَاشِعَاً**»(3).

فإذاً نظام روح المعرفة: الانتباه، وسلامة السِّرِّ، ورحمة القلب، وثبوت القدم في طريق الله على ما يرضي الله، وبعد المعرفة بالله، فالطريق إليه ﷻ سهلٌ، والوصول

=

الدعاء والتكبير...(17) رقم1934، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط البخاري، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم 1505.

(1) رواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ: الحاكم في «المستدرك»: كتاب الدعاء والتكبير...(17) رقم 1957، وقال: هذا حديثٌ صحيح الأسناد، قال الحافظ المناوي في «فيض القدير» 2 / 162: وقال (أي: الحاكم) صحيح الإسناد، قال الحافظ العراقي: وليس كما قال، إلا أنَّه ورد في أحاديث جيدة الإسناد.

(قلوباً أواهة): متضرعة أو كثيرة الدعاء أو كثيرة البكاء، (مخبتة): خاشعة مطيعة متواضعة، (منيبة): راجعة.

(2) مرَّ تخريجه صـ176ـ.

(3) رواه عن أبي الدَّرداء ﷺ: الطبراني في «مسند الشاميين» رقم 1579، وعزاه السيوطي في «الجامع» للطبراني في «الكبير» أيضاً عن أبي الدَّرداء ﷺ ورمز لحسنه رقم 2822، ورواه عن شداد بن أوس ﷺ: الطبراني في «الكبير» رقم 7183، ولفظه: «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ».

إليه جَلَّتْ قُدْرَتُهُ بتوفيقه هيِّنٌ، والمحجَّة البيضاء شريعة حبيبه سيِّد الأنبياء ﷺ واضحة السَّبيل لا ضلال بعدها أبداً.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٧١- مِنَ الحِكْمَةِ: أَنْ تُوْدِعَ المَعْرُوْفَ أَهْلَهُ، ومِنَ الصِّدْقِ: أَنْ لا تَمْنَعَهُ غَيْرَ أَهْلِهِ، وثَمَرَةُ الصَّنِيْعَيْنِ مِنَ الله تَعَالى.

٧٢- إِذَا أُوْدِعْتَ مَعْرُوْفَاً فَلا تَكْفُرْهُ؛ فإِنَّهُ ثَقِيْلٌ عِنْدَ الله.

٧٣- مَا أَفْلَحَ مَنْ دَسَّ، ولا عَزَّ مَنْ ظَلَمَ، ولا يَتِمُّ حَالٌ لِبَاغٍ، ولا يُخْذَلُ عَبْدٌ رَضِيَ بِالله وَكِيْلاً وَنَصِيْرَاً.

٧٤- مُشَكِّكٌ لا يُفْلِحُ، ودَسَّاسٌ لا يَصِلُ، وبَخِيْلٌ لا يَسُوْدُ، وحَسُوْدٌ لا يُنْصَرُ، وكَلْبُ الدُّنْيَا لا يَسْتَوْلِي عَلَى لَـحْم جِيْفَتِهَا؛ واللهُ مُحَوِّلُ الأَحْوَالِ.

٧٥- غَارَةُ الله تَقْصِمُ وتَقْهَرُ، وتُدَمِّرُ وتَفْعَلُ، وتَقْلِبُ حَالَ مَـمْلَكَةٍ كِسْرَوِيَّةٍ لِكَسْرِ قَلبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ انْتَصَرَ بِالله.

أراد سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بقوله: **مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ تُوْدِعَ المعروفَ أهلَهُ**؛ أي: من الحكمة العقليَّة التي يطمئنُّ إليها الطَّبع، وتسكن لها النَّفس، إيداع المعروف أهل الاستحقاق الَّذين يعرفون قدره، ويقومون بواجبات شكره.

وأراد بقوله: **ومِنَ الصِّدقِ أنْ لا تَمْنَعَهُ غَيْرَ أهلِهِ**؛ أي: ومن الصِّدق مع الله ﷻ أنْ تودع المعروف عباد الله المستحق منهم، وغير المستحقِّ لا لجزاءٍ ولا لشكرٍ، بل لله جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وأنْ تطلب ثمرة الصَّنيعين اللَّذين هما إيداع المعروف عند المستحقِّ وغيره من الله تعالى.

ويناسب هذا المعنى قول القائل:

يـدُ المعـروفِ غُـنمٌ حيـثُ كانـت	**تَحمَّلَهــــا كَفــــورٌ أو شــــكورُ**
ففــي شُــكرِ الشَّــكورِ لهــا جــزاءٌ	**وعنـــدَ اللهِ مـــا كفـــرَ الكفـــورُ**

وألزم سيِّدنا المؤلِّف بالاعتراف بالمعروف فقال: إذا أُوْدِعْتَ مَعروفاً فلا تَكْفُرهُ

هذا إن كان المعروف كثيراً أو قليلاً.

وكُفْر المعروف: تغطيته وستره وكتمانه، وسرُّ هذه الحكمة مأخوذٌ من قوله ﷺ: «**مَنْ أُوْدِعَ مَعْرُوفًا فَلْيَنْشُرْهُ، فَإِنْ نَشَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ**»(١).

وروى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ**»(٢).

وما أحسن قول القائل:

فلو كانَ يستغْنِي عنِ الشُّكرِ ماجدٌ ... لعِــزَّةِ مُلْــكِ أو عُلُــوِّ مكــانِ

لمَّــا أمَــرَ اللهُ العبــادَ بشــكرِهِ ... فقــال: اشــكروا لــي أيُّهــا الثَّقــلانِ

وقال قُدِّسَ سِرُّهُ: **ما أفلَحَ مَنْ دَسَّ**، الدَّسُّ: من التَّدسيس، وهو إخفاء الشَّيءِ في الشَّيء.

بَيَّنَ ﷺ أنَّ استعمال الدَّسيسة المضرَّة للنَّاس، المذمومة في الدِّين: قاطعةٌ لأسباب الفلاح، وموجبةٌ للخيبة والعياذ بالله قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس]؛ أي: قد أفلح من زكَّى نفسه بأنْ طهَّرها من الذُّنوب بفعل الطَّاعة، ومجانبةِ المعصية؛ وقد خاب من دسَّاها، أي: من دسَّ نفسه في الفجور، أو دسَّ نفسه في الصَّالحين وليس منهم، أو اشتغل بالمعاصي ودسَّ أفعاله أو أخفاها عن النَّاس ليظهر لهم صلاح حاله حياءً منهم، مع عدم الحياء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) رواه عن طلحة رضي الله عنه: الطبراني في «الكبير» رقم ٢١١، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» رقم ٨٣٦ ، وقال: إسناده حسن، ولفظهما: «مَنْ أُولِيَ مَعْرُوفًا فَلْيَذْكُرْهُ، فَمَنْ ذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ».

(٢) الإمام أحمد في «المسند» رقم ٧٩٢٦،٢/ ٢٩٥، والترمذي في «الجامع»: كتاب البر والصلة (٢٨)، باب ما جاء في الشكر... (٣٥) رقم ١٩٥٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦)، باب شكر المعروف (١٢) ٤٨١١.

وقال: **ولا عزَّ من ظلم**، أي: لا يصل إلى مقام العزَّة المقبولة عند الله المحبوبة لدى النُّفوس من ظلم، أي: مَن غيَّر الموضوعات عن مواضعها، فوضع الشَّيء في غير موضعه، وعدا على النَّاس.

وقد ورد أنَّ أعظم دليلٍ على سلب الإيمان - والعياذ بالله - كثرة ظلم أهل الإيمان، وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَـمُوا**»(١).

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**الظَّلَمَةُ وأَعْوَانهُمْ فِي النَّارِ**»(٢).

وقول المؤلِّف رضي الله عنه: **ولا يتمُّ حالُ لباغٍ**، مأخوذٌ من قوله صلى الله عليه وسلم: «**لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدُكَّ البَاغِي مِنْهُمَا** »(٣).

وقوله : **ولا يُخذل عبدٌ رضي بالله وكيلاً ونصيراً**، يؤيِّده قول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَينَ النَّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ سَرِيْرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلانِيَّتَهُ**»(٤).

وقوله تعالى عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وقد أتبع سيِّدنا المؤلِّف كلامه الَّذي ذكر بقوله: **مُشَكِّكٌ لا يُفْلِحُ، ودَسَّاسٌ لا يَصِلُ**، أراد بذلك أنَّ من كان على شكٍّ وريبةٍ في أمره مع ربِّه لا يفلح أبداً؛ لأنَّ

---

(١) رواه عن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه: مسلم في «الصحيح»: كتاب البر والصلة والآداب (٤٥)، باب تحريم الظلم (١٥) رقم ٢٥٧٧، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب الرقائق (٧)، باب التوبة (٢) رقم ٦١٩.

(٢) رواه عن حذيفة رضي الله عنه: الديلمي في «الفردوس» رقم ٤٠٠٠، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٥٣٥٦.

(٣) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً: البخاري في «الأدب المفرد» رقم ٥٨٨، وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٣٢٢، وعزاه السيوطي في «الجامع» لابن لال في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ورمز لضعفه رقم ٧٤٣٠.

(٤) عزاه السيوطي في «الجامع» إلى الحاكم في «تاريخ نيسابور» عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه ورمز لصحته رقم ٨٣٣٩.

الفلاح مشروطٌ بتزكية القلب، وطهارة النَّفس، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩].

والدَّسَّاس الَّذي يدسُّ نفسه في زمرة الصَّالحين وأهل الحقِّ ليس منهم، لا يصل إلى حضرة الحقِّ، ولا يُحسب من أهل الحقِّ، وأنَّى يكون له ذلك والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**مَنْ تَزَيَّنَ بِعَمَلِ الآخِرَةِ وَهُوَ لا يُرِيْدُهَا وَلا يَطْلُبُهَا لُعِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**»(١).

وقول المؤلِّف: **وبَخِيْلٌ لا يَسُودُ، وحسودٌ لا يُنْصَرُ**، صريح المفاد، ثابت المعنى عقلاً ونقلاً على أنَّ السِّيادة لا تتمُّ لبخيلٍ على قومٍ، ويؤيِّد ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالى، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ؛ وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالى، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ**»(٢).

ويكفيك في هذا البحث قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرًا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡ ﴾ الآية [آل عمران:٧٣].

فإذاً مَنْ كان بعيداً عن الله لا تتمُّ له سيادةٌ على النَّاس، وأمَّا الحاسد، فهو أقبح من البخيل؛ لأنَّ البخيل يمنع ماله، ويقطع نفعه عن النَّاس، والحسود يغضب إذا انتفع النَّاس من النَّاس، ولا يكتفي بذلك، بل يريد زوال نعمة الله عن محسوده.

وإذاً من كانت هكذا سريرته ساءت بين النَّاس سيرته، ومن ساءت سيرته، قلَّ شاكره، وعزَّ ناصره، والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ يقول: «**لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوْا**»(٣)، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لَيْسَ مِنِّي ذُوْ**

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الطبراني في «الأوسط» رقم ٤٧٧٦، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ٢٢٠: وفيه اسماعيل بن يحيى التيمي، وهو كذَّاب.

(٢) مرَّ تخريجه صـ٢٠٢ـ.

(٣) الطبراني في «الكبير» رقم ٨١٥٧، وقال المنذري في «الترغيب» رقم ٤٣٧٨: رواه الطبراني =

حَسَدٍ...»[1] الحديث.

وقول المؤلِّف قُدِّسَ سِرُّهُ في بقيَّة كلامه: وكلبُ الدُّنيا لا يَسْتَولِي على لحمِ جِيفَتِها، شبَّه الدُّنيا بالجيفة المنتنة، وطالِبَها الحريص عليها بالكلب، إشارةً لِمَا ورد في الخبر وهو: «**الدُّنْيَا جِيْفَةٌ، وَطُلاَّبُهَا كِلابٌ**»[2]، وإيضاحاً للمغرور بالأيَّام، الحريص على الحطام أنَّ إمكانه دون طلبه؛ لأنَّ: «**الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لاَ دَارَ لَهُ، ويَبْنِيهَا مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ**»[3] كما جاء في الخبر، كيف لا، وأيَّامها زوالٌ، ولياليها تمرُّ كالخيال.

ويعجبني من هذا المعنى قول سويد بن عامر المُصْطَلِقي الَّذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَدْرَكْتُهُ لأَسْلَمَ**»[4] بنا نصُّه:

لا تَأْمَنَنَّ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ ... إِنَّ الْمَنَايَا بِكَفَّيْ كُلِّ إِنْسَانِ

=

ورجاله ثقات، وكذلك قال الهيثمي أيضاً في «مجمع الزوائد» ٨ / ٧٨ .

(١) رواه عن عبد الله بن بسر ﵁: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢١ / ٣٣٤، وعزاه السيوطي في «الجامع» للطبراني في «الكبير» ورمز لحسنه رقم٧٧٠٠، ومتنه: «ليسَ منِّي ذو حَسَدٍ، ولا نميمةٍ ولا كهانةٍ، ولا أنا منه»، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨ / ٩١: فيه سليمان بن سلمة الخبائزي وهو متروك؛ وقال الحافظ المناوي في «الفيض» ٥/ ٥٠٧: لم يصب السيوطي في رمزه لحسنه.

(٢) رواه عن سيدنا عليٍّ ﵁ موقوفاً: أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٢٣٨، ولفظه: «الدُّنيا جيفةٌ مَنْ أرادَها فَلْيَصْبِرْ على مخالطةِ الكلابِ».

(٣) رواه عن السيِّدة عائشة رضي الله عنها: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٤٤٦٤، ٦/ ٧١، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٠٦٣٨، ورواه أيضا عن ابن مسعود ﵁ موقوفاً برقم ١٠٦٣٧، ومتنه: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ»، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٤٢٧٤، وقال المنذري في «الترغيب» رقم ٤٩١٢: رواه أحمد والبيهقي، وإسنادهما جيد، وقال الهيثمي «في المجمع» ١٠/ ٢٨٨: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة.

(٤) رواه عن يزيد بن عمرو بن مسلم الخزاعي المصطلقي عن أبيه عن جده: الطبراني في «الكبير» رقم ١٠٤٩، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٤ / ٦٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨ / ١٢٦: رواه الطبراني والبزار عن يعقوب بن محمد الزهري عن شيخٍ مجهولٍ، هو مردود بلا خلاف.

وَاسْـلُكْ طَرِيقَـكَ تَمْـشِ غَيْـرَ مُخْتَشِـعٍ حَتَّـى تُلاقِـي مَـا يُمَنِّـي لَـكَ الْـمَانِي

فَكُـــلُّ ذِي صَـــاحِبٍ يَوْمـــاً مُفَارِقُـــهُ وَكُـــلُّ زَادٍ وَإِنْ أَبْقَيْتَـــهُ فَـــانِي

وَالخَيْـرُ وَالشَّـرُّ مَقْرُونَـانِ فِـي قَـرَنٍ بِكُـــلِّ ذَاكَ يَأْتِيـــكَ الجَدِيـــدَانِ

وانظر ما ألطف قول المؤلِّف ﷺ: **واللهُ مُحَوِّلُ الأحوالِ**، فإنَّ هذه الكلمات أتت بعد الجملة الأولى مُؤكِّدةٌ لمعانيها، مُشيِّدةٌ لمبانيها.

وأتبعها بقوله: **غارة الله تقصم**؛ أي: تقدُّ، وتقطع، وتقهر، وتُدَمِّر، وتفعل كلَّ أفعال القهر والبطش تعزُّزاً وانفراداً بالقدرة والطَّول، والقُوَّة والحَول، وتقلب حال مملكة كسرويةٍ من العزِّ والشَّوكة، والرِّفعة والمِكْنة إلى الخزي والذُّلِّ بسبب كسر قلب عبدٍ اعترف بعبديَّته، منقطع عن الأغيار لسيِّده، مؤمن متوكِّل بصدق الإيمان على الله، وقد انتصر متجرِّداً عن حوله وقوته بالله، ولا يبعد ذلك على قدرة الله إنَّ ربَّك على كلِّ شيءٍ قديرٍ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الْمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٧٦- كُلُّ النَّاسِ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فَيُغَانُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ؛ فَالْـمُحَمَّدِيُّ يَسْتَغْفِرُ وَيَدفَعُ الحِجَابَ، والـمَحْجُوْبُ يَزْدَادُ طَمْسَاً عَلَى طَمْسٍ؛ والـمَعْصُوْمُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ.

أشار بهذه الحكمة لقول النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[١].

قال الإمام عبد الرؤوف المُناوي[٢] قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه «التَّيسير على الجامع الصغير»[٣] عند شرح هذا الحديث ما نصُّه: « (إِنَّه) أي: الشأن (لَيُغَانُ) بغين معجمة من الغين الغطاء (على قلبي) الجار والمجرور نائب عن فاعل يغان؛ أي: ليغشى قلبي (وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ) أطلب منه الغفر؛ أي: الستر (في اليوم) الواحد (مائة مرَّةٍ) وهذا غَيْنُ أنوارٍ، لا غين أغيارٍ، ولا حجابٍ، ولا غفلةٍ، وأراد بالمائة التكثير، فلا ينافي رواية سبعين». انتهى.

وأوضح سيِّدنا المؤلف قُدِّسَ سِرُّهُ أنَّ حجاب الغين يغشي قلوب النَّاس جميعاً فتنحجب عن لذائذ الحضور برؤية الأنفس، **فالمحمَّديُّ**؛ أي: المؤمن الَّذي تخلَّق بخُلُق النَّبيِّ ﷺ، واقتدى به بالأقوال والأفعال: يستغفر الله، ويدفع الحجاب

---

(١) رواه عن الأَغَرِّ الْـمُزَنِيِّ رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم١٧٨٨١، ٤/ ٢١١، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الذكر والدعاء...(٤٨) باب استحباب الاستغفار...(١٢) رقم ٢٧٠٢، وأبو داود في «السنن»: كتاب الصلاة (٢) باب في الاستغفار (٣٦٢) رقم ١٥١٥.

(٢) محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المُناوي القاهري، زين الدين (٩٥٢-١٠٣١)هـ: من كبار العلماء بالدين والفنون، انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، فمرض وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تآليفه، له نحو ثمانين مصنفاً، منها الكبير والصغير والتام والناقص، عاش في القاهرة، وتوفي بها، من كتبه: «التيسير» في شرح الجامع الصغير، وشرحه الكبير «فيض القدير»، «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية». انظر: «الأعلام» للزركلي ٦/ ٢٠٤.

(٣) ١/ ٧٤٢.

بذكر الله، فتنجلي حضيرة قلبه برجوعه من غَيِّ نفسه إلى ربِّه، وهذا الخُلُق من سرِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف:٢٠١].

وملخَّص ما ذكره الإمام الرَّازي في تفسير الآية: «إنَّ الطَّائف قراءة الكسائي[1] (طيف) بغير ألف وابن كثير[2] وأبو عمرو[3] كذلك، والباقون (طائف) بالألف، واختلفوا في معناه، وفيه: فمنهم من قال: إنَّه مصدرٌ؛ ومنهم من قال غير ذلك؛ وقال بعضهم في معناه: إنَّه الغضب والوسوسة؛ وقالوا: إنَّه الخاطر؛ وقالوا: إنَّه ما يطوف حول القلب من الخيال، وغير ذلك.

فالمتَّقون إذا مسَّهم هذا الطَّائف من الشَّيطان حالة غضبٍ على عجزه لا يقدرون على الدَّفع عن أنفسهم: ذكروا الله ﷻ وتحقَّقوا أنَّ كلَّ واحدٍ منهم عاجزٌ بالنِّسبة إلى قدرة الله، وتذكَّروا أيضاً ما أمرهم به من ترك إمضاء الغضب،

(١) علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي تـ(١٨٩)هـ: أمام في اللغة والنحو والقراءة، من أهل الكوفة، ولد في إحدى قراها، وتعلَّم بها، وقرأ النحو بعد الكبر، وتَنَقَّل في البادية، وسكن بغداد، وتوفي بالرّي، عن سبعين عاماً، وهو مؤدّب الرّشيد العبّاسي وابنه الأمين، له تصانيف، منها: «معاني القرآن»، و«القراءات»، و«المتشابه في القرآن». انظر: «الأعلام» للزركلي٤/ ٢٨٣.

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين (٧٠١-٧٧٤)هـ: حافظٌ مؤرخٌ فقيهٌ، ولد في قريةٍ من أعمال بصرى الشَّام، وانتقل مع أخٍ له إلى دمشق سنة (٧٠٦)هـ، ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق، وتناقل النَّاس تصانيفه في حياته، من كتبه: «البداية والنهاية»، و«تفسير القرآن الكريم». انظر: «الأعلام» للزركلي١ / ٣٢٠.

(٣) الإمام عثمان بن سعيد بن عثمان، أبو عمرو الدَّاني، ويقال له ابن الصَّيرفي، من موالي بني أمية (٣٧١-٤٤٤)هـ: أحد حفاظ الحديث، ومن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره، من أهل دانية بالأندلس، دخل المشرق، فحج وزار مصر، وعاد فتوفي في بلده، له أكثر من مائة تصنيف، منها «التيسير» في القراءات السبع، و«طبقات القراء» وغير ذلك. انظر: «الأعلام» للزركلي ٤/ ٢٠٦.

والرُّجوع إلى ترك الإيذاء والإيحاش، فتنقلب قلوبهم عند حضور هذه التَّذكرات في عقولهم إلى إسداء الخير للمغضوب عليهم، والعفو في الحال، يزول طائف الشَّيطان، ويحصل الاستبصار والانكشاف، والتَّجلِّي والخلاص من وسوسة الشَّيطان».

هذا ملخَّص ما ذكره الفخر رحمه الله والَّذي عليه مشايخنا السَّادة الرِّفاعيَّة: أنَّ الَّذين اتَّقوا، أي: الَّذين خافوا الله إذا مسَّهم خاطرٌ من الشَّيطان فزيَّن لهم عملاً قبيحاً غير مرضي عهد الله، وانحجب القلب حالة تغطيته بالخاطر المذكور: ذكروا الله فزانوا الخاطر بميزان الشَّرع، وحاسبوا أنفسهم، وتذكَّروا عذاب الله وغضبه، فدفعوا بهذا حجاب الغَيْن عن القلب، فإذا هم مفاجأة في الحال مبصرون بأعين بصائر الطَّريق الحقِّ والباطل، فيدفعون الشَّيطان، وما أتى به من البطلان، ويشدُّون مَآزر الحزم، وحزم العزم إلى طاعة الله ومرضاته، ويستغفرون الله ندماً عمَّا أَلَـمَّ بهم من الخواطر الشَّيطانيَّة، معرضين عن الأغيار بالكُلِّيَّة.

هذا شأن من كان محمَّديُّ القدم، وأمَّا من كان محجوباً عن التَّقوى، وخوف الله إذا مسَّه طائفٌ من الشَّيطان ازداد طمساً على طمسٍ، وحجاباً عن حجابٍ، والعصمة والوقاية من الله ﷻ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٧٧- لا دَوَاءَ لِلْحُمْقِ، وَلا دَافِعَ لِلْحَقِّ، وَلا صُحْبَةَ لِلْمَغْرُوْرِ، وَلا عَهْدَ لِلْغَادِرِ، وَلا نُوْرَ للغَافِلِ، وَلا إِيمَانَ لِـمَنْ لا عَهْدَ لَهُ.

٧٨- كَتَبَ اللهُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ زَكِيَّةٍ أَنْ تُعَذَّبَ فِي الدُّنْيَا بِأَيْدِي الأَشْرَارِ، وَأَلْسِنَةِ الفُجَّارِ.

وَكَتَبَ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ خَبِيْثَةٍ أَنْ تُسِيءَ لِلْمُحْسِنِ، وَأَنْ تَمْكُرَ بالْـمُجْمَلِ، والعَوْنُ الإِلهِيُّ مُحِيْطٌ بِالعَبْدِ الْـمُخْلِصِ الْـمُنْكَسِرِ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠].

٧٩- عَلامَةُ العَدُوِّ: أَنْ يَرْغَبَ بِمَا فِي يَدَيْكَ، وَأَنْ يَرْغَبَ عَنْكَ إِذَا قَلَّ مَالُكَ، وَأَنْ يَسْتَلَّ سَيْفَ لِسَانِهِ بِمَغِيْبَتِكَ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ تُمْدَحَ فَدَعْهُ لله، فَهُوَ عَثُوْرٌ عَلَى رَأْسِهِ، كَالنَّارِ تَأْكُلُ حَطَبَهَا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥].

وعَلامَةُ الصَّدِيقِ: أَنْ يُحِبَّكَ لله، فَالْصَقْ بِهِ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْـمَحَبَّةِ لله قَلِيْلٌ.

أراد بقوله: **لا دواءَ للحُمْقِ**، قطع الأمل عن معالجة الأحمق؛ لأنَّ الحمق داءٌ غريزٌ في الطَّبع لا ينسلخ إلا بانسلاخ الرُّوح عن البدن، ولذلك ورد أنَّ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يقول: «مَا أَعْجَزَنِي إِحْيَاءُ الـمُوتَى، وَلَكِنْ أَعْجَزَنِي مُعَالَـجَةُ الأَحْمَقِ».

ومما يُنسب للإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه قوله:

لِكُـــلِّ داءٍ دواءٌ يُسْـــتَطَبُ بِــــهِ	**إلَّا الحماقَــةَ أَعْيَــتْ مَــنْ يُــداويْهَا**

ولهذا نهى الشَّرع عن مصاحبة الأحمق، وجاء في الأثر: «**الصُّحْبَةُ معَ العَاقِلِ زِيَادَةٌ فِي الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ، والصُّحبَةُ معَ الأحمَقِ نُقْصَانٌ في الدِّينِ والدُّنيا، وحَسْرَةٌ ونَدَامَةٌ عندَ الموتِ، وخَسَارةٌ في الآخِرَةِ**»[1].

---

(١) رواه عن أنس بن مالك ﵁: الديلمي في «الفردوس» رقم ٣٨٦٧.

وقول المؤلِّف: **ولا دافِعَ للحَقِّ**، مؤيَّد بقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الآية [يونس:٨٢].

من أحسن الحكم في هذا المعنى قول عليٍّ أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: «**للحَقِّ نورٌ يَبْرُزُ ضَعِيْفَاً مُضْمَحِلاً ثُمَّ ينمُو ويَعْظُمُ، وللباطلِ صَوْلَةٌ تَبْرُزُ قويَّةً ثُمَّ تَضْمَحِلُّ وتَضْعَفُ حتَّى لا يَبْقَى لَهَا أثَرٌ**».

ويُناسب هذا المعنى قول الفاضل عبد الباقي العمري الموصلِّي[1] رحمه الله في الإمام عليٍّ أمير المؤمنين رضي الله عنه:

إذا الحــقَّ انْتَمَــى لِحِمَــى عَلِــيٍّ   فَــلا تَعْجَــبْ فــإنَّ الحــقَّ يَعْلُــو

وانظر كيف يقول النَّبيُّ الكريم ﷺ: «**الحقُّ أَصْلٌ فِي الجنَّةِ، والبَاطِلُ أَصْلٌ فِي النَّارِ**»[2].

وقول سيِّدنا المؤلِّف: **ولا صُحْبَةَ للمغرورِ**، حِكمةٌ جليلةٌ؛ لأنَّ المغرور برأيه، الـمُعجب بنفسه لا يعرف قدر صاحبه، ولا يَتَّبِع رأيه، ويرى أنَّه على كلِّ شيءٍ حال كونه ليس بشيءٍ، فإذاً لا يتمكَّن العاقل من صحبته.

وقوله: **ولا عَهدَ للغَادِرِ**، مبرهنٌ بالطَّبع؛ فإنَّ من كان طبعه الغدر لا يقف عند عهدٍ، ولا يتقيَّد بحدٍّ.

وقوله: **ولا نُورَ للغَافِلِ**، ثابتٌ بالبداهة؛ لأنَّ الغفلة ظلمةٌ، والانتباه نورٌ، وهما ضدَّان، والضِّدَّان: لا يجتمعان، ومن الغفلة عند الله تنتج المعاصي، والمعاصي تُنتِجُ

---

(١) عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلي (١٢٠٤-١٢٧٩)هـ: شاعر، مؤرخ، ولد بالموصل، وولي فيها ثم ببغداد أعمالاً حكوميَّةً، وتوفي ببغداد، له: «جريدة الأخبار» وهو ديوان شعره، و«نزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر»، و«الباقيات الصالحات» قصائد في مدح أهل البيت، وغير ذلك. انظر: «الأعلام» للزركلي٣ / ٢٧٢.

(٢) رواه عن سيدنا عمر رضي الله عنه: الطبراني في «الأوسط» رقم ٦٤٠٥، والبخاري في «التاريخ الكبير» رقم ١٣٣٥، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٣٨٢٥.

سوء الفهم حتَّى يضلَّ صاحبها سواء السَّبيل.

وقد أنشد الإمام الشَّافعي ﵁ هضماً لنفسه، وتعليماً لغيره:

شكوتُ إلى وكيعٍ سُوءَ فَهمِي ... فأرشَدَنِي إلى تَرْكِ المعاصِي

وأخبرَنِي بأنَّ العِلمَ نورٌ ... ونُورُ اللهِ لا يُهْدَى لِعاصِي

وقد أوجز سيِّدنا المؤلِّف الحِكمَة فذكر ما جاء في السُّنَّةِ بقوله: **ولا إيمَانَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ**، وبيان ذلك أنَّ الرَّجل لا يجترئ على نقض العهد والميثاق بعد أن جعل الله عليه وكيلاً إلاَّ لأحد أمرين: إمَّا أنَّه لا يعتقد اللِّقاء، ولا يخشى الحساب، وإمَّا أن يستخف بعهد الله، وكلاهما - والعياذ بالله - نقصٌ في الدِّين والإيمان، ونزغٌ ودسيسةٌ من عمل الشَّيطان.

وقوله: **كتبَ اللهُ**، أي: قضى وقدَّر على كُلِّ نَفْسٍ زكيَّةٍ صالحةٍ مطهَّرةٍ من العيوب المذمومة شرعاً: **أنْ تُعَذَّبَ** وتُهان بنسبة حالها سواء كانت كبيرةً أو صغيرةً في الدُّنيا **بأيدِي الأشرَارِ**، أي: بما اكتسبته أيديهم من المساعي القبيحة، وأن تساء بألسنة الفجَّار فتذمَّ بلا موجب، وتُستغاب بلا سببٍ، وتُذكر بالسُّوء وهي مُبرَّأةٌ، وذلك لهوان هذه الدُّنيا عند الله، ولكونه أراد ﷻ أن يرفع لتلك النَّفس الزَّكيَّة الرَّضيَّة لواء عزٍّ في الآخرة الباقية.

وكتب ﷻ وقضى وقدَّر على كلِّ نفسٍ خبيثةٍ منحرفةٍ عن طريق الحقِّ أن تسيء لِمَنْ أحسن إليها، وأن تَمْكُرَ بِمَن عاملها بالجميل، ولكنَّ العون والحفظ الإلهي مُحيطٌ بالعبد المخلص لله المنكسر لسلطان ربوبيَّته، شاملٌ في حركاته وسكناته له، وما للظالمين الَّذين يضعون الباطل مَحَلَّ الحقِّ من أنصارٍ وأعوانٍ يحفظونهم من سيوف بطش الله ، وسهام غَيرة الله، على أنَّ الظَّالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه.

وقال: علامَةُ العَدُوِّ الَّتي تدلُّك عليه كونه عدوَّاً أنْ يَرْغَبَ بما في يَدَيْكَ من

العَرَض والحُطام، وأنْ يَرْغَبَ عنكَ ويهجرك إذا قَلَّ مَالُكَ وضَعُف حالُك وأنْ يَسْتَلَّ سيفَ لسانِهِ بمغيبتِكَ، فيجرح جسم عرضك؛ وصريحٌ ما قاله القائل:

جِرَاحَـــاتُ السِّـــنانِ لهـــا التِئَـــامٌ   ولا يَلْتَـــامُ مـــا جَـــرَحَ اللِّسَـــانُ

ومن علامته أيضاً أنْ يكرَهَ أنْ تُمْدَحَ وتُذكر بخيرٍ، ويُسر أن تُذمَّ وتُذكر بسوءٍ فَدَعْهُ لله ولا تقابله؛ فإنَّ مَنِ انتصر لنفسه تعب، ومن سلَّم لمولاه تولَّى نصره وكفاه، واصبر عليه معتزَّاً بالله منتظراً غارة الله، وأبشر فهو عَثُورٌ يقع على رأسِهِ، ويحفر لحتفه بظِلْفِهِ[1]، ومَثَله كالنَّار تضرم لهبها، وتأكل حطبها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥]، لِـمَن أعرض عن الأغيار، وانتصر بالملك الجبار.

ثمَّ قال: **وعلامَةُ الصَّدِيقِ**: أنْ يُحِبَّكَ لله، لا لعَرَضٍ ولا لغَرَضٍ، فالصَقْ بهِ ولازمه ولا تنفك عنه؛ فإنَّ أهلَ المحبَّةِ لله قليلٌ، بل أقلُّ من القليل.

وقد عرَّف سيِّدنا الإمام عليٌّ أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنهُ وكرَّمَ وَجْهَهُ شأن الصَّديق الَّذي تسكن الرُّوح إليه، ويستريح القلب معه بقوله:

صَـــديقُكَ الَّـــذي بِأمْرَيْـــكَ معـــك   ومَـــنْ يَضُـــرُّ نَفْسَـــهُ لِيَنْفَعَـــك

ومَـــنْ إذا ريـــبُ الزَّمـــانِ صَـــدَّعَك   شَـــتَّتَ شَـــمْلَ نفسَـــهُ لِيَجمَعَـــك

---

(١) الظَّلْف والظِّلف: ظفُرُ كل ما اجترَّ، وهو ظِلْف البَقرة والشاة والظبْي وما أَشبهها، والجمع أَظلاف، يقال رِجل الإنسان وقدمه، وحافر الفرس، وخُفّ البعير والنعامة، وظِلْف البقرة والشاة، واستعاره الأَخطل في الإنسان فقال إلى مَلِكٍ أَظْلافه لم تُشَقَّق. «لسان العرب» مادة: (ظلف).

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٨٠- أَوِّلْ كَلامَ بَعْضِ الفُقَرَاءِ، وَكَأَنَّكَ تَدْرَأُ الحُدُوْدَ بِالشُّبُهَاتِ، لَوْ كُنْتُ فِي زَمَنِ الحَلاجِ لأَفتَيْتُ مَعَ مَنْ أفتى بِقَتْلِهِ - إِذَا صَحَّ الخَبَرُ - وَلأَخَذْتُ بالتَّأْوِيْلِ الَّذي يَدْرَأُ عَنْهُ الْحَدَّ، ولَقَنِعْتُ مِنْهُ بالتَّوبَةِ والرُّجُوعِ إلى الله؛ فإِنَّ بابَ الرَّحمنِ لا يُغْلَقُ.

٨١- وَهَبَ اللهُ عِبَاداً مِنْ عِبَادِهِ رُتَباً رَفِيْعَةً أَطْلَعَ عَلَيْهَا أَهْلَ الوَهْبِ، فَمَنْ أَدْرَكَ سِرَّ اللهِ فِي طَيِّ هَذِهِ المَوَاهِبِ: تَوَاضَعَ لِلْخَلْقِ جَمِيْعَاً؛ فإِنَّ الخَوَاتِيْمَ مَجْهُوْلَةٌ، وَسَاحَةُ الكَرَمِ وَسِيْعَةٌ، وَلا قَيْدَ فِي حَضْرَةِ الوَهْبِ، ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٠]، و﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

أشار بقوله: **أَوِّلْ كلامَ بعضِ الفقراءِ، وكَأَنَّكَ تَدْرَأُ الحدودَ بالشُّبُهَاتِ** إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «**ادْرَءُوا الـحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ**»[1]، و«**أَقِيْلُوا الكِرَامَ عَثَرَاتِهِم إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله**»[2]، فعلى هذا نؤوِّل ما أمكن التَّأويل.

وقوله: **لو كنت فِي زَمَنِ الحَلاَّجِ لأفتَيْتُ معَ مَنْ أفتى بِقَتْلِهِ - إذا صحَّ الخبرُ -**، فيه شأنٌ عظيمٌ مِنَ الغَيْرَةِ ولانتصار لله ورسوله وللشَّريعة المطهَّرة.

[نبذةٌ مختصرةٌ من سيرة الحلاج رحمه الله تعالى]

ولنذكر هنا نبذةً مختصرةً مِنْ سيرة الحلاَّج ليظهر سرُّ مقصود سيِّدنا المؤلِّف قُدِّسَ سِرُّهُ فنقول: الحلاج هو أبو مغيث الحسين بن منصور من أهل البيضاء، وهي بلدٌ بفارسٍ، نشأ بواسط العراق، وصحب الجنيد البغدادي وغيره.

وقد اختلفت في أمره وكَثُر به القال والقيل في عصره، وذهب الشيوخ بعده في

(١) مرَّ تخريجه صـ١٠٥ـ.

(٢) مرَّ تخريجه صـ١٠٥ـ.

شأنه إلى مذاهب كثيرة: فمنهم من كفَّره، ومنهم من عظَّمه، ومنهم من اعتذر له، وعذره، وشاع عنه وذاع وملأ الدَّفاتر والأسماع أنَّها كانت تصدر عنه ألفاظٌ يردُّها ظاهر الشَّرع، وينبو عنها السَّمع مثل قوله: أنا الحقُّ، وقوله: ما في الجبَّة إلا الله.

وقد اعتذر له عن هذه الألفاظ ومثلها الإمام أبو حامد الغزالي[1] في «مشكاة الأنوار»، وذكره القشيري[2] في «رسالته» بين المشايخ الأخيار إلا أنَّه صرَّحَ بخطيئاته، ولَـمَّح بشبهاته.

وقد أفتى الإمام الجنيد البغدادي قُدِّسَ سِرُّهُ ورضيَ اللهُ عنهُ بقتله مع مَنْ أفتى.

وعدَّه جماعةٌ من القوم بين الأولياء، حتَّى أنَّ الشَّيخ عبد القادر ﷺ ذكر أنَّه عارفٌ، وقال لو كنتُ في زمنه لأخذْتُ بيده.

وسيِّدنا المؤلِّف ﷺ من الَّذين يقولون بولايته، ويعتقدون خطأه، وقد صرَّح في كتابه «البرهان»[3] بذلك ما نصُّه: «ينقلون عن الحلاَّج أنَّه قال: أنا الحقُّ! أخطأ

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام (٤٥٠-٥٠٥)هـ: فيلسوف، صوفي، له نحو مائتي مصنف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته، نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف، من كتبه: «إحياء علوم الدين»، و«تهافت الفلاسفة»، و«المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» وله كتب بالفارسية. انظر: «الأعلام للزركلي» ٢ / ٢٢.

(٢) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري، أبو القاسم، زين الإسلام (٣٧٦-٤٦٥)هـ: شيخ خراسان في عصره زُهداً وعلماً بالدين، كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها، وسلك طريق القوم على الدقاق، وأقبل عليه، وتفرس فيه فجذبه، وأخذ الفقه فأتقنه، ثم الأصول، على ابن فورك، والأستاذ أبي إسحاق، وجمع بين طريقتهما، وزوجه الدقاق ابنته مع كثرة أقاربها، وكانت له فِراسة، وفروسية، من كتبه: «التيسير في التفسير»، و«الرسالة القشيرية». انظر: «طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٤٣ـ، و«الأعلام» للزركلي ٤ / ٥٧.

(٣) صـ ٣٦ـ.

بوهمه، لو كان على الحقِّ ما قال: أنا الحقُّ.

يذكرون له شعراً يُوهم الوَحدة، كلُّ ذلك ومثله باطلٌ، ما أراه رجلاً واصلاً أبداً...» إلى آخر ما قال.

ومن المعلوم أنَّ علماء بغداد أجمعوا على قتله وصلبه، وكتب القاضي بإباحة دمه، ورُفِعت الفتاوى إلى الخليفة، فأذن في قتله فقتل وأُحْرق بالنَّار، وأُلقي رماده في الدِّجلة، ونُصِب الرأس ببغداد، وأُرسل إلى خراسان ليراه أصحابه الَّذين افْتُتِنُوا به، هذا ملخَّص ما قيل في شأنه في سائر التَّواريخ، وكان قتله في سنة تسع وثلاثمائة، وقد ظهرت على يديه الكرامات العديدة، فالَّذي اعْتَقَدَهُ: قال بكرامته، ومن لم يعتقده: قال إنَّ الَّذي ظهر منه سحرٌ وشعبذةٌ.

فملخَّص ما ذُكِر: اشترط سيِّدنا المؤلِّف على الفتوى صحَّة الخبر.

ثمَّ قال: **ولأخذت بالتَّأْوِيْلِ** - هذا بعد تحقُّق كلِّ شيءٍ ممَّا نُقل عنه - **تأويلاً تدرأُ عنهُ الحَدَّ، ويقبله الشَّرع**، وإذا أمكن التَّأويل اقنع منه بالتَّوبة عن الكلام الَّذي يكلِّف سامعه التَّأويل على أنَّه ذنبٌ عظيمٌ يجب فيه الرُّجوع إلى الله، وبعد التَّوبة فباب الرَّحمن لا يُغلق عن عبيده الَّذين أسرفوا على أنفسهم، وباءوا بذنوبهم إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ الآية [الزمر:٥٣].

ثمَّ انعطف سيِّدنا المؤلِّف على مقاصده المضمرة، فأوضحها بقوله: **وَهَبَ اللهُ عباداً مِنْ عِبَادِهِ**، أي: المسلمين والمؤمنين العارفين رُتَباً رَفِيْعَةً أَطْلَعَ عليها أهلَ الوَهْبِ والفتح، فَمَنْ أَدْرَكَ سِرَّ الله المطويِّ في طَيِّ هذهِ المواهبِ المنشورة على النَّوع الإنساني: تواضَعَ للخَلْقِ جميعاً، وأحسن سريرته مع الله؛ فإنَّ الخواتيمَ ونهاياتِ الخَلق مجهولَةٌ لدى الخَلقِ، وساحةُ الكرَمِ وسِيْعَةٌ عظيمة الفيوضات، ولا قيدَ على الوهَّاب في حضْرَةِ الوهبِ، ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ متى شاء، و﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ

مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:١٠٥].

فعلى هذا الأدبُ مع خلق الله وفق شريعة رسول الله ﷺ، انجح الطُّرق، وأحسن المذاهب، والتَّجرُّد من غرض النَّفس، ومرض الطَّبع ترياقُ كلِّ سالكٍ إلى الله، ورفيق كلِّ ذاهبٍ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٨٢- قَالَ بَعْضُ الأَعَاجِمِ مِنْ صُوْفيَّةِ خُرَاسَانَ: إِنَّ رُوْحَانِيَّةَ ابْنِ شَهْرَيَارِ الصُّوْفِيِّ الكَبِيْرِ قُدِّسَ سِرُّهُ تتصَرَّفُ فِي تَرتِيْبِ جُمُوْعِ الصُّوْفِيَّةِ فِي العَرَبِ وَالعَجَمِ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ، ذَلِكَ لَـمْ يَكُنْ إِلَّا لله الوَهَّابِ الفَعَّالِ.

٨٣- النِّيَابَةُ الْـمُحَمَّدِيَّةُ عِنْدَ أَهْلِ القُلُوْبِ ثَابِتَةٌ، تَدُوْرُ بِنَوْبَةِ أَهْلِ الوَقْتِ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ، وتَصَرُّفُ الرُّوْحِ لا يَصِحُّ لِـمَخْلُوْقٍ؛ إِنَّمَا الكَرَمُ الإِلَهِيُّ يَشْمَلُ أَرْوَاحَ بَعْضِ أَوْلِيَائِهِ، بَلْ كُلِّهِمْ، فَيُصْلِحُ شَأنَ مَنْ يتوَسَّلُ بِهِمْ إلى الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [فصلت:٣١]، **هَذَا الـحَدُّ.**

٨٤- إِيَّاكَ وَإِفْرَاطَ الأَعَاجِمِ؛ فَإِنَّ فِي أَعْمَالِ بَعْضِهِمُ الإِطْرَاءَ الَّذِيْ نَصَّ عَلَيْهِ الحَبِيْبُ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ.

٨٥- وَإِيَّاكَ وَرُؤْيَا الفِعْلِ فِي العَبْدِ حَيَّاً كَانَ أَوْ مَيْتَاً؛ فَإِنَّ الخَلْقَ كُلُّهُم لا يَمْلِكُوْنَ لأَنفُسِهِمْ ضَرَّاً وَلا نَفْعَاً.

٨٦- نَعَمْ خُذْ مَـحَبَّةَ أَحْبَابِ الله وَسِيْلَةً إلى الله؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الأُلُوْهِيَّةِ يَعُوْدُ صِفَةً لِلْحَقِّ، وَنِعْمَ الوَسِيْلَةُ إلى الله سِرُّ أُلُوْهِيَّتِهِ، وَصِفَةُ رُبُوْبِيَّتِهِ.

٨٧- الوَلِيُّ مَنْ تَمَسَّكَ كُلَّ التَّمسُّكِ بِأَذْيَالِ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَضِيَ بِالله وَلِيَّاً.

[ترجمة ابن شهريار رحمه الله تعالى]

ابن شهريار الَّذي أشار إليه المؤلِّف رضي الله عنه ترجمه الإمام شيخ الإسلام، أحمد بن جلال المصري في كتابه «جِلاء الصدى»[1]، وقال في شأنه: «هو الشَّيخ الوليُّ الإمام

---

(١) صـ٤٤٥-٤٤٦ ـ، والمؤلِّف: هو الشيخ أحمد بن جلال اللاري المصري الحنفي الرفاعي الخرقة، صاحب كتاب: «جلاء الصدى في سيرة إمام الهدى، لبس الخرقة عن الشيخ أبي بكر بن محمد بن علي الخوافي تـ(٨٣٨)هـ، عن شيخه عبد الرحمن القرشي، عن شيخه عيسى الأبيدري، عن =

الشَّهير الواصلة ميامين بركاته إلى الصَّغير والكبير، سلطان أجلَّة العارفين، وبرهان أدلَّة الوارثين، غوث من استغاث به من الأمَّة، والكاشف عنهم الكرب والغُمَّة، الَّذي اختاره الله من بين الأخيار، الشَّيخ المرشد، أبو إسحاق إبراهيم بن شهريار الكازروني قُدِّسَ سِرُّهُ العزيز».

ثمَّ قال: «وقد أخبر بظهور سيِّدي أحمد الرِّفاعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ، وأظهرَ عَلِيَّ قَدرِهِ، ومَا لَهُ مِنَ القُرب عند الواحد الصَّمد، مع أنَّ وفاة الشَّيخ أبي إسحاق قبل مولد السيِّد أحمد الرِّفاعي رَضِيَ اللهُ عَنهما بإحدى وثمانين سنةٍ». انتهى ملخَّصاً.

قلت: وكانت وفاة الشَّيخ المشار إليه صبَّ اللهُ سِجال رحمته عليه سنة تسعٍ وعشرين وأربعمائةٍ، وقد أثنى عليه الشُّيوخ، وعظَّمه الرِّجال، وترجمه أصحاب الكمال بما يدلُّ على مناقبه الشَّهيرة، ومحامده الكثيرة، وقال قومٌ من الصُّوفيَّة بتصرُّفه في حياته وبعد مماته، ونُقِل مثل ذلك عن الشَّيخ حياة بن قيس الحرَّاني أحد أصحاب سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنهما، وذكروا ذلك أيضاً عن الشَّيخ عبد القادر الجيلاني، والشَّيخ معروف الكرخي، وغير واحدٍ، وذكر ذلك البعضُ مِنْ أعيان الرِّفاعيَّة عن سيِّدنا المؤلِّف ﷺ أيضاً.

[عدم رؤيا الفعل في العبد حيَّاً أو مَيْتاً]

والحال أنَّه قُدِّسَ سِرُّهُ وعمَّنا برُّهُ لا يقول بهذا على الوجه المعروف عند الطَّائفة القائلة بتصرُّف بعض الأموات في قبورهم، بل يُنكر ذلك البتَّة، ويُصرِّح بعدم تصرُّف الرُّوح لمخلوقٍ، وإنَّما الكرم الإلهيُّ يشمل أرواح الأولياء، فيُصلح شأن

=

الشيخ عبد السلام الأقليبي تـ(٦٥٨)هـ، عن الشيخ أبي الفتح الواسطي، عن الإمام الرفاعي رضي الله عنه. انظر: «جلاء الصدى» لابن جلال صـ٤٥١ - ٤٥٢ ـ.

مناديهم، ومَن ينزل بناديهم.

وقد نبَّه على عدم رؤيا الفعل في العبد حيَّاً كان أو ميتاً، وصرَّح بأنَّ الخلق حيّهم وميّتهم، كبيرهم وصغيرهم على حالٍ واحدٍ في العجز، لا يملك أحدٌ لنفسه ضرَّاً ولا نفعاً، وقد أوضَحَتْ ذلك الأحاديث والآيات البيِّنات القرآنيَّات، إلَّا أنَّ الأولياء لَـمَّا كانوا أحباب الله، ومَحبَّة الله تعالى لهم صفةٌ من صفات ربوبيَّته، اتَّخذ العباد مَحبَّة الله لهم وسيلةً إلى الله ﷻ.

وقد ذكر صاحب «معراج السَّالكين»[1] أنَّه سأل شيخه السيِّد حسيناً برهان الدِّين الصَّيَّاديّ الرِّفاعيّ قُدِّسَ سِرُّهُ سؤالاً يناسب هذا المعنى، وها هو بنصِّه: «سألته ﵁ عن كشف الوليِّ حال كونه في بغداد ونادَ به في فاسٍ، كيف يطَّلع عليه ويراه، وقد يتفق في الوقت الواحد أن يُندب من الأماكن المتعدِّدة على الألسن المتعدِّدة، ويَرى كلَّ نادبٍ له، ويطَّلع على أحوال الكلِّ، وقد يقوم بمدد الله بمعونة الكلِّ وهو في مكانه الَّذي هو فيه، فما هذا الحال؟.

فقال: مثل قلب الوليِّ كالحجر المغاطيسي العظيم الجسيم إذا وضعته في صحن دارٍ وسيعةٍ مربَّعَةٍ مفروشةٍ بالرُّخام الأبيض بسيطة، وجعلتَه النُّقطة الوسطى من الصَّحن، وطرقتِ الشَّمسُ الحارَّةُ صحن الدَّار مِن كلِّ جانبٍ، ووجهت من كلِّ جهةٍ قطع الحديد، وما يصحُّ جذبه إليه، أهَلَّا تسري جاذبيَّته إلى الجميع وتصلحهم، وهو في محلِّه؟.

قلت: بلى.

قال: وقلب الوليِّ كذلك أعطاه الله سرَّاً انجلى فيه حالة توجُّه القلب الآخر إليه، تنعكس مادَّته إليه، وتُصلح شأنه وشأن القلب الآخر، والآخر وصلةٌ

---

(١) صـ٧٤-٧٧ـ.

شعاعيَّةٌ لا يمنعها حجابٌ من الحجب الثَّقيلة؛ لأنَّ الصَّحن: الحضرة الوسيعة.

والرُّخام: طهارة النِّيَّة.

وحُسن تربيع المحلِّ: صحَّة الطّرز.

وطرقة الشَّمس الحارَّة من كلِّ جهاته: إعطاء نور المادَّة الممدَّة من جانب شمس العناية المقدَّسة لكيلا تنقطع قوَّة الكيفيَّتين حالة المدِّ والاستمداد.

وإلَّا فلا تصحُّ هذه الإحاطة لمخلوقٍ؛ لأنَّ الإحاطة بلا طلبٍ ولا لفت قلبٍ يوجب انعكاس مادَّةٍ جاذبةٍ إنَّما هو شأن الله الَّذي يحفظك ويعينك ويصونك بحفظه وعونه وصونه، وأنت على غفلةٍ، ويرزقك وأنت على معصيةٍ، ويُحسن إليك وأنت على إساءةٍ، وأنَّى للعبد المسكين هذه الشُّؤون، تعالى الله عُلوَّاً كبيراً.

قلت: حينئذٍ ثبت ما قاله بعض الحنابلة: بعدم مدد الوليِّ بعد موته.

قال: لا، بل لم يثبت؛ لأنَّ المادَّة الـمُمدَّة في الوليِّ ليست القطعة اللَّحميَّة الـمعطَّلة، وإنَّما هي كلمة المدد الرَّباني الـمُدلَّاة إليه، وهذه كلمةٌ ليست بمعطَّلةٍ لا ينقطع مددها، ولا ينقضي أمدها، ولا تبديل لكلمات الله.

قلت: ولعلَّ المدد وهبٌ بقيد كون الوليِّ حيًّا؟

قال: هذا ظنٌّ على وجهٍ باطلٍ إذ لعلَّ المدد وهبٌ بلا قيدٍ، وهذا اللائق بالإلهيَّة، ولا ينقص من خزانة الكرم شيءٌ.

وإذا كانت المادة الممدة الفعَّالة مادَّة المدد المدلَّاة إلى قالب الوليِّ وقلبه المجتمع من ماءٍ وطينٍ [الَّذي](١) لا يضرُّ ولا ينفع ولا يملك لنفسه ضرَّاً ولا نفعاً، وهي المتصرِّفة الضَّارَّة النَّافعة الممدَّة، وجعل الله عبده الوليُّ موضع مدده، ووجهة البعيد عن مدده المحجوب عنه إليه، فمتى توجَّه العبد إلى الوجهة التي جعلها الله

---

(١) ما بين معقوفين ساقط من الأصل المطبوع.

موضع مدده، وقَبِل الحقُّ اتِّجاهه انصرفت إليه مادَّة المدد من موضعها سواء كان موجوداً أو مفقوداً، حيَّاً أو مَيْتاً، قريباً أو بعيداً، ولا فرق في هذا، وهو الأصل عند العارفين.

قلت: حينئذٍ فما مزيَّة الوليِّ حالة كونه مجرَّداً عن الفعل، والفتق والرَّتق، والحول والقوَّة، والوهب والسَّلب؟.

فقال: مزيَّته الاختصاص: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]» انتهى.

وفيما قاله هذا الإمام كفايةٌ، والله وليُّ التَّوفيق.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

٨٨- مَنِ اعْتَصَمَ بِاللهِ جَلَّ، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَى غَيْرِ اللهِ ذَلَّ، وَمَنِ اسْتغنَى بِالأَغْيَارِ قَلَّ، وَمَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ طَرِيْقِ الرَّسُولِ ﷺ ضَلَّ.

٨٩- العِلْمُ نُوْرٌ، والتَّوَاضُعُ سُرُوْرٌ.

٩٠- الْهِمَّةُ حَالَةُ الرَّجُلِ مَعَ اللهِ، يَتَفَاوَتُ عُلُوُّ مَرْتَبَةِ الإِيمانِ بِعُلُوِّ الهِمَّةِ.

٩١- مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ الفَعَّالُ الـمُطْلَقُ: صَرَفَ هِمَّتَهُ عَنْ غَيْرِهِ.

٩٢- مَنْ عَلَتْ فِي اللهِ هِمَّتُهُ، صَحَّتْ إلى اللهِ عَزِيْمَتُهُ، وانْفَصَلَتْ عَنْ غَيْرِ اللهِ هِجْرَتُهُ.

٩٣- مَائِدَةُ الكِرَامِ يَجْلِسُ عَلَيْهَا البَرُّ وَالفَاجِرُ.

٩٤- لله عِنْدَ الـخَوَاتِيْمِ حَنَانٌ وَلُطْفٌ عَلَى عِبَادِهِ فَوْقَ حَنَانِ الوَالِدَةِ عَلَى وَلَدِهَا.

٩٥- إِنَّ اللهَ إِذَا وَهَبَ عَبْدَهُ نِعْمَةً مَا اسْتَرَدَّهَا.

٩٦- فُيُوْضَاتُ الـمَوَاهِبِ الإِلَـهِيَّةِ فَوْقَ مَدَارِكِ العُقُوْلِ وَتَصَوُّرَاتِ الأَوْهَامِ.

٩٧- مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ، فَوَّضَ الأَمْرَ إلى الفَعَّالِ الـمُقْتَدِرِ، وفَرَشَ جَبِيْنَهُ عَلَى تُرَابِ التَّسْلِيْمِ.

٩٨-كُلُّ الحَقَائِقِ إِذَا انجلَتْ يُقْرَأُ فِي صِحَائِفِها سَطْرُ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص:٨٨].

٩٩- إِذَا أَمْعنْتَ النَّظَرَ فِي دَوَائِرِ الأَكْوَانِ: رَأَيْتَ العَجْزَ مُحِيْطاً بِهَا، وَالاِفْتِقَارَ قَائِماً مَعَهَا، ولِرَبِّكَ الحَوْلُ والقُوَّةُ، والغِنَى والقُدْرَةُ، وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ.

١٠٠- مَزَالِقُ الأَقْدَامِ: الدَّعْوَى، ورُؤْيا النَّفْسِ، ومُعَارَضَةُ الأَقْدَارِ.

١٠١- لَوْ كَانَ لَكَ مَا ادَّعَيْتَ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ والقُدْرَةِ لَـمَا متَّ.

١٠٢- أَيْنَ أَنْتَ يَا عَبْدَ الرِّئَاسَةِ؟ أَيْنَ أَنْتَ يَا عَبْدَ الدَّعْوَى؟ أَنْتَ عَلَى غِرَّةٍ، تَنَحَّ عَنْ رِئَاسَتِكَ وَغِرَّتِكَ، والْبَس ثَوْبَ عَبْدِيَّتِكَ وذِلَّتِكَ.

١٠٣- كُلُّ دَعْوَاكَ كَاذِبَةٌ، وَكُلُّ رِئَاسَتِكَ وعِزَّتِكَ هَزْلٌ، القَوْلُ الفَصْلُ: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨].

أوضح رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ في جُمَلِ حِكَمِه هذه أنَّ مَنِ اعتصم بالله ملتجئاً إليه منحرفاً عن غيره صار جليلاً عند الله والنَّاس، ومن اعتمد على غير الله منقطعاً عن طريق الاعتصام بالله صار ذليلًا عند الله والنَّاس، ومن استغنى بالأغيار مُترفِّعاً عن رتبة الافتقار إلى الله تعالى ابتُلِيَ بالقلَّة.

ومن اتَّبع برأيه غير طريق الرَّسول ﷺ وهو السُّنَّة السَّنيَّة، والشَّريعة الأحمديَّة، فقد تاه عن طريق الصَّواب، وصار من أهل الضَّلالة، وهذا لا يكون إلَّا مِنَ الجهل.

ولذلك قال السيِّد المؤلِّف رضي الله عنه: العِلمُ نورٌ يهتدي به العبد إلى سبيل الرَّشاد، والتَّواضعُ غايته سرورٌ لكونه من الأسباب الموصلة إلى العلم، وقد ورد بما معناه: «**إنَّ العلمَ يُذبَحُ أو يضيعُ بين الكِبْرِ والحياءِ؛ فإنَّ الـمُتكَبِرَ تَعْظُمُ عليه نَفْسُهُ أنْ يَسأَلَ لِكِيْلا يُجَهَّلَ، والْـمُسْتَحِي يَمنَعُه خَجلُهُ عَنِ السُّؤَالِ، فَلا يَصِلُ إلى مقصَدِهِ مِنَ العِلمِ**»[1].

وقال: الـهمَّةُ، وهي: الـجزمُ الصَّحيح، والنِّيَّة الـخالصة حالة الرَّجل مع الله، وبها يـحصُلُ التَّفاوت في علوِّ مرتبة الإيمان، فمن أيقن وتـحقَّق أنَّ الله تعالى هو الفعَّال الـمطلق، وغيره لا فعل له: صرف هـمَّتَه، وحوَّل جزمه ونيَّته عن النَّظر إلى غيره؛ فإنَّ من علت في الله هـمَّته، وانحرفت عن الأغيار بالكلِّيَّة نيَّتُه، صحَّت إلى الله عزيمته، وثبتت مع الـمقرَّبين منزلته، وانفصلت عن غير الله هجرته؛ فإنَّ «**مَنْ**

(١) روى الإمام البخاري في «الصحيح» معلقاً: كتاب العلم (٣)، باب الْـحَيَاءِ فِي الْعِلْمِ (٥٠) عن مجاهدٍ رحمه الله تعالى أنه قال: «لا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلاَ مُسْتَكْبِرٌ».

كانَتْ هجرَتُهُ إلى الله ورَسُوْلِهِ...» كما ورد في الحديث الصَّادق[1].

ولا ريب فإنَّ مائدة الكرم ووليمة الإحسان يدعى إليها، ويجلس عليها البرُّ والفاجر، والأصاغر والأكابر، ولله ﷻ عند الخواتيم ونهايات الآجال حنانٌ وعطفٌ، وكرمٌ ولطفٌ، على عباده فوق حنان الوالدة الشَّفيقة على ولدها الصَّالح.

وإنَّ الله إذا وهب عبده نعمةً، وأتحفه من إحسانه خصيصةً ما استردَّها؛ لأنَّ فيوضات المواهب الإلهيَّة فوق مدارك العقول السَّليمة، وتصوُّرات الأوهام، ومدارج الخواطر.

فعلى هذا مَنْ عَلِمَ أنَّ الله يفعل ما يريد، ولا رادَّ لأمره، ولا منازع لـحُكمه، فَوَّض الأمر إلى الفعَّال المقتدر المتصرِّف في ملكه كيف شاء، وفرشَ جبينه إذعاناً وانقياداً على تراب التَّسليم للحَكَم الحَكِيمِ؛ لأنَّ كلَّ الحقائق القائمة مع الخلائق إذا انجلت وانكشف غطاؤها، يُقرأ في صحائفها ويُشهد في كلِّ لوحٍ من ألواحها رسم الأمر الإلهيِّ المنجلي فيه سطر: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨].

فبعد ذلك، وقبل أن تصل إلى كشف هذه المسالك إذا أمعنت النَّظر معتبراً في دوائر الأكوان، وعوالم الذَّرات والإنسان: رأيت العجز محيطاً بها من كلِّ جانبٍ، والافتقار قائماً معها في جميع التقلُّبات والمذاهب، ولربِّك الحولُ والطَّولُ، والقوَّة والبقاء، والغِنَى والقدرة، وحده لا شريك له.

واعلم أنَّ مزالق الأقدام: الدَّعوى العَريضة، ورُؤيا النَّفس وأعمالها، ومعارضة الأقدار بالاعتراض عليها.

---

(١) رواه عن سيدنا عمر رضي الله عنه: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب كيف كان بدء الوحي...(٣٩) رقم١، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الإمارة (٣٣)، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية...» (٤٥) رقم ١٩٠٧.

لو كان لك ما ادَّعيت أيُّها المدَّعي، وثبت لك ما نسبته لنفسك من الحَول والقوَّة والقدرة، لَـمَا تَحوَّل حالك من الصِّغر إلى الكِبر، ومنه إلى الهرم ولَـمَا مِتَّ، وتَحوَّلْتَ من الوجود إلى العدم.

أين أنت يا عبد الرِّئاسة المستغرق الأوقات بلذاتها الفانية؟

أين أنت يا عبد الدَّعوى المشغول بأوهامها الواهية؟

أنت على غِرَّةٍ تنحَّ وتباعد عن رئاستك الفانية، وغِرَّتك الواهية، والبس ثوب عبديَّتك لربِّك، وتردَّى برداء ذِلَّتك له بلسانك وقلبك؛ فإنَّ كلَّ دعواك الوصل والقطع، والفتق والرَّتق كاذبةٌ، وكلَّ رئاستك بوهمك وغِرَّتك بوقتك وجسمك هزلٌ، القول الفصل المستجمع لكلِّ فضلٍ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

ولا يخفى أنَّ ما أورده سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ في هذه الجمل المباركة من الحكم الفائقة، والمعاني الرَّائقة، مُؤيَّدٌ بكثيرٍ من الآيات القرآنيَّة، والأحاديث النَّبويَّة غَنِيٌّ فيه المقام عن الإيضاح، وقد أوردت ما يناسب بعض مقاصده الكريمة في قصيدةٍ لي تخلَّصت فيها بمدح النَّبيِّ ﷺ وهي:

هــوِّنْ عليــكَ أُخَــيَّ فالأيَّــامُ ... **مهمــا استطَــالَ مَطالُهَــا أحــلامُ**

واصْبِــرْ لِغُصَّتِهَــا فآيَتُهــا وإنْ ... **ضَاقَــتْ مَــدَارٌ مــا لديْــهِ دَوَامُ**

كــادَتْ تُشَــابِهُ إبْــرَةَ الفَــلَكِ الَّتــي ... **ثَبَتَـــتْ ودَارتْ حَوْلهـــا الأجْـــرَامُ**

تَجْــرِي لِغــايَةِ مُستَقَــرٍّ شَمْسُهــا ... **فَيَحُفُّهــا عنــدَ العمــودِ ظَــلامُ**

قــد كُــوِّرَتْ لَفَّــاً ودارتْ أرضُــها ... **والنَّــاسُ بالشِّــبْرِ البَسـيطِ نِيَــامُ**

ما أعجبَ الْـمَهْدَ الَّذي خَفَّتْ على ... **مقــدارِهَا فــي دَورِهــا الأعــلامُ**

هــو كالسَّريــرِ تَهُــزُّهُ مِــنْ نَفْسِــهِ ... **كُرَوِيَّـــةُ البُرهـــانِ وهـــو مُقــامُ**

خُذْ منهُ فيما صارَعَتْكَ يدُ النَّوى ... معنىً فَعَلَّ تُذِيْعُهُ الأقلامُ
قد يَحسبُ النَّاسُ الجِبَالَ جوامداً ... ومُرورُها للنَّصِّ فيه نظامُ
فاصبرْ لَعَمْرُكَ فالزَّمانُ حوادثٌ ... تَمْضِي ورأسُ المالِ فيهِ كَلامُ
خبرٌ يطيبُ وعكسُهُ فاصلح به ... شأناً إذا ذَكَرَ الشُّؤونَ كِرامُ
واجعل لشمسِ الرُّوحِ قطباً ثابتاً ... يرضى بما يقضي به العَلَّامُ
واقْرَأْ إذا أرَّخْتَ نفسَكَ ذكرَها ... فرَحاً بما نسجَتْ لكَ الأرقامُ
فلأنت عَالَمُ كلِّ شيءٍ ثابتٌ ... شَكْلاً وشَكْلُكَ هيكلٌ لَمَّامُ
مِنْ كلِّ زوجينِ المثَالُ ونوعُها ... بك صبغةٌ حارتْ بها الأفهامُ
كم آدمٍ مِنْ قبلِ آدمِكَ انطوى ... نصَّاً وأنت تغُرُّكَ الأوهامُ
منها خلقناكم تتمَّةُ آيِها ... يُخْبِرْكَ كيفَ تسلسلُ الأجسامُ
فاسْهَرْ إذا نامَ الخَلِيُّ لحكمةٍ ... يُعلِي شُرافَةَ مَجدِها الأحكامُ
وافتَحْ مِنَ القرآنِ كنزَ معارفٍ ... فالدِّينُ عندَ الخالقِ الإسلامُ
وخذِ الرَّسُولَ وسيلةً فَمَنِ التجا ... لرحابهِ المعمورِ ليسَ يُضَامُ

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٠٤- سِرٌ بَيْنَ الـحَائِطَيْنِ: حَائِطِ الشَّرْعِ وَالعَمَلِ.

١٠٥- اسْلُكْ طَرِيْقَ الاتِّبَاعِ؛ فَإِنَّ طَرِيْقَ الاتِّبَاعِ خَيْرٌ، وطَرِيْقُ الابْتِدَاعِ شَرٌّ، وَبَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ بَوْنٌ بَيِّنٌ.

١٠٦- مَرِّغْ خَدَّكَ عَلَى البَابِ، وافْرُشْ جَبِيْنَكَ عَلَى التُّرَابِ، ولا تَعْتَمِدْ عَلَى عَمَلِكَ، والْجَأْ إلى رَحْمَتِهِ تَعَالَى وقُدْرَتِهِ، وتَجَرَّدْ مِنْكَ ومِنْ غَيْرِكَ، عَلَّكَ تَلْحَقُ بِأَهْلِ السَّلامَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣].

١٠٧- بَرَكَةُ العَبْدِ الوَقْتُ الَّذِيْ يَتَقَرَّبُ بِهِ إلى الله ﷻ.

١٠٨- الأَوْلِيَاءُ لَهُمْ الحُرمَةُ فِي البَابِ الإِلَـهِيِّ، ولَوْلا أَنْ جَعَلَ لَهُمْ هَذِهِ القِسْمَةَ لَـمَا اخْتَصَّهُم دُوْنَ غَيْرِهِم بِوِلايَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هَؤُلاءِ حِزْبُ الله، جَيْشُهُ العَرَمْرَمُ الَّذِيْ أَيَّدَ اللهُ بِهِ الشَّرِيْعَةَ ونَصَرَ بِهِ الـحَقِيْقَةَ، وَصَانَ بِهِ شَرَفَ نَبِيِّهِ ﷺ وَأَلـحَقَهُ بِهِ، قالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

١٠٩- الـمَعْرِفَةُ بِالله عَلَى أَقْسَامٍ، وَأَعْظَمُ أَقْسَامِهَا: تَعْظِيْمُ أَوَامِرِ الله تَعَالَى.

١١٠- بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الرَّبِّ حِجَابُ الغَفْلَةِ لا غَيْرَ، قالَ تَعَالَى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢].

١١١- العَبْدُ العَارِفُ يَفْزَعُ إلى الله، ويَتَوَقَّعُ سِرَّ الله؛ وَسِرُّ الله: العَوْنُ النَّاشِئُ مِنْ مَحْضِ الكَرَمِ وَالفَضْلِ مِنْ دُوْنِ سَابِقَةِ صُنْعٍ ولا عَمَلٍ.

١١٢- القَلْبُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْ قُدْرَةِ الرَّحْمَنِ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُثَبِّتَ القُلُوْبَ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَدِيْنِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾[النساء:٤٥].

أراد بقوله: **سر بين الـحائطين**؛ الوقوف بين الأمر والاستقامة بالتَّمكُّنِ في

طريق الاتِّباع للشَّارع الكريم عليه أفضلُ الصَّلواتِ والتَّسليم؛ لأنَّ طريق الاتِّباع خير جامعٍ لـمقاصد الدُّنيا والآخرة، وطريق الابتداع شرٌّ قاطعٍ لفوائد الدُّنيا والآخرة، والـمباينة الـحاصلة بين حال الـخير والشَّرِّ صريحةٌ بيِّنَةٌ لا تـخفى على ذي عقلٍ.

ولـهذا قال سيِّدنا الـمؤلِّف ﷺ: **مرِّغ خدَّك على الباب**؛ أي: تـمكَّن من إظهار ذلك في باب الله، **وافرش جبينك على التُّراب**؛ إشارة لكثرة الصَّلاة، ودوام السُّجود لله، أو للتَّواضع لله وللخلق.

وألحقها بقوله: **ولا تعتمد على عملك**؛ إشارة إلى قول النَّبيِّ ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الـجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قيلَ: ولا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: ولا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[1].

ولـهذه الإشارة تـمَّم الـمؤلِّف كلامه بقوله: **والـجأ إلى رحمة الله تعالـى وقدرته.**

ثم قال: **وتجرَّد منك**؛ أي: من رؤية نفسك؛ لأنَّ من عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ، **ومِنْ غَيْرِكَ**؛ أي: بعد تجرُّدك من رؤية وجودك تجرَّد من رؤية الموجودات عَامَّةً، عَلَّك بعد ذلك تلحق بأهل السَّلامة وهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]، أي: يخافون الله فلا تشتغل قلوبهم بغيرٍ أو غينٍ طرفة عينٍ تقرُّباً إلى الله، وتباعداً عن غيره؛ لأنَّ بركة العبد ونتيجة سعادته: الوقت الَّذي يتقرب به إلى الله ﷻ، ويتباعد عن غيره.

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب المرضى (٧٥)، باب تمنِّي المريض الموت (١٩) رقم٥٦٧٣، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠)، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله...(١٧) رقم ٢٨١٦، ولفظ البخاري: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْـجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ...».

ثمَّ قال: **الأولياء**؛ أي: الَّذين وَالَوُا اللهَ، وعادوا النَّفس والشَّيطان والهوى والدُّنيا، **لهم الحرمة والرِّعاية في الباب الإلهيِّ، ولولا أنْ جعل لهم هذه القسمة**؛ أي: قسمة الحرمة والرِّعاية، والحفظ والوقاية، لَمَا اختصَّهم وأيَّدهم دون غيرهم من خلقه بولايته وقربه ﷻ، هؤلاء؛ أي: **الأولياء حزب الله جيشه العرمرم**؛ أي: الجمع والعسكر الكثير الغالب الَّذي أيَّد الله به الشَّريعة وحماها، ونصر به الحقيقة وأعزَّ حماها، وصان به شرف نبيِّه ﷺ وألحقه به؛ أي: خَلَّق ذلك الحزب بخلق نبيِّه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فصان به شرفه العالي من التغيير والاندراس، وتحريف الوضع والأساس، وتكفَّل له الله تعالى بالكفاية، كما تكفَّل به لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤]؛ أي: **يكفيك الله ويحفظك** من شرور الدُّنيا والآخرة أنت ومَنْ اتَّبعك وتَخَلَّق بأخلاقك من طائفة المؤمنين الَّذين آمنوا بالله وبما جئت به .

ثمَّ قال: **المعرفة بالله على أقسام**؛ أي: المعرفة بحكمة الله في ملكه وخلقه، والقصد من إظهار عظمة ربوبيَّته على أقسامٍ كثيرةٍ، **وأعظم أقسامها** إصابةً، وأجلُّها حِكْمةً، وأقربها لرضا الله: **تعظيم أوامر الله** تعالى بامتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وهذا هو الانتباه الَّذي هو ضدُّ الغفلة، وأقرب الطُّرق إلى الله تعالى.

ولهذا أتبع سيِّدنا المؤلِّف جملته الماضية بقوله: **بين العبد والرَّبِّ حجاب الغفلة لا غير**، فقد عَيَّن أنَّ الغفلة حائلٌ وقاطعٌ عن الله تعالى، والانتباه حبلٌ متينٌ يلزم الاعتصام به ليصل العبد إلى الله، وأيَّد مقصده بقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة:١٥٢].

ثمَّ قال: **العبد العارف**؛ أي: الَّذي ذاق طعمَ المعرفة المبحوث عنها **يفزع إلى الله لا لغيره، ويتوقَّع سرَّ الله**، وهو **العون النَّاشئ من محض الكرم والفضل من دون**

سابقة صنع ولا عملٍ، وهو فَرَج الله الَّذي يحفُّ بعبده من حيث لا يدري، وهذا التَّوقُّع والانتظار عملٌ طاهرٌ يؤيِّده قول النَّبيِّ ﷺ: «**انْتِظَارُ أُمَّتِي فَرَج الله عِبَادَةٌ**»، وفي روايةٍ: «**انْتِظَارُ الْفَرَجِ عِبَادَةٌ**»، وفي روايةٍ: «**انْتِظَارُ الفَرَجِ بالصَّبرِ عِبَادَةٌ**»[1].

فإذاً توقُّع الفَرَج وانتظاره يتمُّ بالصَّبر، ويصلح فيه فيصير عبادةً، ولا طاقة للعبد على الصَّبر إلَّا بمعونة الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل:١٢٧]، أمر بالصَّبر وبيَّن للصَّابر أنَّه لا طاقة له على الصَّبر إلَّا به، أي: بمعونته وتوفيقه ؛ ولذلك قال المؤلِّف رضي الله عنه: **القلب يتقلَّب بين أصبعي قدرة الرَّحمن ، فاسألوا الله أن يُثبِّت القلوب على محبَّته ودينه**، وفي هذه الجملة إشارة لِمَا ورد على لسان عليٍّ أمير المؤمنين كرَّم اللهُ وَجْهَهُ: «**قُلُوْبُ العِبَادِ بَيْنَ أَصَابعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبَهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»[2].

---

(١) رواه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: التِّرمذي في «الجامع»: كتاب الدعوات...(٤٩)، بابٌ في انتظار الفرج وغير ذلك (١١٦) رقم ٣٥٧١، والطبراني في «الكبير» رقم ١٠٠٨٨، و«الأوسط» رقم ٥١٦٩، بلفظ: «سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ عز وجل يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ».

ورواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: البيهقي في «الشعب» رقم ١٠٠٠٥، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» ٢/ ٧٦، في ترجمة بقية بن الوليد رقم ٣٠٢ ، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٢/ ١٥٥، ترجمة رقم ٥٧٧، بلفظ: «انْتِظَارُ الْفَرَجِ عِبَادَةٌ».

ورواه عن سيدنا علي رضي الله عنه: البيهقي في «الشعب» رقم ١٠٠٠٣، بلفظ: «انْتِظَارُ الفَرَجِ بالصَّبرِ عِبَادَةٌ».

ورواه عن ابن عمر، وعن ابن عباس رضي الله عنهم بنفس لفظ سيدنا علي رضي الله عنه: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ٤٦، و٤٧.

(٢) لم أجده عن الإمام علي رضي الله عنه، وإنَّما وجدت مثله عن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعاً يرويه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٦٥٦٩، ٢/ ١٦٨، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب القدر (٤٦)، باب تصريف الله تعالى القلوب...(٣) رقم ٢٦٥٤ بلفظ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصبعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا على طَاعَتِكَ».

وما أحسن ما قلته بفضل الله في هذا المعنى:

تعالـــــى اللهُ إنَّ اللهَ ربٌّ عظـيمُ اللُّطـفِ كشَّـافُ الكُـروبِ

أحــاطَ بجملــةِ الأشــياءِ عِلمــاً تَصَــرَّفَ فــي القَوالــبِ والقُلُــوبِ

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١١٣- الـمظاهِرُ البارِزَةُ مِنْهَا ما قُيِّضَ لِلْخَيْرِ، ومِنْهَا ما قُيِّضَ لِلشَّرِّ، والْـمُتَصَرِّفُ فِيْهَا بَارِيْهَا، فَالْـمَظْهَرُ الـمُقيَّضُ لِلْخَيْرِ يُشْكَرُ، والْـمَظهَرُ الْـمُقَيَّضُ لِلشَّرِّ يُنْكَرُ، واللهُ فِي الحَالَيْنِ يُذْكَرُ.

١١٤- لا يَتِمُّ نِظامُ رَجُلٍ أَقَامَهُ اللهُ مَظْهَراً لِلشَّرِّ؛ لأنَّ اللهَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ نِظَامَهُ لَـمَا أَقَامَهُ مُظْهِراً فِيْمَا يَكْرَهُهُ.

١١٥- دَعْ عَنْكَ الاهْتِمَامَ بِتَقْوِيمِ الْـمُعْوَجِّ قَبْلَ بُرُوزِ السَّانِحَةِ الْـمُقَوِّمَةِ؛ فَإِنَّ سَحَابَ الخَيْرِ يَمْطُرُ بِإِبَّانِهِ، ولا يُطْلَبُ قَبْلَ أَوَانِهِ.

١١٦- لا تُسْقِطْ هِمَّتَكَ بِيَدِ هَمِّكَ فَتَنْقَلِبْ عَنِ المَطَالِبِ العَلِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْـهَمَّ كافُورُ الـهِمَّةِ والإِقْدامُ عَنْبَرُها، والـمَقْضِيُّ كائِنٌ وغيرُهُ لا يَكُونُ.

١١٧- قِفْ عِنْدَ أَفْعَالِكَ الَّتِي وُهِبَتْ لَكَ، ولا تُكَلِّفْ نَفْسَكَ تَبْدِيْلَ مَا اضْطُرِرْتَ بِفِعْلِهِ، ولا تَرَاكَ[١] مَـجْبُوْراً ولا مُـخْتَاراً، فَإِنَّ الأَمْرَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ.

١١٨- كُلُّ وَلِيٍّ يَقُولُ ويَصُولُ فَهُوَ فِي حِجَابِ القَولِ والصَّولَةِ، حتَّى يَنْقَهِرَ تَحْتَ سَطْوَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، ويَفِيءَ إلى أَمْرِ الله، فَإِذَا فَاءَ دَنَا فَتَدَلَّى بِصِدْقِهِ إلى قابِ قوسَي[٢] الْـمُتَابَعَةِ الـمُحَمَّدِيَّةِ، وحِيْنَئِذٍ تَصِحُّ لَهُ رُتْبَةُ العُبُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الرُّتَبِ وأَعْلاهَا، وأَقْرَبُهَا مِنَ الله وأَدْنَاهَا، وأَعْظَمُهَا وَسِيْلَةً إِلَيْهِ وأَقْوَاهَا، ولَيْسَ لِلْخَلقِ سِوَاهَا.

أشار بأوَّل جملةٍ مـمَّا ذكر لقول النَّبيِّ ﷺ: «**مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقُ لِلشَّرِّ، وَمِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلشَّرِّ مَغَالِيقُ لِلْخَيْرِ؛ فَطُوبَى لِـمَنْ جعَلَ مَفَاتِيحَ الْـخَيْرِ**

(١) في «المعارف»، و«الكليات»: (ولا ترك).

(٢) في الأصل: (قوسين المتابعة) وفي «المعارف»، و«الكليات»: (قوسي المتابعة) فأثبتُّ ما فيهما.

عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ لِـمَنْ جَعَلَ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ»[1].

فكلمة طوبى كلمة تهنئةٍ وتبشيرٍ، وإشارة للجمع بين خيري الدُّنيا والآخرة، وكلمة الويل كلمة سوءٍ وثبورٍ، وإشارة لسوء الحال في الدُّنيا والآخرة، وكلتا الكلمتين تذكر بمعرض الدُّعاء والتَّبشير، فمن قُيِّض للخير بُشِّر على لسان الشَّارع العظيم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بخيري الدَّارين ونعيم الحياتين، ومَنْ قُيِّض للشرِّ بُشِّر بالعذاب الأليم، وقُبح الحال الـمُستديم.

فعلى هذا فالرَّجل المقيَّض للخير يُشكر حاله، والمقيَّض للشَّر يُنكر حاله، والله تعالى يُذكر لجلالة عظمته، وقوَّة تصرُّفه في الحالين طمعاً بإحسانه، وخوفاً من صدمة بطشه إنَّ ربَّك على كلِّ شيءٍ قدير .

ولهذا السِّرِّ قال سيِّدنا المؤلِّف بعد الجملة الأولى: **لا يَتِمُّ نِظامُ رَجُلٍ أقامَهُ اللهُ مظهراً للشَّرِّ**؛ أي: لا يصلح له رأيٌ، ولا ينتظم له تدبيرٌ؛ **لأنَّ الله جلَّتْ عَظَمتُهُ لو أراد أن يتمَّ نظامه**؛ أي: يجمع شتات أمره، ويصلح شأنه **لَـمَا أقامه**؛ أي: نصبه **مظهراً**؛ أي: شيئاً بارزاً واقفاً فيما يكرهه وهو صنع الشَّرِّ.

فإذاً **دَعْ عنك الاهتمام بتقويم الـمُعوجِّ**؛ أي: بهداية من طمس الله على قلبه، وقيَّضه للشَّرِّ **قبل بروز السَّانحة المقوِّمة**؛ أي: قبل ظهور واردٍ غَيبِيٍّ يسنح على قلبه بواعظ الحالة المقوِّمة لاعوجاجه المصلحة لشأنه؛ **فإنَّ سحاب الخير يمطر بإبَّانه** ويجيء بوقته وزمانه، **ولايطلب قبل حلول أوانه**.

ومع ذلك قال سيِّدنا المؤلِّف: **لا تُسْقِطْ هِمَّتَكَ بِيَدِ هَمِّكَ**، فتقف عن سعيك وعزمك، ولا تنقطع عن السَّعي والاجتهاد، **فتنقلب عن المطالب العالي؛ فإنَّ الهمَّ**

---

(١) رواه عن أنس بن مالك ﷺ: ابن ماجه في «السنن»: في المقدمة، باب من كان مفتاحاً للخير (١٩) رقم٢٣٧، والبيهقي في «الشعب» رقم ٦٩٨، وابن عدي في «الكامل» رقم ١٦٧١، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٢٤٦٥.

والغمَّ والعجز والكسل **كافور الهمَّة** يُقطع نتائجها، ويدفعها عن مقاصدها، والإقدام والسَّعي والصَّبر والاستقامة عَنْبَر الهمَّة يرفعها إلى المراتب الصَّحيحة، والمنازل الرَّفيعة، **والمقضيُّ** المقدَّر في عالم الغيب **كائنٌ** لا بدَّ من صيرورته وكينونته، **وغيره لا يكون** ولا يصير.

وألحق سيِّدنا المؤلِّف جملته هذه بقوله: **قِفْ عند أفعالك الَّتي وُهِبَت لك،** فالأفعال الَّتي يصحُّ بها الوهب لا تكون إلَّا أفعالاً مرضيَّةً؛ ولذلك نَسَبَها[1] إلى الوَهب، وأَمرَ السَّالك بالوقوف عندها، وأن لا يختار لنفسه غير ما اختاره الله تعالى له.

ثمَّ قال: **ولا تكلِّف نفسك تبديل ما اضطررت بفعله،** وأجبرك سائق الوسع والطَّاقة لأجله، **ولا تراك مجبوراً أو مختاراً**؛ أي: ولا تقل بقول أهل الجبر والاختيار؛ **فإنَّ الأمر** الصَّادق الَّذي ينتظم به أمر الدِّين **بين الأمرين**؛ أي: بين الجبر ولاختيار، فإنَّ للعبد من الرَّبِّ مواهب أفعالٍ جعله مجبوراً على فعلها إن شاء وإن أبى؛ كالنَّوم، واليقظة، والطعام، والشَّراب، وأمثال ذلك، وأعطاه الإرادة الجزئيَّة في أفعالٍ ترتَّب عليها الثواب والعقاب، وللقدرة في الكلِّ تصاريفٌ عظيمةٌ يلزم على العارف أن يعتبر بها.

ولذلك قال سيِّدنا المؤلِّف: **كلُّ وليٍّ يقول ويصول**؛ أي: يتكلم محجوباً بحجاب الآية التي تظهر له صائلاً بالقوَّة الَّتي تُعطى له، ذاهلاً عن التَّصرُّف الإِلَهي المُحكم في شؤونات العبد وأحواله، **فهو في حجاب القول** الَّذي قاله، **والصَّولة** التي صال بها، لا يزال وراء ذلك الحجاب بعيداً بسببه عن الباب **حتَّى ينقهر تحت سطوة الرُّبوبيَّة،** ويكشف بالانقهار لتلك السَّطوة العظيمة ذلك

(١) في الأصل المطبوع: (نسبتها) وهو خطأ مطبعي أو قد تكون صحيحة بهذا الضبط: (نِسْبَتُهَا) والله أعلم.

الحجاب، **ويفيء إلى أمر الله**، ويرجع بالانكسار إلى الله، **فإذا فاء إلى أمر الله دنا** بانكساره، **فتدلَّى بصدقه إلى قاب قوسي المتابعة المُحمَّديَّة**، والتَّخلُّق بأخلاق الحضرة الطَّاهرة النَّبويَّة، **وحينئذٍ تصحُّ له رتبة العبوديَّة** ، **ومنزلة العبديَّة الَّتي هي أكمل الرُّتب وأعلاها**، وأشرف المنازل وأسماها، وأقربها من الله **وأدناها**، وأنورها لديه وأبهاها، **وأعظمها وسيلة إليه** ﷻ **وأقواها، وليس للخَلق** إلى الحقِّ ﷻ من طريقةٍ مقرِّبةٍ **سواها**، وحسن ما ألهمته في معنى العبوديَّة بفضل الله:

عبوديَّــــة المخلـــوقِ تعريفُهـــا تنزيـــــهُ مولانــــا عـــــن الغيــــرِ

والـــذُّلُّ للخــــالقِ فـــي ملكـــهِ والصَّـــبرُ فـي الشَّـــرِّ وفـي الخيــرِ

فهـــــذه طريقَـــــةُ المصـــــطفى ومَـــنْ جَـــرَى مَجــراهُ فـــي السَّـــيرِ

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١١٩- كُلُّ مَنِ اكْتَحَلَ بِإِثْمِدِ التَّوفِيْقِ عَلِمَ عِلْمَ اليَقِيْنِ، وحَقَّ اليَقِيْنِ: أَنَّ الـمَبَاطِنَ والْـمَظَاهِرَ تَحْتَ قَهْرِ البَاطِنِ الظَّاهِرِ.

١٢٠- صَفَاءُ القَلْبِ والبَصِيْرةِ، ونَفَاذُ نُورِ البَصَرِ يَكُونُ مِنْ قِلَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّ الـجوعَ يُزِيْلُ التَّكَبُّرَ[1] والتَّعاظُمَ والتَّجَبُّرَ، وبِهِ تَعْذِيْبُ النَّفْسِ حتَّى تَصِيْرَ مَشْغُولَةً بالـحَقِّ؛ ومَا رَأَيْتُ شَيْئاً يَكْسِرُ النَّفسَ مِثْلَ الـجُوعِ قَطُّ؛ وأَمَّا الشِّبَعُ فَإِنَّهُ يُوْرِثُ قَسْوَةَ القَلْبِ وظُلْمَتَهُ، وعَدَمَ نَفَاذِ نُورِ البَصِيْرةِ، وتَكثُرُ بِسَبَبِهِ الغَفْلَةُ.

١٢١- رِعَايَةُ خَوَاطِرِ الجِيْرانِ أَوْلَى مِنْ رِعَايَةِ خَوَاطِرِ الأَقَارِبِ؛ لأَنَّ الأَقَارِبَ خَوَاطِرُهُمْ مَجْبُوْرَةٌ بِالقَرَابَةِ، وَالجِيْرَانُ لا.

١٢٢- القَلْبُ الْـمُنَوَّرِ يَمِيْلُ إلى صُحبَةِ الصُّلَحاءِ والعَارِفِيْنَ، ويَنْفِرُ مِنْ صُحْبَةِ الـمُتَكَبِّرِيْنَ والجَاهِلِيْنَ.

١٢٣- مُعَامَلَةُ عِبَادِ اللهِ بِالإِحْسَانِ، تُوصِلُ العَبْدَ إلى الدَّيَّانِ، والصَّلاةُ على رَسُولِ اللهِ ﷺ تُسَهِّلُ الـمُرُوْرَ على الصِّراطِ، وتَجْعَلُ الدُّعاءَ مُسْتَجَاباً، والصَّدَقَةُ تُزِيْلُ غَضَبَ اللهِ، والإِحْسَانُ لِلْوَالِدَيْنِ يُهَوِّنُ سَكَرَاتِ الـمَوْتِ.

١٢٤- صُحْبَةُ الأَشْرَارِ، والـحَمْقَى والظَّلَمَةِ وأَهْلِ الحَسَدِ: ظُلْمَةٌ سَوْدَاءُ.

١٢٥- العَارِفُ مَنْ كَانَ عَلَى جَانِبٍ كَبِيْرٍ مِنْ سُلُوكِ طَرِيْقِ الحَقِّ، مَعَ الـمُوَاظَبَةِ والاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ فلا يَتْرُكُهُ دَقِيْقَةً وَاحِدَةً.

أرار بقوله: **من اكتحل**...إلى آخر الجملة أنَّ مَنْ جلا إثمد التَّوفيق عين بصيرته رأى كما يرى الرَّجل بعين بصره، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين، وحقَّ اليقين أنَّ كلَّ شأنٍ مُبْطَنٌ ومُظْهَرٌ، خاضعةٌ حركاته وسكناته، ومقيَّدةٌ إشاراته وإراداته في بطونه

(١) في «المعارف»، و«الكليات»: (الكبر).

وظهوره تحت قهر الباطن والظَّاهر جلَّت قدرتُهُ، وهناك يلتفت العاقل عن المبطن والمظهر إلى من أبطن وأظهر.

ثم بيَّن المؤلِّف ﷺ أسباب جِلاء القلب والبصيرة، فقال: **صَفَاءُ القلبِ والبصيرةِ، ونفاذُ نورِ البَصَرِ يكونُ مِنْ قِلَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ**، وعلَّل ذلك بكون الجوع يزيل الكبر والتَّعاظم، ويُعَذِّب النَّفس حتَّى تصير مشغولةً بالحقِّ، وقد كان السَّلف الصَّالح يشتغلون بالله عن الطَّعام والشَّراب، كما قيل:

لهـا أحاديـثُ مِـنْ ذِكـراكَ تشـغَلُها ... عـنِ الشَّـرابِ وتُلهِيهَـا عـنِ الـزَّادِ

قال صاحب «آداب الأقطاب»[1]: «جاء في الحديث عن أنس بن مالكٍ ﷺ أنَّه قال: جاءت فاطمةُ صلواتُ الله عليها وسلامُهُ إلى رسولِ الله ﷺ بكسرةِ خبزٍ، فقال: «**مَا هَذِهِ الكِسْرَةُ يَا فَاطِمَةُ؟**»، فَقَالَتْ: صَنَعْتُ قُرْصاً وَخَبَزْتُهُ ولَمْ تَطِبْ نَفْسِي حتَّى أَتَيْتُكَ مِنهُ بِهذهِ الكِسرَةِ، فَقَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**»[2].

وكان سهل بن عبد الله[3] يأكل في كلِّ خمسة عشر يوماً أكلةً، فإذا دخل شهر رمضان أفطر على الماء، ولا يأكل حتَّى يرى هلال شوَّال[4].

دخل بعضهم على بعض الشُّيوخ فرآه يبكي، فقال: مالَكَ، قال: إنِّي جائعٌ،

---

(١) في الأدب الرابع: أدب الجوع لوحة ٢٥.

(٢) رواه عن أنس ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٣٢٤٦، ٣/ ٢١٣، والبيهقي في «الشعب» ١٠٤٣٠، والطبراني في «الكبير» رقم٧٥٠، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣١٢: رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات.

(٣) مرت ترجمته صـ١٢٨ـ.

(٤) وتتمَّتها في «الرسالة القشيرية»: وكان يفطر كلَّ ليلةٍ على الماء القراح، قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه على «الرسالة» باب الجوع٢/ ٧: أي الماء الخالص الذي لا يشوبه شيءٌ طلباً للخفَّةِ في الطَّاعة، وتحرُّزاً من كراهة الوصال.

فقال: ومثلُكَ يبكي من الجوع، فقال له: اسكت، أمَا علمتَ أنَّه أراد من جوعي أن أبكي».

وقد نبَّه سيِّدنا المؤلِّف على أنَّ الشِّبع يورث قسوة القلب وظلمته، ويمنع نفاذ نور البصيرة، وتكثر بسببه الغفلة، وقد كان ائمَّة القوم كلُّهم على ذلك، قال صاحب «آداب الأقطاب»[1]: «قال أبو سليمان الدَّاراني[2]: مفتاح الدُّنيا الشِّبع، ومفتاح الآخرة الجوع .

وقال يحيى بن معاذ[3]: الجوع نورٌ، والشِّبع نارٌ، والشَّهوة مثل الحطب يتولَّد منه الاحتراق، فلا تنطفي ناره حتَّى تحرق صاحبه.

وقال[4]: لئن أترك من عشاي لقمةً أحبُّ إليَّ من أن أقوم اللَّيلَ كلَّه.

وقال مالك بن دينار[5]: مَنْ غَلَبَ شهوات الدُّنيا فذلك الَّذي يفرُّ الشَّيطان من ظلِّه.

---

(١) لوحة: ٢٦.

(٢) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العَنْسي الداراني تـ(٢١٥)هـ: الزاهد المشهور أحد الأوتاد والأقطاب؛ كان من جلَّة السادات، وأرباب الجد في المجاهدات، رحل إلى بغداد وأقام بها مدة، ثمَّ عاد إلى الشام، وتوفي في بلدة داريا. انظر: «طبقات الأولياء» لابن الملقن ٦٤، و«الأعلام» للزركلي ٣ / ٢٩٤.

(٣) مرت ترجمته صـ١٧١ـ.

(٤) هكذا هي في مخطوط «آداب الأقطاب»، لكن القائل هو أبو سليمان الداراني كما ذكر ذلك القشيري في «رسالته»، لا كما توهم العباره أنه يحيى بن معاذ، وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه لهذه العبارة في «الرسالة» باب الجوع ٢/ ١١ معلِّلاً كيف يكون ترك لقمةً من عشائه أفضل من قيام الليل كلِّه؟: لأنَّ حال العبد مع الجوع في عبادته بعض الليل أقرب إلى الخشوع والتَّلذُّذ بها من قيامه وهو شبعانٌ كلَّ الليل كما هو معروفٌ عند أهله.

(٥) هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى تـ(١٢٧)هـ: من العلماء الأبرار، ومن رواة الحديث، معدودٌ في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، كان في ذلك بلغته، ولد في أيام ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما وسمع أنس بن مالك ﵁ بعده، وتوفي بالبصرة. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٥/ ٣٦٢، و«الأعلام» للزركلي ٥/ ٢٦١.

وقال أبو عليٍّ الرُّوْذْبَارِي[1]: إذا قال الصُّوفي بعد خمسة أيَّامٍ أنا جائعٌ فألزموه السُّوق ومروه بالكسب.

وقيل للشبلي[2] إنَّ أبا ترابٍ النَّخشبي[3] قال: جُعتُ في البريَّة فرأيتها كلُّها طعاماً، فقال: عبدٌ رُفِقَ به[4]، ولو بلغ محلَّ التَّحقيق كان كمن قال: «**أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّيْ فَيُطْعِمُنِيْ وَيَسْقِيْنِيْ**»، لَـمَّا شُغِلَ المصطفي ﷺ بمخاطبة مولاه، والتَّلذُّذِ بذكراه سُقِيَ من مَعِينِ لذيذ الشَّراب، وشُغِلَ عن الغذاء بربِّ الأرباب، قال: «**أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّيْ فَيُطْعِمُنِيْ وَيَسْقِيْنِيْ**»[5] .» انتهى.

---

(١) هو الشيخ أبو على أحمد بن محمد الروذبارى الشافعي البغدادي ثم المصري، شيخ الطريقة، معدن الحقيقة، إمام الجماعة، صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء وغيرهم، كان أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة، كبير الشأن توفي بمصر ودفن بالقرافة سنة (٣٢٢)هـ. انظر: «إرشاد المسلمين» للفاروثي صـ١٠ـ، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٨ـ.

تنبيه: ورد في المطبوع من كتب السيد أبي الهدى (الروزبادي) والأصح الروذباري كما قال ابن حجر العسقلاني في «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» صـ١٥٢ـ: «الرُّوْذْبَارِي، بضم الراء وإسكان الواو والذال المعجمة وفتح الموحدة بعدها ألف ثم راء – نسبة إلى بلدة عند طوس ، ينسب إليها جماعة؛ منهم: أبو علي محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري الصوفي»؛ لذلك أثبت الأصح.

(٢) الإمام أبو بكر الشبلي (٢٤٧-٣٣٤هـ): دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن دلف بن يونس الشبلى، نسبة إلى قرية من قرى أسُروشَنة، بلدة عظيمة وراء سمرقند، من بلاد ما وراء النهر، كنيته أبو بكر، الخراساني الأصل، والبغدادي المولد والمنشأ، جليل القدر، مالكي المذهب عظيم الشَّأن، مات ببغداد ودفن بمقبرة الخيزران. انظر: «طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٣٤ـ، و«إرشاد المسلمين» صـ١١ـ، و«الأعلام» للزركلي ٢/ ٣٤١.

(٣) هو أبو ترابٍ النخشبي، واسمه عسكر بن حصين، ويقال: عسكر بن محمد بن حصين، نسبته إلى نخشب بلدة مما وراء النهر تـ(٢٤٥)هـ: وهو من جِلَّة مشايخ خرسان، والمذكورين بالعلم، والفتوَّة، والتَّوكُّل والزُّهد، والورع، وتوفي بالبادية. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي٥٤، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٥٩ـ.

(٤) في الأصل المطبوع: عبدٌ له رفق به، وفي «آداب الأقطاب»: عبدٌ رُفِقَ به.

(٥) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٧٤٣١، ٢/ ٢٥٣، واللفظ له، والبخاري في «الصحيح»: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٩٦)، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم...(٥) =

ونبَّه سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: على رعاية خواطر الجيران أكثر من خواطر الأقارب؛ لأنَّ خواطر الأقارب مجبورةٌ بالقرابة، والجيران ليس لهم هذا الحظ، وهذا سرُّ قوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ...**»[1] الحديث.

ثمَّ بيَّن أنَّ **القلب المنوَّر**؛ أي: المطهَّر من ظلمة الخبث، المضيء بنور الاتِّباع **يميل إلى صحبة الصُّلحاء والعارفين، وينفر من صحبة المُتكبِّرين والجاهلين**، وذلك لسرِّ قوله: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ**»[2].

ولِمَا ورد أيضاً: «**المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[3].

ولقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ثمَّ بيَّن سيِّدنا المؤلِّف أنَّ معاملة عباد الله بالإحسان توصل العبد إلى الله، والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ تُسهل المرود على الصِّراط، وتجعل الدُّعاء مستجاباً، والصَّدقة تزيل غضب الله، والإحسان للوالدين يُهوِّن سكرات الموت.

=

رقم ٧٢٩٩، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الصيام (١٣)، باب النهي عن الوصال (١١) رقم ١١٠٣.

(١) رواه عن أبي شُرَيْح الخُزَاعِي رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٦٤١٧، ٤/ ٣١، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب الحث على إكرام الجار... (١٩) رقم ٤٨، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الأدب (٣٣)، باب حق الجوار (٤) رقم ٣٦٧٢.

(٢) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه بهذا اللفظ: التِّرمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧)، باب ما جاء أن المرء مع من أحب (٥٠) رقم ٢٣٨٦، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، ورواه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» فقط: الإمام البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب (٧٨)، باب علامة حب الله عز وجل (٩٦) رقم ٦١٦٨، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب البر والصلة والآداب (٤٥)، باب المرء مع من أحب (٥٠) رقم ٢٦٤٠.

(٣) رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٨٠١٥ ، ٢/ ٣٠٣ ، والتِّرمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧) باب (٤٥) وقال: هذا حديث حسنٌ غريبٌ، وأبو داود في «السنن»: كتاب الأدب (٣٦) باب مَنْ يُؤْمَرُ أَنْ يُجَالَسَ (١٩) رقم ٤٨٣٣.

وصحبة الأشرار، والحمقى، والظَّلمة، وأهل الحسد: ظلمةٌ سوداء، ولكلِّ جملةٍ ممَّا ذكر دليلٌ من سُنَّة النَّبيِّ ﷺ، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في العباد الَّذين يعاملون الخَلقَ بالإحسان، ويقومون بقضاء حوائج النَّاس، ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «**إِنَّ لله تَعَالَى عِبَاداً اختَصَّهُم بِحَوَائِجِ النَّاسِ، تَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ أُولَئِكَ الآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ الله**»(١).

وغير خافٍ أنَّ من جعله الله آمناً من عذابه فقد أدخله في أوليائه وأحبابه، بشاهد قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[يونس:٦٢].

وجاء في الصَّلاة عليه عنه ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرَفِعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ**»(٢).

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حِيْنَ يُصْبِحُ عَشْراً وحِيْنَ يُمْسِي عَشْراً أَدْرَكَتْهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣)، وغير ذلك مِـمَّا لا يُحصى.

ومِـمَّا وفقني الله إليه قولي في كتابي «ضوء الشمس»(٤): «ومِنَ العلامات الدَّالة

---

(١) رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: الطبراني في «الكبير» رقم ١٣٣٣٤، ورمز السيوطي في «الجامع» لحسنه رقم٢٣٥٠، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٩٢: رواه الطبراني وضعفه، وحسن حديثه ابن عدي، وأحمد بن طارق الراوي عنه لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه عن أنس بن مالك ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٢٠١٧، ٣/ ١٠٢، والنسائي في «السنن»: كتاب السهو (١٣) ، باب الفضل في الصلاة على النبي ﷺ (٥٥) رقم ١٢٩٧، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب الرقائق (٧)، باب الأدعية (٩) رقم ٩٠٤، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الدعاء...(١٧) رقم ٢٠١٨، وقال: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال المناوي في «فيض القدير» ٦/ ٢٢٦: صححه ابن حبان ، وقال ابن حجر: رواته ثقات.

(٣) عزاه السيوطي في «الجامع» للطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء ﷺ ورمز لحسنه رقم٨٨١١، وقال المنذري في «الترغيب» رقم ٩٨٧، والهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٢٠: رواه الطبراني بإسنادين وإسناد أحدهما جيد ورجاله وُثِّقُوا.

(٤) ١/ ١٩٨-٢٠٠.

على مَحبَّته أيضاً: كثرة الصَّلاة والسَّلام عليه، وعلى آله الكرام، وأصحابه العظام، وقد ورد الأمر بالصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ في الكتاب العزيز، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

وفي هذه الآية الكريمة دليلٌ قاطعٌ، وبرهانٌ ساطعٌ، على أنَّ هذا النَّبيَّ المكرَّم، والرَّسول المعظَّم صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، رفيعُ القدر في الملإ الأعلى، وفي الملإ الأدنى؛ لأنَّ الله تعالى أخبر عن الملإ الأعلى، وهم الملائكة الكرام بأنَّهم يُصلُّون على سيِّد الأنام، ومصباح الظَّلام، وأمر الملأ الأدنى، وهم المؤمنون بالصَّلاة والسَّلام عليه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ و سَلَّمَ، وأعظم من ذلك أنَّه مُعظَّمٌ عند الله ﷻ؛ ولذلك أخبرنا ﷻ بأنَّه يُصلِّي عليه.

[مطلبٌ في معنى الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ]

والصَّلاة أحسن ما قيل فيها أنَّ معناها: العناية لكن في كلِّ مَحلٍّ بِحسبه؛ فالصَّلاة من الله تعالى: اعتناؤه بنبيِّه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ بإعلاء قدره، وإظهار فخره، وإعلان شرفه، والثَّناء عليه، وإيصال كلِّ خيرٍ وبِرٍّ إليه، ومضاعفة تعظيمه، وزيادة تعزيزه وتكريمه.

والصَّلاة من الملائكة والآدميِّين: تضرُّعٌ إلى الله تعالى في أن يزيد عزَّه وإكرامه، ويرفع قدره ومقامه، وهو ﷻ ما زالت إفضالاته لهذا النَّبيِّ الكريم، والرَّسول الرَّحيم متواصلةً أبد الدَّوام لا يعتريها انقطاعٌ ولا انفصامٌ، ومع ذلك فقد أمر تعالى بالصَّلاة محضاً لإظهار قدر نبيِّنا المعظَّم، ورسولنا المكرَّم صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ و سَلَّمَ، ولتمحيص ذنوبنا، وستر عيوبنا، وتشريفنا بجعلنا مَحَلاً لصلاته تعالى علينا، كما يُستفاد من الأحاديث الشَّريفة».

ونبَّه سيِّدنا المؤلِّف على أنَّ الإحسان للوالدين يهوِّن سكرات الموت، وقد ورد

الأمر الإلهي بذلك، وقد قال تعالى ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء:٣٦] .

ونبَّه القرآن أيضاً على الإحسان للوالدين بالدُّعاء لهما، فقال تعالى على لسان عبده: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح:٢٨]، ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٤].

وهذا كان دأب المرسلين العظام وأدبهم، ألا ترى كيف قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم:٤١].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**الجَنَّةُ تحْتَ أَقْدَام الأُمَّهَاتِ**»[١]، وقال ﷺ: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ لله صَدقةً تَطوُّعًا أَنْ يَجْعَلَهَا عَلَى وَالِدَيْهِ إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، فَيَكُونُ لِوَالِدَيْهِ أَجْرُهَا، وَلَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمَا بَعْدَ أَنْ لا يَنْتَقِصَ مِنْ أُجُورِهِمَا شَيْئًا**»[٢].

---

(١) رواه عن أنس بن مالك ﷺ بهذا اللفظ: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم ١١٩، والديلمي في «الفردوس» رقم ٢٦١١، ورواه عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما بهذا اللفظ أيضاً: ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» رقم ١٨٢٩، وقال: هذا حديثٌ منكرٌ.

ورواه عن معاوية بن جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ ﷺ: ابن ماجة في «السنن»: كتاب الجهاد (٢٤)، باب الرجل يغزو وله أبوان (١٢) رقم٢٧٨١، والطبراني في «الكبير» رقم ٨١٦٢، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» رقم١٦١، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٣٨: رواه الطبرانى عن ابن إسحاق وهو مدلس عن محمد بن طلحة ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، ولفظهم: قال: أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَ: «وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «ارْجِعْ فَبَرَّهَا»، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْجَانِبِ الآخَرِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَ: «وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرَّهَا»، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ أَمَامِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَ: «وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «وَيْحَكَ الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ».

(٢) رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: الطبراني في «الأوسط» رقم٦٩٥٠، وابن عساكر في =

وأمَّا ما ورد في الصَّدقة، فمنه قول النَّبيِّ ﷺ: «**خَيْرُ أَبْوَابِ البِرِّ الصَّدقَةُ**»[1]، وورد: «**الصَّدَقةُ تَدْفَعُ البَلاءَ، وَتَزِيْدُ العُمُرَ**»[2].

وفي حديث ابن أبي الدُّنيا: «**التَّواضُعُ لا يَزِيدُ العَبْدَ إلَّا رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ اللهُ تَعالَى، والعَفْوُ لا يزيدُ العَبْدَ إلَّا عِزّاً فَاعْفُوا يُعِزُّكُمُ اللهُ، والصَّدقَةُ لا تَزِيْدُ المَالَ إلَّا كَثْرَةً فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[3].

وقد نهى سيِّدنا المؤلِّف عن صحبة الأشرار والظَّلمة، وأهل الحسد، على أنَّ الطَّبع البشري كالماء يتلوَّن بلون إنائه، وأهمّ ما حذَّر منه سيِّدنا المؤلِّف صحبة الظَّلمة : ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[هود:١١٣].

قال في «الكشَّاف»: «وتأويل قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾، فإنَّ الرُّكون هو الميل اليسير.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: إلى الَّذين وُجِد منهم الظُّلم ولم يقل إلى الظَّالمين.

وحُكِيَ أنَّ الـمُوَفَّق[4] صلَّى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فَغُشِيَ عليه، فلما أفاق

=

«تاريخ دمشق» ٥٣ / ٣٠٧ ، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٧٩٤٣.

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في «الكبير» رقم١٢٨٣٤، والديلمي في «الفردوس» رقم ٢٩٠٥، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٤٠٤٨.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ووجدت بمعناه حديثاً رواه عن أنس بن مالك ﷺ بلفظ: «بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ الْبَلاَءَ لا يَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ»: البيهقي في «الشعب» مرفوعاً رقم ٣٣٥٤، وموقوفاً رقم ٧٦٢٠، وقال المنذري في «الترغيب» رقم ١٢٩٩: رواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً على أنس ولعله أشبه - أي: الموقوف -. ورواه عن سيدنا علي ﷺ: الطبراني في «الأوسط» رقم ٥٦٤٣، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣ / ١١٠: فيه عيسى بن عبد الله بن محمد، وهو ضعيف.

(٣) مرَّ تخريجه صـ١٧٠ـ.

(٤) الموفق بالله طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم العباسي، أبو أحمد تـ(٢٧٨)هـ: أمير، من =

قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى مَنْ ظَلم فكيف بالظَّالم؟.

وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدِّين بين لائين: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [هود:١١٢]، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾». انتهى.

فلا نشكُّ أنَّ الـمُوفَّقين يحفظهم الله من صحبة الممقوتين، ويلهمهم التَّمسُّك بالصَّالحين.

وانظر كيف نبَّه المؤلِّف أنَّ العارف من كان على جانبٍ كبيرٍ مِنْ سلوك الحقِّ، وهو اتِّباع النَّبيِّ ﷺ في الحركات والسَّكنات؛ لأنَّ سعادة الدَّارين لا تكون إلا بكمال الاقتداء به ﷺ، ومن انحرف عن طريق اتِّباعه فهو ظالمٌ في طريقه، قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور: ٦٣]، وقال ﷺ: «**مَنِ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1].

=

رجال السياسة والإدارة والحزم، لم يلِ الخلافة اسماً، ولكنَّه تولاها فعلاً، ولد ومات في بغداد، وكان شجاعاً موفقاً عادلاً، عالماً بالأدب والأنساب والقضاء، له مواقف محمودة في الحروب وغيرها، توفي في أيام أخيه المعتمد. انظر: «الأعلام» للزركلي ٣ / ٢٢٩.

(١) مرَّ تخريجه صـ١٢٦ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٢٦- الصُّوْفِيُّ يَتبَاعَدُ عَنِ الأَوْهَامِ والشُّكُوكِ، ويَقُولُ بِوَحْدانِيَّةِ الله تَعَالى فِي ذاتِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ؛ لأَنَّهُ لَيسَ كمثلِهِ شَيءٌ، يَعْلَمُ ذَلِكَ عِلْماً يَقِيناً، لِيَخْرُجَ مِنْ بَابِ العِلْمِ الظَّنِّي، ولِيَخْلَعَ مِنْ عُنُقِهِ رِبقةَ التَّقْلِيدَ.

١٢٧- الصُّوْفِيُّ لا يَسْلُكُ غَيْرَ طَرِيقِ الرَّسولِ المكرَّمِ ﷺ فلا يَجْعَلُ حَرَكَاتِهِ وسكَنَاتِهِ إلَّا مَبْنِيَّةً عَلَيْهِ.

١٢٨- الصُّوْفِيُّ لا يَصْرِفُ الأَوْقَاتَ فِي تَدْبِيْرِ أُمُوْرِ نَفْسِهِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الـمُدَبِّرَ: الـحَقُّ ﷻ، ولا يَلجَأُ فِي أُمُورِهِ ويُعَوِّلُ على غيرِ الله تَعَالَى.

١٢٩- الصُّوْفِيُّ يَتَجَنَّبُ مُخَالَطَةَ الخَلْقِ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ لأنَّ الصُّوْفِيَّ كُلَّمَا زَادَ اخْتِلاطُهُ بِالـخَلقِ ظَهَرَتْ عُيُوبُهُ، والتبَسَ عَليهِ الأَمْرُ، وإِذَا خَالَطَ البَعَضَ فَلْيَخْتَرْ لِنَفْسِهِ صُحبَةَ الصَّالِحِيْنَ؛ فإِنَّ الـمَرْءَ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ.

١٣٠- نَفَسُ الفَقِيْرِ مِثْلُ الكِبْرِيْتِ الأَحْمَرِ لا يُصْرَفُ إلَّا بِحَقٍّ لِـحَقٍّ.

١٣١- مَنْ لَـمْ يَزِنْ أَقْوالَهُ وأَفعالَهُ وأَحْوالَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ، ولَـمْ يَتَّهِمْ خَواطِرَهُ لَـمْ يَثْبُتْ عِنْدَنا فِي دِيْوانِ الرِّجَالِ.

١٣٢- مَنْ عَلِمَ مَا يَحْصُلُ لَهُ هَانَ عَلِيهِ مَا يَبْذُلُ.

١٣٣- مَنْ استَقَامَ بِنَفْسِهِ استَقَامَ بِهِ غَيْرُهُ، كَيْفَ يَسْتَقِيْمُ الظِّلُّ والعُودُ أَعْوَجُ ؟!.

١٣٤- الفَقِيرُ إِذَا كَسَرَ نَفْسَهُ، وذَلَّ وانْدَاسَ، واحْتَرَقَ بِنَارِ الشُّوْقِ والصِّدْقِ، وثَبَتَ فِي مَيْدَانِ الاسْتِقَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الله تَعَالَى، صَارَ مَعدِنَ الخَيْرَاتِ، ومَقْصِدَ المَخْلُوقَاتِ، وَصَارَ كالغَيْثِ: أَيْنَ وَقَعَ نَفعَ، وَيَكُونُ حِيْنَئِذٍ رَحْمَةً وسَكِيْنَةً عَلَى خَلْقِ الله تَعَالَى.

أراد المؤلِّف ؓ بقوله: **الصُّوفيُّ يَتبَاعَدُ عَنِ الأَوْهَامِ والشُّكُوكِ**... إلى آخر ما قال تنْزِيهَ الله ﷻ في ذاته وصفاته وأفعاله، وقد أجمع علماء الدِّين ؓ على أنَّ

شرط صحَّة العبادات وجود الإيمان.

والإيمان: في اللُّغة: التَّصديق، وشرعاً: التَّصديق بما عُلمَ من الدِّين بالضَّرورة. وقال ﷺ: «**الإِيمَانُ اعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ، وإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ**»[١].

[حكم المقلِّد في العقائد]

فَمَنْ كان مؤمناً موحِّداً الله تعالى كما ذكر سيِّدنا المؤلِّف: يَخلع ربقة التَّقليد، ولا يخفى أنَّ العلماء اختلفوا فيمن آمَنَ وكانت عقائده بمجرَّد التَّقليد مع عدم النَّظر في عِلمِ العقائد، والوقوف على شيءٍ من علمِ التَّوحيد[٢]:

---

(١) رواه عن سيدنا علي ﷺ: ابن ماجة في «السنن»: في المقدمة، باب في الإيمان (٩) رقم٦٥، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٦، والطبراني في «الأوسط» رقم ٦٢٥٤، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٣٠٩٤، رووه بلفظ: «الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ».

(٢) التقليد: هو الاعتقاد بقول الغير من غير أن يعرف دليله، ومن وقف على الدَّليل بإرشادِ العلماء يكون عارفاً لا مُقَلِّداً، كجماعةٍ نظروا للهلال فسبق بعضهم لرؤيته فأخبرهم به، فإنْ صدَّقوه من غير معاينةٍ كانوا مُقَلِّدينَ، وإن أرشدهم بالعلامة حتَّى عاينوه لم يكونوا مقلِّدين.

أمَّا من لم يقف على الدَّليل ولو جُمليَّاً ففيه ستة أقوالٍ:

الأول: عدم صِحَّةِ التَّقليد فيكون المقلد كافراً وعليه السنوسي في «الكبرى»، وقال الجُبَّائي: هو مؤمنٌ في الدُّنيا كافرٌ في الآخرة.

الثاني: الاكتفاء بالتَّقليد مع العصيان مطلقاً؛ أي: سواء كان لديه أهليَّةٌ للنَّظر أم لا.

الثالث: الاكتفاء بالتقليد مع العصيان إن كان فيه أهليَّةٌ للنَّظر.

الرابع: أنَّ مَنْ قلَّد معصوماً - القرآن والسُّنَّة القطعيَّة - صحَّ إيمانه لاتِّباعه القطعي، وإلا لم يصح أي: إن قلَّد غير معصومٍ.

الخامس: الاكتفاء به من غير عصيانٍ مطلقاً؛ لأنَّ النَّظر شرط كمالٍ فمن تركه فقد خالف الأولى.

السادس: أنَّ إيمان المقلِّد صحيحٌ ويحرم عليه النَّظر.

والحقُّ الذي عليه المُعَوَّل: أنَّه مؤمنٌ عاصٍ بتركِ النَّظر، إن كان فيه أهليَّةٌ للنَّظر. انظر: «تحفة =

فقال جماعة كالأشعري[1]، والقاضي[2]، والأستاذ[3]، وإمام الحرمين[4]: لا يكتفي بتقليده، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك، وعزاه بعضهم لإمام دار الهجرة سيِّدنا مالكٍ رضي الله عنه.

ونقل عن الجمهور عدم جواز التَّقليد في العقائد الدِّينيَّة.

والأبحاث الكلاميَّة في هذا الموضع كثيرةٌ، فعلى هذا صحَّ ما اشترطه سيِّدنا المؤلِّف على الصُّوفِيِّ الكامل من التَّباعد عن الأوهام والشُّكوك، والوقوف على

=

المريد» للباجوري صـ٩٣-٩٤ـ، و«شرح جوهرة التوحيد» للصاوي صـ ١٠٥-١٠٧ـ.

(١) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري (٢٦٠-٣٢٤)هـ: شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والذَّابِّ عن الدين والساعي في حفظ عقائد المسلمين سعياً يبقى أثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم، وتوفي ببغداد، قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، منها: «إمامة الصديق»، و«الرد على المجسمة»، و «مقالات الإسلاميين»، و«الإبانة عن أصول الديانة». انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٣/ ٢١٩، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٢٦٣.

(٢) مرت ترجمته صـ١٥١ـ.

(٣) الإمام العلامة الأوحد، الأستاذ، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، الإسفراييني، الأصولي الشافعي، الملقب ركن الدين تـ(٤١٨)هـ: أحد المجتهدين في عصره، وصاحب المصنفات الباهرة، وتوفي بنيسابور يوم عاشوراء، ومن تصانيفه: «جامع الخلي في أصول الدين والرد على الملحدين» في خمس مجلدات. انظر: «سير أعلام النبلاء» رقم٢٢٠، ١٧/ ٣٥٣.

(٤) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (٤١٩-٤٧٨)هـ: أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعي، ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة والمدينة فأفتى ودرَّس، ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء، له مصنفات كثيرة، منها: «البرهان» في أصول الفقه، و«الشامل في أصول الدين على مذهب الأشاعرة»، توفي بنيسابور. انظر: «الأعلام» للزركلي ٤ / ١٦٠.

هذا العِلمِ النَّفيس؛ ليخلع من عنقه ربقة التَّقليد.

ثمَّ قال: **الصُّوفيُّ لا يَسْلُكَ غيرَ طَرِيقِ الرَّسولِ المكرَّمِ ﷺ**، على أنَّ سلوك غير طريقه ﷺ إنَّما هو بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلُّ ضلالةٍ في النَّار، وقال صاحب الجوهرة:

وكـلُّ خيـرٍ فـي اتِّبـاعِ مَـنْ سَـلَفْ ... وكُـلُّ شَـرٍّ فـي ابتـداعِ مَـنْ خَلَـفْ

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِي**»[1].

وقال: الصُّوفيُّ لا يَصْرِفُ الأوقاتَ في تدبيرِ أمورِ نَفْسِهِ، وهذا هو الرِّضا بعينه، والرِّضا الَّذي عناه الشُّيوخ رضي الله عنهم اختلفت فيه أقوالهم، قال صاحب «آداب الأقطاب»[2]: «قد أكثر المتصوِّفة في ذكر الرِّضا، واختلفوا فيه، فمنهم من قال: حالٌ؛ ومنهم من قال: مكتسبٌ، فالرَّاضي بالله لا يعترض على مقاديره.

قال أبو عليٍّ الدَّقاق[3]: الرِّضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء.

قال المشايخ: الرِّضا باب الله الأعظم، يعني من لزم الرِّضا، فقد لقي بالتَّرحيب الأوفى، وألزم بالتَّقريب الأعلى، فالرِّضا لا يقع من العبد إلَّا بعد الرِّضا عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[المائدة:١١٩].

وقد جاء أنَّ موسى عليه السلام، قال: إلهي دُلَّنِي على عملٍ إذا عملتُهُ رضيتَ عنِّي، فقال: «إنَّكَ لا تَطِيْقُ ذلكَ»، فَخَرَّ موسى عليه السلام ساجداً متضرِّعاً، فأوحى الله تعالى إليه: «يا ابنَ عِمْرَانَ، رِضَائِي فِي رِضَاكَ بِقَضَائِي».

(١) مرَّ تخريجه صـ١٢٧ـ.

(٢) لوحة ٦١-٦٢.

(٣) مرَّت ترجمته صـ٢٣٠ـ.

وقد سُئلتْ رابعة[1] متَّى يكون العبد راضياً ، فقالت ، إذا سرَّته المصيبة كما تسرُّه النِّعمة .

وقيل للحسين بن عليٍّ عليهما السَّلام: إنَّ أبا ذرٍّ يقول: الفقرُ أحبُّ إِلَيَّ مِنَ الغِنَى، والسُّقمُ أحبُّ إليَّ من الصَّحَّةِ، فقال: «رحمَ اللهُ أبا ذرٍّ، أمَّا أنا فأقولُ: مَنِ اتَّكَلَ عَلَى حُسْنِ اخْتِيَارِ الله تَعَالَى لَـمْ يَتَمَنَّ غَيْرَ ما اخْتَارَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ»[2].

وسُئل أبو عثمان[3] عن قول النَّبيِّ ﷺ: «**أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَا**»[4] ، فقال: لأنَّ الرِّضا بعد القضا هو الرِّضا.

وقال أبو سليمان الدَّاراني[5]: أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرِّضا، لو أنَّه أدخلني النَّار لكنت راضياً بذلك.

قال المحاسبي[6]: الرِّضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

---

(١) رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية تـ(١٣٥)هـ: صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها، لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر، توفيت بالقدس، قال ابن خلكان: وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقيه، على رأس جبل يسمى الطور. انظر: «الأعلام» للزركلي ٣/ ١٠.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٣/ ٢٥٣.

(٣) أبو عثمان، سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحِيريُّ النَّيْسَابُورِيُّ وأصله من الرَّي، و هو من أَوْحد المشايخِ في وقته، ومنه انتشر طريقةُ التصوفِ بنَيْسابورَ، وتوفي فيها سنة (٢٩٨)هـ. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي صـ٥٩ـ، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن صـ٤٠ـ.

(٤) مرَّ تخريجه صـ١٩٨ـ.

(٥) مرَّت ترجمته صـ٢٧٥ـ.

(٦) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله تـ(٢٤٣)هـ: من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرَّدِّ على المعتزلة وغيرهم، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره، من كتبه: «آداب النفوس» صغير، و«شرح المعرفة»، و«رسالة المسترشدين». انظر: «الأعلام» للزركلي ٢ / ١٥٣.

وقال الْـجُرَيْرِيُّ[1]: مَنْ رضي بدون قَدْرِهِ، رفعه فوق غايته.

وقال أبو ترابٍ النَّخشبي[2]: لا ينال الرِّضا مَنْ للدُّنيا في قلبه مقدارٌ، قال رسول الله ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبّاً**»[3].

وقال أبو عثمان: منذ أربعين سنةٍ ما أقامني الله في حالٍ فكرهته، وما نقلني إلى غيره فسخطته». انتهى.

ونبَّه سيِّدنا المؤلِّف على العزلة بقوله: **الصُّوفيُّ يَتَجَنَّبُ مُخَالَطَةَ الخَلقِ** إلى أن قال: **وإذا خَالَطَ البعضَ فليختَرْ لنفسِهِ صحبَةَ الصَّالحينَ**، قال القوم: العزلة صفة أهل الصَّفوة، وهي أمارات الوصلة، والأَوْلَى بمن أراد العزلة أن ينوي بها كفَّ شرِّه عن النَّاس لا كفَّ شرِّ النَّاس عنه؛ لأنَّ الأوَّل استصغار نفسٍ، والثاني كبرٌ.

وقال يحيى بن معاذ: الخلوة جلسة الصِّدِّيقين.

وقال الشِّبلي: الإفلاس مجالسة النَّاس.

وقال الجنيد رضي الله عنه: هذا زمان وحشةٍ ، فالعاقل من آثر فيه الوحدة.

وقال جماعةٌ: مَنْ قوي على عزلة النَّفس فليعتزل، ومن اشتغل في الخلوة بنفسه وجلس معها فالأولى له الاجتماع على النَّاس.

ولهذا شرط سيِّدنا المؤلِّف على من أراد الاختلاط أن يختلط بالصَّالحين، وما

---

(١) أحمد بن محمد الحسين أبو محمد الجُرَيْرِيّ تـ(٣١١)هـ: من كبار أصحاب الجنيد، وخليفته في مكانه بوصيةٍ منه، وكان غزير العلم، صحيح الطريق، عظيم الشأن، بلغ في الطريق ما لم يبلغه أهل عصره على التحقيق، ونظم في التصوف ونثر رحمه الله تعالى. انظر: «روضة الناظرين» للوتري صـ ١٥ـ، و«الطبقات الكبرى» للمناوي ١/ ٥١٣.

(٢) مرَّت ترجمته صـ٢٧٦ـ.

(٣) رواه عن العباس رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٧٧٨، ١/ ٢٠٨، والإمام مسلم في الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب الدليل على أنَّ من رضي...(١١) رقم ٣٤، والترمذي في «الجامع»: كتاب الإيمان (٤١)، باب (١٠) رقم ٢٦٢٣، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

أحسن ما قاله ذو النُّون المصري[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

لا عـيشَ إلَّا مـعَ رجـالٍ قلـوبُهم تحـنُّ إلـى التَّقـوى وترتَـاحُ بالـذِّكرِ

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا المُؤَلِّف: **مَنْ لَمْ يَزِنْ أقوالَهُ وأفعالَهُ**... إلى آخر ما قال، يريد بذلك الانتباه من الرَّجُلِ لأفعال نفسه، وخروجه من ساحة الغفلة، وتشييد بناء أفعاله على المحجَّة البيضاء، شريعة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

ودقَّق عليه بعد تنقية الأفعال بتنقية الخواطر القبيحة التي تشغل القلب عن ذكر الرَّبِّ، وأوضح أنَّ من لم يكن كذلك لم يثبت في ديوان الرِّجالِ، أحبابِ الله، أصحابِ القلوب الَّذين أطلعهم على غوامض الغيوب.

ولذلك قال سيِّدنا المؤلِّف: **مَنْ عَلِمَ مَا يَحْصُلُ لَهُ هَانَ عليهِ مَا يَبْذُلُ**؛ أي: من علم جليل ما يحصل له من الفتح الإلهي، والمقامات العليَّة القريبة من الله تعالى، هان عليه وقلَّ عنده ما يبذل لاستحصال ما تقدَّم ذكره من نقود الهمَّة، وبضاعة العزيمة التي ببركتها يصير مستقيماً في نفسه، مقوِّماً لغيره؛ فإنَّ العبد إذا استقام بنفسه استقام به غيره، وإلَّا فلا.

أجل **كيف يستقيم الظِّل والعود أعوج ؟!** .

الفقير إذا كسر نفسه؛ أي: أنزلها عن نخوتها الكاذبة **وذلَّ** لله، **واندإس** بأرجل العبرة، **واحترق بنار الشَّوق** لربِّه، **والصِّدق** في حبِّه، **وثبت** قدمه، وعلت همَّته في **ميدان الاستقامة** بصحة الإقامة بين يدي الله تعالى: **صار معدن الخيرات**، وكنز

---

(١) ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض تـ(٢٤٥)هـ: أحد رجال الطريقة؛ كان أوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان حكيماً فصيحاً، وكان أحد الزهاد العُبَّاد المشهورين، من أهل مصر، كانت له فصاحة وحكمة وشعر، وتوفي بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ١/ ٣١٥، و«الأعلام» للزركلي ٢/ ١٠٢.

المبرَّات، **ومقصد المخلوقات**، ومهبط الرَّحمات، **وصار كالغيث** المنسكب من معادن الرَّحمة أين وقع نفع بإذن الله، **ويكون حينئذٍ رحمةً وسكينةً على خلق الله تعالى**، ويدخل في أعداد أحباب الله وأوليائه الَّذين يُحبُّهم، ويُحبُّ مَنْ أحبَّهم، ويغار لهم ويصونهم .

ألا هم القوم لا يشقى جليسهم رضي الله عنهم وجعلنا بفضله منهم.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٣٥- رُبَّما اتُّبِعَ الكاذبُ وهُجِرَ الصَّادِقُ، وكَثُرَتْ طَقْطَقَةُ النِّعَالِ حَولَ الـمَغْرُوْرِينَ، وتَبَاعَدَ النَّاسُ عنِ الـمَتْرُوكِينَ، فلا تَعْجَبْ مِنْ ذلكَ؛ فإنَّ حالَ النَّفسِ: تُحِبُّ القُبَّةَ الـمُزَيَّنَةَ، والقَبْرَ الـمَنْقُوشَ، والرِّواقَ الوَسِيعَ، وتَأْلَفُ الشَّيخَ الكَبِيْرَ العِمَامَةِ، الوَسِيْعَ الكُمِّ، الكَثِيْرَ الحِشْمَةِ!.

فَسَيِّرْ هِمَّةَ القَلْبِ لا هِمَّةَ النَّفسِ لِكَشْفِ هذِهِ الحُجُبِ، وقُلْ لِنَفْسِكَ: لَوْ رَأَيْتِ رسولَ الله ﷺ عَلَى حَصِيْرَةٍ وَقَدْ أَثَّرَتْ فِي جَنْبِهِ الشَّرِيْفِ، ورَأَيْتَ أَهْلَ بَيْتِهِ رِضْوانُ الله وسَلامُهُ عَليهِم لا طَعَامَ لَهُمْ ولا حَشَمَ، ثُمَّ رَأَيْتَ كِسْرَى العَجَمِ عَلَى سَرِيْرِهِ الـمُرَصَّعِ بِالْجَواهِرِ واليَواقِيْتِ، وأَهلَ بَيْتِهِ مُسْتَغْرِقِيْنَ بالتَّرَفِ والنَّعِيْمِ، مُحَاطِينَ بِالـخَدَمِ والـحَشَمِ، أينَ تَكُونِيْنَ؟ ومَعَ أيِّ صِنفٍ تَنْصَرِفِيْنَ؟

فلا بُدَّ - إنْ وفَّقَهَا اللهُ - أنْ تُحِبَّ مَعِيَّةَ رسولِ الله ﷺ وأهْلِ بَيْتِهِ، فَقُدْ بِهَذَا الشَّأْنِ هِمَّةَ القَلْبِ إلى أَهْلِ الحَالِ الـمُحَمَّديِّ تُـحْسَبْ فِي حِزْبِ الله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

١٣٦- وإيَّاكَ أنْ تَنْظُرَ حَالَ تَقَشُّفِكَ شَيْئَاً؛ فَإِنَّ الـجُوْعَ بلا مَعْرِفَةٍ وأَدَبٍ مُحَمَّديٍّ، وَصْفٌ مِنْ أَوْصَافِ الكِلابِ.

١٣٧- فَارْفَعْ قَدْرَكَ بِالأَدَبِ الـمُحَمَّدِيِّ إِلَى مَراتِبِ أَهْلِ الوَصْلَةِ مِنْ صُدورِ القَومِ، واقْطَعْ عَنْكَ رُؤْيَةَ العَمَلِ، واطْمِسْ حُرُوفَ أَنَانِيَّتِكَ فَإِنَّهَا بَقِيَّةُ إِبْلِيْسَ، وَكُنْ عَبْدَاً مَحْضَاً تَفُزْ بِقُرْبِ سَيِّدِكَ، وكَفَى بِالله وَلِيَّاً.

أراد سيِّدنا المؤلِّف بقوله: **ربَّما اتُّبع الكاذب**...إلى آخر ما قال انحطاطَ همَّة المحجوبين بظواهر الأحوال والآثار عن الحقائق، وهم الَّذين تنصرف هممهم وراء النُّفوس فلا يميِّزون بين مقاصد القلوب، ومقاصد النُّفوس، فتنقاد هممهم

لطقطقة النِّعال حول المغرورين، وترتبط غاياتهم بالقبب، والقبور، والعمائم، والجُبب، والخدم، والحشم، وتقف عزائمهم عند ذلك، فلا يُفرِّقون بين الكاذب والصَّادق، والمبطل والمحقِّ، وكلُّ ذلك من أشراط السَّاعة، فحينئذٍ يلزم على العاقل أن **يُسَيِّرَ همَّة القلب لا همَّة النَّفس**؛ لأنَّ هِمَّة القلب صادقةٌ وفيها الفِراسة بارقةٌ، وهمَّة النَّفس كاذبةٌ وفي جميع مطالبها خائبةٌ لكشف هذه الحجب الثَّقيلة بهمَّة نيَّته الصَّادقة الجليلة، وأن لا يغترَّ بظواهر الأحوال، وأن يميِّز هذه الدَّقائق، ولا يقف إلَّا على الحقائق، ويقول لنفسه: **لو رأيت رسول الله ﷺ على حصيرٍ**، وأهله جياعاً، ورأيت كسرى على سريرٍ مرصَّعٍ بالجواهر، وأهله بأنواع النِّعم، فلا بدَّ إن وُفِّقْتِ أن تكوني مع رسول الله ﷺ، وأهل بيته الكرام، فالزمي طريقة رسول الله ﷺ؛ فإنَّها أنجح الطَّرائق، وأوضح الحقائق، وهذا الَّذي ذكرناه إلزامٌ بترك الحرص على الدُّنيا، وكفِّ الطَّرف عن ظواهر زينتها، ومظاهرها الفانية.

وقد دخل عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ على رسول الله ﷺ وهو على حصيرٍ قد أثَّرَ في جنبه، فقال: يا رسولَ الله، لَوِ اتَّخذتَ فراشاً أوثرَ من هذا، قال: «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا، ومَا لِلدُّنْيَا ومَالِي، وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إلَّا كَرَاكِبٍ سَافَرَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، واسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[1].

وفي روايةٍ أخرى أنَّ عمرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ لَـمَّا رأى رسول الله ﷺ على الحصير كما تقدَّم، قال له: يا رسول الله، كسرى العجم مجوسيٌّ ينام على فراش الدِّيباج، وأنت يا رسول الله، لو اتَّخذت فراشاً، فقال له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَالي وللدُّنيا...**» الحديث[2].

---

(١) مرَّ تخريجه صـ١٢٨ـ.

(٢) روى قريباً منه عن جُندَب رضي الله عنه: الطبراني في «الكبير» رقم ١٧١٩، ولفظه: قَالَ رضي الله عنه: أَصَابَتْ إِصْبَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَجَرَةٌ فَدُمِيَتْ، فَقَالَ: «هَلْ هِيَ إِلَّا إِصْبَعٌ دُمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيَتْ»، =

وذكر ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢]، قال: لوحٌ من ذهبٍ مكتوبٌ فيه: «**عَجَبَاً لِمَنْ أَيْقَنَ بِالقَدَرِ كيفَ ينصَبُ؟!، عَجَبَاً لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ كيفَ يضحكُ؟!، عَجَبَاً لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وتَقَلُّبَهَا كيفَ يَطْمَئِنُّ إِليهَا؟!، أَنَا اللهُ لا إله إِلَّا أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدِي ورَسُوْلِي**»[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي شَيءٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، وقال لي: «**إِنِّي عُرِضَ عَلَيَّ أَنْ تُجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لاَ يَا رَبِّ، أَجُوعُ يَوْمًا وأَشْبَعُ يَوْماً، فأَمَّا اليَوْمَ الَّذِي أَجُوعُ فِيْهِ فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ، وأَمَّا اليَوْمَ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وأُثْنِي عَلَيْكَ**»[2].

=
فَحُمِلَ فَوُضِعَ عَلَى سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِخُوصٍ أَوْ شَرِيطٍ، وَوُضِعَ تَحْتَ رَأْسِهِ مِرْفَقَةٌ مِنْ أَدَم حَشْوُهَا لِيفٌ فَأَثَّرَ الشَّرِيطُ فِي جَنْبِهِ، فَجَاءَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ ﷺ، فَبَكَى، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، كِسْرَى وَقَيْصَرُ يَجْلِسُونَ عَلَى سَرِيرِ الذَّهَبِ، وَيَلْبَسُونَ الدِّيبَاجَ، وَالإِسْتَبْرَقَ، قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنَّ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَكُمُ الآخِرَةَ»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٢٧: رواه الطبراني وفيه عمر بن زياد وقد وثقه ابن حبان وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.
وروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ: الطبراني في «الكبير» رقم ١٠٣٢٧، ولفظه: قال ﷺ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ وَهُوَ فِي غُرْفَةٍ كَأَنَّهَا بَيْتُ حَمَامٍ، وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ بِجَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ يَا عَبْدَ الله؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، كِسْرَى وَقَيْصَرُ يَطَئُونَ عَلَى الْخَزِّ وَالْحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ، وَأَنْتَ نَائِمٌ عَلَى هَذَا الْحَصِيرِ قَدْ أَثَّرَ بِجِنْبِكَ، قَالَ: «فَلا تَبْكِ يَا عَبْدَ الله، فَإِنَّ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةَ، وَمَا أَنَا وَالدُّنيا، وَمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنيا إِلَّا كَمَثَلِ رَاكِبٍ نَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ سَارَ وَتَرَكَهَا»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٢٦: رواه الطبراني وفيه عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش وقد وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً: البيهقي في «الزهد الكبير» رقم ٥٤٤، ورواه عن سيدنا عليٍّ ﷺ موقوفاً: البيهقي في «الشعب» رقم ٢١٣. ورواه عن أبي ذرٍّ ﷺ مرفوعاً: البزار في «المسند» رقم ٤٠٦٥، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٥٤: رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه عن السيدة عائشة رضي الله عنها من غير زيادة: «إِنِّي عُرِضَ عَلَيَّ أَنْ تُجْعَلَ...»: البخاري في «الصحيح»: كتاب فرض الخمس (٥٧) باب نفقه نساء النبي ﷺ... (٣) رقم٣٠٩٧، ومسلم
=

وعن عائشة أيضاً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا وأَرْضَاهَا قالت: «لَـمْ يَمْتَلِئْ جَوفُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ شِبَعاً قَطُّ، وكانتِ الفاقَةُ أَحبَّ إليهِ مِنَ الغِنَى، وإنَّهُ ليظَلُّ جَائِعَاً يَلْتَوِي طُولَ لَيْلتِهِ مِنَ الجُوعِ، فلا يمنعُهُ صيامُ يَومِهِ، ولَوْ شَاءَ سَأَلَ رَبَّهُ جَمِيعَ كُنُوزِ الأَرضِ وثِمَارِها ورغَدِ عَيْشِها، ولقد كنتُ أَبْكِي رَحْمَةً لَهُ مِمَّا أَرَى بِهِ، وأَمْسَحُ بِيَدِي عَلَى بَطنِهِ مِـمَّا أَرَى بِهِ مِنَ الجُوعِ، وأَقُولُ: نَفْسِي لَكَ الفِداءُ، لَوْ تَبلَّغتَ مِنَ الدُّنيا بِمَا يَقُوتُكَ، فَيَقُولُ: «**يا عائشةُ، مَالِي ولِلدُّنيا، إِخْوَانِي مِنْ أُوْلِي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، فَمَضَوا عَلَى حَالِهِم، فَقَدِمُوا على رَبِّهِم: فَأَكْرَمَ مَآبَهُم، وأَجْزَلَ ثَوابَهُم، فَأَجِدُنِي أَسْتَحْيِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيْشَتِي، أَنْ يَقْصُرَ بِي غَدَاً دُونَهُم، وما مِنْ شيءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِإِخْوَانِي وأَخِلاَّئِي**»، قالت: فما أقام بعدُ إِلَّا شهراً حتَّى تُوفِّيَ صلواتُ الله وسلامُهُ عليهِ»[1].

هذا معنى ما قصده سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ من قوله بعد الجملة الأولى: **فَقُدْ بهذا الشأن همَّة القلب**... إلى آخر ما قال.

وأمَّا قوله: **إيَّاك أن تنظر حال تقشفك**... إلى آخر الحكمة، فإنَّه يسوق بذلك السَّالكَ إلى أدب الفتوَّة المعروف عند القوم، وفي ذلك إشارة إلى ما وقع للشَّقيق

=

في «الصحيح»: كتاب الزهد (٥٣)، باب الدنيا سجن المؤمن... (١) رقم٢٩٧٣.

أما تتمة الحديث فقد رواه عن أبي أمامة ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٢٢٤٤، والترمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧) باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٣٥) رقم ٢٣٤٧، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ، والطبراني في «الكبير» رقم ٧٨٣٥، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٤٦٧. ولفظ الترمذي: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّى لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا أَوْ قَالَ ثَلاثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ.

(١) قال الإمام العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» ٢/ ١٠١: أخرجه أبو موسى المديني مطولاً في كتاب استحلاء الموت، وأورد منه عياض في الشفاء.

البلخي[1] رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ فإنَّه سأل الإمامَ جعفراً الصَّادق[2] رِضوَانُ الله عليه وسلامُهُ عن الفتوَّة[3]، فقال له الإمام: ما الفتوَّة عندكم، فقال شقيق: إن أُعطِينا شكرنا، وإن مُنعنا صبرنا، فقال جعفر الصَّادق ﵁: والكلاب عندنا بالمدينة هكذا، فقال شقيق: يا ابن رسول الله [ﷺ]، فما الفتوَّة عندكم، فقال إن أُعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا وصبرنا.

فعلى هذا مَن تأدَّب بأدب أهل البيتِ المحمَّدي يرتفع قدره إلى مراتب أهل الوصلة المقربين من الله المحبَّبين عنده.

وقد اشترط المؤلِّف ﵁: بعد ذلك التَّجرُّد من رؤيا العمل، وطمس حروف الأنانيَّة التي هي بقيَّة إبلي، فإنَّ إبليس لعنه الله قال في شأن آدم: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾[الأعراف:١٢]، فقد نهى سيِّدنا المؤلِّف عن الاتِّصاف بصفة إبليس، وأمر السَّالك بالتزام العبوديَّة المحضة الخالصة التي هي سنة سيِّد المرسلين، وإمام المقرَّبين صلَّى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه الطَّيِّبِينَ الطَّاهرين أجمعين.

(١) شَقيقُ بنُ إبرهيمَ، أبو عليٍّ الأَزْدِيُّ من أَهل بَلْخ: هو من مَشاهيرِ مَشايخ خُراسانَ، وأوَّلَ من تكلم في علوم الأحْوال، بِكُوَر خُراسانَ، كان أستاذَ حاتم الأصمِّ؛ صَحبَ إبراهيمَ بن أدهم، وأخذ عنه الطَّريقَةَ، وكان من كبار المجاهدين، استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر). انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي ٣٤، و«الأعلام» للزركلي ٣ / ١٧١.

(٢) مرَّت ترجمته صـ١٣٢ـ.

(٣) الفتوة: في اللغة: السخاء والكرم، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: هي أن تُؤْثِر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة. «التعريفات» للجرجاني، باب الفاء.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا المُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٣٨- تَعَلَّقَ النَّاسُ اليَوْمَ بِأَهْلِ الحَرْفِ والكِيمياءِ، والوَحْدةِ والشَّطْحِ، والدَّعْوَى العَرِيْضَةِ؛ إيَّاكَ ومُقَارَبَةَ مِثْلِ هؤلاء النَّاسِ؛ فإنَّهم يقُودُونَ مَنِ اتَّبَعَهُم إِلَى النَّارِ، وغَضَبِ الجَبَّارِ، ويُدخِلُونَ فِي دِينِ الله ما لَيسَ مِنهُ.

وَهُم مِنْ جِلْدَتِنا، إذَا رَأَيتَهُم حَسِبْتَهُم سَادَاتِ الدُّعَاةِ إِلَى الله تَعَالَى؛ حَسْبُكَ اللهُ، إِذَا رَأَيتَ أَحَدَاً مِنهُم قُلْ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾[الزخرف:٣٨].

١٣٩- جَاهِلٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الخِرْقَةِ يُلْحِقُ يَدَكَ بِيَدِ القَومِ، ويَأْمُرُكَ بِذِكْرِ الله، ومُلازَمَةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، خَيْرٌ مِنْ تِلكَ الطَّائفةِ كُلِّهَا، فِرَّ مِنْهُم كفِرَارِكَ مِنَ الأَسَدِ، كفِرارِكَ مِنَ المَجْذُوم.

١٤٠- قالَ حُذَيْفَةُ ﵁[1]: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجاءَ اللهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدْىً، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «دُعَاةٌ على أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا؟ قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ على أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَأتِيَكَ المَوْتُ

---

(١) حذيفة بن حِسل بن جابر العبسي، أبو عبد الله، واليمان لقب حسل؛ لأنَّه قد أصاب دماً فهرب إلى المدينة فحالف بني عبد الأشهل فسماه قومه اليمان لكونه حالف اليمانية: صحابي، من الوُلاةِ الشُّجعان الفاتحين. كان صاحب سِر النَّبيِّ في المنافقين، لم يَعْلَمهم أحدٌ غيره، وتوفي في المدائن سنة (٣٦)هـ. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر رقم ١٦٤٣، ١/ ٤٧٦.

وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[1].

هَذِهِ وَصِيْةُ نَبِيِّكَ الأَمِيْنِ، سَيِّدِنَا وَسَيِّدِ العَالَـمِيْنَ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ فَاحْفَظْهَا وَاعْمَلْ بِهَا.

أراد بقوله: **تَعَلَّقَ النَّاسُ اليومَ بأهلِ الحَرْفِ والكيمياءِ**... إلى آخر ما قال: ميل النَّاس ومحبَّتهم لأصحاب المذاهب الباطلة، والأحوال الكاذبة، وكلِّ طريقٍ تشمُّ منه رائحة الدُّنيا والباطل الَّذي تألفه النَّفس.

ولذلك بعد أن عدَّد هذه المذاهب حَذَّر من مصاحبة أصحابها، ونهى عن التَّقرُّب منهم، وقال: إنَّهم يقودون مَنِ اتَّبعهم إلى النَّار، وعلَّةُ ذلك كونهم يُدخِلون في دين الله ما ليس منه، وذلك كالقول بأسرار الحروف، والاشتغال بالكيمياء، وأين هي؟!.

وقد صدق الشَّاعر بقوله:

صادُ الصَّديقِ وكافُ الكيمياءِ معاً لا يوجدانِ فدعْ عنْ نفسِكَ الطَمَعَا

وكالقول بالوحدة الَّتي خاض بها بعض المتصوِّفة فَهَوَوْا والعياذ بالله وانحرفوا عن طريقة الله، وشريعة رسول الله ﷺ.

وكالشَّطح: وهو التَّجاوز، والتَّزحزح من محلٍّ إلى محلٍّ آخر، وعلى اصطلاح الصُّوفيَّة: كلماتٌ تصدر على لسان الرَّجل حالة غيبته، فيتعالى بها على أمثاله، وعلى مَنْ هو أعلى منه في مقامه وحاله.

وكالدَّعوى العريضة: الَّتي هي رعونة نفسٍ تنشأ من الغرور، وخشونة الطَّبع،

---

(١) رواه عن حذيفة بن اليمان ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب المناقب (٦١) باب علامات النبوة...(٢٥) رقم ٣٦٠٦، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الإمارة (٣٣) باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين...(١٣) رقم ١٨٤٣.

وعدم الفهم والاطِّلاع على حقيقة البشريَّة.

وبيَّن سيِّدنا المؤلِّف أنَّ أصحاب هذه المشارب، وأرباب هذه الطُّرق القبيحة والمذاهب، **من جلدتنا**؛ أي: من النَّوع الإنساني المتزيِّين بزِيِّ العلماء والصُّلحاء، بل إذا رأيتهم وشاهدت حسن أثوابهم، ولطيف عباراتهم، وغريب إشاراتهم، وما كنت من أصحاب الفهم المنيع، والعلم الوسيع، تَـحْسَب أنَّهم من سادات الدُّعاة إلى الله، ومن قادات المتمسِّكين بشريعة رسول الله [ﷺ]، والحال: هم بخلاف ظنِّك، يكفيك الله ويحفظك منهم، إذا رأيت أحدهم تباعدْ عنه وابغضْهُ لله، ثمَّ قل: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾[الزخرف:٣٨].

واعلم أنَّك إذا ربطت يدك بيد جاهلٍ من أهل خرقة القوم، وكان منتهى إرشاده لك أن يأمرك بذكر الله، وملازمة الكتاب والسُّنَّة، فهو خيرٌ لك من تلك الطَّائفة الدَّسَّاسة المتبجِّحة كلِّها.

وحرصاً على السَّالك، قال له سيِّدنا المؤلِّف: **فِرَّ منهم**، أي: من هؤلاء المتبجِّحين، وأصحاب القول بالوحدة، وأرباب الشَّطح المردود، والدَّعوى الكاذبة، **كفرارك من الأسد والمجذوم**؛ لأنَّ افتراس الأسد وتأثيره في تمزيق الجسد، وسريان الجذام في جثَّة الرَّجل أهون من أن يتمزَّق دينه، ويقع في ورطة الشِّرك بالله حمانا الله.

ثمَّ استشهد على ما قاله بحديث حذيفة رضي الله عنه، وفي النَّص النَّبويِّ، والحديث المحمَّديِّ كِفَايةٌ لِـمَنْ حَفَّتهُ من الله العناية.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٤١- وإِيَّاكَ والتَّعَزُّزَ بِالطَّرِيْقِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ سُوءِ الأَدَبِ مَعَ الله والخَلْقِ، وإِنَّمَا بُنِيَ هَذَا الطَّرِيْقُ عَلَى التَّذَلُّلِ؛ فَإِنَّ القَوْمَ ذَلُّوْا حَتَّى أَتَاهُمُ اللهُ بِعِزٍّ عَلِيٍّ مِنْ عِنْدِهِ، وافْتَقَرُوا حَتَّى أَتَاهُم بِغِنَىً مِنْ فَضْلِهِ.

١٤٢- واحْذَرْ صُحْبَةَ الفِرْقَةِ الَّتِي دَأْبُهَا تَأْوِيْلُ كَلِمَاتِ الأَكَابِرِ، والتَّفَكُّهُ بِحِكَايَاتِهِم ومَا نُسِبَ إِلَيهِم؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ ذَلِكَ مَكْذُوبٌ عَلَيهِم، ومَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ عِقَابِ الله لِلْخَلْقِ لَـمَّا جَهِلُوا الحَقَّ وحَرَصُوا عَلَى الخَيْرِ، فَابْتَلاهُمُ اللهُ بِأُنَاسٍ مِنْ ذَوِي الجَراءَةِ السُّفهاءِ، فأدخَلُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَحَادِيْثَ تَنَزَّهَ مَقَامُ رِسَالَتِهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَنْهَا، مِنَ الْـمُرَغِّبَةِ والْـمُرَهِّبَةِ، والغَامِضَةِ والظَّاهِرَةِ، وسَلَّطَ اللهُ أيضاً أُنَاسَاً مِنْ أَهْلِ البِدْعَةِ والضَّلالَةِ، فَكَذَبُوا عَلَى القَومِ والرِّجَالِ الأَكَابِرِ، وأَدْخَلُوا فِي كَلامِهِم مَا لَيسَ مِنهُ، فَتَبِعَهُم البَعْضُ، فَأُلْحِقُوا بِالأَخْسَرِيْنَ أَعْمَالاً.

١٤٣- فَعَلَيْكَ بِالله، وتَمَسَّكْ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ بِذَيْلِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، والشَّرعُ الشَّرِيفُ: نُصْبَ عَيْنِكَ، وجَادَّةُ الإِجْمَاعِ ظَاهِرَةٌ لَكَ.

١٤٤- لا تُفَارِقِ الـجَمَاعَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ، تِلْكَ الفِرقَة النَّاجِيَةَ، واعْتَصِمْ بِالله، واتْرُكْ مَا دُونَهُ، وقُلْ فِي سِرِّكَ أَي سيِّدي قَوْلِي:

فَليتَـكَ تَحْلُـو والحَيَـاةُ مَرِيْـرَةٌ	وَلَيْتَـكَ تَرْضَـى والأَنَـامُ غِضَـابُ
وَلَيْـتَ الَّـذِي بِيْـنِي وَبَيْنَـكَ عَـامِرٌ	وبَيْـنِي وبَيْـنَ العَالَمِيْـنَ خَـرَابُ
إِذَا صَـحَّ مِنْـكَ الـوُدُّ فَالكُـلُّ هَيِّـنٌ	وكُـلُّ الَّـذِي فَـوْقَ التُّـرَابِ تُـرابُ

١٤٥- ولا تَعْمَلْ عَمَلَ أَهْلِ الغُلُوِّ، فَتَعْتَقِدَ العِصْمَةَ فِي المَشَايِخِ، أَوْ تَعْتَمِدَ عَلَيْهِم فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ ربِّكَ، فَإِنَّ اللهَ غَيُورٌ، لا يُحِبُّ أَنْ يُدْخِلَ فِي مَا آلَ إِلَى ذَاتِهِ بَينَهُ وبَينَ عَبدِهِ أَحَدَاً.

١٤٦- نَعَمْ، هُمْ أَدِلاَّءُ عَلَى الله، وسَائلُ إِلَى طَرِيقِهِ، يُؤخَذُ عَنْهُم حَالُ رَسُولِ الله ﷺ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[المائدة: ١١٩].

نَتَوَسَّلُ إِلَى الله بِرِضَا الله عَنْهُم، لا يُخْزِي اللهُ عِبَادَهُ الَّذِيْنَ أَحَبَّهُم، وهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِيْنَ.

أراد سيِّدنا المؤلِّف ﷺ بقوله: **وإيَّاك والتَّعزُّز**... إلى آخر ما قال، إرشادَ المريد إلى ترك التَّعزُّز والتَّعالي على الخلق افتخاراً بعمله، وترفُّعاً على النَّاس بمجرَّد كونه من أهل الطَّريق، ودلَّه ﷺ على أنَّ هذا الطَّريق الَّذي عَوَّل عليه، وانتسب إليه: بُنِيَ على التَّذلُّل لله، والتَّواضع للخلق؛ لأنَّ القوم ﷺ ذلُّوا لله، وألزموا أنفسهم البقاء على ذلك حتَّى أتاهم الله بعزٍّ عَلِيٍّ من عنده لا من عند أنفسهم، وافتقروا إلى الله متجرِّدين من رؤية الحول والقوَّة حتَّى أتاهم بغنىً من فضله لا من حولهم ولا من طَولهم.

ثم حذَّر سيِّدنا المؤلِّف كلَّ سالكٍ خالصٍ من صحبة الفرقة والطَّائفة الَّتي دأبها ودَيْدنُها تأويل كلمات الأكابر الَّتي نُقلت بالأسانيد الكاذبة عنهم، كالشَّطح المجاوز حدَّ التَّحدُّث بالنِّعمة، والقول بالوَحْدة، وخرق بردة الشَّريعة بألفاظٍ لا يُجَوِّزها الظَّاهر، وتفكَّهوا بمجرَّد حكاياتهم، وما نُسب إليهم من الكرامات مع الانحراف عن طريقتهم الصَّحيحة، والتَّباعد عن العمل بأخلاقهم المليحة، والحال أنَّ أكثر ما نُسب إليهم من الأقوال الغامضة، والكلمات المبطنة الَّتي تحتاج للتَّأويل مكذوبٌ عليهم، وكان ذلك من عقاب الله للخلق لَـمَّا أهملوا العِلمَ، وجهلوا الطَّريق الحقَّ، وحرصوا مع الجهل على الخير، فابتلاهم الله عقاباً لهم بأناسٍ من ذوي الجراءة على الله السُّفهاء، فأدخلوا على رسول الله ﷺ أحاديث موضوعةً، تنزَّه مقامه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنها، وأدخلوا فيها من الكلمات المُرهِّبة والمُرغِّبة، والأساليب والأعاجيب الغامضة والظَّاهرة، وسلَّط الله أيضاً

أناساً من أهل البدعة والضَّلالة، فتجرَّؤوا كذباً وزوراً على طائفة القوم، وأدخلوا في كلامهم تقليداً ما ليس منه، فتبعهم البعض من الجهلاء الَّذين لا يُميِّزون بين الحقِّ والباطل، فَأُلحِقوا: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف].

ثمَّ بعد ذلك أمر سيِّدنا المؤلِّف السَّالك بملازمة باب الله، وبالتَّمسُّك بشريعة النَّبيِّ ﷺ، والتزام طريقة الإجماع، وعدم مفارقة أهل السُّنَّة والجماعة: بصحَّة التَّوكُّل على الله، والرِّضا منه، والتَّسليم له، وتلا له أبياتاً من شعره المبارك أشار بها إلى الانقطاع إلى الله تعالى، أوَّلها: **فليتك تحلو**... إلى آخر الأبيات، وقد تقدَّم ذكرها في الأصل.

ثمَّ نهى السَّالك عن عمل أهل الغلوِّ الَّذين ينسبون التَّأثير في الأفعال للشُّيوخ، ويعتقدون عصمتهم، وبيَّنَ منزلةَ القوم وأنَّهم أدلَّاء على الله، وعنهم يُؤخذ حال رسوله ﷺ، وأنَّ الله لا يُخزي مَن توسَّل إلى الله بهم، بشرط ترك الاعتماد على المخلوق أدباً مع الله؛ فإنَّ الله غيورٌ.

وقد أحسن سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه بيان هذه الحقيقة في كتابه «البرهان المؤيَّد»[1]، فقال: «إنكارُ بوارقِ الأرواح جهلٌ بمدد الفتَّاح، لا تعطيلَ لكلمةِ الله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦].

يتولَّى أمورهم وأمور مناديهم، ومن ينزل بناديهم، حال حياتهم وبعد مماتهم، بلحوق علمٍ منهم، وبغير لحوق علمٍ منهم.

العبد إذا كان راحماً يَسْتُرُ النَّائم، ولا يذكُرُ له ذلك، يوصل الخير إلي الفقير ولا يعرِّفُهُ الخبر.

---

(١) صـ٤٥-٤٦ـ.

الله الرَّحمن الرَّحيم، العظيم الكريم، ينتصر لعبده الوليِّ من حيث لا يدري، يرزقه من حيث لا يحتسب.

تعصمه جبال عنايته من ماء غرق الأكدار والاقتدار، تدفع عنه وعن محبِّيه الأقدارَ بالأقدار، لا به، ولكن له التنزُّلات المحكمة: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ [النجم].

من اعتصم بالله عُصم، ومن وقف مع الأغيار ندم!.

قال سيِّدى الشَّيخ منصور الرَّبَّاني رضي الله عنه: الاعتصام بالله ثقتك به، وتنزيه خواطرك عن غيره.

القوم أرشدونا، دلُّونا على الطَّريق، كشفوا لنا حجاب الإغلاق عن خزائن دُرَرِ الكتاب والسُّنَّة، عرَّفونا حكمة الأدب مع الله ورسوله؛ هم القوم لا يشقى جليسهم، من آمن بالله وعرف شأن رسوله أحبَّهم واتَّبعهم.

أي سادة، القوم بايعوا الله بصدق النِّيَّات وخالص الطَّويَّات على كثرة المجاهدات، وملازمة المراقبات والطَّاعات، و الصَّبر على جميع المكروهات، وقال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب:٢٣].

بادَروا ركوب العزائم بالعزم، وقوَّة الحزم، فهجروا المنام، وتركوا الشَّراب والطَّعام، وقاموا لله بالخدمة في حَنَادِس[1] الليل والظَّلام، وخدموا بالخشوع والسَّهر والقيام، والرُّكوع و السُّجود والصِّيام، وتَمَلَّلوا[2] في محاريبهم بين يدي محبوبهم لنيل مطلوبهم، حتَّى وصلوا إلي مقام القرب ومحلِّ الأنس، وظهر لهم سرُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف:٣٠].

---

(١) الحِنْدِسُ: الظُّلْمَة، وفي الصحاح: الليل الشديد الظلمة. «لسان العرب» مادة: (حندس).

(٢) تَمَلَّل الرجلُ وتَمَلْمَلَ: تَقلَّب. «لسان العرب» مادة: (ملل).

فأعطاهم الدَّرجة العليا، والمحلَّ الأدنى؛ ولاريب!.

فالقريب من القريب قريبٌ، والمُحَبَّبُ عند أحباب الحبيب حبيبٌ.

حبيبٌ لهم، حبيبٌ لمحبِّيهم، محبوبٌ عند الله ترفعه بركه محبَّته إلى المحبوبيَّة، ما شاء الله كان».

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٤٧- أُترُكِ الفُضُولَ، وانْقَطِعْ عَنِ العَمَلِ بِالرَّأْيِ، وإِذَا أَدْرَكَكَ زَمَانٌ رَأَيْتَ النَّاسَ فِيهِ عَلَى مَا قُلنَاهُ، فَاعْتَزِلِ النَّاسَ؛ فَقَدْ قَالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًّاً مُطَاعَاً، وَهوىً مُتَّبَعاً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِيْ رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِكَ»[1].

١٤٨- تَخَلَّقْ بِخُلُقِ نبيِّكَ، كُنْ لَيِّنَ العَرِيْكَةِ، حَسَنَ الـخُلُقِ، عَظِيْمَ الحِلْمِ، وَفِيْرَ العَفْوِ، صَادِقَ الحَدِيثِ، سَخِيَّ الكَفِّ، رَقِيْقَ القَلْبِ، دَائِمَ البِشْرِ، كَثِيْرَ الاحْتِمَالِ والإِغْضَاءِ، صَحِيْحَ التَّواضُعِ، مُرَاعِيَاً لِلْخَلْقِ، رَاعِيَاً حَقَّ الصُّحبَةِ، مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، كَثِيْرَ الذِّكْرِ، طَوِيْلَ السُّكُوْتِ، صَبُوْرَاً عَلَى الْـمَكَارِهِ، مُتَّكِلاً عَلَى اللهِ، مُنْتَصِراً بِاللهِ، مُحِبَّاً لِلْفُقَرَاءِ والضُّعَفَاءِ، غَضُوْبَاً للهِ إِذَا انتُهِكَتْ مَحَارِمُ اللهِ.

١٤٩- كُلْ مَا وَجَدْتَ، ولا تَتَكَلَّفْ لِـمَا فَقَدْتَ، ولا تَأْكُلْ متَّكِئَاً، والبَسْ خَشِنَ الثِّيَابِ، كَيْ يَقْتَدِيَ بِكَ الأَغْنِيَاءُ، ولا تُحْزِنْ لِـجَدِيْدِ ثيابِكَ قُلُوْبَ الفُقَرَاءِ، وتَخَتَّمْ بِالعَقِيْقِ، وَنَمْ عَلَى فِرَاشٍ حُشِيَ بِاللِّيْفِ، أَوْ عَلَى الـحَصِيْرِ، أَوْ عَلَى الأَرْضِ، قَائِمَاً بِسُنَّةِ نبيِّكَ ﷺ فِي الحَرَكَاتِ والسَّكَنَاتِ، والأَفْعَالِ والأَقْوَالِ والأَحْوَالِ.

١٥٠- حَسِّنِ الحَسَنَ، وقَبِّحِ القَبِيْحَ، ولا تَجْلِسْ ولا تَقُمْ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ، ولْيَكُنْ مَجْلِسُكَ مَجْلِسَ حِلْمٍ وعِلْمٍ، وتَقْوَى وحَيَاءٍ وأَمَانَةٍ، وجَلِيْسُكَ الفَقِيْرُ ومُؤَاكِلُكَ المِسْكِيْنُ.

---

(١) رواه عن أبي ثعلبة الخشني ﵁: أبو داود في «السنن»: كتاب الملاحم (٣٢)، باب الأمر والنهي (١٧) رقم ٤٣٤١، والترمذي في «الجامع»: كتاب تفسير القرآن...(٤٨)، باب (٦) رقم ٣٠٥٨، وقال: حسنٌ غريبٌ، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الفتن (٣٦)، باب (٢١) رقم ٤٠١٤، وابن حبان في «الصحيح»: كتاب البر والإحسان (٦) رقم٣٨٥، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الرقاق (٤٤) رقم٧٩١٢، وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: في التلخيص: صحيح.

١٥١- ولا تَكُنْ سَخَّاباً ولا فَحَّاشاً، ولا تَذُمَّ أَحَداً، ولا تَتَكَلَّمْ إِلَّا فِيْمَا تَرْجُوْ ثَوَابَهُ، وأَعْطِ كُلَّ جَلِيْسٍ لَكَ نَصِيْبَهُ، ولا تَدَّخِرْ عَنِ النَّاسِ [بِرَّكَ](١).

١٥٢- واحْذَرِ النَّاسَ واحْتَرِسْ مِنْهُم، ولا تَطوِ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُم بِشْرَكَ، ولا تُشَافِهْ أَحَداً بِمَا يَكْرَهُ.

١٥٣- وصُنْ لِسَانَكَ وسَمَاعَكَ عَنِ الكَلامِ القَبِيْحِ، ولا تَنْهَرِ الخَادِمَ، ولا تَرُدَّ مَنْ سَأَلَكَ حَاجَةً إِلَّا بِهَا، أَوْ بِمَا يَسُرُّ مِنَ القَوْلِ.

١٥٤- وإِذَا خُيِّرْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ فَاخْتَرْ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَـمْ يَكُنْ مَأْثَماً.

١٥٥- وأَجِبْ دَعوَةَ الدَّاعِ، وتَفَقَّدْ أَصْحَابَكَ وإِخْوَانَكَ، واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، ولا تُقَابِلْ عَلَى السَّيِّئَةِ بِالسَّيِّئَةِ، وقُمِ اللَّيْلَ بَاكِياً فِي البَابِ، وَطِبْ بِاللهِ وَحْدَهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ [النساء:٤٥].

أراد بقوله ﵁: **أترك الفضول**... إلى آخر الجملة: ترك الإسراف في المأكل والمشرب وغير ذلك ممَّا اعتاده البشر، كالكلام، والضَّحك، وما أشبه ذلك، قال تعالى: { كلوا واشربوا ولا تسرفوا } [الأعراف:٣١].

وممَّا يدلُّ على الإيجاز في الكلام وإقلاله ما هو مرويٌّ عن أبي أمامة أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا بعث أميراً، قال: «**أَقْصِرِ الْـخُطْبَةَ، وَأَقِلَّ الْكَلامَ، فَإِنَّ مِنَ الْكَلامِ لَسِحْرًا**»(٢).

ونبَّه سيِّدنا المؤلِّف على عدم العمل بالرَّأي، وهو عندهم اتِّباع ما طاب للنفس وحَسُن عندها، وإنْ خالف المشروع، ويؤيِّد ذلك حديث: «**إذا رأيتَ شُحَّاً**

---

(١) هذه الزيادة في «الكليات».

(٢) رواه عن أبي أمامة ﵁: الطبراني في «الكبير» رقم٧٦٤٠، وقال المناوي في «فيض القدير» ٥/ ١٤٩: رمز المصنف – أي: السيوطي في «الجامع الصغير» رقم ٦٦١٣ – لحسنه وليس كما قال، فقد أعلَّه الحافظ الهيثمي بأنَّه من رواية جميع بن ثور، وهو متروك.

مُطَاعاً...» إلى آخره.

وحرصاً على اتِّباع المشروع، وترك الهوى والرَّأي، قال سيِّدنا المؤلِّف للسَّالك: **تخلَّق بِخُلُق نبيِّك**؛ أي: السيِّد العظيم علَّة المخلوقين، وسيِّد ولد آدم أجمعين، سيِّدنا ونبيِّنا مُحَمَّدٍ رسول الله ﷺ.

ثمَّ قال بعد قوله تخلَّق بخلق نبيِّك: كن ليِّن العريكة... إلى آخر ما قال، إفادة ذلك، إنَّ كلَّ ما ذكره كان من أخلاقه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فقد ثبت أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: كان ليِّن العريكة، حسن الخلق، بل أحسن النَّاس خُلُقاً، وكان حسن العشرة، كثير الأدب، سخيَّ الكفِّ.

قال البخاري: «**مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ: لا**»[1].

وقال ابن عبَّاسٍ: «**كَانَ ﷺ أَجْوَدَ مِنَ الرِّيح الْـمُرْسَلَةِ**»[2].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: «**أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ، وقَالَ: أَسْلِمُوا أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفَاقَةَ**»[3].

---

(١) رواه عن جابر بن عبد الله ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب (٧٨)، باب حسن الخلق...(٣٩) رقم٦٠٣٤، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل (٤٣)، بابٌ في سخائه ﷺ (١٤) رقم ٢٣١١.

(٢) رواه عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُمَا: البخاري في «الصحيح»: كتاب بَدْءِ الوحي (١)، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١) رقم٦، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل (٤٣)، باب جوده ﷺ...(١٢) رقم ٢٣٠٨.

(٣) رواه عن أنس ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم١٢٠٧٠، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل (٤٣)، بابٌ في سخائه ﷺ (١٤) رقم ٢٣١٢، وابن خزيمة في «صحيحه»: كتاب الزكاة (٦)، باب ذكر إعطاء المؤلفة قلوبهم...(٨٩) رقم٢٣٧١، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب التاريخ (٦٠) رقم ٣.

وأعطى غير واحد مائةً من الإبل، وأعطى صفوان مائة ثم مائة ثم مائة[١]، وهذه كانت حاله ﷺ.

وقد ردَّ على هوازن سباياها، وكانوا ستة ألافٍ[٢].

وأعطى العبَّاس من الذَّهب ما لَـمْ يطقْ حمله[٣].

وحُمِل إليه تسعون ألف درهمٍ فوضعت على حصيرٍ، ثمَّ قام إليها يقسمها، فما ردَّ سائلاً حتَّى فرغ منها، وجاءه رجلٌ فسأله، فقال: «**مَا عِنْدِيْ شَيْءٌ، وَلَكِنِ ابْتَعْ عَلَيَّ، فَإِذَا جَاءَنَا شَيْءٌ قَضَيْنَاهُ**»، فقالَ لَهُ عمرُ: ما كلَّفَكَ اللهُ مَا لَمْ تَقْدِرْ عليه، فكَرِهَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ ذلك، فقالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ: يَا رَسُوْلَ الله، أَنْفِقْ وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلالاً، فَتبَسَّمَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَعُرِفَ البشرُ في وجهِهِ، وقال: «**بِهَذَا أُمِرْتُ**»[٤].

(١) رواه عن صفوان بن أميَّة رضي الله عنه: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل (٤٣)، بابٌ في سخائه ﷺ (١٤) رقم ١٣١٣، والبيهقي في «السنن الكبرى» رقم ١٢٩٦٥.

(٢) رواه عن مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مَخْرَمَة رضي الله عنهما: البخاري في «الصحيح»: كتاب الوكالة (٤٠)، باب إِذَا وَهَبَ شيئاً لوكيل...(٧) رقم ٢٣٠٧، قالا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺقَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ...فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الْـمُسْلِمِينَ، فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ...».

(٣) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب الصلاة (٨)، باب الْقِسْمَةِ وَتَعْلِيقِ الْقِنْوِ فِي الـمَسْجِدِ (٤٢) رقم٤١١، وقال رضي الله عنه: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: «انْثُرُوهُ فِي الْـمَسْجِدِ»، وَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الصَّلاَةِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ، إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَعْطِنِي فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «خُذْ»، فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ...

(٤) رواه عن سيدنا عمر رضي الله عنه: الترمذي في «الشمائل»: باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ رقم ٣٥٦، والبزار في «المسند» رقم ٢٧٣، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» رقم ٨٨، وقال: إسناده ضعيف.

قال أنسٌ: «**كَانَ النَّبيُّ ﷺ لا يَدَّخِرُ شَيْئَاً لِغَدٍ**»[1].

والأخبار الواردة في ما له صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ مِنَ الجُودِ والكرم مشهورةٌ عند العرب والعجم، معروفةٌ عند سائر الأمم، وقد عقدتُ لها باباً مختصراً في كتابي «ضوء الشمس».

وأمَّا عَفْوُهُ واحتماله ﷺ وصبره، وما كان عليه من عُلوِّ الجانب، وقَبول عُذر المعتذر، فقد بلغ المنتهى الَّذي لا يُطال، والموقع الَّذي لا يُنال، وقد كان يقابل المسيء بالإحسان، وإذا صدر من قومٍ في شأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حالٌ لا يناسب جليل قدره وعظم مقامه الكريم يقول عافياً عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِيْ؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُوْنَ**»[2].

قال القاضي أبو فضل[3] رحمه الله تعالى: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخُلُق، وكرم النَّفس، وغاية الصَّبر والحلم، إذ لَـم

(١) رواه عن أنس ﷺ: الترمذي في «الجامع»: كتاب الزهد (٣٧)، باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ (٣٨) رقم ٢٣٦٢، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب التاريخ (٦٠)، باب في صفته وأخباره، (٣) رقم٦٣٥٦، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٤٧٨، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٦٨٨٣.

(٢) رواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠)، باب (٥٢) رقم ٣٤٧٧، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الجهاد والسير (٣٢)، باب غزوة أحد (٣٧) رقم ١٧٩٢، رووه بلفظ: «ربِّ اغفِرْ لقومِي؛ فإنَّهم لا يعلمونَ».
ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» رقم٢، بلفظ: «اللَّهم اهْدِ قَومِي؛ فإنَّهم لا يعلمون».

(٣) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (٤٧٦-٥٤٤)هـ: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولد في سبتة، وتوفي بمراكش مسموماً، قيل: سَمَّهُ يهوديٌّ، من تصانيفه: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ»، و«شرح صحيح مسلم»، و«مشارق الانوار» في الحديث. انظر: «الأعلام» للزركلي ٥/ ٩٩.

يقتصر صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ على السُّكوت عنهم حتَّى سامح وعفا، ولَم يقابلهم بالجفاء، ثمَّ لَم يكتفِ بذلك حتَّى منحهم بمحض الجود والعناية، فدعا لهم بالمغفرة أو الهداية، فقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ**»، وفي روايةٍ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ**»، وبيَّن انتسابهم إليه، وخصوصيَّتهم لديه، فقال: «**قَوْمِي**»، ولَم يكتفِ بجميع ذلك حتَّى أتى عنهم بالاعتذار رجاء عدم المؤاخذة على ما صنعوه من الأوزار، فقال: «إنَّهم لا يعلمون».

وكان ﷺ صحيحَ التَّواضع، مراعياً للخلق، أبرءَ النَّاس من الكِبر، وقد أَمرَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالتَّواضع في أحاديث كثيرةٍ منها: قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «**تَوَاضَعُوا، وجَالِسُوا الـمَسَاكِيْنَ، تكُوْنُوْا مِنْ كُبَرَاءِ الله تَعَالَى، وَتَخْرُجُوا مِنَ الكِبْرِ**»[1].

قال العلاَّمَةُ الْـمُناوي في قوله: «**تَكُوْنُوْا مِنْ كُبَرَاءِ الله تَعَالَى**»؛ أي: الكبراء عنده.

وصحَّ أنَّه ﷺ كان يقول: **إنَّما أنَا عَبْدٌ، آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ**»[2].

ويكفيه خطاب الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وكان ﷺ متَّكلاً على الله منتصراً به، وجيء له برجلٍ، فقيل له: هذا أراد أن يقتلك، فقال صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ للرَّجل: «**لَنْ تُرَاعَ، لَنْ تُرَاعَ، وَلَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَـمْ تُسَلَّطْ عَلَيَّ**[3]»، وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: «**مَا رَأَيْتُ رَسُوْلَ الله**

(١) رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٩٧.

(٢) رواه عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أبو يعلى في «المسند» رقم٤٩٢٠، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٤/ ٧٤، وقال الحافظ المناوي في «الفيض» ٩/ ١٩: إسناده حسن.
ورواه عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً: البيهقي في «الشعب» رقم ٥٩٧٥، وقال الحافظ المناوي في «الفيض» ١/ ٥٥: رمز المؤلف لحسنه -أي: السيوطي في الجامع-.

(٣) رواه عن جَعْدَةَ الجشمي ﷺ: الطبراني في «الكبير» رقم ٢١٨٣.

ﷺ **مُنْتَصِراً مِنْ مَظْلَمَةٍ ظُلِمَهَا قَطُّ، مَا لَمْ تَكُنْ حُرْمَةً مِنْ مَحَارِمِ الله تَعَالَى**»[1] ، و«**مَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئاً قَطُّ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيْلِ الله تَعَالَى، ومَا ضَرَبَ خَادِمَاً ولا امْرَأَة**»[2].

ومِمَّا لَخَّصْتُهُ مِنْ كُتُبِ السُّنَّةِ ما مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بكِتابَتِهِ في كتابي: «حضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق»[3] وهو: «قال الجهابذة من أكابر هذا الدِّين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْن: كان رسول الله ﷺ أوسع النَّاس عقلاً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم طبعاً، وأوفرهم علماً، وأزيدهم زهداً، وأشدَّهم في الله، وأغيرهم على دين الله، وأعبدهم لله، وأعفهم وأبعدهم عن مواضع الرِّيَبِ، وكان أشدَّ النَّاس تواضُعاً، وأقنع النَّاس ، وأكثر الخَلْق حياءً ، وكان إذا وعظ النَّاس لا يُصرِّح باسم أحدٍ خشية أن يُخجلَه، وإنَّما يقول: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُوْنَ كَذَا**»[4].

وكان يُؤاكل الفقراء والمساكين، ويفلِّي لهم ثيابهم، ويلبس ما وجد، ويأكل ما وجد، ويكرم أهل الفضل على اختلاف طبقاتهم، ويكرم أقاربه وأرحامه، ولا

---

(١) رواه عن السيدة عائشة رضي الله عنها : الترمذي في «الشمائل» باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ رقم ٣٥٠، أبو يعلى في «المسند» رقم ٤٤٥٢، الحميدي في «المسند» رقم ٢٨٥، أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١٢٦.

(٢) رواه عن السيدة عائشة رضي الله عنها: الإمام أحمد في «المسند» رقم٢٤٠٨٠، ٦/ ٣١، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل (٤٣)، باب مباعدته للآثام...(٢٠) رقم ٢٣٢٨، وابن ماجه في «السنن»: كتاب النكاح (٩)، باب ضرب النساء (٥١) رقم ١٩٨٤.

(٣) صـ١٤-١٧ـ.

(٤) رواه عن السيدة عائشة رضي الله عنها: البخاري في «الصحيح»: كتاب أبواب المساجد (٨)، باب ذكر البيع والشراء...(٧٠) رقم ٤٥٦، بلفظ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله...»، وكتاب الأدب (٧٨)، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٧٢) رقم ٦١٠١، بلفظ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيءِ أَصْنَعُهُ...».

والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الفضائل (٤٣)، باب علمه ﷺ بالله تعالى...(٣٥) رقم ٢٣٥٦، بلفظ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ...».

يقدَّمهم على من هو أفضل منهم، ولا يجفو على أحد بقولٍ ولا فعلٍ، ويغضب لله، ويرضى لله، وإذا غضب لا يقاوم غضبه أحدٌ، ولا يؤاخذ مَنْ أساء، ولا يجزي بالسَّيِّئة السَّيِّئة، ويُحِبُ العفو والصَّفح، ويخرج إلى بساتين أصحابه فيأكل منها ويحتطب، ثمَّ يحمل الحطب إلى بيته.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يقبل عذر المعتذر، ويمزح مع الصُّبيان والنِّساء ولا يقول إلَّا حقًّاً، وكان لا يرتفع على خَدَمِهِ في مأكلٍ ولا ملبسٍ، بل يأكل هو وإيَّاهم في إناءٍ واحدٍ ويُلبِسَهم مثله.

وكان لا يُحَقِّر مسكيناً لفقره، ولا يهاب مَلكاً لِـمُلكه، يدعوا هذا وهذا إلى الله ﷻ دعاءً واحداً.

وكان أرحم الخلق بالخلق، وكان إذا دعا الخادم ولم يُجبه، قال له: «**لَوْلا خَشْيَةُ القِصَاصِ يَوْمَ القِيَامَةِ لأَوْجَعْتُكَ بِهَذَا السِّوَاكِ**»(١).

وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هيِّناً ليِّناً، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، رحيماً بالخَلْق، وقد تُرفع عليه الأصوات بالكلام الجافي فيحتمله، وإذا سُئِل أن يدعوَ على أحدٍ عدل عن الدُّعاء عليه ودعا له، وما ضرب بيده قطُّ امرأةً ولا خادماً ولا غيرهما.

وكان لا يدعوه ﷺ أحدٌ حرَّاً كان أو عبداً إلَّا وقام معه في حاجته جبراً لخاطره.

وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس، وكان يجلس متوجِّهاً إلى القبلة، ويقول: «**إِنَّهُ سَيِّدُ المَجالِسِ**»(٢).

---

(١) رواه عن أم سلمة رضي الله عنها: أبو يعلى في «المسند» رقم ٦٩٤٤، والطبراني في «الكبير» رقم ٨٨٩، وأبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٣٧٨، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم٧٥٢٥، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٥٣: إسناده جيد عند أبي يعلى والطبراني.

(٢) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الطبراني في «الأوسط» رقمك ٢٣٥٤، ولفظه: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا، =

وكان يكرم كلَّ داخلٍ عليه ويؤثره بالوسادة التي تكون تحته، وكان أكثر النَّاس تبسُّماً.

وكان متواصل الأحزان، وكان حزنه لله خوفاً من الله، لا لغرضٍ من أغراض الأكوان.

وكان أعدل النَّاس، يدور مع الحقِّ حيث دار، لا تأخذه في الله لومة لائم، يصل لله، ويقطع لله، ويحبُّ لله، ويبغض لله، ويقف عند حدود الله، وينتصر لله، ولا يعمل عملاً إلَّا لله، ويرى الحرَّ والعبد والقريب والبعيد في الله سواء، يحبُّ الفقراء والمساكين ويحنو عليهم، ويُسلِّم في طريقه على الصُّبيان، وكان يلاعب الحسن والحسين، وربَّما أركبهما على ظهره ﷺ ويمشي بهما على يديه ورجليه، ويقول: «**نِعْمَ الجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ العِدْلانِ أَنْتُمَا**»[1].

وكان يَبَش في وجه جليسه، ويعطي كلَّ جليسٍ حظَّه من البَشَاشَةِ حتَّى يظنّ ذلك الجليس أنَّه أكرمُ جلاسه عليه، وأحبُّهم إليه.

وماذا نبسط من أخلاقه الشَّريفة الـمُحمَّديَّة، وخُلقُهُ القرآن، وقد وَسِع بِخُلُقِه العظيم الأنس والجان:

فبالِغْ وأكثِرْ لَنْ تُحِيْطَ بِوَصْفِهِ ... وأينَ الثُرَيَّا مِنْ يَدِ المُتَنَاوِلِ

وقد عَلِمَ كلُّ ذي فَهمٍ من أرباب الخِبرة بسيرة النَّبيِّ ﷺ العَالِمِينَ بسنَّتِه السَّنيَّة، أنَّه كان يلبس الخشن من الثِّياب، ويتختَّم بالعقيق، وينام على فراشٍ حُشِي باللِّيف، وربَّما نام على الحصير ﷺ، ولا يجلس ولا يقوم إلَّا على ذِكرٍ، وإذا خُيِّر

=

وَإِنَّ سَيِّدَ الـمَجَالِسِ قُبَالَةَ الْقِبْلَةِ»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ٥٩: إسناده حسن.

(١) رواه عن جابر رضي الله عنه: الطبراني في «الكبير» رقم٢٦٦١، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٣/ ٢١٦، والعقيلي في «الضعفاء» رقم ١٨٤٢.

بين أمرين اختار أيسرهما ما لَـم يكن مأثماً.

فإذاً ما ساق إليه سيِّدنا المؤلِّف وحثَّ عليه كلُّه من سنَّة النَّبيِّ المعظَّم ﷺ، ولا ريب أنَّ الواصلين إلى الله أحرزوا شرف الوصول ببركة اتِّباع هذا الرَّسول المقبول، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»[1].

وعن عطاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]؛ أي: إلى كتاب الله، وسنَّة رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، كيف لا وهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بلَّغ الرِّسالة، وأدى الأمانة، وكان آخر كلامه من الدُّنيا: «**جَلالُ رَبِّي الرَّفِيْعُ فَقَدْ بَلَّغْتُ**»، ثمَّ قضى[2] أرواحُنا له الفِدَاء.

فَمَن أراد الله به الخير في الدَّارين، وفَّقه للتَّخلُّق بأخلاق نبيِّه سيِّد الكونين، جعلنا الله من المتمكِّنين في اتِّباعه، ومن أخصِّ المعدودين من خواصِّ أتباعه. آمين.

---

(١) مرَّ تخريجه صـ١٢١ـ.

(٢) رواه عن أنس رضي الله عنه: الحاكم في «المستدرك»: كتاب المغازي والسرايا رقم٤٣٨٧، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد إلا أن هذا الفارسي واهم فيه على محمد بن عبد الأعلى.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا المُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٥٦ - قَالَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ ﷺ : مَنْ شَهِدَ فِي نَفْسِهِ الضَّعفَ: نَالَ الاسْتِقَامَةَ.

وقَالَ: أَرْكَانُ الـمُرُوْءَةِ أَرْبَعَةٌ: حُسْنُ الخُلُقِ، والتَّوَاضُعُ، والسَّخَاءُ، ومُخَالَفَةُ النَّفْسِ.

وقَالَ: التَّوَاضُعُ يُوْرِثُ الْـمَحَبَّةَ، والقَنَاعَةُ تُوْرِثُ الرَّاحَةَ.

وقَالَ: الكَيِّسُ العَاقِلُ: الفَطِنُ الْـمُتَغَافِلُ.

وقَالَ: إِنَّمَا العِلمُ مَا نَفَعَ.

١٥٧ - فَاشْهَدْ نَفْسَكَ بالضَّعْفِ والفَقْرِ تَسْتَقِمْ، وشَيِّدْ أَرْكَانَ الـمُرُوْءَةِ تُحْسَبْ مِنْ أَهْلِها، وتَوَاضَعْ واقْنَعْ تَصِرْ مَحْبُوباً مُسْتَرِيحاً، وتَغَافَلْ تَكُنْ كَيِّسَاً.

١٥٨ - وخُذْ مِنَ العِلْمِ مَا يَنْفَعُكَ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى رَبِّكَ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا خَيَالٌ، وكُلُّهَا زَوَالٌ، واللهُ مُحَوِّلُ الأَحْوَالِ.

يَا أَيُّهَا المَعْدُودُ أَنْفَاسُهُ	**لا بُدَّ يَوْماً أَنْ يَتِمَّ العَدَدْ**
لا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلا لَيْلَةٍ	**ولَيْلَةٍ تَأْتِي بِلا يَوْمِ غَدْ**

١٥٩ - إِنَّ اللهَ طَوَى أَوْلِيَاءَهُ فِي بُرْدِ سَتْرِهِ تَحْتَ قِبَابِهِ، وحَجَبَهُمْ عَنْ غَيْرِهِ، لا يَعْرِفُهُمْ إِلَّا هُوَ، وهَذَا إِلْزَامٌ بِحُسْنِ الظَّنِّ فِي الخَلْقِ، فَإِيَّاكَ وسُوْءَ الظَّنِّ بِأَحَدٍ، إِلَّا إِذَا قَامَتْ لَكَ عَلَيهِ حُجَّةٌ شَرْعِيَّةٌ، فَرَاعِ شَرْعَ اللهِ مِنْ دُوْنِ انْتِصَارٍ إِلَى نَفْسِكَ، آخِذَاً بِالإِخْلاصِ، مُتَجَرِّدَاً مِنْ غَرَضِ نَفْسِكَ ومَرَضِ قَلْبِكَ، وقَبِّحْ مَا قَبَّحَهُ الشَّرعُ، وحَسِّنْ مَا حَسَّنَهُ الشَّرعُ، ولا يَكُنْ قولُكَ وفِعلُكَ إِلَّا للهِ.

١٦٠ - وإِذَا لَمْ تَقُمْ لَكَ حُجَّةٌ شَرْعِيَّةٌ عَلَى الرَّجُلِ لا تَأْخُذِ الخَلْقَ أَوْ تُؤَاخِذْهُمْ بِالشُّبُهَاتِ، عَلَيْكَ بِحُسْنِ الظَّنِّ؛ فَإِنَّ للهِ مَعَ الخَلْقِ مُضْمَرَاتِ أَسْرَارٍ يَغَارُ عَلَيْهَا، لا

يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١٦١ – ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة: ١٤٨]، **فَلْتَكُنْ وِجْهَتُكَ الْـمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ، شَرِيْعَةَ سَيِّدِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ:** ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١].

[ترجمة الإمام الشافعي]

أراد المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بقوله: **قال إمامنا الشَّافعي**، إمام مذهبه، أحد الأئِمَّة الأربعة المجتهدين، ناصر السُّنَّة والدِّين، محمَّد بن أدريس بن العبَّاس بن عثمان بن شافع بن السَّائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطَّلب بن عبد مناف، جَدِّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

وشافع الَّذي نُسب إليه الشَّافعي لقِيَ النَّبيَّ ﷺ وهو مُترعرعٌ، وأبوه السَّائب أسلم يوم بدرٍ، كان يوم بدرٍ صاحب راية بني هاشمٍ الَّتي كان يُقال لها العقاب، وكان لا يحملها إلَّا رئيس القوم، فإنْ لَـمْ يكن حاضراً حملها رئيسٌ مثله، وكانت لأبي سفيان، ولغيبة أبي سفيان في العير حملها السَّائب لاستجماعه أوصاف الرِّئاسة، وأُسِر في ذلك اليوم، وفدى نفسه ثمَّ أسلم رضي الله عنه.

وأمُّ الإمام الشَّافعي فاطمة بنت عبد الله بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ.

وُلِدَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بغزَّة سنة خمسين ومائةٍ على الأصحِّ، ثمَّ حُمِل إلى مكَّة وهو ابن سنتين، ونشأ بها رضي الله عنه، فلمَّا سلَّمَهُ أهله إلى المعلِّم ما كانوا يجدون أُجْرَة المعلِّم، فكان المعلِّم يقصِّر في تعليمه، لكنْ كلَّما عَلَّم المعلمُ صبياً شيئاً تعلَّمَ الإمام الشَّافعي ذلك الشَّيء بمجرَّد سماعه له.

وأتقن القرءان لسبع سنين، وتفقَّه في أوَّل أمره على مسلم بن خالدٍ[1] مفتي مكَّة، وأذن له مسلمٌ المذكور بالإفتاء والتَّدريس، وهو ابن خمس عشرة سنة، وحفظ الموطأ للإمام مالكٍ في تسع ليالٍ، وهو ابن عشر سنين.

وكان ﷺ إمام الدُّنيا، وعالم الأرض شرقاً وغرباً، جمع الله له من العلوم، والمفاخر، والمناقب، والمآثر، ما لم يُجمع لإمامٍ آخر، وانتشر له الذِّكر والعِلم والفضل الباهر مالم ينتشر لأحدٍ سواه، وبسبب ذلك حُمِلَ عليه حديث: «**عَالِـمُ قُرَيْشٍ يَمْلأُ طِبَاقَ الأَرْضِ عِلْمَاً**»[2]، وبِحَمْلِ هذا الحديث الشَّريف عليه قال الإمام أحمد بن حنبل[3] وغيره من أئمَّة الدِّين ﷺ.

وكان الإمام أحمد الـمُشار إليه يقول: ما عرفتُ ناسِخَ الحديث ومنسوخه حتَّى جالست الشَّافعي.

وفضائل الإمام الشَّافعي أكثر من أنْ تُحصى، وقد أفردوا لها التَّآليف الكثيرة، ومِـمَّن أفرد فضائله بالتَّآليف: الأستاذ أبو منصورٍ البَغداديّ[4]،

---

(١) مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشى المخزومى، مولاهم المعروف بالزنجي تـ(١٧٩)هـ: تابعي، من كبار الفقهاء، كان إمام أهل مكة، أصله من الشام، لُقِّبَ بالزنجي لحمرته، أو على الضد، لبياضه، وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلقى مالكاً، وهو الذى أذن للشافعي بالافتاء. انظر: «الأعلام» للزركلي ٧/ ٢٢٢.

(٢) رواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ: الطيالسي في «مسنده» رقم ٣٠٩، ولفظه: «لا تَسُبُّوا قُرَيْشاً فَإِنَّ عَالِـمَها يَمْلأُ طِبَاقَ الأَرْضِ عِلْمَاً».

(٣)الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي (١٦٤-٢٤١)هـ: إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس، بغدادي المولد والوفاة، وكان أسمر اللون، حسن الوجه، طويل القامة، يلبس الأبيض ويخضب رأسه ولحيته بالحناء، من مصنفاته: «المسند»، وله كتب في «التاريخ»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«الرد على الزنادقة فيما ادَّعت به من متشابه القرآن». انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ٢٠٣.

(٤) عبد القاهر بن طاهر بن محمد الأستاذ أبو منصور التميمي البغدادي: كان من أئمة الأصول وصدور الإسلام بإجماع أهل الفضل والتحصيل بديع الترتيب غريب التأليف والتهذيب تراه الجلة صدراً =

والحاكم[1]، والأصفهانيُّ[2]، والبيهقيُّ[3]، والإمام داود الظَّاهريّ[4]، والإمام الرَّازيّ[5]، والإمام الخطيب البَغداديّ[6]،............................

=

مقدماً وتدعوه الأئمة إماماً مفخماً ومن تصانيفه: «تفسير القرآن»، و«الإيمان وأصوله»، و«الصفات والتحصيل» في أصول الفقه. انظر «طبقات الشافعية» لابن شهبة صـ٣٢ـ.

(١) محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطهماني النيسابوري، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيع، أبو عبد الله (٣٢١-٤٠٥)هـ: من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، مولده ووفاته في نيسابور، أخذ عن نحو ألفي شيخ، وهو من أعلم الناس بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمه، صنف كتباً كثيرةً جداً، قال ابن عساكر: وقع من تصانيفه المسموعة في أيدي الناس ما يبلغ ألفاً وخمسمائة جزء، منها: «فضائل الشافعي»، و«معرفة أصول الحديث وعلومه وكتبه»، و«المستدرك على الصحيحين». انظر: «الأعلام» للزركلي ٦/ ٢٢٧.

(٢) قال الإمام السبكي في «طبقاته» ١/ ٢٥١: صنف الحافظ أبو عبيد الله محمد بن محمد بن أبي زيد الأصبهاني المعروف بابن المقري كتابين أحدهما سماه: «شفاء الصدور في محاسن صدر الصدور»، والآخر مجلد كبير وهو مختصرٌ من شفاء الصدور سماه: «الكتاب الذي أعده شافعي في مناقب الإمام الشافعي».

(٣) أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر (٣٨٤-٤٥٨)هـ: من أئمة الحديث ، قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فإنَّ له المنَّة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه، وقال الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف، صنف زهاء ألف جزء، منها: «السنن الكبرى»، و«السنن الصغرى»، و«مناقب الإمام الشافعي»، و«معرفة السنن والآثار». انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ١١٦.

(٤) أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني، الإمام المشهور المعروف بالظاهري (٢٠١-٢٧٠)هـ: أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور وغيرهما، وكان من أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعي، وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين، وكان صاحبَ مذهبٍ مستقل، وتبعه جمعٌ كثيرٌ يُعرَفون بالظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس، وكان داود أول من جهر بهذا القول وانتهت إليه رياسة العلم ببغداد وتوفي فيها. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/ ٢٥٥، و«الأعلام» للزركلي ٢/ ٣٣٣.

(٥) مرَّت ترجمته ص .

(٦) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب (٣٩٢-٤٦٣)هـ: أحد الحفاظ

=

والدَّارقُطْنِيّ[1]، وإمام الحرمين[2]، والزَّمخشريّ[3]، والسُّبكيّ[4]، والحجَّة القُدوة ابن حجرٍ[5]، وخلائق كثيرون ما بين متقدِّمٍ ومُتَأخِّرٍ.

وقال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: ما أعلم أحداً أعظم مِنَّة على الإسلام في زمن الشَّافعي مِنَ الشَّافعي.

وقال في شأنه أيضاً: كان الشَّافعي كالشَّمس في النَّهار، وكالعافية للنَّاس.

=

المؤرخين المقدمين، مولده في (غُزَيَّة) بصيغة التصغير، منتصف الطريق بين الكوفة ومكة، ومنشأه ووفاته ببغداد، كان فصيح اللهجة عارفاً بالأدب، يقول الشعر، من مصنفاته: «تاريخ بغداد»، و«الكفاية في علم الرواية»، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع». انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ١٧٢.

(١) علي بن عمر بن أحمد بن مهدي، أبو الحسن الدارقطني الشافعي (٣٠٦-٣٨٥)هـ: إمام عصره في الحديث، وأول من صنف القراءات وعقد لها أبواباً، ولد بدار القطن (من أحياء بغداد)، وكانت وفاته فيها، من تصانيفه: «كتاب السنن»، و«العلل الواردة في الأحاديث النبوية»، و«المجتبى من السنن المأثورة». انظر: «الأعلام» للزركلي ٤/ ٣١٤.

(٢) مرَّت ترجمته.

(٣) مرَّت ترجمته.

(٤) تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي، الأنصاري، الخزرجي، السبكي(٧٢٧-٧٧١)هـ: العلامة قاضي القضاة، اشتغل على والده وعلى غيره، وقرأ على الحافظ المزيّ، ولازم الذهبي وتخرج عليه، ولد في القاهرة، وتوفي شهيداً بالطاعون في دمشق، ومن تصانيفه: «شرح مختصر ابن الحاجب»، و«شرح المنهاج البيضاوي»، و«القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر»، و«طبقات الشافعية الكبرى» وغيرها. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي ٦/ ٢٩٢، و«الأعلام» للزركلي ٦/ ٢٩٢.

(٥) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر (٧٧٣ -٨٥٢)هـ: من أئمة العلم والتاريخ وحافظ الإسلام في عصره، أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة، قال السخاوي: انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر، وكان فصيح اللسان، راويةً للشعر، عارفاً بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين، وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل، أما تصانيفه فكثيرةٌ منها: «الإصابة في تمييز أسماء الصحابة»، و«تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة»، و«القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد»، و«فتح الباري في شرح صحيح البخاري». انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ١٧٨.

فانظر هل لهذين من خَلَفٍ أو عنهما عوضٌ؟!.

تُوفِّي رضي الله عنه يوم الجمعة بعد العصر، سلخ رجب سنة أربعٍ ومائتين، وله أربعٌ وخمسون سنةٍ، ودفن في قرافة مصر في قُبَّته المشهورة رضي الله عنه.

نقل عنه سيِّدنا المؤلِّف ما تقدَّم ذكره من الحثِّ على الاستقامة، وإنَّها لا تحصل للعبد إلَّا إذا شهد في نفسه الضَّعف.

وإنَّ أركان المروءة: حسن الخلق، والتَّواضع، والسَّخاء، ومخالفة النَّفس.

وإنَّ التَّواضع يورث المحبَّة، والقناعة تورث الرَّاحة، وإنَّ الكيِّس العاقل الفَطِن المتغافل، وكيف لا يكون كما نَقَل؟ والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**حُسْنُ الـخُلُقِ نِصْفُ الدِّينِ**»[1].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**حُسْنُ الـمَلَكَةِ يُمْنٌ، وسُوءُ الـخُلُقِ شُؤْمٌ**»[2].

وقال [ﷺ]: «**التَّواضُعُ لا يَزِيْدُ العَبْدَ إلَّا رِفْعَةً...**» الحديث[3].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**السَّخِيُّ قَرِيْبٌ مِنَ اللهِ، قَرِيْبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيْبٌ مِنَ الـجَنَّةِ، بَعِيْدٌ مِنَ النَّار...**» الحديث[4].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**القَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ**»[5].

وقد صحَّ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يسكتُ تَغَافُلاً لا غَفْلَةً عن أشياءَ لا

---

(١) رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه الديلمي في «الفردوس» رقم ٢٧١٢، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٣٧١٨.

(٢) مرَّ تخريجه صـ٢٠١ـ.

(٣) مرَّ تخريجه صـ١٧٠ـ.

(٤) مرَّ تخريجه صـ٢٠٢ـ.

(٥) رواه عن جابر رضي الله عنه : الطبراني في «الأوسط» رقم ٦٩٢٢، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: القضاعي في «مسند الشِّهاب» رقم٦٣، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»١٠/٢٥٦: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه خالد بن إسماعيل المخزومي، وهو متروك.

يَضُرُّ السُّكوتُ عنها ديناً.

وحسن في هذا المعنى قول الشَّاعر:

لـيسَ الغَبِـيُّ بِسَـيِّدٍ فـِي قَوْمِـهِ ... لكـنَّ سـيِّدَ قومِـهِ المُتَغَابـِي

وقد أحسن سيِّدنا المؤلِّف بعد أن نقل عن الإمام الشَّافعي ما نقل، وأتقن عبارته وزيَّن إشارته، فقال: **خذ من العلم ما ينفعك إذا أقبلت على ربِّكَ ؛ فإنَّ دنياك خَيالٌ**... إلى آخر ما قال، فقد أتى ﵁ بنصيحة جدِّه النَّبيِّ الـمُكرَّم ﷺ فإنَّه قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْغضُ كُلَّ عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالآخِرَةِ**»[1].

فعلى هذا لزم على من طلب العلم أن يتعلَّم علم الآخرة الباقية قبل اشتغاله بعلم الدُّنيا الفانية؛ لأنَّ الدُّنيا خيالٌ، وكلُّها زوالٌ، وحسن ما أورده سيِّدنا المؤلِّف في كتابه «البرهان»[2] من الحثِّ على ترك الدُّنيا، وبيان حقيقتها، وحال المرء فيها بما نصُّه: «إذا طُبِعَتْ مِرْآةُ بصيرة القلب بتراكُمِ صدأ الغفلة عن الرَّبِّ: توارتْ وجوهُ الحقائِقِ عن بواطن الأفهام، وامتنع عنها إنفاذ نور الإلهام، فأظلم وجه البيان بتصاعد أبْخِرَةِ الخيالات وغمامات الأوهام.

ما يغني الشَّمسُ عن المكفوف مع كمال إشراقها، ومَا لَهُ عيونٌ تقبل منه نُورَهَا وبرهانها؟.

وما يُجدي فرطُ الإشراق مع ضعف الأحداق؟.

نحن في موقف إشراق شمس القدرة، وعيون أفهامنا ضعيفةٌ، وبغمامات الغفلة محتجبةٌ.

---

(١) مرَّ تخريجه صـ١٤٣ـ.

(٢) صـ٥٨-٥٩ـ.

فما لنا عيونٌ تصلح لرؤية ذلك الجمال، ولا قلوبٌ تحمل مهابة تلك العظمة، وعِزَّة ذلك الجلال.

كلُّنا تجري بنا سبل الفناء، وتقذفنا في أغوار غاياتنا الْـمُغيَّبَة عنَّا، المحجوبة دوننا.

كلُّنا تجري سفن المنايا برياح حِرصِنا، وشراع أطماعنا، في بحار آمالنا، وتقذفنا في لُـجَج آجالنا، وهُمُومُنا مُوكَّلةٌ بقضاء مِهمَّاتنا عن عاجل أمورنا، وأيدي الحوادث تتلاعب بنا، وهواتف الفناء تزعجنا:

النَّاسُ فِي غَفَلاتِهِمْ	**وَرَحَى المنِيَّةِ تَطْحَنُ**
مَا دُوْنَ دَائِرَةِ الرَّحَى	**حِصْنٌ لِمَنْ يَتَحَصَّنُ**

كلُّ يومٍ ينادي ملك الموت من بين أيدينا ومن خلفنا: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء:٧٨]، وظلمات أجداثنا تنتظر ولوج أجسادنا، ونحن غرقى في غمرة غفلاتنا، وسكرة شهواتنا!.

فيا أيُّها العاقلُ! إلى متَى تصرف نفسك عن طريق النَّجاة إلى سبيل المعاطب والمهلكات، وتصرفها عن فسحة الطَّاعات إلى مضايق المخالفات، وتُعَرِّضُها لِـمَا بين يديها وتسقيها من كؤوس الخطيئات وأدناس السَّيِّئات، وتوردها موارد الفتن والآفات؟!.

أي أخي، العمر قصيرٌ، والناقد بصيرٌ، وإلى الله المصير».

وقد نبَّه سيِّدنا المؤلِّف في بقيَّة ما أوردناه من جُمَلِ حكمه المباركة أنَّ الله طوى أولياءه في بُرد ستره تحت قبابه، يُشير بذلك إلى الحديث القدسي، وهو: «**أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَابِي لا يَعرِفُهُمْ غَيْرِي**»[1].

---

(١) لم أجده بهمتي القاصرة.

وأوضح أنَّ القصد من ستر الأولياء، وكتمهم وإخفائهم تحت قباب العناية الرَّبانيَّة؛ إنَّما هو إلزام كلِّ أحدٍ من النَّاس المشَرَّفين باتِّباع النَّبيِّ ﷺ الدَّاخلين في أعداد أمَّته المباركة، بحسن الظَّنِّ في بقيَّة إخوانه المسلمين.

وحذَّر سيِّدنا المؤلِّف من سوء الظَّنِّ بالنَّاس لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢].

ولقول النَّبيِّ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَحَسَّسُوا، ولا تَنَافَسُوا، ولا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا**»[1] كرَّرها ثلاثاً وأشار إلى صدره ﷺ.

وقيَّد المؤلِّف ﷺ موافقة الظَّنِّ بقيام حجَّةٍ شرعيَّةٍ ظاهرةٍ تقوم على الرَّجل، وشرط لها مراعاة شرع الله مع التَّجرُّد من غرض النَّفس ومرض القلب، وأمر بعدم أخذ الخلق، ومؤاخذتهم بالشُّبهات أدباً مع الله في خلقه، عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**ادْرَءُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ لِلْمُسْلِمِ مَخْرَجاً، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الإِمَامَ لأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ**»[2].

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب الأدب (٦٨)، باب ما يُنْهى عن التحاسد والتدابر (٥٧) رقم ٦٠٦٤، ومسلم في «الصحيح»: كتاب البر والصلة والآداب (٤٥)، باب تحريم الظنِّ...(٩) رقم ٢٥٦٣، روياه من غير زيادة «المسلم أخو المسلم...»، وأمَّا الزيادة فقد رواها الإمام مسلم في «الصحيح» عنه في نفس الكتاب، باب تحريم ظلم المسلم...(١٠) رقم ٢٥٦٤.

(٢) مرَّ تخريجه صـ١٠٥ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٦٢- أَبَى العَقْلُ إِلَّا إِعْقَالَ مَا بَلَغَهُ بِوَاسِطَةِ الفَهْمِ، وأَبَى القَلْبُ إِلَّا التَّرَقِّي إِلَى مَا فَوْقَ الفَهْمِ، فَاجْعَلْ هِمَّتَكَ قَلْبِيَّةً، وحِكْمَتَكَ عَقْلِيَّةً تُفْلِحْ.

١٦٣- فِي الكَفِّ عِرْقٌ مُتَّصِلٌ بِالقَلْبِ، إِذَا أُخِذَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا تَسْرِي آفَتُهَا إِلَى القَلْبِ، وهَذِهِ آفَةٌ عَظِيْمَةٌ مَخْفِيَّةٌ، لا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا الخَلائِقُ.

١٦٤- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ»[1] اِزْهَدْ فِي الدُّنيا، وتَبَاعَدْ عَنْ لَذَائِذِهَا.

١٦٥- وإِيَّاكَ ونَوْمَ اللَّيْلِ كَالدَّابَّةِ؛ فَإِنَّ للهِ فِي اللَّيلِ تَجَلِّيَاتٍ ونَفَحَاتٍ، يَغْتَنِمُهَا أَهْلُ القِيَامِ، ويُـحْرَمُ ثَمَرَتَها أَهْلُ التَّلَذُّذِ بِالـمَنَامِ.

١٦٦- قُلْ لِلْمَغْرُورِ بِأَمْنِهِ، الـمُتَلَذِّذِ بِنَوْمِهِ، الـمَشْغُولِ القَلْبِ عَنْ رَبِّهِ:

يَا نَؤُوْمَ اللَّيلِ فِي لَذَّتِهِ ... إِنَّ هَذا النَّومَ رَهْنٌ بِسَهَرْ

لَيسَ يَنْسَاكَ وإِنْ نَسِيْتَهُ ... طالِعُ الدَّهْرِ وتَصْرِيفُ الغِيَرْ

إِنَّ ذا الدَّهرَ سَرِيعٌ مَكْرُهُ ... إِنْ عَلا حَطَّ وإِنْ أَوْفَى غَدَرْ

أَوْثَقُ النَّاسِ بِهِ فِي أَمْنِهِ ... خائِفٌ يَقْرَعُ أَبوابَ الحَذَرْ

١٦٧- الـمُشَاهَدَةُ حُضُورٌ بِمَعْنَى قُرْبٍ مَقْرُوْنٍ بِعِلْمِ اليَقِيْنِ، وحَقِّ اليَقِيْنِ ، فَمَنْ حَمَاهُ اللهُ مِنَ البُعْدِ والغَفْلَةِ، وتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِعِلْمِ اليَقِيْنِ وحَقِّ اليَقِيْنِ - بِمَعْنَى: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2]، فَقَدْ دَخَلَ حَضْرَةَ الشُّهُوْدِ،

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» من مراسيل الحسن البصري مرفوعاً رقم١٠٥٠١، وقال المناوي في «فيض القدير» ٣/ ٣٦٩: قال ابن حجر: إنَّ ابن المديني، أثنى على مراسيل الحسن، والإسناد إليه - أي هذا الحديث - حسن ، وأورده الديلمي من حديث عليٍّ وبيض لسنده.

(٢) هو جزءٌ من حديثٍ طويلٍ رواه عن سيدنا عمر ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب الإيمان (٢)، باب سؤال جبريلُ النَّبيَّ ﷺ...(٣٦) رقم٥٠، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب =

وهِيَ هَذِهِ لا غَيْرُ، وإِلَّا فَالـمُشَاهَدَةُ لُغَةً لا تَصِحُ لِـمَخْلُوْقٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ وحَسْبُكَ قِصَّةُ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

١٦٨ - حَضْرَةُ الـمُشَاهدةِ لُغَةً ومَعْنًى، حَضْرَةٌ اخْتَصَّ بِهَا صَاحِبُ قَوْسَيْنِ، بِالقَلْبِ والعَيْنِ، والاخْتِلافُ فِيْهَا مَعْلُوْمٌ، واخْتِصَاصُهُ بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الله مَجْزُومٌ.

١٦٩ - فَأَدِّبْ نَفْسَكَ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَا يُرْضِيْهِ، تُـحْسَبْ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الحَضْرَةِ، بِنَصِّ: «لا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ...» الحديث[1].

١٧٠ - هُدَى الله هُوَ الـهُدَى، وَكَفَى بِالله وَلِيّاً.

أشار سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بأوَّل جُملةٍ من حكمه الَّتي نَصَّت آنفاً إلى أنَّ العقل لا يتقيَّد في كلِّ ما يبلغه إلَّا إذا عقل بواسطة فهمه نتيجة ما بلغه، والقلب دأبه التَّرقِّي إلى ما فوق الفهم؛ فإنَّ رسُلَ القَلْبِ تَتَطلَّع إلى حظائر القدس، وتطلب العوالم المغيَّبة عن الأبصار.

فَمِن ثَمَّ ألزم السَّالك أنْ يجعل همَّته في الطَّلب مُستمدَّة من حال القلب، وحكمته في أثناء السَّير عقليَّةٌ لا تتجاوز المعقول قولاً ولا فعلاً.

ثُمَّ أوضح أنَّ في الكفِّ علاقاً متَّصلاً بالقلب متى اعتاد الكفُّ أخذ شيءٍ من الدُّنيا سَرَت آفة حبِّ الدُّنيا إلى القلب، فجعلته مُستَغْرِقاً في طلب الدُّنيا، مُعرِضاً حمانا الله عن طلب الحقِّ، وفي ذلك من الأخطار والبليَّات والـمِحَن ما لا يُحصى، وذلك مؤيَّدٌ بحديث: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ**»[2].

=

بيان الإيمان والإحسان...(١) رقم ٨.

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب الرقاق (٨١)، باب التواضع (٣٨) رقم ٦٥٠٢، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب البر والإحسان رقم ٣٤٧، والبيهقي في «السنن الكبرى» رقم ٦١٨٨.

(٢) مرَّ تخريجه صـ٣٢٣ـ.

وألزم بعد هذه النَّصيحة بالزُّهد، ولا يخفى أنَّ الزُّهد من أشرف الأخلاق الـمُقرِّبة إلى الله والنَّاس، بشاهد قول النَّبيِّ ﷺ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**»(1).

[فضل قيام الليل]

ثمَّ حذَّر من نوم اللَّيل، وأمر باغتنام ثمرة القيام فيه، ولا يخفى ما في قيام اللَّيل من البركات، وقد عقدت بفضل الله لقيام اللَّيل باباً مستطيلاً في كتابي «ضوء الشمس»(2) تضمَّن جُملاً من الأحادث النَّبويَّة، والآيات المعظَّمة القرآنيَّة، مع بعض شواهد لطيفةٍ من كلمات القوم الكرام ﷺ، قلتُ فيه: «واعلم أنَّ قيام اللَّيل من أحسن القُربات، وأعظم العبادات، ولذلك كان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ لا يدع قيام اللَّيل، وكان إذا مرض صلَّى قاعداً، وكان يحثُّ أصحابه على قيام اللَّيل، ويقول: «**لا تَدَعُوا قِيَامَ اللَّيْلِ، ولَوْ حَلْبَ نَاقَةٍ أَوْ شَاةٍ**»(3).

---

(1) رواه عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ: ابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد (٣٧)، باب الزهد في الدنيا (١) رقم ٤١٠٢، والحاكم في «المستدرك»: كتاب الرقاق (٤٤) رقم ٧٨٧٣، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد، والطبراني في «الكبير» رقم٥٩٧٢، وقال المنذرى في «الترغيب» رقم ٤٨٥٥: رواه ابن ماجه، وقد حَسَّن بعضُ مشايخنا إسناده، وفيه بُعد؛ لأنَّه من رواية خالد بن عمرو القرشى الأموى السعيدى، وخالد هذا قد ترك واتهم، ولم أر من وثَّقه؛ لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة، ولا يمنع كون راويه ضعيفًا أن يكون النبي ﷺ قاله، وقد تابعه عليه محمد بن كثير الصنعانى، ومحمد هذا قد وثق على ضعفه، وهو أصلح حالاً من خالد.

(2) ١/ ٤٥٨-٤٦٠.

(3) رواه عن جابر بن عبد الله ﷺ: الطبراني في «الأوسط» رقم ٤١١٤ بلفظ: «لا تدعنَّ قيامَ الليلِ ولو حلبَ شاةٍ»، ورواه عن إياس بن معاوية المزني ﷺ: الطبراني في «الكبير» رقم ٧٨٨، ولفظه: «لا بُدَّ مِنْ صَلاةٍ بِلَيْلٍ، وَلَوْ حَلْبَ نَاقَةٍ، وَلَوْ حَلْبَ شَاةٍ، وَمَا كَانَ بَعْدَ صَلاةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ فَهُوَ مِنَ اللَّيْلِ»، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٢٥٢: فيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات.

وكان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يقول: «**طُولُ القَنُوتِ يُخَفِّفُ سَكَرَاتِ الـمَوْتِ**»[1].

وكان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يقول: «**قِيَامُ اللَّيْلِ فَرِيْضَةٌ عَلَى قَارِئِ القُرْءَانِ**»[2].

وكان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يقول: «**أَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الـمَكْتُوْبَةِ صَلاةُ اللَّيْلِ**»[3]، «**وجَوْفُ اللَّيْلِ الأَخِيْرِ أَفْضَلُ، وَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُوْنَ فِي تلكَ السَّاعَةِ فَلْيَكُنْ**»[4].

وكان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يقول: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ دَأْبِ الصَّالِحِيْنَ قَبْلَكُمْ، وقُرْبَةٌ إِلى ربِّكُم، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الآثَامِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةُ الدَّاءِ عَنِ الـجَسَدِ**»[5].

---

(١) عزاه المتَّقي الهندي في «كنز العمال» للديلمي في «الفردوس» عن أبي هريرة ﷺ، رقم ١٩٦٥٨.

(٢) رواه عن جابر ﷺ: الديلمي في «الفردوس» رقم ٤٦٣٢.

(٣) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الصيام (١٣)، باب فضل صوم المحرم (٣٨) رقم ١١٣٦، وأبو داود في «السنن»: كتاب الصوم (٨)، باب في صوم المحرم (٥٥) رقم ٢٤٢٩، والتِّرمذي في «الجامع»: كتاب أبواب الصلاة (٢)، باب ما جاء في فضل صلاة اللَّيل (٣٢٤) رقم ٤٣٨، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، والنَّسائي في «السنن»: كتاب قيام الليل...(٢٠)، فضل صلاة اللَّيل (٦) رقم ١٦١٣.

(٤) رواه عن عمرو بن عنبسة ﷺ: التِّرمذي في «الجامع»: كتاب الدعوات...(٤٩)، باب (١١٩) رقم ٣٥٧٩، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، وابن خزيمة في «صحيحه»: كتاب الصَّلاة (٢)، باب استحباب الدعاء... (٤٩٣) رقم١١٤٧، والحاكم في «المستدرك»: كتاب صلاة التطوع (٨)، رقم١١٦٢، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولفظهم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِى تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ».

(٥) رواه عن أبي إدريس الخولاني عن بلال ﷺ: التِّرمذي في «الجامع»: كتاب الدعوات...(٤٩) باب في دعاء النَّبيِّ (١٠٢) رقم ٣٥٤٩، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، ورواه عن أبي أدريس عن =

وكان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يقول: «**شَرَفُ الـمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ النَّاسِ**»(١).

وكان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يقول: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ولَوْ رَكْعَةٍ**»(٢).

وكان صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، يقول: «**قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ: يَا بُنَيَّ لاَ تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرُكُ الرَّجُلَ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

وكان أبو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ، يقول: «أوحى اللهُ تعالى إلى داودَ عليه السلام، يا داودُ، كَذَبَ مَنِ ادَّعَى مَحبَّتِي، فإذا جَنَّ اللَّيلُ نامَ عَنِّي، وإذا جنَّ اللَّيلُ بظلامِهِ، يقولُ اللهُ تعالى: يا جبريلُ، حرِّك أشجارَ المعاملةِ، فإذَا حرَّكَها قَامَتِ القلوبُ على بابِ الـمَحبُوبِ».

قال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام اللَّيل، وصيام النَّهار، فاعلم أنَّك مَحرومٌ، وقد كثرت خطاياك.

=

أبي أمامة رضي الله عنه: التِّرمذي في «الجامع» في نفس الكتاب والباب والرقم، وقال: وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِدْرِيسَ عَنْ بِلاَلٍ، وابن خزيمة في «صحيحه»: كتاب الصَّلاة (٢)، باب التحريض على قيام الليل...(٤٨٤) رقم ١١٣٥، والحاكم في «المستدرك»: كتاب صلاة التطوع (٨) رقم ١١٥٦، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط البخاري، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم٥٥٧٣.

(١) رواه عن سهل بن سعد رضي الله عنه: الحاكم في «المستدرك»: كتاب الرقاق (٤٤) رقم٧٩٢١، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، والطبراني في «الأوسط» رقم ٤٢٧٨، والبيهقي في «الشعب» رقم ١٠٥٤١، وقال المنذري في «الترغيب» رقم١٢٢٣، والمناوي في «الفيض» ١٠/ ٢١٩: إسناده حسن.

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في «الأوسط» رقم٦٨٢١، وفي الكبير رقم ١١٥٣٠، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ٢٥٢: فيه حسين بن عبد الله وهو ضعيف.

(٣) رواه عن جابر رضي الله عنه: ابن ماجه في «السنن»: كتاب إقامة الصلاة...(٥)، باب ما جاء في قيام الليل (٧٤) رقم١٣٣٢، والطبراني في «الصغير» رقم ٣٣٧، والبيهقي في «الشعب» رقم ٤٧٤٦، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» رقم ٤٧١: هذا إسنادٌ ضعيفٌ؛ لضعف يوسف بن محمد بن المنكدر، وقال المنذري في «الترغيب» رقم ٩٦٥: وفي إسناده احتمالٌ للتحسين.

وقال الحسن رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: إنَّ الرَّجل ليحرم قيام اللَّيل بذنبٍ وقع منه.

وقال سفيان الثَّوري: حُرمت قيام اللَّيل خمسة أشهرٍ بذنبٍ واحدٍ، قيل: ما هو؟ قال: رأيت رجلاً يبكي، فقلت: هذا مراء.

ولقد أحسن من قال:

أرَانِي بَعِيدَ الدَّارِ لا أَقْرَبُ الحِمَى ... وقَدْ نُصِبَتْ للسَّاهِرِينَ خِيَامُ

عَلامَةُ طَرْدِيْ طُولَ لَيلِيْ نَائمٌ ... وغَيْرِيْ يَرَى أنَّ المنامَ حَرامُ

ومن لطائف ما يُحكى أنَّ أبا يزيدٍ البسطامي لَـمَّا كان صغيراً أرسله أبوه إلى المكتب، فكان يقرأ حتَّى وصل إلى سورة المزَّمل، وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل]، قال لأبيه: مَن هذا الَّذي أمره الله بقيام اللَّيل؟ فقال: يا بني، هذا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، قال: فَلِمَ لا تفعل كما فعل محمَّدٌ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ؟ قال: ذاك أمرٌ شرَّف الله به محمَّداً.

فلمَّا قرأ: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل:٢٠]، قال: يا أبتِ مَن هؤلاء الطَّائفة؟ فقال له: هؤلاء أصحاب محمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فقال: وَلِمَ لَمْ تفعلْ كما فعل أصحاب محمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ؟ فقال: يا بُنَيَّ، قوَّاهمُ الله على قيام اللَّيل، فقال: يا أبتِ لا خير في مَنْ لا يقتدي بمحمَّدٍ وأصحابه، فصار أبوه يُصلِّي قيام اللَّيل .

فقال: يا أبي، علِّمني صلاة اللَّيل، قال: يا بُنَيَّ، أنت صغيرٌ، فقال: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة وأمر بأصحاب قيام اللَّيل إلى الجنَّة أقول: يا ربُّ، أردت الصَّلاة باللَّيل فمنعني أبي، فقال: يا بُنَيَّ، قُم اللَّيل.

وبلغنا عن سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ أنَّه كان يقول:

تَعَوَّدْ سَهْرَ اللَّيلِ ... فإنَّ النَّومَ خُسرانُ

ولا تَركَنْ إلى الذَّنبِ ... فَعُقْبَى الذَّنبِ نِيرانُ

وقُـــمْ للواحـــدِ الفـــردِ	فللقُـــــرءانِ خِـــــلانُ
إذا جَـــــنَّهُمُ اللَّيــــلُ	فهــم فِــي اللَّيــلِ رُهبــانُ
ينــامُ الغافِـــلُ السَّـــاهي	ومَـــا فِـــي القَـــومِ وَسْـــنَانُ
ويَلْهُـــو المُعْـــرِضُ اللَّاهـــي	وعنـــد القـــومِ أحـــزانُ
فَمَـــا يُلْهِـــيْهُمُ رَبـــعٌ	ولا أهـــلٌ وخِـــلانُ
هُــــمُ واللهِ فتيــــانٌ	إذا مـــا قيـــلَ فتيـــانُ

[معنى المشاهدة عند القوم]

ثمَّ عرَّف سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه المشاهدة الَّتي عناها القومُ أنَّها حضورٌ، بمعنى قربٍ مقرونٍ بعلم اليقين، وأنَّ دخول حضرة الشُّهود يكون بعبادةٍ تستجمع معنى: «**اعبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ...**» الحديث[1].

وأوضح أنَّ مشاهدة القوم عبارةٌ عن هذا المقدار لا غير، وإلَّا فالمشاهدة اللُّغَوية الَّتي هي رؤيةٌ لا تصحُّ لمخلوقٍ في هذه الدَّار، واستشهد بقصَّةِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهي حين طلب رؤيا ربِّه بِما ورد على لسانه في القرءان العظيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال المفسرون رضي الله عنهم: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾؛ أي: اجعلني متمكِّناً من الرؤية التي هي الإدراك، قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وذلك لتعاليه سبحانه وتعالى وسُموِّ صفاته عن أن تدركَه الأبصار، وقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾؛ أي: انظر إلى الجبل كيف أفعل به، وكيف أجعله دكّاً بسبب طلبك الرؤية؛ لتستعظم ما أقدمت عليه، ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ

---

(١) مرَّ تخريجه صـ٣٢٩ـ.

مَكَانَهُۥ﴾ وبقي ثابتاً ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾تعليقٌ لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه، ﴿فَلَمَّا﴾ ظهر للجبل أَمْرُ الله، وجلالُ قدرته: ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ من هول ما رأى ﴿صَعِقٗاۚ﴾؛ أي: مغشياً عليه كالموت، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من طلب الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بأَنَّك لست بمرئيٍّ، ولا مُدركٍ بشيءٍ من الحواسِّ.

وبيَّن سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ بعد استشهاده بقصَّة سيِّدنا موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ حضرة المشاهدة لغةً: حضرةٌ اختصَّ بها صاحب قاب قوسين، يعني: سيِّد الكونين، وعلَّة الخافقين، وقُرَّة كلِّ قلبٍ وعينٍ ﷺ.

ثمَّ قال: **الاختلاف فيها؛** أي: المشاهدة التي هي الرُّؤية معلومٌ عند أصحاب الذِّكر العَالِمِينَ بالسُّنَّةِ وأحكامها، واختصاصه، يعني: النَّبيّ ﷺ بها؛ أي: رؤية الله تعالى قلباً وعيناً عند أهل الله مجزومٌ لاريب فيه، والخلاف الَّذي وقع إنَّما هو على قول عائشة الصِّدِّيقة رضي الله عنها: إنَّ الرُّؤية كانت بعين القلب، واستدلَّت بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١].

واستدلَّ تُرجُمان القرءان ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما على الرُّؤية بالعين بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، وعلى ذلك جماعةٌ من أعيان الصَّحابة، وأهل البيت، كلهم على هذا القول أيضاً، وهو الَّذي صحَّ عند أهل الله رضي الله عنهم أجمعين.

ثمَّ حثَّ سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ على العمل بالنَّوافل، وبيَّن أنَّ العمل بالنَّوافل يُدخل العبد في أصحاب حضرة القرب، مستدلاً بالحديث القدسيِّ وهو: «**لا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ...**»[1] إلى آخره.

(١) مرَّ تخريجه صـ٣٣٠ـ.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٧١- مَنْ تَـمَشْيَخَ عَلَيْكَ تَتَلْمَذْ لَهُ، ومَنْ مَدَّ لَكَ يَدَهُ لِتُقَبِّلَهَا فَقَبِّلْ رِجْلَهُ، وكُنْ آخِرَ شَعْرَةٍ فِي الذَّنَبِ؛ فَإِنَّ الضَّربَةَ أَوَّلُ مَا تَقَعُ فِي الرَّأسِ!.

١٧٢- إِذَا بَغَى عَلَيْكَ ظَالِـمٌ، وانْقَطَعَتْ حِيْلَتُكَ عَنْ دِفَاعِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ حِيْنَئِذٍ وَصَلْتَ بِطَبْعِكَ إِلَى صِحَّةِ الالْتِجَاءِ إِلَى الله تَعَالَى؛ فَاصْرِفْ وِجْهَةَ قَلْبِكَ عَنْ غَيْرِهِ وأَسْقِطْ مُرَادَكَ فِي بَابِهِ، واتْرُكِ الأَمْرَ إِلَيْهِ تَنْصَرِفْ إِلَيْكَ مَادَّةُ الْـمَدَدِ، فَتَفْعَلُ لَكَ مَا لا يَخْطُرُ بِبَالِكَ؛ وهَذَا سِرُّ التَّسْلِيْمِ وصِدْقُ الالْتِجَاءِ إِلَى الله.

١٧٣- وإِنِ ارْتَفَعَتْ هِمَّتُكَ إِلَى الرِّضَا بِالقَدَرِ، كَمَا وَقَعَ لِلإِمَامِ مُوْسَى الكَاظِمِ سَلامُ الله عَلَيْهِ ورِضْوَانُهُ حَيْنَ اعْتَقَلَهُ الرَّشِيْدُ[1] غفَرَ اللهُ لَهُ، وحَمَلَهُ مِن الـمَدِيْنَةِ إِلَى بَغْدَادَ مُقَيَّداً، وحَبَسَهُ، فَبَقِيَ فِي حَبْسِهِ، فَلَمْ يُفْرَجْ عَنْهُ حَتَّى مَاتَ رضي الله عنه، وأُخْرِجَ مَيْتاً مَسْمُوْماً، وقَيْدُهُ فِيْهِ، ومَا انْحَرَفَ عَنْ قِبْلَةِ الرِّضَا حَتَّى مَاتَ رَاضِياً عَن الله.

١٧٤- فَتِلْكَ مَرْتَبَةُ الفَوْزِ العَظِيْمِ الَّتِي دَرَجَتْ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

١٧٥- وقَدْ انْدَرَجَ أَئِمَّةُ أَهْلِ البَيْتِ عَلَيْهِمُ سَلامُ الله ورِضْوَانُهُ عَلَى الرِّضَا الـخَالِصِ، مَعَ قُوَّةِ الكَرَامَةِ ورِفْعَةِ القَدْرِ عِنْدَ الله.

---

(١) هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، أبو جعفر (١٤٩-١٩٣)هـ: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم، ولد بالري،كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحاً، له محاضرات مع علماء عصره، شجاعاً كثير الغزوات، حازماً كريماً متواضعاً، يحج سنة ويغزو سنة، وكان يطوف أكثر الليالي متنكراً، توفي في (سناباذ) من قرى طوس، وبها قبره. انظر: «الأعلام» للزركلي ٨/ ٦٢.

١٧٦- فَقَدْ صَحَّ أَنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ الأُمَوِيَّ[1] حَمَلَ الإِمَامَ عَلِيَاً زَيْنَ العَابِدِيْنَ[2] سَلامُ الله عَلَيْهِ ورِضْوَانُهُ مِنَ الـمَدِيْنَةِ مُقَيَّدَاً مَغْلُوْلاً فِي أَثْقَلِ قُيُوْدٍ وأَغْلَظِ أَغْلالٍ!، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الزُّهْرِيُّ[3] رَحِمَهُ اللهُ يُوَدِّعُهُ، فَبَكَى، وقَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي مَكَانَكَ يَا ابْنَ رَسُوْلِ الله ﷺ.

فَقَالَ: تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَكْرُبُنِي؟ لَوْ شِئْتُ لَـمَا كَانَ؛ وإِنَّهُ لَيُذَكِّرُنِي عَذَابَ الله تَعَالَى، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ مِنَ القَيْدِ ثُمَّ أَعَادَهَا، فَعَلِمَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الإِمَامَ حَلَّ مَنْزِلَةَ الرِّضَا، وَوَصَلَ مَقَامَ التَّسْلِيْمِ الـمَحْضِ، ودَخَلَ حَضْرَةَ الفَوْزِ العَظِيْمِ، فَطَابَ صَدْرُهُ، وسَلا حُزْنُهُ.

١٧٧- فَزِنْ نَفْسَكَ، فَإِنْ قَدِرْتَ عَلَى الـمَرْتَبَةِ العُلْيَا - وهِيَ رُتْبَةُ الرِّضَا - فَافْعَلْ،

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد (٢٦-٨٦)هـ: من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، نشأ في المدينة، فقيهاً واسع العلم، متعبداً، ناسكاً، ونقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات، وهو أول من صكَّ الدنانير في الإسلام، وأول من نقش بالعربية على الدراهم، وتوفي في دمشق. انظر: «الأعلام» للزركلي ٤/ ١٦٥.

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، المعروف بزين العابدين، ويقال له علي الأصغر، وليس للحسين ﷺ، عَقِبٌ إلا من ولد زين العابدين هذا (٣٨-٩٤)هـ: وهو من سادات التابعين، قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه، وفضائل زين العابدين ومناقبه أكثر من أن تحصر، وتوفي بالمدينة، ودفن في البقيع. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٩.

(٣) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرش، من بني زهرة بن كلاب، أبو بكر (٥٨-١٢٤)هـ: أوَّل من دوَّن الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي، من أهل المدينة، أدرك من أصحاب النَّبيِّ ﷺ أنس بن مالك وسهل بن سعد الساعدي وعبد الرحمن بن أيمن بن نابل ومحمود بن الربيع الأنصاري، وروى عن عبد الله بن عمر نحواً من ثلاثة أحاديث، وروى عن السائب بن يزيد ﷺ. انظر: «معرفة الثقات» للعجلي٢/ ٢٥٣، و«الأعلام» للزركلي ٧/ ٩٧.

وإِلَّا فَانْزِلْ إِلَى الـمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةُ صِدقِ الالْتِجَاءِ إِلَى الله مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَدْبِيْرِكَ، وحَوْلِكَ وقُوَّتِكَ، وكُلِّكَ وجُزْئِكَ، وهُوَ تَعَالَى يَفْعَلُ بِكَ بِنَصْرِهِ وقُدْرَتِهِ فَوْقَ إِرَادَتِكَ وتَدْبِيْرِكَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥].

١٧٨- إِذَا هَرَعْتَ إِلَى الله، والتَجَأْتَ إِلَيْهِ، فَاجْعَلْ وَسِيْلَتَكَ حَبِيبَهُ ﷺ، صَلِّ عَلَيْهِ وسَلِّمْ تَسْلِيمًا، وأَكْثِرْ مِنَ الصَّلاةِ والسَّلامِ عَلَيْهِ مَهْمَا أَمْكَنَكَ، وَقِفْ فِي بَابِ الله بِالعَمَلِ بِسُنَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، واسْأَلِ اللهَ سُبْحَانَهُ مُعْتَمِداً عَلَيْهِ تَعَالَى، مُسْتَعِيناً بِهِ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ.

١٧٩- وإِذَا أُغْلِقَتْ عَلَيْكَ الأَبْوَابُ، فَتَرَقَّبْ مِنَ الفَتَّاحِ فَتْحَ البَابِ، فَمَا سَدَّ الخَلْقُ طَرِيْقَاً إِلَّا وَفَتَحَهُ الـخَالِقُ، انْفِرَاداً بِرُبُوبِيَّتِهِ، وتَعَزُّزاً بِأُلُوهِيَّتِهِ، فَلا تَقْنَطْ مِنْ رحمَتِهِ، ولا تَيْأَسْ مِنْ رَوحِهِ، وعَلَيْكَ بِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ [النساء:٤٥].

أمر سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ السَّالك: بالانخفاض، وترك التَّرفُّع، وهجر دعوى التَّشَيُّخ والتَّرَؤُّس، وبيَّن أنَّ الضَّربة أوَّل ما تقع في الرَّأس.

وأرشد السَّالك إلى سرٍّ لطيفٍ يكفيه عن الجُند والجيش والأسلحة إذا غالبه مُغالبٌ، أو بغى عليه ظالمٌ، وانقطعت حيلته حين نزاعه، وعند دفاعه وهو: أن يصرف وجهة القلب عن غير الله، وأن يُسقط مراده في باب الله مع ترك الأمر، وإسقاط التَّدبير، وإسقاط الحول والقوَّة لصدق الالتجاء إلى الله تعالى، وهنالك تنصرف وتتوجَّه لنصرته نتيجة العون الإلهي، فتفعل له من الإغاثة، والنُّصرة، والانتقام من ظالمه ما لا يخطر له ببالٍ.

ثمَّ قال للسَّالك: وإنِ ارتفعت همَّتك إلى الرِّضا بالقَدَر كما وقع للإمام موسى الكاظم سلامُ الله عَلَيهِ ورِضْوَانُهُ وذكر قصَّته مع الرَّشيد، وأردفها بقصَّة الإمام عليٍّ زين العابدين سلامُ الله عَلَيهِ فتلك مرتبة الفوز العظيم.

وإنْ لم تقدر على مرتبة الرِّضا، فانزل إلى مرتبة صدق الالتجاء، والله لك بنصره

فوق إرادتك.

وقد سبقت الإشارة إلى الرِّضا، وما قاله المشايخ فيه، ومُلَخَّصُهُ: عدم اعتراض العبد على مقادير الرَّبِّ، وتلقِّي الحُكم والقضاء بالتَّرحيب الأوفى اتِّكالاً على حُسن اختيار الله تعالى له، وهذه أعلى المراتب، وهي مرتبة أئمَّة البيت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُم.

[قصة الإمام موسى الكاظم مع الرشيد]

وقد أشار سيِّدنا المؤلِّف إلى واقعة الإمام سيِّدنا موسى الكاظم، مع هارون الرَّشيد أبي جعفر بن المهدي أبي عبد الله محمَّد[1] بن المنصور أبي جعفر عبد الله[2] بن محمد بن علي بن حبر الأمَّة وتُرجمان القرآن عبد الله بن العبَّاس، عَمِّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ خامس الخلفاء العبَّاسية ببغداد، وتلك الواقعة هي أنَّ سيِّدنا الإمام موسى الكاظم، ابن سيِّدنا الإمام جعفر الصَّادق[3]، ابن سيِّدنا الإمام محمَّد الباقر[4]، ابن سيِّدنا الإمام علي زين العابدين، ابن سيِّدنا الإمام الحسين، ابن سيِّدنا

---

(١) محمد بن عبد الله المنصور، أبو عبد الله، المهدي بالله (١٢٧-١٦٩)هـ: من خلفاء الدولة العباسية، أقام في الخلافة عشر سنين وشهراً. انظر: «الأعلام» للزركلي ٦/ ٢٢١.

(٢) عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر، المنصور (٩٥-١٥٨)هـ: ثاني خلفاء بني العباس، ولد في الحميمة من أرض الشراة (قرب معان) وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة ١٣٦هـ، وهو باني مدينة (بغداد)، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً، توفي ببئر ميمون (من أرض مكة) محرماً بالحج، ودفن في الحجون (بمكة). انظر: «الأعلام» للزركلي ٤/ ١١٧.

(٣) الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ (٨٠- ١٤٨)هـ: لُقِّب بالصادق لصدقه في مقالته وفضلُه أشهر من أن يذكر، وتوفي بالمدينة. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ١/ ٣٢٧.

(٤) الإمام أبو جعفر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ (٥٧ - ١١٣)هـ: ملقب بالباقر، وإنما قيل له الباقر؛ لأنه تبقر في العلم، أي توسع، والتبقر: التوسع، وتوفي بالحميمة، ونقل إلى المدينة ودفن بالبقيع. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٤/ ١٧٤.

الإمام عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَجْمَعِيْنَ توجَّهت إليه قلوب الإسلام واعتقده الخواصُّ والعوام، فَعَظُمَ ذلك على الرَّشيد، وظنَّ السُّوء بالإمام ﵁، وخَيَّلت له نفسه خروج الإمام عليه، واستدل على ذلك بسعي بعض الكذَّابين كما هي سنَّة الله في أحبابه، فخرج الرَّشيد يريد الحجَّ، فلمَّا دخل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام استقبله سيِّدنا الإمام موسى الكاظم في جماعةٍ من أهل البيت، فلمَّا حلَّ مكان نزوله واستقر ومضى كلُّ واحدٍ إلى سبيله، ذهب الإمام إلى مسجد النَّبيِّ ﷺ على جاري عادته، فلمَّا جاء اللَّيل أمر به الرَّشيد، فأُخِذَ من المسجد فقيَّده في تلك السَّاعة، وجعل له قُبَّةً على بغلٍ وسترها وأدخله فيها، ووجَّهه مع خيلٍ له على طريق البصرة، وأوصى القوم الَّذين معه أن يُسَلِّموه إلى والي البصرة، عيسى بن جعفر المنصور، فلمَّا وصلوا البصرة سلَّموه له، فُحُبِس عنده سنَّة، فبعد السَّنة كتب إليه الرَّشيد يأمره بقتله، فخاف الله وخشي بأس قلب رسول الله ﷺ، وكتب للرَّشيد كتاباً يقول فيه: يا أمير المؤمنين، كتبْتَ إليَّ في قتل موسى بن جعفرٍ، وقد اختبرته طول مقامه في حبسي، فلم يكن منه سوءٌ قَطّ، ولم يذكر أمير المؤمنين إلَّا بخيرٍ، ولم يكن عنده تَطَلُّعٌ للولاية، ولا خروجٌ ولا شيءٌ من أمر الدُّنيا، ولا دعا قطُّ على أمير المؤمنين، ولا على أحدٍ من النَّاس، ولا يدعو إلَّا بالمغفرة والرَّحمة له ولجميع المسلمين مع ملازمته للصِّيام، والصَّلاة، والعبادة، فإنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يعفيني من أمره ويتسلَّمه منِّي وإلَّا سرَّحتُ سبيله فإنِّي منه في غاية الحرج، فلمَّا بلغ الرَّشيد كتاب عيسى بن جعفر، كتب إلى السّندي بن شاهك، أن يتسلَّم الإمام موسى الكاظم من والي البصرة عيسى بن جعفر، فتسلَّمه منه وبقي في سجنه مدَّةً، ثمَّ بعد تلك المدَّة أمره الرَّشيد بقتله، فجعل له سُمّاً في طعامٍ، وقيل في رُطَبٍ، فأكل منه ثمَّ أقام متوعِّكاً يومين أو ثلاثة أيَّامٍ وتوفِّي شهيداً مسموماً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ.

قال ابن الجوزي[1] في كتابه «الصَّفوة»[2]: «بعث موسى بن جعفر إلى الرَّشيد من الحبس رسالةً كانت: إنَّه لم ينقضِ عنِّي يومٌ من البلاء إلَّا انقضى عنك معه يومٌ من الرَّخاء حتَّى نمضي جميعاً إلى يومٍ ليس له انقضاء، هنالك يخسر المبطلون».

ولد الإمام موسى الكاظم بالأبواء سنة ثمان وعشرين ومائة، وتوفِّي سنة ثلاث وثمانين ومائة لخمس بقين من شهر رجب وله من العمر خمس وخمسون سنة، وكراماته ومناقبه وفضائله وفواضله لا تعدُّ ولا تُحصى، سلامُ اللهِ عَلَيهِ ورِضْوَانُهُ، وعلى ساداتنا آبائه الطَّاهرين وأبنائه المكرَّمين أَجمَعِين.

هذه القصَّة التي أشار إليها مولانا المؤلِّف ﵁ ثمَّ أتبعها بذكر قصَّة الإمام زين العابدين، ابن الإمام الحسين السِّبط رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا وذكر واقعته، وما ابتلاه الله به على يد عبد الملك بن مروان أحد ملوك بني أميَّة، وكيف حمله مغلولًا مُقيَّداً من المدينة إلى الشَّام وكيف صبر ﵁ على تلك الـمِحنَةِ مع قوَّة كرامته، وجليل منزلته، ولم ينحرف عن مرتبة الرِّضا، حتَّى فرَّج اللهُ عنه بفضله.

وقد حثَّ سيِّدنا المؤلِّف ﵁ السَّالك على الرِّضا، وإن لم يقدر فعلى صدق الالتجاء.

وأوضح أنَّ الصَّلاةَ والسَّلام على النَّبيِّ ﷺ مع العمل بسنَّته السَّنيَّة، واتِّخاذه وسيلةً إلى الله تعالى: أعظمُ الأسباب لحصول الفرج.

وأوضح للسَّالك أنَّ أبواب الأسباب إذا أُغلقت دونه بأيدي المخلوقين، فعليه

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج (٥٠٨-٥٩٧)هـ: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته ببغداد، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: «الأذكياء وأخبارهم»، و«مناقب عمر بن عبد العزيز»، و«صفة الصفوة». انظر: «الأعلام» للزركلي ٣١٦.

(٢) ١/ ٤٢٥.

أن يترقَّب فتحها من الفتَّاح المعين، فإنَّ شأن ربوبيَّته تفرُّداً بها، وتعزُّزاً بألوهيَّته الرَّبانيَّة، دأب إحسانه، فتح الأبواب الَّتي سدَّها الخلق رحمةً بالمظلوم، وقهراً بالظَّالم.

وأمر السَّالك أن لا يَقْنَط من رحمة الله تعالى، وأنْ لا ييأس من رَوْحِهِ إيماناً به وتوكُّلاً عليه وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]؛ أي: يكفيه هذا ما وعد الله عباده، والله لا يخلف الميعاد.

ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا الـمُؤَلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

١٨٠ – التَّوْفِيْقُ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ ﷻ.

١٨١ – دَعْ هَمَّ الـحَسُوْدِ، فَهَمُّهُ بِكَ فَوْقَ هَمِّكَ بِهِ؛ خَلِّ جَانِبَ الأَحْمَقِ، فَكَدَرُكَ بِهِ فَوْقَ كَدَرِهِ بِنَفْسِهِ.

١٨٢ – لازِمْ مَجَالِسَ العُقَلاءِ، وخُذِ الحِكْمَةَ أَيْنَ رَأَيْتَهَا؛ فإِنَّ العَاقِلَ يَأْخُذُ الحِكْمَةَ لا يُبَالِي عَلَى أَيِّ حَائِطٍ كُتِبَتْ وعَنْ أَيِّ رَجُلٍ نُقِلَتْ، ومِنْ أيِّ كَافِرٍ سُمِعَتْ.

١٨٣ – هذِهِ الدُّنيا خُلِقَتْ لِلْعِبْرَةِ؛ والعِبْرَةُ بِكُلِّ مَا فِيْهَا عَقْلٌ، فَخُذْ بِقُوَّةِ عَقْلِكَ العِبْرَةَ مِنْ كُلِّ مَأْخَذٍ، واصْرِفْ نَظَرَكَ عَنْ مَحَلِّهَا.

١٨٤ – إِيَّاكَ والتَّقَرُّبَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ التَّقَرُّبَ مِنْهُمْ يُقَسِّي القَلْبَ، والتَّوَاضُعُ لَـهُمْ مُوْجِبٌ لِغَضَبِ الرَّبِّ، وتَعْظِيْمُهُم يَزِيْدُ فِي الذُّنُوْبِ.

١٨٥ – اتَّـخِذِ الفُقَرَاءَ أَصْحَاباً وأَحْبَاباً، وعَظِّمْهُمْ، وكُنْ مَشْغُولًا بِخِدمَتِهِمْ، وإِذَا جَاءَكَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَانتَصِبْ لَهُ عَلَى أَقْدَامِكَ وتَذَلَّلْ لَهُ.

١٨٦ – وإِذَا وَقَعَتْ خِدْمَتُكَ لَدَى الفُقَرَاءِ مَوقِعَ القَبُوْلِ، فَاسْأَلْـهُمُ الدُّعاءَ الصَّالِحَ، واجْتَهِدْ أَنْ تَعْمُرَ لَكَ مَقَاماً فِي قُلُوْبِهِمْ؛ فَإِنَّ قُلُوْبَ الفُقَرَاءِ مَوَاطِنُ الرَّحْمَةِ، ومَوَاقِعُ النَّظَرِ القُدُسِيِّ، وصَفِّ خَاطرَكَ مِنَ الرُّعُونَاتِ البَشَرِيَّةِ.

١٨٧ – ومَنْ كَانَ لَكَ عَلَيْهِ حَقٌّ أَوْ لَهُ عَلَيْكَ حَقٌّ، فَدَارِهِ حَتَّى يُعْطِيْكَ حَقَّكَ، أَوْ إِلَى أَنْ تُعْطِيَهُ حَقَّهُ، وإِنْ قَدَرْتَ فَسَامِحْ مَنْ لَكَ عَلَيْهِ حَقٌّ يُعَوِّضُ اللهَ عَلَيْكَ.

١٨٨ – وكُنْ مَعَ الخَلْقِ بِالأَدَبِ؛ فَإِنَّهُ أدبٌ مَعَ الخَالِقِ.

١٨٩ – تُبْ بِكُلِّيَّتِكَ مِنْ رُؤْيَةِ نَفْسِكَ، ونَسَبِكَ، وأَهْلِكَ؛ فإِنَّ «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ،

لَـمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[١].

١٩٠- قُمْ بِصِلَةِ رَحِمِ رَسُولِ الله ﷺ، عَظِّمْ ذَوِي قَرَابَتِهِ؛ فَإِنَّ طَوْقَ مِنَّتِهِ فِي أَعْنَاقِنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

١٩١- صَحِّحِ الـحُبَّ لِجَمِيْعِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانُ الله وسَلامُهُ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهم مَصَابِيْحُ الـهُدَى، ونُجُومُ الاِقْتِدَا، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»[٢].

١٩٢- خَفِ اللهَ، خَفِ اللهَ: «رَأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ»[٣]، «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ»[٤].

---

(١) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٧٤٢١، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الذكر والدُّعاء...(٤٨)، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرءان وعلى الذكر (١١) رقم ٢٦٩٩، وأبو داود في «السنن»: كتاب العلم (٢٠)، باب الحث على طلب العلم (١) رقم ٣٦٤١، والترمذي في «الجامع»: كتاب القراءات...(٤٧)، باب (١٢) رقم ٢٩٤٥، وابن ماجة في «السنن»: المقدمة، باب فضل العلماء...(١٧) رقم ٢٢٥.

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الديلمي في «الفردوس» رقم: ٦٤٩٧، ورواه عن ابن عمر رضي الله عنهما: عبد بن حميد في «المسند» رقم ٧٨٣، ولفظهما: «مَثَلُ أَصْحَابِي مثلُ النُّجُومِ يَهْتَدِي بِهِ، فَأَيُّهُم أَخَذْتُمْ بِقَوْلِهِ اهْتَدَيْتُم»، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» رقم ١٥٢، ولفظه: «مهما أوتيتم من كتابِ الله فالعملُ بهِ، لا عذرَ لأحدٍ في تركِهِ، فإنْ لم يكنْ في كتابِ الله، فسنَّةٌ منِّي ماضيةٌ، فإنْ لم يكنْ سنَّتِي، فما قالَ أَصحابِي، إنَّ أصحابِي بمنزلَةِ النُّجومِ في السماءِ فأيُّما أخذتُم بهِ اهتديتُم، واختلافُ أصحابِي لكم رحمةٌ». ورواه عن أبي هريرة ﷺ: القضاعي في «مسند الشهاب» رقم: ١٣٤٦، ولفظه: «مثلُ أصحابِي مثلُ النُّجومِ، من اقتدى بشيءٍ منها اهتدى».ورواه عن سيدنا عمر ﷺ: البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» رقم ١٥١، ورواه كذلك عن جواب بن عبد الله ﷺ رقم ١٥٣، وألفاظهم متقاربةٌ، وقال البيهقي رحمه الله تعالى: هذا حديثٌ متنه مشهورٌ، وأسانيده ضعيفة، لم يثبت في هذا إسنادٌ والله أعلم.

(٣) رواه عن عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعاً: البيهقي في «الشعب» رقم ٧٤٤، والحكيم التِّرمذي في «نوادر الأصول»: الأصل السادس والعشرون والمائتان رقم ٣٢٥٨، ورواه عنه موقوفاً: البيهقي في «الشعب» رقم ٧٤٣، وقال: هذا موقوفٌ وقد روي من وجه آخر ضعيف مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

(٤) مرَّ تخريجه صـ٤٣ـ.

هذِهِ نصيحَتِي لكَ.

أيْ أَخِي، أَخَذَتْنِي سَكْرَةُ التَّعْلِيْمِ إِلَّا أَنِّي جَرَّبْتُ الزَّمَانَ وأَهْلَهُ، وعَارَكْتُ النَّفْسَ، وخَدَمْتُ الشَّرْعَ، وانْتَفَعْتُ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الصَّفَا.

فَاقْبَلْ نَصِيْحَتِي؛ فَإِنَّهَا إِنْ شَاءَ اللهُ نَشَأَتْ بِإِخْلاصٍ عَنْ حُبٍّ لَكَ.

«رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[1].

أَيْ عَبْدَ السَّمِيْعِ، اعْمَلْ بِنَصِيْحَتِي ولا تَرَنِي رَجُلاً.

إِنْ قَالَ لَكَ قَائِلٌ: إِنَّ فِي مَمْلَكَةِ الرَّحْمَنِ مَخْلُوْقاً هُوَ أَضْعَفُ مِنْ هَذَا اللاش أُحَيمِدَ فَلا تُصَدِّقْهُ؛ بَلْ أَقُوْلُ: يَسَّرَ اللهُ عَلَيَّ وعَلَيْكَ الطَّرِيْقَ، وجَعَلَنَا وإِيَّاكَ والـمُسْلِمِيْنَ مِنَ الـمُصْطَفِيْنَ الأَخْيَارِ والـمُخْلِصِيْنَ الأَبْرَارِ، أَحْبَابِ اللهِ ورَسُولِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ [النساء:٤٥]**، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَـمِيْنَ.**

اشتملت هذه الجُمل الكريمة، والحِكَم العظيمة على فوائد نافعة، وعوارف جامعة، أوضح فيها سيِّدنا المؤلِّف رضي الله عنه لزوم الاعتماد على الله ؛ لأنَّ التَّوفيق منه سبحانه وتعالى لا يتمُّ للعبد بتدبيره وسعيه، إنَّما التَّوفيق بالتَّدبير والسَّعي يحصل بمحض كرمه تعالى لا غير .

ثمَّ بيَّن وجوب إهمال الحسود على أنَّ همَّ الحسود الَّذي ينتجه حسده للرَّجل أعظم من همِّ المحسود بحاسده، ورحم الله القائل : لله درُّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله .

ويعجبني قول الشاعر:

---

(١) رواه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: الترمذي في «الجامع»: كتاب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٢)، باب جاء في الحث على تبليغ السماع (٧) رقم ٢٦٥٦، وقال: في الباب عن عبد الله بن مسعود، ومعاذ ابن جبل، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأنس، قال أبو عيسى: حديث زيد بن ثابت حديثٌ حسنٌ، وأبو داود في «السنن»: أول كتاب العلم (٢٠)، باب فضل نشر العلم (١٠) رقم٣٦٦٠ .

وإذا الفتَى بَلَغَ السِّمَاكَ بِفَضْلِهِ صَارَتْ كأعْدَادِ النُّجُومِ عِدَاهُ

ورَمَوْهُ عن حسدٍ بكلِّ نقيصَةٍ لكنَّهُم لا يُنْقصونَ عُلاهُ

وأرشد سيِّدنا المؤلِّف إلى ترك صحبة الأحمق؛ لأنَّ صاحب الأحمق موثقٌ بسلسلة الهمِّ والكدر بسبب الحمق الَّذي يشهده من صاحبه الأحمق أكثر من نفسه.

ثمَّ أمر بمجالسة العقلاء، ولا يخفى ما فيها من الفوائد؛ فإنَّ العقلاء: هم أهل الحكمة الَّذين أمرنا النَّبيُّ ﷺ بمخالطتهم بحديث أبي جحيفة، وهو: «**جَالِسُوا الكُبَرَاءِ، وسَائِلُوا العُلَمَاءِ، وخالِطُوا الحُكَمَاءِ**»[1].

ولهذا السِّرِّ أتبع سيِّدنا المؤلِّف جملته الأولى بقوله: **وخذ الحكمة أين رأيتها،** يريد بذلك أنَّ الحكمة عند العقلاء، ويأمر بتلقِّي الحكمة من أيِّ جانبٍ وردت مع صرف النَّظر عن علوِّ محلِّها وانخفاضه، وعظم قائلها واحتقاره، اتِّباعاً لِـمَا ورد: «**الحِكْمَةُ ضَالَّةُ الـمُؤْمِنِ أَيْنَ وجَدَهَا التَقَطَهَا**»[2]؛ لأنَّ هذه الذَّرَّات الموجودة خُلِقَت للعِبرة، والله تعالى قال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

فكما أنَّ سيِّدنا المؤلِّف حَثَّ على العبرة، نهى عن التَّقرُّب من أهل الدُّنيا، وهم الَّذين طمَّتهم الغفلة، وأشغلهم حبُّ الآثار الظَّاهرة عن الاعتبار بها، وأرشد أنَّ التَّقرُّب منهم يُقَسِّي القلب؛ أي: يجلب له الغفلة، على أنَّ الجليس لا بدَّ أنْ يكون له ثمرة حظٍّ من حال جليسه.

---

(١) مرَّ تخريجه صـ٥٦ـ.

(٢) رواه عن أبي هريرة ﷺ: الترمذي في «الجامع»: كتاب العلم عن رسوزل الله ﷺ (٤٢)، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (١٩) رقم ٢٦٨٧، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، وابن ماجه في «السنن»: كتاب الزهد (٣٧)، باب الحكمة (١٥) رقم ٤١٦٩، ولفظها: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْـمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا».

وحذَّر من تعظيمهم والتَّواضع لهم؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلَّا من حبِّهم، أو الاعتماد عليهم، وكِلا الحالين خطيرٌ عند أهل المعرفة بالله.

وأمر باتِّخاذ الفقراء أصحاباً وأحباباً، وحثَّ على تعظيمهم، وخدمتهم، وجَبْرِ قلوبهم، ولا يخفى ما ورد في الحديث القدسيِّ، وهو: «**أَنَا عِنْدَ الْـمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم لأَجْلِي**»[1].

فإذاً التَّقرُّب منهم، وتعظيمهم من موجبات القرب من الله ﷻ.

وأمر بمداراة الخَلق عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِمُدَارَاةِ النَّاسِ**»[2].

وألزم السَّالك بالتَّلطُّف والانقياد لصاحب الحقِّ، والصَّبر على من له عليه حقٌّ، ونهض همَّته إلى مسامحته إنْ أمكنته نفسه من ذلك تَخَلُّقاً بخُلُق النَّبيِّ ﷺ، ويؤيِّد ذلك قوله ﷺ لعمر رضي الله عنه حين اغتاظ من يهوديٍّ له دينٌ على النَّبيِّ ﷺ، وأغلظ بطلب دينه: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الـحَقِّ مَقَالاً**»[3].

وأمر بعد ذلك بالتَّوبة من رؤية النَّفس، والنَّسب، والأهل، عملاً بحديث: «**مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَـمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[4].

وأراد إلزام السَّالك بتعظيم آل النَّبيِّ ﷺ وصلة رحمه المبارك؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

---

(١) مرَّ تخريجه صـ٧٨ـ.

(٢) رواه عن جابر رضي الله عنه: البيهقي في «الشعب» رقم ٨٤٧٥، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع» رقم ٣١٥١.

(٣) رواه عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه: الطبراني في «الصغير» رقم ١٠٤٥، بلفظ: «دعْنا ياعُمَرُ؛ فإنَّ لِصَاحِبِ الحقِّ مَقَالاً»، وقال الهيثمي في «المجمع» ٤/ ١٤: رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» ورجاله رجال الصحيح، ورواه عن أبي هريرة رضي الله عنه من غير ذكر سيدنا عمر رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب الوكالة (٤٠)، باب الوكالة في قضاء الديون (٦) رقم ٢٣٠٦، ومسلم في «الصحيح»: كتاب المساقاة (٢٢)، باب جواز اقتراض الحيوان...(٢٢) رقم ١٦٠١ بلفظ: أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعُوهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً».

(٤) مرَّ تخريجه صـ٣٣٩ـ.

[مطلب في معنى الآل]

وقد كتبت بفضل الله تحقيقاً لطيفاً في معنى الآل في كتابي «ضَوء الشَّمس»[1] قلت فيه: «ذكر العلامة شيخ المتأخِّرين الفاضل الباجوري[2] أنَّ آله ﷺ: بنو هاشم، وبنو عبد المطَّلب، وهو ما نسبه العلامة ابن القاسم[3] للإمام الشَّافعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ، قال: واختارالنَّووي[4] أنَّهم كلُّ مسلم، قال في «مطالع المسرَّات»[5]: قال الجوهري[6]: واختلف في تعيين آله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ على

---

(١) ١/ ٢١٩-٢٢١.

(٢) إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري (١١٩٨-١٢٧٧)هـ: شيخ الجامع الأزهر، من فقهاء الشافعية، نسبته إلى الباجور (من قرى المنوفية، بمصر) ولد ونشأ فيها، وتعلم في الأزهر، وكتب حواشي كثيرة منها: «حاشية على مختصر السنوسي» في المنطق، و«تحفة المريد على جوهرة التوحيد»، و«حاشية على أم البراهين والعقائد للسنوسي». انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ٧١.

(٣) أحمد بن قاسم الصباغ العبادي ثم المصري الشافعي الازهري، شهاب الدين تـ(٩٩٢)هـ: فاضل من أهل مصر، ومات بمكة مجاوراً، له: حاشية على شرح جمع الجوامع في أصول الفقه سماها: «الآيات البينات»، و«شرح الورقات لامام الحرمين»، و«حاشية على شرح المنهج». انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ١٩٨.

(٤) الإمام يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين (٦٣١-٦٧٦)هـ: علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوى (من قرى حوران) وإليها نسبته، تعلم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً، من كتبه: «المنهاج في شرح صحيح مسلم»، و«رياض الصالحين»، و«شرح المهذب للشيرازي»، و«روضة الطالبين». انظر: «الأعلام» للزركلي ٨/ ١٤٩.

(٥) «مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات» تأليف الشيخ محمد بن يوسف بن محمد بن حامد بن أبي المحاسن العربي المغربي الفاسي أبو عبد الله القصري المالكي (٩٨٨-١٠٥٢)هـ. انظر: «هدية العارفين» ٢/ ٩٤.

(٦) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر تـ(٣٩٣)هـ: أول من حاول (الطيران) ومات في سبيله، لغوي، من الأئمَّة، أشهر كتبه: «الصحاح» مجلدان، وله كتاب في «العروض»، أصله من فاراب، ودخل العراق صغيراً، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نيسابور، وصنع جناحين من خشب وربطهما بحبل، وصعد سطح داره، ونادى في الناس: لقد صنعت ما لم أسبق إليه وسأطير الساعة، فازدحم أهل نيسابور ينظرون إليه، فتأبط الجناحين ونهض بهما، فخانه اختراعه، فسقط إلى الارض قتيلاً. انظر: «الأعلام» للزركلي ١/ ٣١٣.

أقوالٍ كثيرةٍ، منها في مذهبنا المالكي سبعة أقوالٍ، مشهورها: أنَّهم بنو هاشمٍ ما تناسلوا، وهو قول ابن القاسم، ومالك، وأكثر أصحابه.

وفي «المدد الفيَّاض»[1] ما نصُّه: هم مَنْ حَرُمَتْ عليهم الزَّكاة عند الشَّافعي، قال الدلجي[2]: ويؤيِّده قوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للحسين بن عليٍّ: «**إِنَّا آلُ مُحَمَّدٍ لا تَحِلُّ لنَا الصَّدَقَةُ**»[3].

والأظهر أنَّ المراد جميع أقاربه وأهل بيته، أو جميع أمَّته، ورجَّحه النَّووي في «شرح المهذب». انتهى.

قلت: والأحسن أنْ لا يُطلق القول فيه، بل يفسَّر باعتبار المقامات والقرائن، ففي مقام الزَّكاة: بنو هاشم لا المطَّلب عند مالكٍ، أو هما معاً عند الشَّافعي، أو هما وبنو جعفر وبنو العبَّاس وبنو عقيل عند أبي حنيفة، وفي مقام المدح أتقياء أمَّته، وفي مقام الدُّعاء كما هنا جميع الأمَّة، وهذا الَّذي حقَّقه العلامة الأمير[4] على «عبد

---

(١) «المدد الفياض على متن الشفا للقاضي عياض» تأليف الشيخ حسن بن العدوي الحمزاوي المالكي (١٢٢٠-١٣٠٣)هـ. انظر: «هدية العارفين» ١/ ١٦١.

(٢) محمد بن محمد بن محمد الدلجي العثماني، شمس الدين (٨٦٠-٩٤٧)هـ: فاضل مصري، من الشافعية، ولد ونشأ بدلجة (من قرى مصر) وتعلم بالقاهرة ثم بدمشق، وأقام فيها ٣٠ سنة، وتوفي بالقاهرة، له كتب، منها: «مقاصد المقاصد» اختصر به مقاصد التفتازانى في علم الكلام، و«الاصطفاء» في شرح الشفاء للقاضي عياض، و«شرح الأربعين النووية». انظر: «الأعلام» ٧/ ٥٧.

(٣) رواه عن الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٧٢٥، وابن خزيمة في «صحيحه»: كتاب الزَّكاة (٦)، باب ذكر تحريم الصَّدقة...(٧٣) رقم ٢٣٤٧، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب الرقائق (٧)، باب الورع والتوكل (٦) رقم ٧٢٢، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ٢٥٢٩، قال الحافظ المناوي في «الفيض» ٣/ ٨٩ : قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات، وقال في «الفتح»: إسناده قويٌّ.

(٤) محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر بن عبد العزيز السنباوى الأزهري، المعروف بالأمير (١١٥٤-١٢٣٢)هـ: عالم بالعربية، من فقهاء المالكية. اشتهر بالأمير لأن جده أحمد كانت له إمرة في الصعيد، وأصله من المغرب، أكثر كتبه حواش وشروح منها: «حاشية على مغني اللبيب لابن هشام»، و«الإكليل شرح مختصر خليل»، و«حاشية على شرح عبد السلام». انظر : =

السَّلام»[1].

ونقل الباجوري عن بعض المحقِّقين ما يؤيِّده حيث قال: يُنظر للقرينة، فإنْ دلَّت على أنَّ المراد بهم الأقارب حُمِلَ عليهم، كقولك: اللَّهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ، وعلى آله الَّذين أذهبت عنهم الرِّجس، وطهَّرتهم تطهيراً، وإنْ دلَّت على أنَّ المراد بهم الأتقياء حمل عليهم، كقولك: اللَّهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ، وعلى آله الَّذين اخترتهم لطاعتك، وإنْ دلَّت على أنَّ المراد بهم كل مسلمٍ حمل عليهم، كقولك: اللَّهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ، وعلى آله سكان جنَّتك.

والحاصل: أنَّه لا يطلق القول في تفسير الآل، بل يعوَّل على القرينة، ويفسر بحسبها». انتهى.

[مطلب في فضل آل البيت ومودتهم]

ونقلت في كتابي المذكور أيضاً[2] في بحث فضل الذُّرِّيَّة الطَّاهرة، ما يُستحسن ذكره، وهو: «قد جاءت الآيات القرءانية بتعظيم العِترة النَّبويَّة، والقرابة المحمَّديَّة قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وعن زيد بن أرقم أنَّه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ:

=

«الأعلام» ٧/ ٧١.

(١) عبد السلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللقاني المصري(٩٧١-١٠٧٨)هـ: الحافظ الفقيه الصوفي، شيخ المالكية في وقته بالقاهرة، له: «شرح المنظومة الجزائرية» في العقائد، و«إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد» أما الجوهرة فمن تصنيف والده، و«السراج الوهاج في الكلام على الاسراء والمعراج». انظر: «هدية العارفين» ١/ ٣٠١، و«الأعلام» للزركلي ٣/ ٣٥٥.

(٢) ١/ ٢٥٠-٢٥٦.

«**أَنْشُدُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِيْ**»[1] ثلاثاً، قلنا لزيد مَنْ أهل بيته، قال: آل عليٍّ ﵁، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العبَّاس ﵃.

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيْكُمْ أَمَانَيْنَ، إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا: كِتَاب الله، وَعِتْرَتِي أَهْل بَيْتِي، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِى فِيهِمَا**»[2].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَعْرِفَةُ آلِ مُحَمَّدٍ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وحَبُّ آلِ مُحَمَّدٍ جَوَازٌ عَلَى الصِّراطِ، والوِلايَةُ لآلِ مُحَمَّدٍ أَمَانٌ مِنَ العَذَابِ**»[3].

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانتهم من رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وإذا عَرَفَهُم بذلك، عَرَف وجوب حقِّهم وحرمته بسببه.

وعن عمرَ بنِ أبي سلمة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ أنَّه قال: لَـمَّا نزلت: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وذلك فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ دَعَا رسولُ الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ، وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِى، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**»[4].

---

(١) رواه عن زيد بن أرقم ﵁: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٩٢٨٥، ٤/٣٦٦، والإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب فضائل الصحابة ﵁ (٤٤)، باب من فضائل عليٍّ بن أبي طالب ﵁ (٤) رقم ٢٤٠٨، ولفظها: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي...»، والطبراني في «الكبير» واللفظ له رقم ٥٠٢١.

(٢) رواه عن زيد بن أرقم ﵁: الترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب...(٥٠)، باب مناقب أهل بيت النَّبيِّ ﷺ (٣٢) رقم ٣٧٨٨، وقال: هذا حديث حسن غريب، النسائي في «السنن الكبرى»: كتاب المناقب (٧٦)، فضائل علي ﵁ (٤) رقم ٨١٤٨، والطبراني في «الكبير» رقم ٤٩٦٩، والحاكم في «المستدرك»: كتاب معرفة الصحابة (٣١) رقم ٤٥٧٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣) ذكره القاضي عياض في «الشفا» في فصل في توقيره ﷺ وبرِّه...رقم ١٢٧٢، صـ٥٢٨ـ.

(٤) رواه عن عمر بن أبي سلمة ﵁: الترمذي في «الجامع»: كتاب تفسير القرآن...(٤٨)، باب ومن سورة الأحزاب (٣٤) رقم ٣٢٠٥، وقال: هذا حديث غريب، ورواه عن أم سلمة رضي الله =

والمراد بالرِّجس الذُّنوب والآثام، وما يشينهم في الدُّنيا ويوم القيامة، ولكونه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ جلَّلهم بكساءٍ، سمُّوا أهل الكساء، وهم المعرفون بأصحاب العبا، وفي حقِّهم يقول القائل:

لِـــيْ خمســـةٌ أطْفِـــي بِهِـــم — حَـــرَّ لَهِيْـــبِ الحاطِمَـــة

المصـــطفى والمُرتَضَـــى — وابناهُمــا والفَاطِمَـــة

وعن سعد بن أبي وقاصٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ أنَّه قال: لَـمَّا نزلت آية المباهلة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الآية [آل عمران:٦١]، دَعَا صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ عَلِيًّا وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا وَفَاطِمَةَ ﵃، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي**»(١).

وقال صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ في عليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»(٢).

=

عنها: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٢٦٥٥١، والترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ (٥٠)، باب فضل فاطمة...(٣٤) رقم ٣٨٧١، وقال: هذا حديث حسن.

(١) رواه عن سعد بن أبي وقاص ﵁: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٦٠٨، ومسلم في «الصحيح»: كتاب فضائل الصحابة (٤٤)، باب من فضائل علي...(٤) رقم٢٤٠٤، والتِّرمذي في «الجامع»: كتاب تفسير القرآن...(٤٨)، باب ومن سورة آل عمران (٤) رقم ٢٩٩٩، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، والحاكم في المستدرك»: كتاب معرفة الصحابة (٣١)، ومن مناقب أهل رسول الله ﷺ (١١) رقم ٤٧١٩، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم ﵁: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٩٢٩٨، والنسائي في «السنن الكبرى»: كتاب المناقب (٧٦)، فضائل علي ﵁ (٤) رقم ٨١٤٨، والحاكم في «المستدرك»: كتاب معرفة الصحابة (٣١)، ومن مناقب أمير المؤمنين علي (٧) رقم ٤٥٧٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في «الأوسط» رقم ١٩٦٦، و «الكبير» رقم ٤٩٦٩، والترمذي مختصراً في «الجامع»: كتاب المناقب...(٥٠)، باب مناقب علي...(٢٠) رقم٣٧١٣، وروي كذلك عن سيدنا على أبي هريرة وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وسعد بن أبي وقاص وغيرهم ﷺ، وقال الحافظ ابن حجر

=

وقال فيه [ﷺ]: «**لا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلا يَبْغَضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ**»[1].

وقال صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ للهِ وَرَسُوْلِهِ، مَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي، وَإِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**»[2].

وقال أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: «**ارْقُبُوا مُحَمَّدًا [ﷺ] فِي أَهْلِ بَيْتِهِ**»[3]، وقال أيضاً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي**»[4].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حَسَناً وَحُسَيْنًا**»[5].

=

في «فتح الباري» ٧/ ٩٥: وَأَمَّا حَدِيث: «مَنْ كُنْت مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ» فَقَدْ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ، وَهُوَ كَثِير الطُّرُق جِدًّا، وَقَدْ اِسْتَوْعَبَهَا اِبْن عُقْدَة فِي كِتَابٍ مُفْرَدٍ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَسَانِيدهَا صِحَاحٌ وَحِسَانٌ، وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ الإِمَام أَحْمَد قَالَ: مَا بَلَغَنَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَة مَا بَلَغَنَا عَنْ عَلِيِّ بْن أَبِي طَالِب رضي الله عنه.

(١) رواه عن سيدنا علي رضي الله عنه: الإمام مسلم في «الصحيح»: كتاب الإيمان (١)، باب الدليل على أنَّ حبَّ الأنصار وعلي...(٣٣) رقم ٧٨، والترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب...(٥٠)، باب (٢١) رقم ٣٧٣٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في «السنن»: كتاب الإيمان وشرائعه (٤٧)، علامة الإيمان (١٩) رقم ٥٠١٨، وابن ماجه في «السنن»: في المقدمة، فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤) رقم ١١٤.

(٢) عَبدُ المُطَّلِبِ بن رَبِيعَةَ بن الحَارِث بن عَبد المُطَّلِب رضي الله عنه: الترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب...(٥٠)، باب مناقب العباس...(٢٩) رقم ٣٧٥٨، وقال: حسن صحيح، والنسائي في «السنن الكبرى»: كتاب المناقب (٧٦)، العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه (٩) رقم ٨١٧٦، والبزار في «المسند» رقم ٢١٧٦.

(٣) رواه عن ابن عمر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: البخاري في «الصحيح»: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٦٢)، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ... (١٢) رقم ٣٧١٣.

(٤) رواه عن السيدة عائشة عن أبيها رضي الله عنهما: البخاري في «الصحيح»: كتاب فضائل الصحابة (٦٢)، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ...(١٢) رقم ٣٧١٢.

(٥) رواه عن يعلى بن مرَّة رضي الله عنه من غير ذكر سيدنا الحسن رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند » رقم ١٧٥٩٧، والترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب (٥٠)، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام (٣١) رقم ٣٧٧٥، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في «السنن»: المقدمة، فضل الحسن
=

وقال [ﷺ]: «**مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هَذَيْنِ - وأَشَارَ إِلَى الحَسَنِ والحُسَيْنِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُمَا وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا، كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ أَهَانَ قُرَيْشَاً أَهَانَهُ اللهُ**»[2].

وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**قَدِّمُوا قُرَيْشًا وَلا تَقَدَّمُوهَا**»[3].

وعن عقبة بن الحارث[4]، قال: رأيت أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ جعل الحسن على عُنُقِهِ، وهو يقول: «**بِأَبِي شَبِيْهٌ بالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ ولَيْسَ شَبِيهاً بِعَلِيٍّ**»، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ يَضْحَكُ[5].

=

والحسين...(١٢) رقم ١٤٤، والحاكم في «المستدرك»: كتاب معرفة الصحابة (٣١) رقم ٤٨٢٠، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ولفظهم: «حُسَيْنٌ مِنِّى وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الأَسْبَاطِ».

(١) رواه عن سيدنا علي ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٥٧٦، والترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب...(٥٠)، باب٣٧٣٣، وقال: هذا حديث حسن غريب، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» رقم٤٢١، وقال: إسناده حسن، والطبراني في «الأوسط» رقم٩٦٠، و«الكبير» رقم ٢٦٥٤.

(٢) رواه عن عثمان بن عفان ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ٤٦٠، وابن حبان في «صحيحه»: كتاب التاريخ (٦٠)، باب بدء الخلق (١) رقم ٦٢٦٩، ورواه عن سعد بن أبي وقاص ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٥٨٦، وأبو يعلى في «المسند» رقم ٧٧٥، والطبراني في «الكبير» ٣٢٧، ورواه عن أنس ﷺ: الطبراني في «الأوسط» رقم٥٩٢٤، و«الكبير» ٧٥٣، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع» رقم ٨٥٤٣.

(٣) رواه عن أنس ﷺ: أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ٦٤، وعن سيدنا علي ﷺ: البزار في «المسند» رقم ٤٦٥، وعن أبي هريرة ﷺ: ابن عدي في «الكامل في الضعفاء»، وعن عقبة بن غزوان ﷺ: الديلمي في «الفردوس» رقم ١٣٢٢، وعزاه السيوطي في «الجامع» للطبراني في «الكبير» عن عبد الله بن السائب ﷺ، ورمز لصحته رقم ٦١٠٩.

(٤) عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي ﷺ: له صحبة أسلم يوم فتح مكة، وله رواية عن أبي بكر الصديق ﷺ، مات في خلافة ابن الزبير ﷺ. انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر رقم ٥٥٩٣، ٣/ ٤٦٤.

(٥) رواه عن عقبة بن عامر ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب فضائل الصحابة (٦٢)، باب

=

وروي عن عبد الله بن الحسن[1] رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ أنَّه قال: أتيت عمر بن عبد العزيز[2] في حاجةٍ، فقال: إذا كانت لك حاجةٌ، فأرسل إليَّ أو اكتب؛ فإنِّي أستحي من الله أنْ يراك على بابي[3].

وعن الشعبي[4]، قال: «صَلَّى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى جِنَازَةِ أُمِّهِ، ثُمَّ قُرِّبَتْ إليه بَغْلَتُهُ لِيَرْكَبَها، فَجَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخَذَ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ زَيْدٌ: خَلِّ عَنْهُ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِالعُلَماءِ، فَقَبَّلَ زَيْدٌ يَدَ ابنَ عبَّاسٍ، وَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ»[5].

وروي أنَّ الإمام مالكاً رحمَهُ اللهُ تَعَالَى لَـمَّا ضربه جعفر بن سليمان[6]، ونال منه ما

=

مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٢٢) رقم ٣٧٥٠.

(١) عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، أبو محمد (٧٠ -١٤٥)هـ: تابعي، من أهل المدينة، كانت له منزلة عند عمر بن عبد العزيز ﷺ، ولما ظهر العباسيون قدم مع جماعة من الطالبيين، على السفاح، وهو بالأنبار، فأعطاه ألف ألف درهم، وعاد إلى المدينة، ثم حبسه المنصور عدة سنوات، من أجل ابنيه محمد وإبراهيم، ونقله إلى الكوفة، فمات سجيناً فيها. انظر: «الأعلام» للزركلي ٤/ ٧٨.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص ﷺ (٦١-١٠١)هـ: الخليفة الصالح، والملك العادل، ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهدٍ من سليمان سنة ٩٩ هـ، فبويع في مسجد دمشق، ولم تطل مدته، قيل: دس له السم وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة. انظر: «الأعلام» للزركلي ٥/ ٥٠.

(٣) ذكرها القاضي عياض في «الشفا» رقم ١٢٨٨، صـ ٥٣١ـ.

(٤) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو (١٩-١٠٣)هـ: راوية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة، وكان فقيهاً، ومن رجال الحديث الثقات، نسبته إلى (شعب)، وهو بطن من همدان. «الأعلام» للزركلي ٣/ ٢٥١.

(٥) رواه عن الشعبي: القاضي عياض في «الشِّفا» رقم ١٢٨٩، صـ٥٣١ـ، والطبراني مختصراً في «الكبير» رقم ٤٧٤٦، ولفظ الطبراني: «كَبَّرَعَلَى أُمِّهِ أَرْبَعًا وَمَا حَسِبْتُهَا حَدًّا، ثُمَّ أُتِيَ بِدَابَّةٍ فَأَخَذَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ الرِّكَابَ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: دَعْهُ أَوْ ذَرْهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَكَذَا نَفْعَلُ بِالْعُلَمَاءِ الْكُبَرَاءِ».

(٦) جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس تـ (١٧٤أو١٧٥)هـ: ابن عم المنصور، ولي إمرة

=

نال، وحُمِل مغشيَّاً عليه، فدخل عليه النَّاس فأفاق، فقال أُشهدكم أنِّي جعلت ضاربي في حلٍّ، فسئل بعد ذلك، فقال: خفت أنْ أموت فألقى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فأستحي منه أنْ يدخل بعض آله النَّار بسببي[1].

وقوله: **ونال منه ما نال**؛ أي: من تجريده من ثيابه وسبِّه، وسبب ذلك أنَّ جعفراً بلغه أنَّ الإمام مالكاً يقول: إنَّ الأيمان في بيعة الخلف ليس لازماً؛ لأنَّ النَّاس يكرهونه، فغضب لذلك، وأحضره وفعل به ما مرَّ.

وقيل أنَّ المنصور العبّاسيّ المشهور أمر أنْ يُقتصَّ لمالكٍ من جعفر، فقال مالكٌ: أعوذ بالله، والله ما ارتفع سوطٌ عن جسمي إلَّا وقد جعلته في حلٍّ، وأبرأت ذمَّته لقرابته من رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ[2].

وقال أبو بكر بن عيَّاش[3]: لو أتاني أبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ في حاجةٍ لبدأت بحاجة عليٍّ قبلها لقرابته من رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ[4].

وعنه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤمِناً، ومَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيْدَاً، ومَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الـمَوْتِ بِالجَنَّةِ، ومَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الجَنَّةِ، ومَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللهُ قَبْرَهُ مَزَاراً لِـمَلائِكَةِ الرَّحمَةِ، أَلا ومَنْ مَاتَ**

=

الحجاز والبصرة. «الوافي بالوفيات» للصفدي ٤/ ٢٠.

(١) ذكرها القاضي عياض في «الشفا» رقم ١٢٩٤، صـ٥٣٣ـ.

(٢) ذكرها القاضي عياض في «الشفا» رقم ١٢٩٥، صـ٥٣٣ـ.

(٣) أبو بكر بن عيَّاش بن سالم الأسدي الكوفي المقرئ الحناط، بكنيته والأصح أنها اسمه وقيل اسمه محمد أو عبد الله أو سالم أو شعبة أو رؤبة أو مسلم أو خداش أو مطرف أو حماد أو حبيب عشرة أقوال ثقةٌ عابدٌ إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح، مات سنة أربع وتسعين، وقيل: قبل ذلك بسنة أو سنتين وقد قارب المائة وروايته في مقدمة مسلم. «تقريب التهذيب» لابن حجر رقم ٧٩٨٥، صـ٥٥١ـ.

(٤) ذكرها القاض عياض في «الشفا» رقم ١٢٩٦، صـ٥٣٣ـ.

عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، أَلَا ومَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الجَنَّةِ كَمَا تُزَفُّ العَرُوسُ إِلَى بَيْتِهَا، أَلَا ومَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِراً، أَلَا ومَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشَمَّ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[1].

حكاه القرطبي[2] في تفسير سورة الشُّورى.

ثمَّ رأيت المفسِّر الكبير العلامة الرَّازيَّ الشَّهير نقل نحو هذا الحديث في السُّورة المذكورة عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣]، ثمَّ قال: رواه صاحب «الكشَّاف»، وقال[3] نفعنا الله به: «وأنا أقول: آل مُحَمَّدٍ ﷺ هم الَّذين يؤول أمرهم إليه، فكلُّ مَنْ كان أمرهم إليه أشدَّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكَّ أنَّ فاطمة وعليًّا والحسن والحسين كان التَّعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشدَّ التَّعلُّقات، وهذا كالمعلوم بالنَّقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل.

وأيضاً اختلف النَّاس في الآل فقيل: هم الأقارب، وقيل: هم أمَّته، فإنْ حملناه على القرابة فهم الآل، وإنْ حملناه على الأمَّة الذين قَبِلُوا دعوته فهم أيضاً آل، فثبت على جميع التَّقديرات أنَّهم هم الآل، وأمَّا غيرُهم فدخولهم تحت لفظ الآل فمختلف فيه.

---

(١) قال العلامة الزيلعي في تخريجه أحاديث «الكشاف» رقم ١١٤٧، ٣/ ٢٣٨: رواه الثعلبي بسنده عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٢) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الاندلسي، أبو عبد الله، القرطبي تـ(٦٧١)هـ: من كبار المفسرين، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها، وكان ورعاً متعبداً، طارحاً للتَّكلُّف، يمشي بثوبٍ واحدٍ وعلى رأسه طاقيةٍ، من كتبه: «الجامع لاحكام القرآن»، يعرف بتفسير القرطبي، و«قمع الحرص بالزهد والقناعة»، و«الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، و«التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة». انظر: «الأعلام» للزركلي ٥/ ٣٢٢.

(٣) أي: الإمام الرازي رحمه الله تعالى.

وروى صاحب «الكشاف»: أنَّه لَـمَّا نزلت هذه الآية، قيل: يا رسول الله، مَنْ قرابتك هؤلاء الَّذين وجبت علينا مودتهم؟، قال: «**عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا**»[1]، فثبت أنَّ هؤلاء الأربعة أقارب النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التَّعظيم، ويدلُّ عليه وجوهٌ:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] ووجه الاستدلال به ما سبق .

الثاني: لا شك أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ كان يُحِبُّ فاطمة عليها السلام؛ قال ﷺ: «**فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي ما يُؤْذِيْهَا**»[2].

وثبت بالنَّقل المتواتر عن [سيِّدنا] مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أنَّه كان يُحِبُّ عليّاً والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كلِّ الأمَّة حبّهم لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف:١٥٨]، ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور:٦٣]، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ولقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

الثالث: أنَّ الدُّعاء للآل منصبٌ عظيمٌ؛ ولذلك جعل هذا الدُّعاء خاتمة التَّشهد في الصَّلاة، وهو قوله: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ...**» إلى

---

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في «الكبير» رقم ٢٦٤١، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ١٦٨: رواه الطبراني، وفيه جماعة ضعفاء وقد وُثِّقوا.

(٢) رواه عن الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب النكاح (٧٠)، باب ذبِّ الرجل عن ابنته...(١٠٨) رقم٤٩٣٢، ومسلم في «الصحيح»: كتال فضائل الصحابة ﷺ (٤٤)، باب فضائل فاطمة...(١٥) رقم ولفظهما: «إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُوا فِى أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ فَلاَ آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِى طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِى مَا آذَاهَا».

آخره[1]، وهذا التَّعظيم لـم يوجد في حقِّ غير الآل، فكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ حبَّ آل محمَّدٍ واجبٌ.

ومِنْ كلام الشَّافعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ:

يَـا راكِبـاً قِـفْ بِالمُحَصَّبِ مِـن مِنَـىً ... وَاهتِــف بِقاعِــدِ خَيفِهــا وَالنــاهِضِ

سَـحَراً إِذا فـاضَ الحَجـيجُ إِلَـى مِنـىً ... فَيضــاً كَمُلــتَطِمِ الفُــراتِ الفــائِضِ

إِن كــانَ رَفضــاً حُــبُّ آلِ مُحَمَّــدٍ ... فَلَيَشــهَدِ الــثَقَلان أَنّــي رافِضــي»

وقد درج السَّلف الصَّالح على حبِّ آل رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ وإكرامهم، وتعظيمهم، وتبجيلهم، والاعتناء بشأنهم وشرفهم، والقيام بحقوق قرابتهم من رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

ولله درُّ الحسن بن هاني القائل:

قــالَ لــي قائِــلٌ رأيتُــكَ تَهــوَى ... آلَ طَـــــهَ ودَائِمَـــــاً تَجْتَبـــــيهِمُ

صــارَ فرضــاً عَلَيــكَ تَسـتغرقُ المـ ... ـدحَ جميعـاً فـيهم وفـي مَـنْ يلـيهِمُ

قلــتُ: مــاذا أَقُــولُ والكــونُ طُــرّاً ... يَســـتمِدُّ النَّـــوالَ مِـــنْ نـــادِيهِمُ

أنــا لا أسْــتَطِيعُ أمــدحُ قومــاً ... كــانَ جِبريــلُ خَادِمَــاً لأَبــيهِمُ

وما أحسن ما قاله فيهم الكميت بن زيدٍ[2] من قصيدةٍ طويلةٍ بائيةٍ تضمَّنت ما يَعذُبُ ذكرُه من مدح العترة النَّبويَّة، وهو:

---

(١) رواه عن كعب بن عُجرة ﷺ: البخاري في «الصحيح»: كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠)، باب (١٠) رقم ٣٣٧٠، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الصلاة (٤)، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (١٧) رقم ٤٠٦.

(٢) الكميت بن زيد الأسدي، أبو المستهل (٦٠-١٢٦)هـ: شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي، وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، منحازاً إلى بني هاشم، كثير المدح لهم، وهو من أصحاب الملحمات. انظر: «الأعلام» للزركلي ٥/ ٢٣٣.

طَرِبْتُ وما شَوْقاً إلى البِيضِ أَطْرَبُ ... ولا لَعِباً منِّي وذو الشَّيْبِ يَلْعَبُ؟
وَلَمْ تُلْهِنِي دارٌ ولا رَسْمُ منْزِلٍ ... ولَمْ يَتَطَرَّبْنِي بَنانٌ مُخَضَّبُ
ولا أَنا مِمَّن يَزْجُرُ الطَّيْرَ هَمُّهُ ... أَصَاحَ غُرابٌ أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ
ولا السَّانِحاتُ البارِحاتُ عَشِيَّةً ... أَمَرَّ سَلِيمُ القَرْنِ؟ أَمْ مَرَّ أَعْضَبُ؟
ولكنْ إِلَى أَهْلِ الفَضائِلِ والنُّهَى ... وخَيْرِ بَنِي حَوَّاءَ والخَيْرُ يُطْلَبُ
إِلى النَّفَرِ البِيضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ ... إِلى اللهِ فِيما نابَنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ وإنَّنِي ... بهِمْ ولَهُمْ أَرْضَى مِراراً وأَغْضَبُ
خَفَضْتُ لَهُمْ مِنِّي جَنَاحَ مَوَدَّتي ... إِلى كَنَفٍ عِطْفاهُ أَهْلٌ ومَرْحَبُ
بأَيِّ كتابٍ أَم بأَيَّةِ سُنَّةٍ ... تَرَى حُبَّهُمْ عاراً عليَّ وتحسبُ
وما لِيَ إِلَّا آلَ أَحمدَ شِيعَةٌ ... وما لِيَ إِلَّا مَشعب الحَقِّ مَشعبُ
ومَنْ غَيْرُهُم أرْضَى لنفسي شيعةً ... ومن غَيْرهُمْ مِمَّن أُجِلُّ وأرْهبُ
إِليكمْ ذوي آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعَتْ ... نَوازِعُ مِن قَلْبِي ظِماءٌ وأَلبُبُ
وَجَدْنا لكمْ في آلِ حم آيَةً ... تَأَوَّلَها مِنَّا تَقِيٌّ ومُعْرِبُ
فإِنِّي على الأمرِ الَّذي تكرهونَهُ ... بقولي وفعلِيْ ما اسْتَطْتُ لأجنبُ
يُشِيرُونَ بالأَيْدِي إِليَّ وَقَوْلُهُمْ ... أَلا خابَ هذا والمُشِيرُونَ خُيَّبُ
فطائفةٌ قد أكفرتني بِحُبِّهم ... وطائفةٌ قالوا: مُسِيءٌ وَمُذْنِبُ!
يعيبونني مِنْ غيِّهم وضلالهم ... على حبِّكم بل يسخرونَ وأعجبُ
وقالوا: ترابيٌّ هواه ودينه ... بذلك أُدْعَى فيهم وألقَّبُ
فلا زِلْتُ فِيهِمْ حيثُ يَتَّهِمُونَنِي ... ولا زِلْتُ في أَشْياعِهِمْ أَتَقَلَّبُ
ألم ترني في حبِّ آلِ مُحمّدٍ ... أروحُ وأغدو خائفاً أترقَّبُ
كأنِّي جانٍ محدثٌ وكأنّما ... بهم يتَّقي من خشيةِ العرِّ أجربُ
على أيِّ جُرْمٍ أَمْ بأَيَّةِ سِيرَةٍ ... أُعَنَّفُ في تَقْرِيظِهم وأُكَذَّبُ

أُنـاسٌ بِهِـمْ عَـزَّتْ قُـرَيْشٌ فأَصْـبَحَتْ   وفِـيهِمْ خِبـاءُ المَكْرمـاتِ المَطَنَّـبُ

وقد أمر سيِّدنا المؤلِّف ﷺ السَّالك بتصحيح الحبِّ لجميع أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وقال: **إنَّهم مصابيح الاقتداء، ونجوم الاهتداء**، آخذاً بحديث: «**أَصْحَابِي كَالنَّجُوْمِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**»[1].

[سيدنا عيسى والخضر عليهما السلام من أصحاب النَّبيِّ ﷺ]

وأمَّا الأصحاب ﷺ فهم: جمع صاحب، والصَّاحب في اللغة: مَنْ طالت عِشْرَتُكَ به، والمراد هنا الصَّحابي: وهو من اجتمع بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ من المؤمنين بعد نُبُوَّتِهِ اجتماعاً متعارفاً.

وقد اجتمع سيِّدنا عيسى على نبيِّنا وعليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ بسيِّدنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ في بيت المقدس بجسده وروحه، فهو صحابيٌّ.

وكذا الخَضِر[2] عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اجتمع بنبيِّنا صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ

---

(١) مرَّ تخريجه صـ٣٣٩ـ.

(٢) سيدنا الخضر ﷺ: هو أبو العباس بَلْيَا بْن مَلْكَان بْن فَالِغ بْن عَابِر بْن شالخ بْن أرفخشد بْن سَام ابْن نُوح، قَالُوا: وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ الْـمُلُوك، والـخَضِرُ بِفَتْحِ الْخَاءِ الـمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ الضَّادِ وَبِكَسْرِهِمَا مَعًا وَبِفَتْحِ الْخَاءِ أَوْ كَسْرِهَا مَعَ سُكُونِ الضَّادِ فِيهِمَا.
قال الإمام النووي: وَاخْتَلَفُوا فِي لَقَبه الْخَضِر، فَقَالَ الأَكْثَرُونَ: لأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَة بَيْضَاء، فَصَارَتْ خَضْرَاء، وَالْفَرْوَة وَجْه الأَرْض، وَقِيلَ: لأَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى اِخْضَرَّ مَا حَوْله، وَالصَّوَاب الأَوَّل، فَقَدْ صَحَّ فِي الْبُخَارِي [٣٤٠٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِر أَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ».
وقد اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي الْخَضِر هَلْ هُوَ نَبِيٌّ أَوْ وَلِيٌّ ؟
قال القشيري: إنَّه وليٌّ، والصَّحِيحُ كَمَا قَالَهُ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّهُ نَبِيٌّ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [الكهف:٨٢]، فَدَلَّ عَلَى إِنَّهُ نَبِيٌّ أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَبِأَنَّهُ أَعْلَم مِنْ مُوسَى، وَيَبْعُد أَنْ يَكُون وَلِيٌّ أَعْلَم مِنْ نَبِيٍّ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: { آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا } [الكهف: ٦٥]، أَيْ: الْوَحْيَ وَالنُّبُوَّةَ.
وَالصَّحِيحُ أَيْضًا: أَنَّهُ حَيٌّ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ الصَّلاح: جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ وَالْعَامَّةُ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ النَّوَوِيُّ الأَكْثَرُونَ مِنْ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ مَوْجُودٌ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَذَلِكَ مُتَّفَقٌ
=

اجتماعاً متعارفاً، فهو صحابيٌّ، ومن اجتمع به كذلك فهو تابعيٌّ، واسم الخَضِر: بَلْيَا بن مَلْكَان بفتح الياء وسكون اللام بعدها مثنَّاة تحتيَّة، ومَلْكان بفتح الميم وسكون اللام وآخره نون، وإنَّما لُقِّب بالخَضِر؛ لأنَّه ما جلس على أرضٍ إلَّا اخضرَّت.

قيل: مَنْ عرف اسمه واسم أبيه دخل الجنَّة.

واخْتُلِفَ في نُبُوَّتِهِ، فقيل: هو نبيٌّ، وقيل: هو وليٌّ، وهو المراد بالعبد في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، والمراد بالعلم الَّذي علَّمه الله إيَّاه المعبَّر عنه بالعلم اللَّدُنِّي: هو علم الحقيقة، ومن ذلك ما وقع له مع موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من قصَّة السَّفينة، والغلام، والجدار، وما فيها من اللَّطائف والأسرار.

واعلم أنَّ أصحابه صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أفضل من غيرهم من جميع ما جاء بعدهم؛ للأحاديث الكثيرة الصَّحيحة، والنُّصوص القطعيَّة الصَّريحة الواردة

= عَلَيْهِ بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ، وَأَهْلِ الصَّلاحِ وَحِكَايَتُهُمْ فِي رُؤْيَتِهِ وَالاجْتِمَاعِ بِهِ وَالأَخْذِ عَنْهُ وَسُؤَالِهِ وَجَوَابِهِ وَوُجُودِهِ فِي الْـمَوَاضِعِ الشَّرِيفَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى. وَقَالَ الثَّعْلَبِيّ الْـمُفَسِّر: الْـخَضِر نَبِيٌّ معمرٌ عَلَى جَمِيع الأَقْوَال، مَحْجُوب عَنْ الأَبْصَار، يَعْنِي عَنْ أَبْصَار أَكْثَر النَّاس.

وأما الحديثُ الشَّريفُ الذي يرويه البخاري رقم ١١٦عن أبي هريرة ﷺ الَّذي يدلُّ بظاهِرِهِ على موتِ سيِّدِنَا الخَضِر ﷺ وهُوَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ»، قال الإمام النووي: الْـمُرَاد أَنَّ كُلّ نَفْس مَنْفُوسَةٍ كَانَتْ اللَّيْلَة عَلَى الأَرْض لا تَعِيش بَعْدهَا أَكْثَر مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ، سَوَاء قَلَّ أَمْرهَا قَبْل ذَلِكَ أَمْ لا، وَلَيْسَ فِيهِ نَفْي عَيْش أَحَد يُوجَد بَعْد تِلْكَ اللَّيْلَة فَوْق مِائَة سَنَة. وَقَدْ اِحْتَجَّ بِهَذِهِ الأَحَادِيث مَنْ شَذَّ مِنْ الْـمُحَدِّثِينَ، فَقَالَ: الْخَضِر عَلَيْهِ السَّلام مَيِّت، وَالْـجُمْهُور عَلَى حَيَاته كَمَا سَبَقَ فِي بَاب فَضَائِله، وَيَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الأَحَادِيث عَلَى أَنَّهُ كَانَ عَلَى الْبَحْر لا عَلَى الأَرْض، أَوْ أَنَّهَا عَامّ مَخْصُوص. انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم» للنووي ٨/ ١٣٣-١٣٥، و«فتح الباري» لابن حجر ٦/ ٥٢٦-٥٢٧، و«عمدة القاري» للبدر العيني ٢/ ٦٠ -٦١، و«الفتاوى» للرملي ٤/ ٢٢٣-٢٢٤.

في علوِّ شأنهم، ورفعة قدرهم، وتفضيلهم على غيرهم، كقوله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمُ اهتَدَيْتُم**»(١).

وقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إِنَّ اللهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى العَالَـمِيْنَ، سِوَى النَّبِيِّيْنَ والـمُرْسَلِينَ**»(٢).

وروى التِّرمذي عن رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ أَنَّه قال: «**اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ**»(٣).

والأحاديث في ذلك كثيرةٌ .

[تفاوت الصحابة ﷺ في الفضيلة]

ولا يخفى أنَّ الصَّحابة يتفاوتون في الفضيلة، فليسوا فيها سواء، بل أفضل أصحابه ﷺ الأربعة الـمُعبَّر عنهم بالخلفاء الرَّاشدين، وهم أبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ويليهم في الفضل بقيَّة العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وهم طلحة والزُّبير وسعدٌ وسعيدٌ وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، ثمَّ أهل بدرٍ، ثمَّ أهل أحدٍ، ثمَّ أهل بيعة الرِّضوان، وأفضل الأربعة أبو بكرٍ، فعمر، فعثمان، فعليٌّ ؛ ولذلك قال صاحب الجوهرة:

---

(١) مر تخريجه صـ٣٣٩ـ.

(٢) رواه عن جابر ﷺ: الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» رقم ١٢٠٤، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢٩/ ١٨٤، و٣٠/ ٢٠٧، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٦، للبزار، وقال: رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٣) رواه عن عَبْدِ الله بْنِ مُغَفَّلٍ ﷺ: الإمام أحمد في «المسند» رقم ١٦٨٤٩، والإمام الترمذي في «الجامع»: كتاب المناقب...(٥٠)، باب (٥٩) رقم ٣٨٦٢، وقال: هذا حديث غريب، ورمز السيوطي لحسنه في «الجامع» رقم ١٤٤٢.

وقال السَّيِّد الشَّيخ أحمد الرِّفاعيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ: «أي أولادي: عظِّموا شأن أهل البيت، وكرِّموهم، وبَجِّلوهم، وإذا سمعتم أحداً يقول في شأنهم أشياء قبيحةً انكروها، أو فاجعلوا أصابعكم في آذانكم، وذبُّوا عن أعراض الصَّحابة قاطبةً، وعليكم بمحبَّتهم، ومدحهم؛ فإنَّ هؤلاء القوم قد عفا الحقُّ سبحانه عنهم، ولا يؤاخذهم بما جرى بينهم، وأنَّهم يتواهبون، ويدخلون الجنَّة، واعلموا أنَّ أفضل النَّاس بعد رسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وسَلَّمَ: أبو بكرٍ، ثمَّ عمر، ثمَّ عثمان، ثم عليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم أَجْمَعِيْنَ.

ولا يظنُّ أحدٌ أنَّ كلَّ الصَّحابة سواءٌ، فهذا كفرٌ، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾[الحديد:١٠]، فمن ردَّ أيةً من القرءان أو حرفاً منه فقد ردَّ القرءان، ومن ردَّ القرءان كفر». انتهى.

هذا هو القول المشهور المنصور.

قال السَّعد[١]: على هذا وجدنا السَّلف والخلف، والظَّاهر أنَّهم لو لم يكن لهم دليلٌ على ذلك لَـمَا حكموا به، ولا يدرك دقائق التفضيل والتَّرتيب إلَّا المشاهدون للوحي والتَّنزيل بقرائن الأحوال، فلولا فهمهم ذلك لَـمَا رتَّبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عن الحقِّ صارفٌ.

---

(١) مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازانى، سعد الدين (٧١٢-٧٩٣)هـ: من أئمة العربية والبيان والمنطق، ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفى فيها، ودفن في سرخس، وكان في لسانه لكنة، من كتبه: «شرح العقائد النسفية»، و«حاشية على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب» في الأصول، و«التلويح إلى كشف غوامض التنقيح». انظر: «الأعلام» للزركلي ٧/ ٢١٩.

[انخلاع الإمام الرفاعي من رؤية نفسه]

ثمَّ نبَّه سيِّدنا المؤلِّف على خوف الله تعالى، ونبَّه على التَّقوى، وختم نصيحته المباركة بقوله لخليفته الشيخ عبد السَّميع الهاشمي رضي الله عنهما: أي أخي، أخذتني سكرة التَّعليم، يريد أنَّ العلم له سكرةٌ تأخذ الرَّجل من التَّواضع إلى التَّفاخر، وكان ذلك منه تواضعاً وانقياداً للحقِّ، وأيَّد ذلك المقصد بقوله: فاقْبَل نصيحتي؛ فإنَّها إن شاء الله نشأت بإخلاصٍ عن حُبٍّ لك، وتلا قول النَّبيِّ ﷺ: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[1].

وقال: اعمل بنصيحتي، ولا تَرَني رجلاً، انخلاعاً وتجرُّداً من النَّفس والأنانيَّة، واعترافاً بأنَّه أضعف خلق الله، الَّذين هم في مملكة الله، إرشاداً للسَّالكين، وتنبيهاً للغافلين، وانقهاراً تحت سطوة العبوديَّة، ووقوفاً عند حدِّ المخلوقيَّة، وتمسُّكاً بآثار النَّبيِّ ﷺ.

فرضي الله عن هذا السيِّد الكبير، والعلم الشَّهير، وعن أسلافه الطَّاهرين، وأخلافه المكرَّمين، وعن ساداتنا أولياء الله أجمعين، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات].

هذا وإنِّي رأيت في ذيل نسخة الحكم الشَّريفة التي ظَفِرتُ بها قصيدةً جليلةً للإمام شيخ الإسلام، علامة الأنام، مولانا السيِّد الشَّيخ سراج الدِّين المخزومي الرِّفاعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ يمدح بها سيِّدنا المؤلِّف أعزَّ الله مقداره، ورفع في الدَّارين مناره فتشرَّفت بتخميسها، إتماماً للخدمة المبرورة، وطمعاً بهمَّته العليَّة المأثورة، وناهيك به بفضل الله من يزري بأجنحة الطَّواويس، مَنَّ به واهب الكرم تكميلاً لشرف وليِّه الإمام أبي العلمين المعظَّم المحترم، وها هو:

---

(١) مر تخريجه صـ٣٤٠ـ.

يـا سـيِّـداً لاذَتْ بـهِ الـسَّـاداتُ   وتَـزَيَّـنَـتْ بـمـديـحِـهِ الأوقَـاتُ
لَـمَّا انـتـهَـتْ لِطَـرِيقِكَ النَّفَحاتُ   طـابَـتْ بـحـضـرَةِ ذكـرِكَ الـوثـبـاتُ

وبها لحزبِكَ صولةٌ وثباتُ

نبراسُ رُشدِكَ ظلمةَ الدَّعوىٰ جَلا   وشرابُ صِدقِكَ كاسهُ معنىٰ حلا
شاعَتْ مآثِرُكَ الجليلةُ في الملا   وظِـلالُ بـابِـكَ يـا رفـاعِـيُّ الـعـلا

سوحٌ به تتنزَّلُ البركاتُ

صحَّ المديحُ بذكرِ خُلقكَ والثَّنا   وبه تـوصَّـلَ أهـلُ حُـبِّـكَ لـلـمُـنَـىٰ
لـكَ هِـمَّـةٌ يُـجْـلَـىٰ بـهـا كـلُّ الـعَـنـا   ولكَ اليدُ البيضا التي كَشَفَتْ لنا

ستراً لديه تُسْكَبُ العَبَراتُ

أضحىٰ هُداكَ مِنَ الغوايَةِ مخرجاً   وحماكَ مِنْ كدرِ النَّوازِلِ مُلتَجا
أطلعت صبحاً للطَّريقةِ أبلجاً   وأخذْتَ مِنْ لُبِّ الشَّريعةِ منهجاً

قَصُرَتْ لعمرُكَ بعدَهُ الخطواتُ

أصـبـحـتَ بـحـراً لا يُـرَدُّ نـوالُـهُ   بـل طـودُ مـجـدٍ لا يُـطـالُ مَـطـالُـهُ
أحـرزتَ خُـلـقـاً عـزَّ قـدراً حـالُـهُ   أَرضَـيْـتَ فـيـه اللهَ جـلَّ جَـلالُـهُ

ونصرتَ ما جاءتْ به الآياتُ

أعطيتَ عهدَ الفضلِ مِنْ أعلىٰ يدِ   بحديثِ معجزةٍ صحيحٍ مُسْنَدِ
وأتـيـتَ مـنـتـصـراً لِـسُـنَّـةِ أحـمـدِ   ومـضـيـتَ مـقـتـفـيـاً لإثـرِ مُـحَـمَّـدِ

طوعاً لكَ الحركاتُ والسَّكناتُ

أتـقـنـتَ خـدمـتَـهُ بِـحُـسْـنِ نِـيَـابَـةٍ   قـامَـتْ بِـصِـدْقِ عـزيـمَـةٍ وإنـابَـةٍ
ورفـعـتَ رايـتَـهُ بـخـيـرِ عـصـابَـةٍ   فـنـظـرتَ مـنـه بـنـظـرةٍ جـذَّابـةٍ

خُرِقَتْ بها لك في الملا العاداتُ

سـحَّـتْ عليكَ بفيضِ وابلِ بِرِّها   فـجـرىٰ بـبـحـرِ الـعـالـمـينَ وبَـرِّهـا

وغدوتَ منفرداً خزانةَ دُرِّها   وسرىٰ بمتَّبعيكَ نافذُ سرِّها

تركتْهُ في أحيائها الأمواتُ

أكرِمْتَ من طه بكفِّ جنابِهِ   بينَ القُفُولِ مُذِ التجأتَ لبابِهِ

فلثَمْتَهُ وعُرِفْتَ في أحبابِهِ   نورٌ أرادَ الحقُّ أن تُحْبَىٰ بهِ

رغماً لمن فتكَتْ بهِ الظُّلماتُ

أضمرتَ في قلبِ الكمالِ دقيقةً   نقشَتْ علىٰ لوحِ الغيوبِ رقيقةً

ومُذِ اتَّصَلْتَ إلىٰ الإله حقيقةً   أوضحتَ يا شيخَ الوجودِ طريقةً

سُدَّتْ بغيرِ سُلُوكِها الطُّرُقاتُ

قامَتْ علىٰ النَّهجِ القَويمِ سويةً   أوردتَها عن أهلِها مرويَّةً

وبها طويتَ شعائراً نبويَّةً   ونشرت فيها رايةً علويةً

خضعَتْ لرفعتِ قدرها الهاماتُ

أودعتَ قدماً نفحةً قدسيَّةً   وعطيتَ من فيضِ الكريمِ عطيَّةً

ولبستَ جهراً خلعةً سبطيَّةً   وجعلتَ متنَ الانكسار مطيَّةً

جزمتْ بخلقٍ ما لديه هناتُ

أحرزتَ بينَ القومِ أعظمَ نعمةٍ   مِنْ خيرِ مبعوثٍ لأكرمِ أمَّةٍ

وغدوتَ مندوباً لكلِّ مهمَّةٍ   وسبَقْتَ كلَّ العارفينَ بهمَّةٍ

فُتِحَتْ لوافدِ عزمِها الحضراتُ

جاوزتَ هام النيرين برفعةٍ   طارتْ بمسكنهِ وساكبِ دمعهِ

وبرَزْتَ منتصراً لأشرفِ شِرعةٍ   وأكلتَ مائدةَ القَبُولِ بخشعةٍ

ولكم أجاعَتْ غيرُكَ الشَّطحاتُ

للهِ كم لكَ مِنْ ضيا سرٌّ سرى   في الكونِ حتَّىٰ خافَهُ أسدُ الشَّرىٰ[1]

---

(١) الشَّرى: موضعٌ تُنْسَبُ إليه الأُسْدُ، يقال للشُّجعانِ: ما هُمْ إلا أُسودُ الشَّرى، قال بعضهم: شَرىٰ موضع بعَيْنِهِ تأوي إليه الأُسْدُ، وقيل: هو شَرىٰ الفُراتِ وناحِيَتهُ وبه غِياضٌ وآجامٌ ومَأسَدَةٌ. «لسان العرب» مادة: (شرىٰ).

يا قائدَ الحزبينِ يا عالي الذّرىٰ يا صاحبَ العلمينِ يا غوثَ الورى

طِبْ إنَّ رمسَكَ عمَّهُ الرَّحماتُ

أعرضتَ خلقاً عن عسىٰ وإلىٰ متىٰ وقطعتَ بالإخلاصِ صيفَكَ والشِّتَا

فشربتَ كاساً عزَّ أن يرهُ فتىً هذا جزاءُ الصَّابرينَ كما أتى

والقوم يا ابن المصطفىٰ درجاتُ

لكَ دولةٌ قامتْ بشانٍ أوحدِ ومكانةٌ عَظُمَتْ بطرزٍ أمجدِ

يا خيرَ منسوبٍ لآلِ محمَّدٍ أتقنتَ نهجَ الاتِّباعِ لأحمدِ

في المشربينِ وما عراكَ شتاتُ

سُدْتَ الرِّجالَ بمظهرٍ عنه الجُمَل قَصُرَتْ رقايتهُ وطالِعُكَ اكتمَل

وجمعتَ بينَ العلمِ حقّاً والعمل ولنا الأدلَّةُ في ثناكَ طباعُكَ الـ

حسناءُ والأحوالُ والكلماتُ

لكَ بانكسارِكَ للعواجزِ نهضةٌ زمر الخطوب بباسها منقضَّةٌ

لك ساحةٌ هي للتدلِّي روضةٌ ولأنت معجزةٌ لجدِّكَ محضةٌ

وضَّاحةٌ ما شابها الشُّبهاتُ

أصلتَ سيفاً في العادي باتراً ورفعتَ رُكناً للأحبَّةِ عامراً

مُذْ نلتَ سرَّاً للقيامةِ سائراً ثبتَتْ مناقبكَ الرِّجاحُ تواتُراً

لزماننا وبنفيها الإثباتُ

نعم الكراماتُ التي علتِ السُّها[1] مجداً وكلَّلَ برد رونقها البها

هي مثلما نطقَ الوجودُ بفضلها خرسٌ بها أهلُ الجحودُ لأنَّها

فوقَ البداهةِ عندها مرقاةُ

برهان فضلِكَ بالدَّلائلِ قد ثَبَت وعريقُ أصلِكَ في السِّيادةِ قد نَبَت

---

(١) السُّها: كَوكَبٌ خَفِيٌّ يَمْتَحِنُ النَّاسُ به أَبْصَارَهم. «مختار الصحاح» مادة: (سها).

وعزيزِ نفسِكَ يا ابن أفضل مَنْ قنَت ذلَّتْ لسطوتكَ الأسودُ وما رأت
أنْ تحمِهَا مِنْ بأسِكَ الغاباتُ
لَمَّا لبستَ من العنايةِ حُلَّةً داويتَ من أتباع رشدكَ علَّةً
والأسد حين أتتكَ تطلبُ خلّةً ربضتْ على أعتابِ عزِّكَ ذلةً
وكذلكَ الأنمارُ والحيَّاتُ
فجميلُ مدحِكَ مجملٌ ومفصَّلٌ وجليلُ قدركَ في الشُّيوخِ مفضَّلُ
وبذكركَ الشَّرفُ الرَّفيعُ مكمَّلُ والنَّارُ تخمدُ والسِّلاحُ معطَّلُ
لَمَّا بندبِكَ تكثرُ الضَّجَّاتُ
ما أمَّ ساحةَ بحرِ فضلكَ ناقصٌ إلَّا وكمَّله عطاءٌ خالصُ
رجفتْ لبأسكَ في الرِّجال فرائصٌ اللهُ أكبرُ إنَّها لخصائصُ
بيدِ النَّبيِّ بها حبتكَ الذَّاتُ
هذا مقامٌ دونهُ هامُ العلا وشريفُ شأنٍ مسكهُ عمَّ الملا
طبنا به واللهِ والهمُّ انجلىٰ شكراً لمولانا الَّذي أهدىٰ إلى
تصديقِ مَنْ تمحىٰ به الزَّلاتُ
طه الَّذي شقَّ السَّماءَ ركابُهُ ورَقَا إلىٰ الرّحبِ الكريمِ جنابهُ
وهمىٰ علىٰ كلِّ الورىٰ ميزابُهُ وَإلىٰ طريقتك الَّتي هي بابُهُ
وعليه عطَّرَ قبرَهُ الصَّلواتُ
وأجلُّ تسليماتِ خَلاّق الملا تهمي علىٰ مثواه ما الفجرُ انجلىٰ
وتحيَّةٌ عظمىٰ يظيقُ لها الفلا والآل والأصحاب والقوم الأولىٰ
وعليك ما هبَّتْ بنا النَّسماتُ

خاتمةٌ لطيفةٌ وتتمَّةٌ شريفةٌ

في ترجمة سيِّدنا المؤلِّف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ أوردتها مختصرةً؛ لينتفع بها المطالع، ولا يَمَلُّها القارئ ولا السَّامع، نظمتها من أقوال أئمَّة الرِّجال، وجعلتُ سهمي منها حسنُ التَّأليف، والرَّبطِ بين الكلمات والأقوال .

قال الإمام سلطان المحدِّثين، شيخ المشايخ، أبو العبَّاس عزُّ الدِّين، أحمد الفاروثيُّ الواسطيُّ في كتابه «النَّفحة المسكيَّة»[1] حين سُئِلَ عن العائلة الرِّفاعيَّة، ما نصُّهُ: «فليعلم أنَّ رأس هذه العصابة الرِّفاعيَّة، وجدَّ هذه الذُّرِّيَّةِ الأحمديَّة، شيخ المشايخ، الجبل الرَّاسخ، صاحب المناقب العظيمة، والمآثر الكريمة، تاج أهل القَبول، المشرَّف بتقبيل يد الرَّسول، أبو العلمين، غوث الثَّقلين، مَنْ ثبتت كراماته بالتَّواتر في المشرقين والمغربين، الخاشع الخاضع، والشَّريف المتواضع، ملجأنا، ومفزعنا، وشيخنا، السيِّد الشَّيخ أحمد أبو العبَّاس الكبير الرِّفاعي الحسيني ﷺ .

ولد ﷺ في أمِّ عبيدة في دار جدِّه لأمِّه ، شيخ شيوخ زمانه، سيِّدنا الشَّيخ أبي سعيدٍ يحيى النجَّاريّ الأنصاريّ، في سنة اثني عشر وخمسمائة من صلب شيخ القرَّاء والمحدَّثين، سلطان الزَّاهدين، إمام العارفين، السيِّد علي أبي الحسن بن يحيى المكِّي، ويقال له المغربي .

ويحيى هذا ﷺ أوَّل قادمٍ من هذه العصابة إلى العراق، وصل البصرة في عام خمسين وأربعمائة، واشتهر فيها بالزُّهد والمعرفة والصَّلاح، وعكفت عليه القلوب، ثمَّ بعد مدَّةٍ تزوَّج بالأصيلة الحسيبة علما الأنصاريَّة، بنت المولى الجليل الحسن أبي

---

(١) صـ٤-٦.

سعيدٍ النَّجاريّ، والد الشَّيخ أبي سعيدٍ النَّجاريّ، فأولدها سيِّدنا السيِّد عليّاً أبا الحسن، والد السيِّد أحمد الكبير ﷺ، فلمَّا كبر قدم البطائح، وسكن أمَّ عبيدة، وتزوَّج ببنت خاله السِّت فاطمة بنت الشّيخ الإمام يحيى النَّجاريّ ﷺ ، فأولدها سيِّدنا أحمد الكبير، والسيِّد عثمان، والسيِّد إسماعيل، والسيِّدة ست النَّسب...» إلى أن قال بعد تحقيقاتٍ شريفةٍ: «وقد تقدَّمَ أنَّ السَّيِّد أحمد ﷺ، ابن السَّيِّد أبي الحسن عليّ بن يحيى، ويحيى هذا، ابن الثابت بن الحازم بن أحمد بن علي المعروف بابن رفاعة الهاشمي المكِّيّ، ابن الحسن الملقَّب برفاعة، وإليه ينتمي بطن بني رفاعة هؤلاء كما ذكره صاحبُ «التِّرياق» مفتي الثَّقلين، تقيّ الدّين بن عبد المنعم الواسطيّ.

والحسن رفاعة المكِّي المذكور هونزيل المغرب، هاجر من مكَّة إلى المغرب سنة سبع عشرة وثلاثمة، وهي السَّنة التي قتل فيها ابن محارب أمير مكَّة وأصحابه، وحصل ما حصل من القرمطي - عليه اللعنة - في بيت الله من الهدم والنَّهب والقتل.

وفي هذه السَّنةِ هاجر كثيرٌ من الأشراف إلى البلاد السَّائرة، وكان ممَّن هاجر بأهله وبني عمِّه إلى اليمن محمَّد بن عيسى من آل علي العريض الحسيني، ومنهم من هاجر إلى نيسابور والعجم والهند، والتحق رفاعة ﷺ بقبيلةٍ من قبائل العرب بالقرب من إشبيليَّة، وعظَّمَه ملوك المغرب، وانقاد إليه أعيانها وعلمائها، وكَبُرَ أمره، واشتهر ذكره، وبقيت ذرِّيته في المغرب إلى عهد السيِّد يحيى بن الثَّابت، جدِّ سيِّدنا السيِّد أحمد .

قال في «الترياق»: ولهم بقيَّةٌ في المغرب، وإنَّ رفاعة الحسن المكِّيّ هذا ابن المهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين أحمد بن موسى الثاني، ويقال له الأصغر ابن إبراهيم المرتضى، ابن الإمام عَلَم الإسلام موسى الكاظم،

ابن الإمام جعفر الصَّادق، ابن الإمام الهمام محمَّد الباقر، ابن الإمام الهمام زين العابدين علي الأصغر المعروف بالسَّجاد، ابن الإمام المظلوم الشَّهيد السَّعيد السِّبط الأعظم أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء، ابن الإمام الأعظم مقتدى العرب والعجم، الهزبر الغالب، باب مدينة العلوم أسد الله علي بن أبي طالب كرَّم اللهُ وجهه ورضي الله عنه وعنهم أجمعين، رُزِقَهُ من زوجته الطَّاهرة البتول سيدة النِّساء فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها وعليها السَّلام بنت سيد المرسلين، وأفضل المخلوقين، أبي القاسم، سيِّدنا محمَّد ﷺ، ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن قريش بن ملك العرب مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من بقيَّة آل إبراهيم الخليل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ». انتهى.

[ثناء الأئمة على الإمام الرفاعي رضي الله عنه]

وقال الإمام البحر الطّام، حجَّة الله على الأنام، الشَّيخ عبد الكريم بن محمَّد الرَّافعي، مجتهد مذهب سيِّدنا الإمام الشَّافعي رضي الله عنهما في كتابه «سواد العينين»[1]، بعد أنْ ذكر نسبة سيدنا السيد أحمد الكبير رضي الله عنه: «حدّثني الشّيخ الصّالح محمّد بن الحسن البزاز، عن الشّيخ الورع أبي محمّد القوصي، قال: مَرّ السَّيِّد أحمد الرّفاعيّ بموكبٍ من فقرائه في أرض البطائح فأنكرتُ حاله في سرِّي، فنمت ليلتي وإذا بالنَّبيِّ ﷺ وهو يثني على السَّيِّد أحمد الرّفاعيّ، ويقول: «عَلَمُ الحقيقة، يُربِّي بحالِهِ أكثر مِـمَّـا يربِّـي بمقالِهِ، مَنْ أحبَّه فقد أحبَّنِي ومن آذاه فقد آذاني»، فقمتُ مرعوباً وأتيتهُ فلمّا رآنِي تبسَّم، وقال: الرَّجل الكامل يربِّي بحاله أكثر مما يربِّي بمقاله».

---

(١) ص ٥١.

وقال أيضاً[1]: «ولد رضي الله عنه سنة اثنتى عشرة وخمسمائة، ونشأ في حجر خاله فأدَّبه وهذَّبه، وتلقى عن خاله الطَّريقة وعلم التَّصوف، ولبس خرقته وأخذ عنه علوم الشَّريعة، وتفقَّه على الشَّيخ أبي الفضل عليٍّ الواسطيّ المعروف بابن القاري، وعن جماعةٍ من أعيان الواسطيِّين، منهم خاله الصُّوفي الجليل شيخ وقته سلطان العلماء والعارفين الشَّيخ أبو بكر الواسطي أخو الشَّيخ منصور، وانتهت إليه الرِّياسة في علوم الشَّريعة وفنون القوم، وخدمة الأئمَّة والفقهاء، والملوك والخلفاء، وانعقد عليه إجماع الطَّوائف، وقال بتقدمه على جميع رجال عصره: الموافق والمخالف، وأطبق على علوِّ قدمه، ورفعة رتبته، وكرم خُلْقِهِ، وترقِّيه عن منزلة القطبيَّة الكبرى، والغوثيَّة العظمى، جحاجحة[2] الأرض المقدسة الحجاز والشَّام، واعترف رجال وقته بالعجز عن درك منتهاه في السَّير، وقال بذلك الخواصّ منهم والعوام، وقال فيه الشَّيخ منصور: وزنته بجميع أصحابي وبي أيضاً فرجحنا جميعاً، ويكفيك أنَّ من أصحابه الشَّيخ حمَّاد الدَّبَّاس البَغداديّ أجلُّ أشياخ الشَّيخ عبدالقادر الجيلي، والشَّيخ عثمان البطائحي، والشَّيخ خميس، والشَّيخ مكِّي الطّستاني وأمثالهم وعدَّ نفسه الزَّكية أيضاً، ويعجبني ما قال فيه الفيروزآبادي[3] مفرداً:

أبا العلمين أنت الفردُ لكن ... إذا حُسِبَ الرِّجالُ فأنت حِزبُ

حدثني الشَّيخ الإمام أبو شجاع الشَّافعي فيما رواه قائلاً: كان السيَّد أحمد الرِّفاعي رضي الله عنه علَماً شامخاً، وجبلاً راسخاً، وعالماً جليلاً، محدثاً فقيهاً مفسراً ذا

---

(١) ص ٥٤-٥٥.

(٢) الجَحْجَحُ: السيد السَّمْحُ، وقيل: الكريم. «لسان العرب» (جحجح).

(٣) محمد بن يعقوب بن محمد بن يعقوب بن إبراهيم الفيروز آبادي مجد الدين أبو طاهر الشيرازي الحنفي (٧٢٩ - ٨١٧)هـ: إمامٌ في اللغة والأدب، ولد بكازرون وتوفي قاضياً بزبيد اليمن، له: و«تسهيل طريق الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول»، و«روضة الناظر في درجة الشيخ عبد القادر»، و«القاموس المحيط». انظر: «هدية العارفين» ٢/ ٤٢.

رواياتٍ عالياتٍ، وإجازاتٍ رفيعاتٍ قارئاً مجوِّداً حافظاً مُجيداً، حُجّةً رُحْلةً، متمكِّناً في الدِّين سهلاً على المسلمين، صعباً على الضَّالين هيِّناً ليِّناً، هشَّاً، بشَّاً، ليِّنَ العريكة حسَن الخَلْقِ، كريم الخُلُقِ، حلوَ المكالمةِ، لطيف المعاشرة، لا يَمَلُّهُ جليسُه، ولا ينصرف عن مُجالِسِهِ إلا لعبادة، حمولاً للأذى، وفيَّاً إذا عاهد، صبوراً على المكاره، جوَّاداً من غير إسرافٍ، متواضعاً من غير ذلةٍ، كاظماً للغيظ من غير حقدٍ، أعلم أهلِ عصره بكتاب الله وسنَّة رسوله، وأعلمهم بها، بحراً من بحور الشَّرع، سيفاً من سيوف الله، وارثاً أخلاق جدِّه رسول الله ﷺ».

وقال الإمام الرافعي أيضاً في كتابه المذكور[1]: «أخبرني شيخنا الإمام الحجة القدوة عمر أبو حفص شهاب الدِّين السُّهْرَوَرْدِي، عن عمِّه الوليِّ العارف شيخ الشُّيوخ أبي النَّجيب، عن شيخه الإمام الـهُمام البحر الطَّام محمد بن عبدٍ البصري ﷺ، قال: كلُّ الأولياء أدركنا مقاماتهم وما وصلوا إليه، وعرفنا منتهاهم في السَّير إلَّا السَّيِّد أحمد الرِّفاعي فإنَّه لا يُعرف منتهاه في السَّير، وإنَّما رجال عصرنا على الإطلاق يعرفون الوجهة التي اتَّجه إليها، ومن ادَّعى الوصول إلى مرتبته أو الاطلاع على رتبته فكذِّبوه، أي إخواني! هذا رجلٌ لا يُعرف ولايُحدُّ، هذا رجلٌ انسلخ من علائق بشريَّته، وعوائق نفسه كانسلاخ الثَّوب عن البدن، والأولياء في عصرنا هذا كبارهم وصغارهم، المشارقة والمغاربة، الأعارب والأعاجم، عيالٌ عليه يستمدُّون منه، ويأخذون عنه، وهو شيخ الكلِّ في الكلِّ يَسُحُّ النَّوال من حجرة جدِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على قلبه، وهو يقسمه على الرِّجال في الأرَضِين، ولا ينقطع مدده بإذن الله، والدولة له ولذرِّيَّته إلى يوم القيامة مع طيب نفس المحبِّ ورغم أنف الحاسد، يفعل الله ما يشاء لا رادَّ لأمره ولا منازع لحكمه.

---

(١) ص ٥٨ – ٦٠ .

قال لي شيخنا سند المحدِّثين عبد السَّميع الهاشمي الواسطي ببغداد وقد جرى ذكر السيِّد أحمد بن الرفاعي ﷺ: أي عبد الكريم، كان السيِّد أحمد آيةً من آيات الله، ومعجزةً من معجزات رسول الله، يمشي على وجه الأرض، ما وقعت الأبصار على نظيره في عصره، قلَّ في السَّلف مثيله، ولا يوجد في الخلف عديله، كان طريقه الكتاب والسُّنَّة، كان فعَّالاً لا قوَّالاً، شربها وحكم عليها، قهر حاله، وغلب طوره، كان إماماً عالِماً عدلاً، لو رأيته لرأيت كلَّ السَّلف:

ليسَ على اللهِ بِمُسْتَنْكِرٍ أنْ يجمعَ العالمَ في واحد

رأيته يوماً وقد امتلأت أطراف أم عبيدة من زائريه وهو يبكي، ويقول:

حيَّرتَ فيكَ العُقَلا يا مَنْ لعَقْلِي عقَلا

كتمتُ فيكَ حالتي فضحتَنِي بينَ الملا

[كرامة تقبيل يد النبي الأعظم ﷺ للإمام الرفاعي ﷺ]

وكنتُ مع الزُّوَّارِ في الحرم النَّبويِّ عام حجِّهِ الَّذي مُدَّت له فيه يد النَّبيِّ ﷺ، وشاهدت اليد النبوية ببركته ﷺ، وكان في مَنْ حضر الشَّيخ علي الهيتي[1] الذي هو الآن بين أظهرنا، والشَّيخ عَدِي بن مسافر[2]، والشَّيخ عبد القادر الجيلي، والشَّيخ

---

(١) علي بن الهيتي هو من أكابر مشايخ العراق وأعيان العارفين وهو أحد من ينسب إلى القطبية العظمى، وكانت عنده الخرقتان اللتان ألبسهما أبو بكر الصديق ﷺ لأبي بكر بن هوار في النوم واستيقظ فوجدهما عليه، وهما ثوب وطاقية وكان أعطاهما ابن هوار للشنبكي وأعطاهما الشنبكي لتاج العارفين أبي الوفاء وأعطاهما تاج العارفين للشيخ علي بن الهيتي، ومكث رضي الله عنه ثمانين سنة ليس له خلوة ولا معزل بل ينام بين الفقراء، وذلك لأن فتحه أتاه من طريق الوهب، أجمعت العلماء على جلالته وعلو منصبه، سكن ﷺ رزيران بلدة من أعمال نهر الملك إلى أن مات بها سنة (٥٦٤)هـ، وقد علت سنة على مائة وعشرين سنة، وبها دفن وقبره بها ظاهر يزار. انظر «الطبقات الكبرى» للشعراني، و«الطبقات الكبرى» للمناوي رقم ٤٣٥، ١/ ٦٩١.

(٢) عدي بن مسافر بن إسماعيل الهكاري، شرف الدين أبو الفضائل، من ذرية مروان بن الحكم الاموي(٤٦٧-٥٥٧)هـ: كان صالحاً ناسكاً، تنسب إليه الطائفة العدوية، ولد في بيت قار (من =

الزَّعفراني، والشَّيخ عزاز[1]، وغير رجل، فلمَّا تجلَّى الله عليه بهذه الموهبة العظيمة، والمنَّة الكريمة، وآنَ وقت انصراف جسمه من الحضور النَّبويِّ، اضطجع بباب الحرم، وأقسم على النَّاس أنْ يدوس كلُّهم عنقه، فكانت العامَّة تتخطَّى عنقه المبارك، والخاصَّة انصرفوا من أبواب أخر، وكنتُ لديه ،وهو يبكي، ويقول: اللهمَّ زدني تمكيناً وإيماناً ومعرفةً بك وبنبيِّك ﷺ.

وأخبرني شيخنا الإمام الـحُجَّة القدوة أبو الفرج عمر الفاروثي الواسطي، قال: حجَّ سيِّدنا وشيخنا السَّيِّد أحمد الرِّفاعي عام خمس وخمسين وخمسمائة، فلمَّا وصل المدينة وتشرَّف بزيارة جدِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقف تجاه حجرة النَّبيِّ ﷺ، ووقفنا خلف ظهره، فقال: السَّلام عليك يا جدِّي، فقال له عليه أفضل صلوات الله: وعليك السَّلام يا ولدي، فتواجد لهذه النغمة، وقال مُنشداً:

فـي حالـةِ البُعـدِ روحـي كنـتُ أرسِلُها ... تُقَبِّـلُ الأرضَ عنِّـي وهـي نـائبتِي

وهـذه دولـةُ الأشـباحِ قـد حضـرَتْ ... فامـدُدْ يَمِينَـكَ كـي تحظَى بها شَفَتِي

فمدَّ له رسول الله ﷺ يده الشَّريفة من قبره الكريم فقبَّلها في ملأٍ يقرب من تسعين ألف رجلٍ، والنَّاس ينظرون يد النَّبيِّ ﷺ ويسمعون كلامه، وكان فيمن حضر الشَّيخ حياة بن قيس الحرَّاني، والشَّيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ عَدي الشامي، وشاهدوا ذلك هم وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين».

=

أعمال بعلبك) وجاور بالمدينة أربع سنوات، وبنى زاوية في جبل الهكارية (من أعمال الموصل) فانقطع لعبادة، توفي ودفن بها، سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٣/ ٢٥٤، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٢٢١.

(١) الشيخ عزاز بن مستودع البطائحي، العابد الزاهد، انتهت إليه رياسة الطريق في البطائح، وأخذ عنه جماعة من الصلحاء، والعلماء الطريق، وأجمع المشايخ على تعظيمه. انظر: «الطبقات الكبرى» للمناوي رقم ٥٦٣ ، ٢/ ١١٩.

[مرض وفاه الإمام الرفاعي رحمه الله تعالى]

وذكر السيِّد الهمام صدر العلماء الأعلام، السيد أبو القاسم البرزنجي الحسيني نفعنا الله به في كتابه: «إجابة الدَّاعي»(١) الذي ألَّفه في مناقب سيِّدنا الإمام المشار إليه صبَّ الله سِجال عوارفه عليه، ما نصُّه: «قال يعقوب خادمه: لَـمَّا مرِض سيِّدي أحمد ﷺ مَرَض الموتِ، قلتُ له: تجلى العروس في هذه المرَّة، قال: نعم، فقلتُ له: لـماذا ؟

قال: جرت أمورٌ اشتريناها بالأرواح، وذلك أنَّه أقبل على الخلق بلاءٌ عظيمٌ فتحملتُهُ عنهم، واشتريتُه بما بقي من عمري فباعني.

وكان ﷺ يُمرِّغ وجهَهُ وشيبته على التُّرابِ، ويقول: العفو، ويبكي، ويقول: اللهمَّ اجعلني سقفَ البلاءِ على هؤلاء الخلق.

وكان مرضه بالبطن، وسبب ذلك أنَّه سمع قائلاً ينشد هذه الأبيات فاضطرب وانزعج وهاجت بطنه ﷺ وهي:

إذا جَـنَّ ليلـي هـامَ قلبـي بِـذِكْرِكُم ... أنـوحُ كمَـا نـاحَ الحمـامُ المطـوَّقُ

وفـوقي سـحابٌ يُمطـرُ الهـمَّ والأسـى ... وتَحتِـي بحـارٌ بالجفـا تتـدفَّقُ

سـلوا أمَّ عمـروٍ كيـفَ بـاتَ أسـيرُها ... تحـلُّ الأسـاري دونَـهُ وهـو مُوَثَّـقُ

فـلا هـو مقتـولٌ ففـي القتـلِ راحـةٌ ... ولا هـو ممنـونٌ عليـه فيُعتَـقُ

ومكثَ بالمرضِ شهراً، وكان يخرج منه كلّ يومٍ ما شاء الله، فقيل له: من أين يخرج هذا ولك عشرون يوماً لا تأكل شيئاً ولا تشرب ؟

فقال ﷺ: هذا اللحم يندفعُ ويخرج، ولكن قد ذهب اللحمُ وما بقي إلا المخ اليوم يخرج، وغداً نعبر على الله ﷻ، فخرج منه شيءٌ أبيض مرَّتين أو ثلاثاً وانقطع.

---

(١) ص ٣٩ – ٤٠.

وكانت وفاته دامتْ بركاتُه يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة خمسمائة وثمانية وسبعين عن ست وستين، وكان يوماً مشهوداً، وكان آخر كلامه أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ سيدنا محمَّداً عبده ورسوله».

هذا ما حقَّقه العلامة البرزنجي، والَّذي صحَّ عند العلماء المحقِّقين من السَّادة الرِّفاعيَّة، وأهل العلم بهذه النِّسبة الزَّكيَّة الأحمديَّة أنَّ عمره الشَّريف ست وستون سنة، وقد ثبت أنَّه سأل جماعة من مفتي الثَّقلين مولانا تقي الدِّين الواسطي قُدِّسَ سِرُّهُ عن شغل السيد أحمد الرِّفاعي رضي الله عنه في مدَّة عمره، فقال: شغله (الله)، وهذا الاسم المبارك عدده بحساب الجمل ستة وستون.

وقالوا إنَّ تاريخ ولادته: (جاء يد سر الرب)، وتاريخ عمره: (لله) باعتبار كون المد الطَّبيعي ألفاً، وتاريخ وفاته: (لله جاء يد سر الرب).

قال الإمام الهمام الشَّيخ إبراهيم الكازروني في كتابه «الترياق» عند ذكر مولانا صاحب الترجمة رضي الله عنه:

إذا نظرتَ إلى الدُّنيا وهيئَتِها ... فانظرْ إلى ملكٍ في زِيٍّ مسكينِ

إنْ كانَ يَصْلُحُ للدُّنيا سواهُ فتىً ... فذاكَ يَصْلُحُ للدُّنيا وللدِّينِ

[خاتمة المؤلِّف]

هذا ما يسَّره الله وتفضَّل كرماً منه، وإحساناً بتنسيقه، وحسن ترتيبه وتنميقه، من شرح الحكم الأحمديَّة، والعقود الجوهريَّة، وقد تمَّ والحمد لله هذا الشَّرح اللَّطيف، والتَّعليق الظَّريف، مشيَّدة دعائمه، ومرفوعة قواعده وقوائمه، بيد العناية الإلهية، والمعونة الرَّبَّانيَّة، محفوف الجوانب، مصون الشّأن، ببركة سيِّد الإنس والجان، أبي القاسم حبيب الرَّحمن، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه سادات كلِّ زمان.

وقد حسن تطريز عبائر هذا الشَّرح المنظم بجواهر كلمات صاحب المتن سيِّدنا الغوث المعظَّم، والقطب المقدَّم، صاحب منقبة تقبيل يد النَّبيِّ ﷺ، شيخ المشايخ، ذي الشَّرف الباذخ، والقدم الرَّاسخ، الخاشع الخاضع، والمنكسر والمتواضع، ربِّ الخوارق الباهرة، والمدد الشهير، أبي العلمين، سيِّدنا ومولانا السيِّد الشَّيخ أحمد الرِّفاعي الحسيني الكبير، رضي الله عنه وعن ساداتنا إخوانه أولياء الله أجمعين، وعن تابعيهم ومحبِّيهم إلى يوم الدِّين، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات].

وكان الفراغ من تأليفه، ونسجه ببنان القلم، وتصنيفه في ليلة الإثنين، الخاتمة لشهر ذي الحجَّة المبارك أحد شهور سنة إحدى وثلاثمائة وألف من هجرة من طبعه الله على أكمل خلقٍ ووصفٍ صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم .

تقاريظ

[تقريظ: السيد نعمان خير الدين الآلوسي للكتاب]

هذا ما كتبه تقريظاً على هذا الكتاب المستطاب، الكاشف بشرحه عن وجه الحكم الأحمدية النقاب، جناب الهمام الفاضل، والعالم الرَّشيق الطبع الكامل ، سليل السَّادة الأمجاد الأفاضل، السَّيِّد نعمان خير الدِّين أفندي ، نجل المرحوم مفتي بغداد سابقاً، العلامة الآلوسي، السَّيِّد محمود شهاب الدِّين أفندي، لا زال مع الحقِّ في كلِّ ما يضمر ويبدي :

ألا يــا طالبــاً خيــرَ المســاعي ... ورائــد شــرعة للهــدي ســاعي

إذا مــا شــئتَ أخلاقــاً وعلمــاً ... فــلازم كتــب مولانــا الرِّفــاعي

فإنَّــك قــد تــرى حِكمــاً وهــدياً ... ببرهــانٍ غــدا لله داعــي

وقــد كانــت مثــالَ الــنَّجمِ بُعــداً ... وشــتَّت شــملها بعــد البقــاع

فقــرَّب شــملها جمعــاً وشــرحاً ... كمــا كشــف لنــا حبــر اللفــاع

شــريفٌ لا تطاولــه بــدورٌ ... وشــيخٌ مرشــدٌ فــي الله واعــي

وكــيِّس مهجــة فــي خيــر صــدر ... وصــدرٌ لا يجــارى فــي دفــاع

وذاك أبــو الهــدى والفضــل حقَّــاً ... جليــل مــآثر وطويــل بــاع

فــلا زالــت مناقبــه بصــحف ... وأفــواهٌ لذيــذات السَّــماع

وطــال بقــاؤه فينــا دهــوراً ... ودام معاضــداً للحــقِّ راعــي

[تقريظ: السيد عبد القادر أفندي القدسي للكتاب]

وهذا ما كتبه الجهبذ الجليل، والفاضل النبيل ، ثاني كتاب الحضرة السلطانية، حضرة صاحب العطوفة والأخلاق المرضية، السيد عبد القادر أفندي القدسي المكرم لا زال مظهراً للعزِّ والنِّعم، وهو:

لهجت بمدحك ألسن الشعراء ... وروى ثناءك زمرة الفضلاء

وضجيج أصوات المدائح والثنا ... متجلجلٌ في ساحة الغبراء

تأتي النشائد والقصائد ردفاً ... كقوافل الحجَّاج للبطحاء

تثني عليك ذوو الفهوم بما درت ... ولأنت فوق ثنائهم وثنائي

من أين تدري ما يليق من الثنا ... وظهور فضلك في بطون خفاء

يا نخبَّة الأشراف يا عين الهدى ... يا فجر صبح الليلة الدهماء

أنت الإمام الجد قدوة عصره ... سامي الفخار بنسبة الزهراء

فرد البرية من رجال قد غدوا ... تحت القباب وفوق كل سماء

روح الزمان أبو الهدى وابن الأولى ... السادات أهل البيت والعلياء

سر تهيكل فانبرى بشراً ولـ ... ـكن كان فوق تصور العقلاء

تغذيه روح القدس من نفحاتها ... بموائد العرفان والأنباء

وله الفتوحات التي من فيضها ... سحَّت نصوص الفضل كالأنواء

وقلائد تبدو لنا قد درها ... ملكية بشرية الآراء

وقلادة لمعت كضوء الشمس تفـ ... ـتح حضرة الإطلاق للعرفاء

أبدى بسلسلة النجاح فواضلاً ... قرشية ما نال منها الطائي

ما شاهدت عيناي قبلك فاضلاً ... جليت لديه حقائق الأشياء

لما ورثت الأوصياء بخلقهم ... بهر السناء مدارك النبهاء

ورفعت للبيت الرفاعي راية ... خفقت بثوب كرامة وتقاء

فلراعي العلمين خير خليفة ... في العصر يبدو منك للخلفاء
ولأحمد الصياد خير سلالة ... منك ازدهت في البلدة الشهباء
أحييت علمَ الأوصياءِ ودونهُ ... ما جاءَنا في نسخةِ الأحياءِ
ديوانُ فضلك في المعارفِ آية ... تدريه أهل السبق في البلغاء
وفرائد لك لا يغادر رمزها ... شيئاً من الأسرار للعلماء
وبروح حكمتك الجليلة هاطل ... ضاقت لديه مفاوز الإحصاء
وجميل أفعال وحسن صنايع ... تاج لهام محامد الكرماء
جمعت مزايا فيك أدناها لقد ... جلت عن التجديد باستقراء
علم وحلم والتوكل والرضا ... فضل وجاه زينا بسخاء
تقوى وعرفان وجودة فكرة ... وكرامة وجلالة بـرواء
ونزاهة وبراعة وفصاحة ... وبلاغة وطلاقة بذكاء
وتواضع وتلطف وتودد ... وتعطف وترحم بإخاء
وخصائص معلومة للأصفيا ... خصصتها صرفاً بغير مراء
فليهن أهل الدهر منك بسيد ... ولتفتخر أهل النهى بهناء
وأبقى لنا وأبوك فرد زمانه ... كنز الحقائق مفخر الكبراء
ليث الكتيبة شيخنا المولى الذي ... دانت له الأبطال في الهيجاء
عالي السجايا ذروة الفخر الذي ... ما ناله إلاه في النظراء
دوماً عليَّ الجاه ركن الملتجي ... بمحمَّد وبآله النجباء
وإليكها قدرية قدسية ... جاءت إلى علياك باستحياء
ترجو القبول وترتجي من فضلكم ... عطفاً به أرجو حصول منائي
والله يعلم إنَّني لعبيدكم ... ومناي أنتم وانتهاء رجائي
وسحائب الرضوان تغشى سوحكم ... سحاً بكل صبيحة ومساء

ذيلٌ جميلٌ

[ترجمة المؤلف السيد أبي الهدى الصيادي
للسيد محمد بن عمر الحريري الرفاعي]

ترجمة المؤلِّف، للسيد الحسيب النسيب، فرع الشجرة الطاهرة الرِّفاعيَّة، وسليل السَّادة الأحمديَّة، السَّيِّد الأحمديَّة، السيد الشيخ محمَّد أفندي، نجل العارف المرحوم الشيخ عمر أفندي الحريري الرفاعي، شيخ السجادة الرفاعية بحماه المحمية، قال حفظه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهب الفضل عميم الإحسان، والصَّلاة والسَّلام على رسوله سيِّدنا محمَّدٍ صفوة الخلق سيِّد ولد عدنان الَّذي آتاه الله جوامع الكَلِم، وبعثه بالفرقان، وعلى آله شموش الهداية بدور العرفان، الَّذين جعلهم الله تعالى أماناً لأهل الأرض على ممرِّ الأزمان، وعلى أصحابه نجوم الاقتداء وأسود الميدان، ما تفجَّرت ينابيع الحِكَم على ألسن أهل العرفان، فطاب بشرحها الصدور، وتنوَّر بنورها الجَنَان، ورضي الله تبارك وتعالى عن ساداتنا أولياء الله أهل الذَّوق والصَّفا، المتخلِّقين بأخلاق الرَّسول المصطفى، المقيمين على العهد بالصِّدق والوفا، الَّذين نصَّ على فضلهم القرآن القديم المكنون، بقوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[يونس:٦٢].

هم القومُ مَنْ أصفاهُمُ الوُدُ مخلصاً ... تمسَّكَ من أُخْراه بالسَّبب الأقوى

فبغضهم كفرٌ وحبّهم هدى ... وقربهم خيرٌ وودهم تقوى

أمدَّنا الله تعالى بمددهم في الدُّنيا والآخرة، وعمَّنا والمسلمين من فيوضاتهم الوافرة. آمين.

وبعد:

فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى محمد ابن المرحوم السيِّد عمر الحريري، شيخ السُّجادة الرِّفاعيَّة بحماه المحمية، ابن السيد حسن الحريري الرّفاعيّ غفر الله ذنوبه، وستر بفضله عيوبه، لـمَّا كان من أجلِّ الحِكَم الدِّينيَّة والدُّنيوية، وأكمل النَّصائح الجامعة لكلِّ حالةٍ مرضيَّةٍ، حكم مولانا وسيِّدنا ومفزعنا غوث الثَّقلين، قطب الخافقين، قرَّة عين جدِّه الإمام الحسين، سلطان صدور الولياء، صاحب المآثر الشَّهيرة، والمناقب الخطيرة، أبي العلمين، مولانا السيِّد أحمد الرِّفاعي الكبير ﷺ، فهي حِكَمٌ جليلةٌ ما ظفرت يد الدَّهر بمثالها، ولا نسجت أنامل الزَّمان على منوالها، أبانت لكلِّ إنسانٍ طرق النَّجاح، وأوضحت له كيفيَّة الوقوف عند حدِّ البشريَّة بأجمل إيضاح، وحيث إنَّها جمعت من جوامع الكَلِم ما يدقُّ دركه، ويعزُّ على غير الرَّاسخين فهمه وسبكه، أحبَّ أنْ يشرح مضمراتها، ويحلَّ مشكلات عباراتها، شبله الهمام، وسليله المقدام، وارث أسراره وأحواله ، ومشيِّد آثاره، وناشر كماله، مجدِّد الطَّريقة، وعلم علمي الشَّريعة والحقيقة، صاحب السَّماحة والسِّيادة، السيِّد الشَّيخ محمَّد أبو الهدى أفندي الرِّفاعي الصَّيادي الخالدي؛ ليتَّضح لكلِّ قارئٍ ما أودعه فيها هذا السَّيِّد الجليل من النَّصائح العميمة، والمعاني الرَّقيقة العظيمة، والمسالك الدَّالة على الله، والأخلاق المطلوبة للتَّعامل مع خلق الله، فكساها حفظه الله وحماه خلعة شرح كبردة الصُّبح المنير، أوضح ما تضمَّنته من الرَّقائق، فانجلت مقاصدها لكلِّ بصير، وقد سمَّاه: «قلائد الزَّبرجد على حكم الغوث الشَّريف مولانا الرِّفاعيِّ أحمد».

فهاكه كتاباً خط مداد المسك على صحائف اللجين، وجلى غشية الإشكال عن كلِّ عين، فما أشبه لسان الفرع بالأصل، بل لا فرق بين اللسانين، وهذا القول الفصل، وكم له غير هذا المؤلَّف المبارك من كتبٍ رائقة، وتآليف مفردة فائقة،

سأذكر بعضها مع نزرٍ يسيرٍ من ترجمة حاله، خدمة لجنابه الكريم، وذخيرة عند جدِّه السيِّد السَّند العظيم، على أنَّه شيخي بطريق أسلافنا الطَّاهرين، وواسطة إلحاقي بسلسلة السَّادة الرِّفاعيَّة العارفين رضي الله عنهم أجمعين، وهذا أوان الشُّروع فيما قصدناه من ترجمة السيِّد المشار إليه صبَّ الله تعالى سِجال عنايته ونعمته علينا وعليه.

[اسمه ونسبه]

هو العالم المحقق، والفاضل المدقق، شيخ الطريقة، وكشاف كلِّ حقيقة، فرع الزاوية الهاشمية، ويتيمة قلادة السادة الأحمدية، مجدد طريقة جده أبي العلمين، وناشر أعلام فضله في المغربين والمشرقين، المالك زمام الفضائل والمعالي في كل نادي، صاحب السماحة والسيادة السيد الشيخ محمد أبو الهدى أفندي ، ابن شيخ المقام العالي الصيادي، العارف الكبير، الهمام الشهير السيد الشيخ حسن وادي، ابن السيد علي ، ابن السيد خزام، ابن السيد الشيخ علي الخزام، دفين حيش الولي المقدام، ابن الولي العارف العالم المرشد الكامل السيد الشيخ حسين برهان الدين، ابن السيد عبد العلام، ابن السيد عبد الله شهاب الدين المبارك الزبيدي البصري الرفاعي، ابن السيد محمود الصوفي، ابن السيد محمد برهان، ابن السيد حسن الغواص، ابن السيد الحاج محمد شاه، ابن السيد محمد خزام دفين الموصل، ابن السيد نور الدين، ابن السيد عبد الواحد، ابن السيد محمود الأسمر، ابن السيد حسين العراقي، ابن السيد إبراهيم العربي، ابن السيد محمود، ابن السيد عبد الرحمن شمس الدين ، ابن السيد عبد الله قاسم نجم الدين المبارك، ابن السيد محمد خزام السليم، ابن السيد شمس الدين عبد الكريم، ابن السيد صالح عبد الرزاق، ابن السيد شمس الدين محمد، ابن السيد صدر الدين علي، ابن القطب

الجواد السيد عز الدين أحمد الصياد، ابن السيد ممهد الدولة والدين عبد الرحيم الرفاعي، ابن الإمام ولي الرحمن السيد عثمان، ابن السيد حسن، ابن السيد عسله، ابن السيد الحازم، ابن السيد أحمد، ابن السيد علي مكي، ابن السيد رفاعه، ويقال له الحسن نزيل المغرب، ابن السيد المهدي، ابن السيد أبي القاسم محمد، ابن السيد الحسن، ابن السيد الحسين، ابن السيد أحمد، ابن السيد موسى الثاني، ابن السيد إبراهيم المرتضى، ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام زين العابدين علي الأصغر السجاد، ابن الإمام الهمام علم الإسلام عين أئمة الأعلام، سبط الرسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الذي امتُحِن بأنواع البلاء أمير المؤمنين مولانا أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلا، ابن إمام الأئمة وأمير نحل هذه الأمة سيد الأولياء، وقائد أزمة الأصفياء، أمير المؤمنين مولانا الإمام علي رُزِقَه من زوجته فاطمة سيدة نساء العالمين، بنت سيد المخلوقين، عليه أفضل صلوات رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ولد حفظه الله وحماه سنة ألف ومائتين وست وستين لثلاثة أيام خلت من شهر رمضان المبارك بشيخون من أعمال معرة النعمان، وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم شرع بالكتابة فمهر، وأخذ يتلقى العلوم العقلية والنقلية عن أفاضل الرجال الأعيان فأتقن وأحسن، ثم تشرف بلبس الخرقة والخلافة الرفاعية من يد والده المتقدم ذكره صاحب الأنفاس الزكية، وله إجازتان أيضاً بطريقتهم العلية الرفاعية الصيادية، **الأولى**: من شيخه وابن عمه أحد مشاهير أولياء الله السيد الشيخ علي خير الله الرفاعي الصيادي شيخ المشايخ بحلب الشهباء، لبس منه الخرقة الرفاعية بإذن والده، وأقام عنده بحلب مدة، ولا زال بعدها يتردد لزيارته في أغلب أوقاته، مستمداً فيوضات نفحاته، وصالح دعواته، حتى حاز بحمد الله منه على

تمام رضاه، وآذنه بها لديه ، ففاز به محفوظاً بعناية الله.

والثانية: من حضرة شيخه الأجل الولي الأكمل، غوث زمانه وشيخ أهل عصره وأوانه، طاهر الأنفاس المستأنس بربه المستوحش من الناس، مولانا السيد الشيخ محمد بهاء الدين مهدي الشيوخي الصيادي الرواس، لبس منه الخرقة عام تشريفه بغداد دار السلام، وتمم السلوك على يديه، وأخذ عنه العلوم الشرعية والتصوفية، وحفظ جميع كلامه المنظوم بعد الوقوف على كنوز حقائقه الدرية، ورموز معاني دقائقه الخفية، ولما استوفى سلوكه في الطريقة، وملك زمام الكشف عن مضرات كل حقيقة، آذنه بالرجوع لوطنه ودياره لنشر الطريق المبارك وقال له يوم وداعه:

دخلــت لحاننــا فاشــطح وغنــي ... فأنـــت وحقنـــا عنـــا تنـــوب

فعاد مصحوباً بالسلامة للديار الحلبية، وعمتها بسببه بركة الحضرة الرفاعية، وبعد رجوعه ببرهة يسيرة، خطر دار السعادة مركز الخلافة الإسلامية، فنشر بها علم الطريقة العلية، وانتسب له أفاضل الناس، لعلمهم أنَّ طريقه المبارك قام على أساس من العرفان والشرع وأي أساس، وعاد منها بنقابة أشراف جسر الشغور من أعمال حلب، فانعطفت له الأنظار والقلوب بحسن الطلب، ثم بعد برهة يسيرة ولي نقابة الأشراف بحلب الشهباء، وأطبق على تعظيمه واحترامه بها الفقهاء والفقراء، وفي هذه الأثناء لا زال يخطر اسلامبول المحروسة، ذات الأطلال المأنوسة، ويترقى في المراتب العلمية، ويعظم اشتهاره لدى رجال الدولة العلية، حتى بلغ أمره الخليفة المعظم، مالك رقاب العرب والعجم، ظل الله في العالم، وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبينا وسيدنا محمد ﷺ، ناصر الشريعة الغراء، وناشر ألوية الطريقة السمحاء، خادم الحرمين الشريفين، ملك المشرقين

والمغربين، السلطان ابن السلطان السلطان الغازي عبد الحميد خان، ابن السلطان الغازي عبد المجيد خان، خلد الله خلافته بالتوفيق إلى آخر الدوران، آمين.

فأحضره لديه، وعطف بكليته عليه، وقلده مشيخة المشايخ في دار الخلافة العليَّة، وألحقه إلى رتبة قضاء العسكر التي هي منتهى المراتب العلمية، ومع كلِّ هذا ما برح منعكفاً على خدمة الطَّريق الشَّريف، مشتغلاً - بفضل الله - بإعلاء منار الشَّرع العالي بالتَّصنيف والتأليف، حتَّى ألَّف الكتب الجليلة الكثيرة، والرَّسائل الظَّريفة الوفيرة، وقد حرر أكثرها الطبع، بأحسن شكلٍ وأجمل وضعٍ، وها هي بحمد الله بأيدي المسلمين، ينتفع بها العوام والخواص من الموحدين؛ لأنَّها مشحونةٌ بالأصل الديني المتين، محفوظةٌ مصونةٌ من شبه أرباب الغلوِّ في الدِّين، مرفوعة القواعد على أساس الكتاب والسنة السنية، رافعة أعلام المجد والمفخرة لعامة الملة الإسلامية، ولخاصة الفرقة الزكية الرفاعية، منها:

-كتاب ضوء الشمس في قوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس».

- وقلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر.

- وسلسلة الإسعاد في تاريخ بني الصياد.

- وداعي الرشاد إلى سبيل الاتحاد.

- وهداية الساعي في سلوك طريقة الغوث الرفاعي.

- ورسالة في التواتر .

-والفجر المنير فيما ورد على لسان الغوث الرفاعي الكبير .

-والصباح المنير في ورد شيخ الأولياء السيد أحمد الرفاعي الكبير .

- وديوانه الفيض المحمدي والمدد الأحمدي .

- وكتاب الصراط المستقيم في تفسير: «بسم الله الرحمن الرحيم».

- والحقيقة المحمدية في شأن سيد البرية.
- والمدد النبوي في بيان حكم العهد العلوي.
- وروح الحكمة فيما يجب من الأخلاق على هذه الأمة.
- والمدنية الإسلامية في الحكمة الشرعية .
- وتطبيق حكم الطريقة العلية على أحكام الشريعة النبوية .
- وسياحة القلم في الحكم .
- والواعظ المعرب عن حقيقة المسلم المتأدب .
- والسهم الصائب لكبد من آذى أبا طالب .
- وتاريخ الخلفا وراث النبي المصطفى .
- والكوكب الزاهر في مناقب الغوث عبد القادر .
-والعناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية .
- وديوانه الثاني : الجامع لأشتات درر غرر المعاني .
- وحضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق .
- وقرة العين في مدح الإمام أبي العلمين .
- وطريق الصواب في الصلاة على النبي الأواب .

وغير ذلك من المآثر التي سارت بها الركبان، وملأ شعاع فضلها النواحي والبلدان.

وقد امتدحه البلغاء وأثنى عليه فضلاء الشعراء لِـمَا منَّ الله به عليه من الأخلاق، الشاهدة له بصحة النسب المحمدي وطهارة الأعراق، منها ما قاله الفاضل الكامل أوحد البلغاء الأماثل، الشيخ يوسف أفندي النبهاني بلَّغه الله من الخير أكمل التهاني:

يا ساري البرق بل يا سائق السحب حي المنازل بين البان فالكثب

أنخ هناك مطايا الغيث مثقلة من كل منهمر بالقطر منسكب

وقف على الدار وسط الحي منتسباً لثغر ساكنها وافخر بذا النسب

قرب لها خبري يا برق محتسباً فذاك والله عندي أفضل القرب

واستعمل الرفق في التبليغ إنَّ لها بقصتي طرباً ناهيك من طرب

ما الدار يا برق في المعنى سوى صدف ودرة الخدر فيها منتهى أربي

موَّهت بالدار والمعني ربتها كذكرنا الكأس والقصد ابنة العنب

فاذكر لها عجباً من أمر مدنفها دان على البعد لم يحضر ولم يغب

زفيره من أوار الوجد في صعد ودمعه من مجاري الخد في صبب

عدمت من عذلوني في الهوى سفهاً وحاربوني أو ناديت وا حربي

ولو رأوا ما رأت عيني وكان لهم قلبي ولاموا لكان اللوم أجدر بي

لكـــــن أخـــــالهم خشـــــباً مســـــندة وهــل يــؤثر داعــي الحــب بالخشــب

عاشــوا خليـــين مـــن عشـــق يـــؤرقهم فطــاب عيشـــهم وهمـــاً ولــم يطــب

يــا عــاذلي خــل عــذلي مشــفقاً فلقــد أخطـأت والله فـي عـذلي ولـم تصـب

جســمي بــدار اغترابــي لا يفيــق ولــي قلــب شــجٍ عــن ديــاري غيــر منقلــب

يــا لهــف قلبــي علــى تلــك الــديار ويــا شــوقي إليهــا ويــا وجــدي ويــا وصــبي

علمــــت أنِّـــــي إن لازمـــــت تربتهـــــا لــم أبــرح الــدهر فــي هــم وفــي تــرب

فـــاخترت فرقتهـــا لا عـــن كراهتهـــا ولا غرامـــاً بســـير الأينـــق النجـــب

لكنمـــا الهمـــم العليـــا روت خبـــراً العـــز مـــرتبط بالوجـــد والخبـــب

فكـــان ذاك علينـــا موجبـــاً ســـفراً لــولا الأمــاني لــم ينــدب ولــم يجــب

لــم أنــس مــا وجــدت بالبيــد أينقنــا مــن الــوجى ونفــاد المــاء والعشــب

والركــب فــي ســكرة هزتــه ســورتها لا ســكرة الــراح لكــن ســكرة التعــب

فـــي مهمـــهٍ طـــامس الأعـــلام مشـــتبه سـهل خلـي مـن الحصـباء والحصـب

يــــرى الــــدليل بــــه حربــــاً لنــــاظره لا يســـتغيث بغيـــر الويـــل والحـــرب

والليـــل ملقـــي خيامـــاً مـــن غياهبـــه قامـــت بـــلا عمـــد فيهـــا ولا طنـــب

حتـى إذا احتبكـت فـي الأرض ظلمتـه وأنجـم الأفـق في حجـب مـن السـحب

حرنـــا فلمـــا هتفنـــا باســـم ســـيدنا أبـي الهـدى ضـاء نـور السـبعة الشـهب

محمـــد خلـــف الصـــياد صـــفوته الهاشـــمي الرفـــاعي الفتـــى العربـــي

أبــو الســراج أخــو النــور بــن حيــدرة أجـــل عصـــبة طـــه وابنـــه العصـــبي

الطـاهر النسـب ابـن الطـاهر النسـب ابـن الطـاهر النسـبين الطـاهر النسـب

مجـدد لربـوع الفضـل حـين حكـت نهـــى أعاديـــه مـــن واهٍ ومـــن خـــرب

أنــــى ومــــن كــــل علــــمٍ حــــزن ثاكلــــة فمـــا اســـتراح إلـــى أن قـــال واطربـــي

آراؤه أنجـــم فـــي الخطـــب مشـــرقة وعقلـــه لرحـــى التـــدبير كالقطـــب

تـــرى بصـــيرته الأزمـــان حاضـــرة ... مـــا كـــان مقتربـــاً أو غيـــر مقتـــرب

وتشـــهد الكـــرة الأرضـــية اجتمعـــت ... كأنهـــا وضـــعت للهـــو واللعـــب

يـــا دولـــة اتخـــذت منـــه لهـــا ولـــداً ... يهنيـــك خيـــر أخ يهنيـــك خيـــر أب

يهنيـــك ذو الحـــزم والتـــدبير والأدب ... المطبـوع والنسـب المرفـوع والحسـب

يهنيـــك مـــولى علـــى الأعـــداء فكرتـــه ... أشـد مـن حمـلات الجحفـل اللجـب

عقـل ينـوب عـن الكشـف الجلي ونـدى ... لله مـــا فعلـــت جـــدواه بـــالنوب

أحـرزت يـا دولـة الإسـلام منـه فتـى ... سـاد الـورى وهـو حاشـاه الصـغار صـبي

إنَّ المقـــادير قـــد خطـــت براعتهـــا ... علـــى محيـــاه هـــذا ســـيد العـــرب

مـــن معشـــر أرفـــع الأشـــياخ منزلـــة ... أمـــام طفلهـــم يجثـــو علـــى الركـــب

صـــيد صـــناديد أشـــراف جهابـــذة ... نجـب جحاجحـة مـن سـادة نجـب

آل الرســـول خيـــار النـــاس قاطبـــة ... خلاصـة الخلـق طـراً نخبـة النخـب

لــو نبــأ الله بعــد المصــطفى أحــداً ... لكــان مــنهم لعمــر الله ألــف نبــي

شرف وعظم ومجد ما استطعت ولا ... تطلــب لبكــر القــوافي غيــر مطلبــي

وإن حظيــت بحبــر مــن أئمــتهم ... فامدحــه محتســباً أو غيــر محتســب

وخــص مــنهم فتــى الفتيــان ســيدهم ... شــيخ المشــايخ كهــل الفضــل والأدب

أبــا الهــدى مــن إذا يممــت ســاحته ... أتــاك معروفــه عفــواً بــلا ســبب

هــذي الأقــاليم فاطلــب مــن يماثلــه ... فيهــا نــدى واحــتكم إن فــزت بالطلــب

شــبه بــه البحــر إن البحــر يشــبهه ... لكنــه العــذب مــأمون مــن العطــب

وانســب إليــه جميــع المكرمــات ولا ... تنســب إليــه ادخــار المــال والنشــب

يــرى رؤوس اليتــامى إذ يقبلهــا ... أشــهى لــه مــن خــدود الخــرد العــرب

أمــا العفــاة فلــو شــاهدت قــربهم ... منــه لحققــتهم مــن أقــرب النســب

أرضــاه أنَّ جيــوش الحمــد هاجمــة ... عليــه والمــال مــن كفيــه فــي هــرب

للجمع بين الدجا والصبح في قرن ... أدنى من الجمع بين الحمد والذهب

شكراً لما نلته من صفو نعمته ... الحب والقرب والترتيب والرتب

كم كربة أثقلت ظهري ففرجها ... بهمة سميت فراجة الكرب

وكم أيادٍ له عندي مؤيدة ... لها دليلان من لحمي ومن عصبي

مدحته عاجزاً عن درك غايته ... مع انتخابي القوافي خير منتخب

وليس في العجز عن إدراكها عجب ... صفاته حصرها من أعجب العجب

يجوز صدقي وكذبي في سواه وإن ... أمدحه يوماً فمعصوم من الكذب

أبا السراج وأنت المصقع اللسن الـ ... شهم البليغ إمام النظم والخطب

خذ مدحة من لباب الشعر لو تليت ... في منتهى الشرق كان الغرب في طرب

أقسمت لهي على الأعداء لو فهموا

أشد وقعاً من الهندية القضب

ودونك العيد فاستبشر بزورته

أنالك الله فيه منتهى الأرب

وغير ذلك ممَّا لا يعدُّ ولا يحدُّ، وقد أفرد لترجمته ومدائحه جماعة من أتباعه ومحبِّيه كتباً، منها:

كتاب «قطر الندى في مدايح الأستاذ أبي الهدى»، للعالم الفاضل والأريب الكامل، خليفته صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد أفندي الخردجي الدمشقي - لا زال بعرفانه يرقى المعالي ويرقى - فهو كتاب نفيس، تزري حواشيه بأجنحة الطواويس، شيدت مبانيه، ورقت معانيه، جمع فيه أكثر ما قاله بشيخه مولانا المشار إليه رجال العصر الأفاضل، وتتبع فيه أكثر ما منَّ الله به على المترجم من المحامد والخصائل، وإنِّي تتبَّعت إثر مادحيه لكوني - بفضل الله - من عشيرته وخلفائه ومحبيه، فمدحته بتخميس هذه القصيدة الرقيقة الأصل، الجميلة الشكل، التي نظم عقود أصلها شيخ المحدثين بالعراق، المجمع على فضله بالاتفاق، الشيخ السيد داود أفندي الخالدي، وها هي خاتمة للترجمة المذكورة، وقلادة جوهرية على ذيل محامده المشهورة:

إنَّ شيخي أبا الهدى لحسام سله الله والرسول الإمام

فهو بالله واثق خصام رجل لا تريعه الأيام

وله عند كرها إقدام

طود حلم من الزلازل ما ارتج وصبور على البلا قط ما لج

ببيت عز كل الكمال له حج وإمام قامت به دولة المجـ

ـد بطور به تباهى الإمام

قرشي مهذب علوي هاشمي مقرب أريحي

علم مفرد تقي نقي ونسيب وسيد أحمدي

خالدي شهم كريم همام

مرشد العصر بالجلال توشح وعن الرشد والهداية أوضح

عارف عرب العلوم فأفصح كم له في الورىٰ لعمرك من أحـ

ـوال فضل حارت بها الأفهام

ومعال فوق السهىٰ ثابتات وجياد تحت النهىٰ صافنات

كم أرتنا في السبق من آيات ولكم من مكارم بينات

شهدت في علوها الأيام

وأياد جزيلة وهبات تتوالىٰ كأبحر زاخرات

وسمات عن أصله باسمات ولكم من عزائم صارمات

عقدها لا يحله الإبرام

ولكم من مآثر طيبات وصلات منه لنا واصلات

وفعال عن حكمة صادرات ولكم من مناقب باهرات

دون مرقىٰ سنامها الأوهام

ماجد حاز همة إن تزنها بعظيم الجبال ينحط عنها

كم فقير نال الغنىٰ من لدنها ولكم من مواهب رد منها

عارض المزن وانقضىٰ الانسجام

بهداه أحيا القلوب وأنعش وبساط المنىٰ لراجيه يفرش

وهو في دولة إذا الخطب أدهش أسد من عصابة كللتها الشـ

ـهب في ضوئها وصح النظام

جل بين الأنام أمراً ونهياً وبفعل الخيرات أحسن سعيا

ألمعي به الفضائل تحيا وفتىٰ من عشيرة عرش عَلْيَا

هُم رفيعٌ وعبدهم لا يضام

ضيفه يستقر في خير منزل وصروف الزمان عنه بمعزل

سيد ملجأ لكل مؤمل وكريم به تفاخر في سلـ

ـك التدلي أهل كرام عظام

عارف قد أتىٰ بأوثق حزم كان من بعضه علوم ابن حزم

ضيغم لم يزل بصحة جزم يقرع الحادث المهم بعزم

حيدري في طيه إقدام

وهو ما زال للبرية غوثا من يديه يستمطر الجود غيثا

وذراع دعا الأعادي حوثا وتراه في حومة الحرب ليثا

بارزاً ما التوت له أقدام

لعروس الكمال أصبح بعلا ولها دون غيره كان أهلا

فيصل لا يزال قولاً وفعلا بالغاً من مراتب العز أعلى

رتبة في أساسها الأحكام

ذكرها يطرب النفوس ويرقص فعليها يا دهر حافظ أو احرص

يا لها رتبة إلىٰ خير مخلص نظمتها من الشريعة أيدي الصـ

ـدق واستحكمت بها الأحكام

صبح هدي عن الهداية أسفر وبه باطن المريد تنور

علم عيلم همام غضنفر كيف لا وهو صاحب القدم الفَرْ

دِ الرفاعي أبو الهدىٰ المقدام

كم بنشر العلوم أحسن صنعا وأفاد العموم خيراً ونفعا

هاشمي قد طاب أصلاً وفرعا من حسين بقية النسب العا

لي المباني وعضبه الصمصام

ذو يراع جواده ليس يسقط في مداه ولا بعشواء يخبط

وبما شاء لا يريد التوسط وارث المرتضىٰ وقرة عين الط

ـهر والغوث إن عدا الأخصام

تاج هام العلا وجوهر نصل أحمدي نضته أشرف أهل
عين آل الصياد أطيب نسل شبل أهل العبا ذوآبة أصل
بعلاهم تشيد الإسلام
بحلىٰ رفده العفاة تحلوا وبوجه السرور منه تملوا
حاتمي ما قال ليت ولا لو وابن آل فيهم أضاء سما الكو
ن بهدي وزيح عنه الظلام
كوكب في ذرىٰ العلا يتوقد وعلىٰ فضله الخناصر تعقد
وهو للسالكين أعظم فرقد وسليل الغوث الرفاعي من قد
رفعت عزة له الأعلام
لذ بأعتابه الشريفة وادخل لحماه وارو المحامد وانقل
وبأفعاله وأقواله قل أعظم الأولياء قدراً وشيخ الـ
ـكل إن شد في الخطوب حزام
من يساويه سؤدداً وفخاراً وعلواً ورفعة واقتدارا
أي غوث سواه كان نهاراً لاثماً راحة الرسول جهارا
بعد عصر والأربعون قيام
فبروحي دون الورىٰ أفديه من ولي بنىٰ جدار بنيه
فهو في الأوليا وحق أبيه كنز سر تطلسم البأس فيه
وثوىٰ في وحيده الضرغام
ما سواه يوم الشدائد يرجىٰ بعد طه الرسول حصناً وملجا
كم وقعنا بالمهلكات فأنجىٰ ولنا بابنه أبي الهدىٰ للجَا
هِلِ ذاك الدليل والإلزام
حجة القوم شيخهم في الأنام مرشد الوقت بهجة الأيام
قطبه الهاشمي شبل ضرام فرخه حافظ الوراثة حامي
ركنها أن تجز حماه اللئام

لمريديه في الحقيقة منجد   ولهم في منازل القرب مسعد

ومن الكشف حين فاز بمقصد   أخمرته من السراج سراج الد

ين كأس مدامه الإلهام

فتراءىٰ في عالم النشر والطي   فجر صدق يمحو الضلالة والغي

وتبدىٰ في هيكل مفرد الزي   وعليه من مجد سيدنا الصيـ

ـاد درع طرازه الاحترام

بشذا رشده الزمان تعطر   فروىٰ للأنام عنه وأخبر

وبدا ينجلي بأحسن مظهر   وله نسبة حسينية الطر

ز جلاها شيخ العراق خزام

آل بيت مقدس قد كساهم   خلع المجد ربهم واصطفاهم

وهداهم بفضله واجتباهم   رضي الله عنهم وحباهم

صولة ينجلي عليها الدوام

ومقاماً من الكواكب أعلىٰ   واحتراماً بين الأنام وفضلا

وحماهم من كل ماساء فعلا   وعليهم أزكىٰ التحيات من الله

تعالىٰ مدىٰ المدىٰ والسلام

محتوى الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾	١٨٠	٢٤٠
﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾	١٨٦	١٧٠

سورة النساء

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾	٢٨	٢١١
﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾	٤٥	٢٤٦ - ٢٦٥ - ٣٠٥ - ٣٣٣ - ٣٤٠
﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾	٤٥	٢٤٨ - ٣٣٣
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾	٤٨	٢١٦ - ٢١٧
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾	٥٨	٤٥
﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾	٥٩	١٢٧ - ٣١٣
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾...	٦٥	١٢٥
﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾	٧٠	١٠٩
﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾	٧٨	٣٢١
﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾	٧٨	٢٦٠ - ٢٦٢
﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾	٨٠	١٩٤
﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾	٩٣	٥٩
﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾	١١٥	٥٦ - ١٢٣ - ١٢٩ - ٢٢٧

سورة المائدة

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾	٢	٤٣
﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾	٥٤	١٨٢
﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾	٦٧	١٠٨
﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾	١١٩	٢٨٦ - ٣٠٠

فهرس الأحاديث الشريفة

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(ي)

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

- الأحاديث المختارة، للضياء المقدسي، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة.
- الأذكار ، للإمام النووي ، تحقيق د. محيي الدين مستو، دار ابن كثير.
- إرشاد المسلمين لطريقة شيخ المتقين، للشيخ عز الدين أحمد الفاروثي.
- الأسماء والصفات ، للبيهقي ،تحقيق عبد الله بن عامر، دار الحديث - القاهرة.
- الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر.
- الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ، بيروت.
- الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية، للإمام الشعراني، تحقيق رشاد الخطيب، دار التقوى.
- الإيضاح في علوم الحديث ولاصطلاح، تأليف : أ.د مصطفى الخن، و د. بديع اللحام، دار الكلم الطيب - بيروت.
- البرهان المؤيد، للإمام أحمد الرفاعي الكبير، تحقيق عبد الغني نكه مي، دار الكتاب النفيس.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- تاريخ دمشق، لابن عساكر ، دار الفكر - بيروت.
- تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، للباجوري، تحقيق عبد السلام شنار، دار البيروتي.
- تدريب الراوي، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد الشبراوي، دار الحديث - القاهرة.
- الترغيب والترهيب، للحافظ المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ترياق المحبين في طبقات المشايخ العارفين ، للحافظ تقي الدين عبد الرحمن الواسطي.
- التعريفات للجرجاني، تحقيق عادل أنور خضر ، دار المعرفة - بيروت.

- تغليق التعليق، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق سعيد القزقي، المكتب الإسلامي - بيروت ، عمان.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، للإمام الفخر الرازي.
- تفسير الكشاف، للزمخشري، تحقيق ، خليل مأمون شيحا ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- تقريب التهذيب، للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، مؤسسة الرسالة.
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة، لابن عراق، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية - بيروت.
- تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار ، للسيد محمد أبي الهدى الصيادي.
- التواضع والخمول ، لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- جامع كرمات الأولياء، للشيخ النبهاني، المكتبة العصرية - بيروت.
- جلاء الصدى في سيرة إمام الهدى، للشيخ أحمد بن جلال اللاري المصري الحنفي.
- الجواهر والدرر، للإمام الشعراني، المكتبة الزهرية للتراث.
- حضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق ، للسيد أبي الهدى الصيادي.
- الحكم الرفاعية ، عناية محمد بدر الدين، دار التقوى.
- الحكم الرفاعية، تحقيق، عبد الغني نكه مي ، دار الكتاب النفيس.
- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، للبيطار.
- داعي الرشاد إلى سبيل الاتحاد ، للسيد أبي الهدى الصيادي.
- درر الغواص، للإمام الشعراني، المكتبة الزهرية للتراث.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر العسقلاني
- ديوان الفيض المحمدي والمدد الأحمدي، للسيد محمد أبي الهدى الصيادي ، مطبعة الجوائب - قسطنطينية.
- ديوان مشكاة اليقين ، للإمام الرواس، توزيع دار الفكر.
- روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين، للإمام أحمد بن محمد الوتري ، المطبعة الخيرية - مصر.

- الزهد الكبير، للبيهقي ، تحقيق عامر حيدر ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الزهد، للإمام أحمد ، تحقيق أيمن شعبان، المكتب الثقافي - القاهرة.
- زوائد الهيثمي على مسند الحارث، للحافظ نور الدين الهيثمي، تحقيق د. حسين الباكري، مركز خدمة السنة - المدينة المنورة.
- سماع وشراب عند أشرف الأقطاب (الشرف المحتم للسيوطي، وإجابة الداعي للبرزنجي، وسواد العينين، للرافعي، وأشرف الأقطاب للسيد الرواس) جمع وتحقيق الشيخ عبد الحكيم عبد الباسط.
- سنن ابن ماجه ، للحافظ محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر. بيروت.
- سنن أبو داود، للحافظ سليمان بن الأشعث، تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر.
- سنن البيهقي الكبرى ، للحافظ أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة.
- سنن الترمذي (الجامع)، للحافظ محمد بن عيسى الترمذي السلمي ، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث - بيروت.
- سنن الكبرى، للإمام النسائي، تحقيق د. عبد الغفار البنداري، دار الكتب العلمية - بيروت.
- السنن الكبرى، للحافظ أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق د. عبد الغفار البنداري ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- سنن النسائي (المجتبى) ، للحافظ أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غده ، مكتب المطبوعات - حلب.
- سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبي ، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة.
- شرح صحيح مسلم (المنهاج) للإمام النووي ، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة - بيروت.

- شعب الإيمان، للبيهقي،تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، تحقيق عبده علي كوشك، مكتبة الغزالي - دمشق.
- صحاح الأخبار في نسب الفاطمية الأخيار ، للسيد عبد الله محمد سراج الدين الرفاعي المخزومي.
- الصحاح في اللغة، للجوهري
- صحيح ابن حبان ، للحافظ محمد بن حبان التميمي البستي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- صحيح ابن خزيمة ، للحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة ، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي بيروت.
- صحيح الإمام البخاري تحقيق خليل شيحا ، دار المعرفة - بيروت.
- صحيح الإمام مسلم، دار الفيحاء - دمشق.
- صفة الصفوة ، لابي الفرج الجوزي ، تحقيق الشحات الطحان، دار المنار - مصر.
- الضعفاء، للعقيلي ، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ضوء الشمس، للسيد أبي الهدى الصيادي ، تحقيق الشيخ محمد سليم حمامي.
- ضوابط المعرفة، للشيخ عبد الرحمن حبنكه، دار القلم - دمشق.
- طبقات الأولياء ، لابن الملقن.
- طبقات الحفاظ ، للإمام السيوطي.
- طبقات الشاذلية الكبرى (جامع الكرمات العلية في طبقات السادة الشاذلية)، للشيخ الحسن بن محمد الفاسي المغربي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى ، للإمام السبكي.
- طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة.
- طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي.
- العظمة، لأبي الشيخ، تحقيق رضاء الله المباركفوري، دار العاصمة - الرياض.
- العقل وفضله، لابن أبي الدنيا، تحقيق لطفي الصغير، دار الراية - الرياض.

- علوم الحديث، لابن الصلاح تحقيق أ.د. نور الدين عتر.
- العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية، للسيد أبي الهدى الصيادي، تحقيق أحمد جحا.
- غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري.د
- فتح المغيث، للحافظ السخاوي، تحقيق الشيخ صلاح عويضة، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الفتوحات المكية ، للشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي.
- الفردوس بمأثور الخطاب، للديلمي، تحقيق السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الفرقان الدامغ بالحق أباطيل أهل البهتان، للسيد أبي الهدى الصيادي، مطبعة الهلال - مصر.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للحافظ عبد الرؤوف المناوي، مكتبة مصر .
- قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الكابر ، للسيد أبي الهدى الصيادي.
- الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق يحيى غزاوي، دار الفكر - بيروت.
- كبرى اليقينيات الكونية، تاليف أ. د محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر.
- كشف الخفاء، للعجلوني، تحقيق يوسف الحاج أحمد، مكتبة العلم الحديث.
- كشف الظنون، لحاجي خليفة، تحقيق كمال الحوت، دار الكتب العلمية- بيروت.
- الكفاية في علم الرواية، للخطيب،تحقيق أبو عبد الله السورقي، المكتبة العلمية - المدينة المنورة.
- كنز العمال، للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (طبقات المناوي الكبرى)، للحافظ عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. عبد الحميد حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر - بيروت.
- لطائف المنن والأخلاق، للإمام الشعراني، تحقيق أحمد عزو عناية، دار التقوى.
- لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (الطبقات الكبرى)، للإمام عبد الوهاب الشعراني، تحقيق سليمان صالح، دار المعرفة - بيروت.

- مجمع الزوائد، للحافظ نور الدين علي الهيثمي.
- مختصر ابن الدبيثي، للحافظ الذهبي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- مسند أبي حنيفة، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق نظر الفاريابي، دار الكوثر - الرياض.
- مسند الإمام أبي يعلى أحمد بن علي الموصلي، تحقيق إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة - مصر.
- مسند البزار، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن - بيروت.
- مسند الشهاب، للقضاعي، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- مشاهير علماء الإسلام، لأبي حاتم البستي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- مصباح الزجاجة، للشيخ أحمد الكناني البوصيري، تحقيق محمد الكشناوي، دار العربية - بيروت.
- المصنف، لابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشيد - الرياض.
- المصنف، لعبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت.
- المعجم الأوسط، للحافظ سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق الحسيني، دار الحرمين - القاهرة.
- المعجم الصغير، للحافظ سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمد شكور أمرير، المكتب الإسلامي - بيروت، عمان.
- المعجم الكبير، للحافظ سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل.
- معجم المطبوعات العربية، ليوسف اليان سركيس.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، تحقيق مأمون شيحا، دار المعرفة - بيروت.

- منهج النقد في علوم الحديث تأليف أ. د. نور الدين العتر، دار الفكر.
- نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية، لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، تحقيق الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان، للحافظ السيوطي.
- النفحة المسكية في السلالة الرفاعية الزكية، للحافظ عز الدين الفاروثي، طبع في الأستانة سنة ١٣٠١ هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، عناية رائد بن صبري، بيت الأفكار الدولية.
- نوادر الأصول، للحكيم الترمذي ، تحقيق عبد الحميد الدرويش، دار يعرب للدراسات.
- نور الإنصاف في كشف ظلمة الخلاف ن للسيد أبي الهدى الصيادي ، تحقيق الشيخ عبد الحكيم عبد الباسط.
- وسيلة العارفين في أخبار سيدنا القطب الجامع بهاء الدين، تحقيق الشيخ محمود الدره.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر - بيروت.

فهرس الموضوعات

